

حكومة البلاغة

اسم الكتاب: حكومة البلاغة

اسم الكاتب: خضر محجز

طبعة خاصة

النوع: نقد أدبي

عدد الصفحات: 438

الورق: 17.6 × 25

الغلاف من: حذيفة خضر محجز

الناشر: عطية للنشر والتوزيع

مكان الإصدار: غزة

تاريخ الإصدار: أكتوبر 2013

خضر محجز

## حكومة البلاغة

البنية الثقافية في كتابات إميل حبيبي

دراسة في النقد الثقافي

المثقفون هم أقدر الناس على الخيانة لأنهم أقدر الناس على تبريرها

لينين

## الإهداء

إلى كل من عشق الحقيقة

ودفع ثمن عشقه المستحيل



## تنويه

هذه طبعة أخرى من كتاب كانت قد أصدرته دار قدمس في بيروت ودمشق مشكورة في العام 2006 بعنوان: "إميل حبيبي: الوهم والحقيقة". وهو في الأصل رسالة دكتوراه قُدمت لمعهد البحوث والدراسات العربية، المنبثق من جامعة الدول العربية، بعنوان: "البنية الثقافية في كتابات إميل حبيبي"؛ بإشراف الأستاذ الدكتور: صلاح فضل. وقد تمت مناقشة الرسالة في جلسة علنية، بمقر المعهد بالقاهرة، في السادس من يونيو لعام 2006، بمشاركة هيئة المناقشة المكونة من: الأستاذ الدكتور صلاح فضل رئيساً، وعضوية كل من الأستاذ الدكتور: محمد عبد المطلب، والأستاذ الدكتور: يوسف نوفل.

هذا وقد نالت الرسالة في حينها درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى. كما أوصت اللجنة - في قرارها - بطباعة الرسالة وتعميمها للتداول في كافة الجامعات العربية.

والمؤلف إذ يقدم للقارئ العربي هذا الكتاب، ليود التأكيد على أنه لم يتم إجراء أي تعديل على هذه الرسالة العلمية، بعد إتمام مناقشتها وإقرارها من قبل هذه الهيئة العلمية البارزة، بل إنه قد قام بدفعها إلى دار النشر، كما هي وعلى الصورة التي تمت عليها مناقشتها في المعهد.





## المقدمة وخطة البحث

أولاً: في سؤال البحث: كيف، ولماذا؟:

يحيل هذا العنوان: البنية الثقافية في كتابات إميل حبيبي، إلى ثلاثة أسئلة هي:

- 1- لماذا إميل حبيبي بالذات؟.
- 2- وما هي البنية الثقافية التي يتوجه إليها هذا العنوان؟.
- 3- وما هو المنهج المتبع، وآلية البحث فيه؟.

### 1- لماذا؟:

لماذا إميل حبيبي بالذات؟. لأن حبيبي كاتب فلسطيني؛ ومن الطبيعي أن يختار الباحث الفلسطيني كاتباً من وطنه؟.

لا أعتقد أن السبب هو هذا؛ خصوصاً وقد سبق أن اخترت، لدراسة الماجستير، روائياً عربياً من غير فلسطين، هو المرحوم عبد الرحمن منيف..

إذن فهل كان سبب هذا الخيار الجديد، ما أثاره إميل حبيبي، من زوبعة، عندما تسلم جائزة الإبداع الإسرائيلية، من يد رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير، في عز الانتفاضة الأولى؟.

ربما يمكن القول بأن تلك الحادثة لم تكن إلا الإرهاصات الأولى، لبداية الانشغال بما وراء نص حبيبي الإبداعي؛ لكن لا يمكن إرجاع كل العوامل إليه؛ فقد حدثت هذه الحادثة عام 1992، وأنا في سجون الاحتلال، وقيل أن أخطط لدراسة الماجستير، بعيداً عن إميل، الذي وإن كان قد شغل الوسط الثقافي العربي؛ أخذاً ورداً، إلا أنني لم ألتفت إلى كل ذلك، في حينه.

لقد أرجعت، بعد ذلك، انصرافي عن الالتفات إلى خطورة تسلّم إميل الجائزة الإسرائيلية، إلى انحيازي له، رغم كل شيء. ولا جرم؛ فقد كنت مفتوناً برأئته (المتشائل)، إلى الدرجة التي أعمتني عن النظر، فيما وراء هذا النص الجمالي من علاقات خارجية.

لكنني أعترف الآن، بأن جرثومة الاهتمام، بهذه العلاقات الخارجية، قد بدأت تتسلل إلى دمي، بطريقة خفية وفاعلة، لم أشعر بخطورتها إلا متأخراً: فالمرض كان في مراحله الأولى فقط.

ثم كان عام 1995، وقدوم السلطة الوطنية، إلى ما أتيج لها من فلسطين. حيث بدأ إميل حبيبي يكثر من زيارته لرئيس السلطة، المرحوم ياسر عرفات. واستخلص منه دعماً لمجلته، التي سوف يصدرها بعد ذلك بعنوان (مشارف). ومحاوراته المتكاثرة والمستمرة، مع الفلسطينيين المشتغلين بالشأن الثقافي، حول ضرورة تطبيع العلاقات الثقافية، مع الكتاب والأدباء الصهاينة.

ورغم أن الموقف المعلن، لأغلب هؤلاء، كان هو رفض هذا المشروع الحبيبي الجديد، إلا أن عدداً منهم أحب هذه الدعوة، وتساوق معها، وتشيع لصاحبها؛ الأمر الذي كان بداية انزياح المصطلح السياسي (الطرف الآخر) إلى الحقل الثقافي الفلسطيني، بما يحمله هذا المصطلح، من دلالات حولت الاحتلال إلى مجرد وجهة نظر، يمكن الحوار معها،

والاجتماع بها، وإنشاء المشاريع الاقتصادية بمشاركتها، ريثما يتم التحرير، في وقت لاحق.

ولقد كان من اللافت، لكل مراقب، أنه لم يصدر - حتى تاريخ كتابة هذه السطور - بيان، عن أي مؤسسة ثقافية في فلسطين، برفض التطبيع، في الوقت الذي كانت فيه كل الجبهات الثقافية العربية ساخنة في مواجهته، وحاسمة في رفضه.

في هذا الوقت؛ وفي هذه الظروف؛ نشأت (مشارف)، بسمت خاص، وتوجه واضح نحو التطبيع. وصرنا نقرأ فيها مقالات لكاتب إسرائيلي فلسطينيين؛ جنباً إلى جنب. وعندما توجه القارئون على المجلة إليّ بطلب قول رأيي في (الآخر)، لنشره في (مشارف)، وجدتني فرصة لأكتب، وسط هذا الخضم من النيران، لأقول كلمتي، وأجري على الله. وبالفعل نشرت فيها جزءاً من مونولوج داخلي، اقتطعته من روايتي الأولى (قفص لكل الطيور)، التي لم تكن قد نُشرت في حينه. ونُشر الموضوع. وبدا واضحاً أن كاتبه شخص لا يمتّ بصلة إلى كتاب المجلة.

من هنا يمكن القول بأن دودة البحث قد بدأت الآن تتخر عقلي، وصرت أتساءل كثيراً، أمام معارف إميل حبيبي، عن هذا الذي يأخذ جائزتين متعارضتين - في آن واحد - ثم يصلح بينهما. وعند هذا الحد، بدا من الطبيعي لي، أن أبحث عن أحد الذين ساهموا في منح الجائزة الأولى، لإميل حبيبي: جائزة القدس لعام 1990.

وكان الرجل عندي حاضراً، ولا يحتاج إلى كثير بحث؛ فهو الشاعر المعروف أحمد دحبور، الذي كان يشغل منصب مدير عام دائرة الثقافة، بمنظمة التحرير الفلسطينية، والمقرب من رئيس الدائرة السيد عبد الله الحوراني. وسألته عما يعرف عن إميل حبيبي. وصارحته بهواجسي حول الرجل. بل ذهبت إلى القول بأنني أرى تشابهاً واضحاً، بين متشائل إميل حبيبي (المتعاون مع العدو) وإميل ذاته. ووجدت عند الرجل كثيراً مما يقال،

لافتاً نظري إلى آراء إميل في (حق تقرير المصير لليهود في فلسطين)، وما سمعه عن اشتراكه في جلب السلاح لإسرائيل، من أوروبا الشرقية، في عزّ حرب 1948...

وهنا - أعترف - كانت الصاعقة. وعرفت أنني، منذ الآن، قد بدأت أهتم بإميل: شخصاً ونصاً وسياسياً.

وهكذا عدت إلى قراءة إميل حبيبي، مرة أخرى، ومن منظور مختلف: أعدت قراءة (المتشائل)، وكل إنتاجاته الأدبية الأخرى، وما تيسر لي من إنتاجاته السياسية. وبدأت أرى فيها ما لم أكن مستطیعاً رؤيته من قبل؛ لا على مستوى البنية الثقافية فحسب؛ بل كذلك على مستوى البنية السرديّة، التي بدأت أكتشف أنها بنية واحدة متكررة، وتعيد إنتاج نفسها دائماً، في نصوص إميل حبيبي السياسيّة منها والإبداعية<sup>(1)</sup>.

وقد شجعتني على الإعلان عن هذا الاكتشاف، ملاحظتي المبكرة بأن صاحب هذه النصوص، يكاد لا يكتب - خصوصاً في المجال الإبداعي - إلا عن نفسه<sup>(2)</sup>.

## 2- في البنية الثقافية:

ثم يأتي الآن دور السؤال الثاني من أسئلة العنوان: ما هي البنية الثقافية التي يتوجه إليها هذا العنوان؟. وهذا السؤال بدوره، يحيل إلى مصطلحين: البنية والثقافة. فما هما؟.

---

<sup>1</sup> - وقعت بعد ذلك فقط على ما قاله كريم مروّة: "كتابات إميل حبيبي السياسيّة والأدبية والفكرية متجاوزة متداخلة فيما بينها. وتكاد لا ترى فرقاً بين ما تقرؤه في (الوقائع الغريبة...) وما تقرؤه في (خطية) و(لجع بن لجع)، وبين ما تقرؤه في مقالاته السياسيّة الساخرة". الطريق. العدد3. السنة55. ص140

<sup>2</sup> - ولقد سبق أن انتبه نبيه القاسم - وهو أحد النقاد الملاحظين لإميل حبيبي - إلى ذلك، فقال عنه: "فقد كتب سيرة حياته النضالية في معترك السياسة بأول عمليّن له: المتشائل ولجع بن لجع. وكتب سيرة حياته الذاتية الخاصة في آخر عمليّن: خطية وخزافية سرايا بنت الغول. ولم يعد في مخزونه ما يقدمه من جديد". مرادة النص. ص97

## 2- أ: في البنية:

ورد في تعريف البنية، ما يلي:

"هي شبكة العلاقات التي تتولد من العناصر المختلفة للكل، بالإضافة إلى علاقة كل عنصر بالكل"<sup>(1)</sup>.

وإذا كان هذا التعريف في حاجة إلى بعض التفكيك، لشرح معناه، فإن لنا أن نلجأ إلى أحد كبار المهتمين العرب، بشرح المنهج البنيوي، وتقريبه إلى الدارسين، وهو الدكتور صلاح فضل، إذ يقدم لنا تبسيطاً لتعريف البنية، عن طريق تحليل آلية عملها، فيقول:

"إن البنية: هي ما يكشف عنها التحليل الداخلي لكل ما؛ والعلاقات والعناصر القائمة بينها؛ ووضعها؛ والنظام الذي تتخذه. ويكشف هذا التحليل عن كل من العلاقات الجوهرية والثانوية؛ معتبراً أن النوع الأول هو الذي يكون البنية: التي تعد هيكل الشيء الأساسي، أو التصميم الذي أقيم طبقاً له؛ والذي يمكن الوصول إليه واكتشافه في أشياء أخرى شبيهة. أي أننا نرى، منذ البداية، ظهور فكرة المقارنة للتعرف على البنية، لأن البنية تنتج الفرصة لمقارنة الأشياء المتعددة في الواقع"<sup>(2)</sup>.

ولعل من الممكن الفهم، من هذا النص، أن البنية هي: أمر متعلق بطريقة ترتيب المكونات في البناء: أي أنها العنصر الجوهرية الناظم للشكل. فكما أن لكل شيء شكلاً، يرتبط بمحتواه - بطريقة أو بأخرى - فإن لكل شكل عنصراً ناظماً، يحكم طريقة ترتيب محتوياته، ويظهرها على الصورة النهائية التي تبدو عليها.

<sup>1</sup> - جيرالد برنس. المصطلح السردي. ص 224

<sup>2</sup> - د. صلاح فضل. نظرية البنائية في النقد الأدبي. ص 121

## 2- ب: في الثقافة:

وإذا كان تعريف البنية، بهذا الشكل، مقدوراً على تحديده، كما رأينا؛ فإن مصطلح (ثقافة)، يحيل إلى تعريفات لا حصر لها، "دون أن يتحقق اتفاق حولها بين الباحثين. يكفي القول إن هناك اتجاهين، في تلك التعريفات، يتنافسان على التفوق: أحدهما ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية، والرموز والأيديولوجيات، وما شاكلها من المنتجات العقلية. أما الاتجاه الآخر فيرى الثقافة على أنها تشير إلى النمط الكلي لحياة شعبٍ ما، والعلاقات الشخصية بين أفرادها، وكذلك توجهاتهم"<sup>(1)</sup>.

ولعل محاولتنا تفكيك علاقات الاختلاف هذه، بين الاتجاهين المذكورين، تهدينا إلى حقيقة وجود رابط خفي - ولكنه عميق - بين كل من الحلم الوجداني والفكر العقلاني، في المجتمعات البشرية المتحضرة. فالمجتمعات لا تنظر فقط إلى إمكانياتها؛ ولكنها - بالإضافة إلى ذلك - تحلم بما ستكون عليه، أو بما تستحقه، أو بما كانت عليه وتعتر به، كما تحلم بتصوراتها الخاصة عن علاقتها بالكون المحيط - الطبيعة والبشر - وعالم الغيب الذي تتجه إليه في لحظات معينة... وتصورات كثيرة ومتعددة، تدخل في صلب تصوراتها عن نفسها، وتدخل في تشكيل هويتها الخاصة.

وإنه لمن المهم لنا محاولة معرفة كيف نصاب هذه الأحلام، ونفهمها، خاصة ونحن نعلم أن نفيها كان، دائماً، هو حلم كل الإمبراطوريات الكليانية، الساعية للسيطرة على الهويات المتعددة، وتذويبها في أتون مصنعها الإمبريالي الضخم، خدمة لثقافة المركز، ومصالح الطبقة المهيمنة. وأن نحاول أن نفهم كل ذلك؛ سوف يعني بالضرورة: الحرص

---

<sup>1</sup> - انظر: مجموعة من المؤلفين. نظرية الثقافة. ص 31

على عدم الوقوع فيما كان يبدو في الماضي - بغير حق - شكلاً من أشكال التتوير، ألا وهو رفض الاهتمام بكل هذه المتخيل الجمعي، باعتباره أمراً منافياً لـ(العقلانية).

"إن هذا المتخيل لا علاقة له مع ما يمكن اعتباره شكلاً جديداً، من اللاعقلانية، أو مظهراً من الظلامية الناهضة من سباتها؛ لكنه يحدد - بشكل جيد - مدار اللاعقلاني واللامنطقي، الذي لا يمكننا أبداً التناكر لرسوخه الاجتماعي. في هذه الوجهة، بالضبط، يبدو الفكر عملاً صبوراً، ومطلباً يفرض مجهوداً معيناً، ويستدعي مجاهدة حقيقية"<sup>(1)</sup>.

ولعل كل هذا الذي أوردناه آنفاً، كان هو الذي يقف وراء أبرز تعريفات الثقافة، في بداية الألفية الجديدة: أقصد التعريف الخاص بالمؤتمر العام لليونسكو<sup>(2)</sup>، وهذا نصه:

"إن الثقافة ينبغي أن يُنظر إليها بوصفها: مجمل السمات المميزة - الروحية والمادية والفكرية والعاطفية - التي يتصف بها مجتمع أو مجموعة اجتماعية. وعلى أنها تشمل - إلى جانب الفنون والآداب - طرائق الحياة، وأساليب العيش معاً، وتُظَم القيم، والتقاليد، والمعتقدات"<sup>(3)</sup>.

وهكذا نلاحظ أن تعريف اليونسكو قد اهتم بالجمع بين الاتجاهين المذكورين - العقلاني والوجداني - مع تركيز خاص على علاقة الثقافة بالهوية، إذ يقول الإعلان، بعد الفقرة السابقة مباشرة؛ فيما يمكن اعتباره محاولة تفسيرية: "ويلاحظ أن الثقافة تحتل مكان الصدارة، في المناقشات المعاصرة، بشأن الهوية والتلاحم الاجتماعي، وتنمية اقتصاد قائم

---

<sup>1</sup> - ميشيل مافيزولي. تأمل العالم. ص22

<sup>2</sup> - اعتمد المؤتمر العام لليونسكو هذا الإعلان في دورته الحادية والثلاثين. باريس. 2 نوفمبر 2001. إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي. من أوراق وزارة الثقافة الفلسطينية. صفحة الغلاف.

<sup>3</sup> - من أوراق وزارة الثقافة الفلسطينية. ص 1

على المعرفة<sup>(1)</sup>. ولقد بدا كل ذلك واضحاً لتيري إيجلتون، عندما تصدى لتعريف الثقافة، عن طريق ربطها بالوعي الجمعي للحياة المتحضرة: ذلك الوعي الخافي، الموجه لسلوك البشر المتحضرين، بمعزل عن العلاقات الذهنية، التي يمكن ضبطها، والتحكم في اندفاعاتها. قال:

"الثقافة هي وجه العملة غير الواعي، بالنسبة إلى الحياة المتحضرة: هي مجموعة المعتقدات والميول، التي لا يمكن الاستغناء عنها، والتي لا بد من حضورها، بشكل ضمني، في حياتنا، بما يمكننا من ممارسة فعاليتنا. إن الثقافة هي ما يصدر عنا بشكل طبيعي، ما نُفَطِر عليه؛ لا ما يعيه ذهننا"<sup>(2)</sup>.

وبعد كل ذلك، لعنا نستطيع القول كخلاصة: بأن كل تعريف للثقافة، سوف يحيل إلى الكيفية التي يضيفي بها الأفراد معاني معينة، على المواقف والأحداث والموضوعات والعلاقات.. وباختصار، على حياتهم: كيف يصل الناس إلى الاعتقاد، بأن الطبيعة المادية تكون على شاكلة دون أخرى؟. كيف تبدو نظرة معينة للطبيعة البشرية، أكثر معقولة من غيرها؟. فالنظرية الثقافية ينصب اهتمامها، بالدرجة الأولى، على استكشاف مختلف الشاشات الإدراكية، التي يقوم الناس من خلالها بتفسير عالمهم، أو فهمه. كل ذلك إلى جانب فهم العلاقات الاجتماعية، التي تجعل رؤى معينة للواقع، تبدو أكثر مصداقية من غيرها<sup>(3)</sup>.

وهذا يحيلنا، مرة أخرى، إلى تعريف اليونسكو، بشأن علاقة الثقافة بالهوية.

---

<sup>1</sup> - من أوراق وزارة الثقافة الفلسطينية. ص 1

<sup>2</sup> - تيري إيجلتون. صور الثقافة. فصول. عدد 63. ص 40

<sup>3</sup> - انظر: مجموعة من المؤلفين. نظرية الثقافة. ص 29 - 31



لقد توخت حركة الثقافة، في الماضي، البحث عما يجمع بين الناس، بغية الالتقاء على أرضية مشتركة. ولقد كان من البديهي، وفق هذا المفهوم، أن الذي كان مستفيداً من هذا الالتقاء (المبارك) هو مجموعة القوى الكبرى، التي تهيمن على وسائل الإنتاج في العالم، وعلى حركة المعلومات؛ لأن هذه القوى في النهاية لن تسوق إلا ما يخدم مصالحها.

"لكن ما أخذ يحدث، منذ عقود من الزمان ليست بعيدة... هو أنها [أي الثقافة] غيرت اتجاه حركتها، نحو محورها، فبعد أن كانت جزءاً من الحل، صارت جزءاً من المشكلة. ولذا لم تعد الثقافة الآن تعني أرضية للإجماع، بل غدت تعني حلبة للنزاع. فالثقافة - من منظور ما بعد الحداثة - لا تعني السمو فوق الهوية؛ بل تعني تأكيد هوية، من نوع أو آخر" (1).

ولقد بدت علاقة الثقافة بالهوية أمراً محتوماً، ليس في نظر الفلسفة وعلماء الأنثروبولوجيا فقط، بل كذلك في نظر واضعي إعلان اليونسكو، الذين لا يمكن تصورهم بعيدين عن تأثير الساسة، في بلدانهم التي انتدبتهم لتمثيلها هناك.

إن يمكن القول: بأن علينا منذ الآن، ووفقاً لهذا التصور، عن علاقة الثقافة بالوعي الجمعي والهوية، أن نستمع جيداً إلى هذه النصوص التي نقرأها: نستمع إلى ما لا يقال فيها بصورة مباشرة، بنفس الدرجة التي نستمع فيها إلى ما يقال بطريقة مباشرة. ولعل الذي لم يُقل يكون أكثر أهمية مما قيل، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالهوية، لأننا نعلم أن الجماعة تلعب دورها الحاسم، في تشكيل لغة الخطاب، وشفراته، ورموزه (2).

1- تيري إيجلتون. حروب الثقافة. دراسة منشورة في كتاب: النقد الثقافي والنقد النسوي. ص 49

2- انظر: نبيلة إبراهيم. النقد الثقافي في إطار النقد النسوي. دراسة منشورة في كتاب: النقد الثقافي والنقد النسوي.

إن ارتباط الثقافة بكل من الهوية والتفسير، يحيلنا إلى مفهوم كليفورد جيرتز القاضي باعتبارها "منظومة من الرموز، التي تنتجها الجماعة، بطابعها المحلي"<sup>(1)</sup>. وعلى هذا، فهي - بحق - ذلك الشعور العميق، الذي يمد الوعي بآليات تفسير معينة، للمواقف المختلفة: وهذه الآليات تمتلك من القوة، ما يجعلها تنشط للعمل فوراً، عند حدوث أي موقف حياتي؛ حتى دون أن يستدعيها الوعي.

وفي حقول إنتاج الدلالة، تأخذ الثقافة شكل الصراع بين طرفين، من أجل المعنى: إذ تحاول أنظمة المعنى، التي خلقتها ثقافة سائدة، أن تجعل المعاني، التي تخدم مصالحها، جزءاً من المعاني العامة للمجتمع ككل؛ في حين تحاول أنظمة جديدة خلق معاني مضادة، تحفظ للجماعة تميزها، وتحمي لها تفرداها واستقلاليتها، عن المراكز العالمية الكبرى لصناعة القرار. أي أنها عادت مرة أخرى إلى مفهوم (إرخ أورباخ)، باعتبار أن لها مهمة حياتية، تتمثل في ما ينبغي عليها فعله، وما ينبغي عليها الامتناع عنه: حيث عليها أن تتعامل بحس عدواني، لصالح الأمة والوطن والجماعة والانتماء"<sup>(2)</sup>. مما يعني أن عليها أن تمتنع عن كل ما يهدد واحداً من هذه المذكورات.

وإذ تأكد لدينا الآن ارتباط الثقافة بالهوية المجتمعية - التي تطورت خلال أحقاب بعيدة، وحمل اللاشعور الجمعي آثارها، في نفس كل فرد من أفراد الجماعة - فلقد يكون من البديهي إذن أن نعلم، أنها تؤثر في كل أفعالنا وتصوراتنا؛ حتى دون أن نستدعيها في أغلب الأحيان. إنها ناتج ومنتج في آن: ناتج تاريخ، ومنتج أنساق سلوكية وذهنية، تربي

<sup>1</sup> - انظر: ماري تيريز عبد الفتاح. القراءة التاريخية للنصوص. فصول. العدد 67. ص 167

<sup>2</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 8

الوجدان العام للأفراد، وتمنحهم ما يجعلهم كائنات ناقدة وملتزمة، أخلاقياً، وتشكل منظومة القيم التي يؤمنون بها، وتحدد خياراتهم الخاصة<sup>(1)</sup>.

## 2- ج: البنية الثقافية والتاريخ:

إذن - ونتيجة لكل ما مضى - يمكننا القول: بأن البنية الثقافية لكاتب ما، هي شبكة العلاقات المتولدة من عناصر الثقافة المختلفة، في كتاباته، بالإضافة إلى علاقة كل عنصر ثقافي بروى الكاتب المؤثرة؛ لا الواعية منها فحسب، بل واللاواعية كذلك بنوعيتها: الفردي والجمعي: أي ما يمكن تفسيره من خلال نظريات اللاشعور، وما لا يمكن أن يُرد إلا إلى تلك التأثيرات الموعلة في القدم، والعميقة في النفس، من وراء كل من الوعي واللاوعي، التي عبر عنها كارل يونج بالوعي الجمعي.

ولا شك أن عناصر الثقافة المختلفة، لدى أي كاتب - بل لدى أي فرد - تدخل فيها الأيديولوجيا، والدين، والعادات والأعراف الاجتماعية، والانتماء السياسي، والطبقة الاجتماعية، والعوامل النفسية، والظروف السياسية... إلخ.

وإذا كانت كل هذه العناصر الثقافية تتسم بسمه التاريخية (الدنيوية)، فإن ذلك يعني أن البنية الثقافية، في كتابات أي كاتب، هي ذات صبغة تاريخية كذلك؛ الأمر الذي يحتم انفتاح النص (مجتمع البحث) أمام كل هذه المؤثرات، باعتبارها جزءاً من النص، لا مجرد خلفية اجتماعية، أو قاعدة تحتية لبنية فوقية أرقى.

لقد استخدمت الدكتورة يمنى العيد، مصطلح البنية الثقافية: باعتبارها هي البنية الاجتماعية نفسها، التي على أي عمل نقدي بنيوي أخذها في الاعتبار؛ لأن "عدم طرح

---

<sup>1</sup> - انظر: عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 199

هذا العمل النقدي - المتعلق بوضع دلالات النص في موقعها، من سيرورة البنية الثقافية في المجتمع - كموضوع للتساؤل، يعني أن يتوزع النقدُ العملَ على النص: فيقوم نقد التحليل، ويقوم نقد آخر بالخطوة التالية<sup>(1)</sup>.

ولا شك، أن هذا الاجتهاد، من ناقدة بنيوية معروفة، كان متأثراً إلى حد كبير، ببنيوية لوسيان جولدمان التكوينية؛ التي أراد لها أن: "تشرح العمل الأدبي في علاقاته الداخلية، وتدرج بنيته الدلالية في بنية اجتماعية أكثر شمولاً واتساعاً"<sup>(2)</sup>. إلا أن البنيوية التكوينية، لم تتنازل عن الأطروحات الأساسية، التي شكلت أهم معالم النزعة الجمالية، في النقد البنيوي، ومن أهمها ما يلي:

- استقلالية النص عن الخارج: حيث أصر لوسيان جولدمان على "التحليل المحايد"<sup>(3)</sup> الذي لا يتعدى نطاق العمل الأدبي... [في سبيل استخلاص] الدلالة الموضوعية للعمل الأدبي: وهي دلالة يستطيع [الناقد] فيما بعد، أن يحاول إقامة العلاقة، بينها وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للعصر"<sup>(4)</sup>.
- سيرة الكاتب لا تعدو أن تكون عاملاً جزئياً، وثانويّاً، في تفسير النص الأدبي<sup>(5)</sup>.

فالبنيوية التكوينية - حتى وهي تنطلق نحو الخارج - تجعل انطلاقها هذا من داخل النص نفسه: بما يعني أن المرجع الأول والأخير هو النص. في حين أن الحاجة تدعو،

---

<sup>1</sup> - يمنى العيد. في معرفة النص. ص 40

<sup>2</sup> - فيصل دراج. لوسيان جولدمان ورواية الرأسمالية المتغيرة. مجلة الكرمل. العدد 58. ص 36

<sup>3</sup> - النظرة المحايدة هي النظرة التي تفسر الأشياء في ذاتها، ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تتبع من داخلها، وليس من خارجها. انظر: جابر عصفور (مترجم). عصر البنيوية. ص 391

<sup>4</sup> - لوسيان جولدمان. المادية الجدلية وتاريخ الأدب. فصل من كتاب لعدد من المؤلفين بعنوان: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ص 18

<sup>5</sup> انظر: لوسيان جولدمان. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ص 16

في هذا البحث، إلى الاهتمام بالمحتوى الثقافي للنص، ومجموعة العلاقات التي أنتجته، وتأثيرات هذا المحتوى في المجتمع، الأمر الذي يستدعي، من الباحث، اختيار منهج أفدر على الاهتمام بكل علاقات النص، بما في ذلك حياة الكاتب وانتماؤه السياسي والأيدولوجي... إضافة إلى ضرورة إعادة الاعتبار إلى المحتوى، في مقابل الشكل، الذي ركزت عليه النزعة الجمالية، في عصر الحداثة السابق.

إن الدراسات التي ظهرت متأخراً - بعد إخفاق مشروع الحداثة الغربي في الوفاء بوعوده الاجتماعية - في كل من أوروبا وأمريكا: كالتاريخانية الجديدة، والماركسية الجديدة، والنقد الدنيوي، والنقد الحضاري، والنقد النسوي، والنقد ما بعد الكولونيالي... قد وسعت من هذا الاهتمام، وفتحت أبواب النص على الخارج مرة أخرى، خصوصاً بعد ظهور التأثير الهائل، الذي تفرضه كل من علاقات القوة - السلطة، والمال، والأيدولوجيا، والسياسة، والعادات والتقاليد، والأديان - على عمليات إنتاج النصوص، وتلقيها. الأمر الذي اقتضى أن يغير التحليل النقدي مساره، ويوسع آفاق اهتماماته.

وبذا فقد عاد النقد، في مرحلة ما بعد الحداثة، مرة أخرى، إلى مفهوم تاريخية النص، وإن بشكل جديد، مع بعض الاختلافات والإضافات، التي تولى النقد الثقافي التبشير بها، بصفته الاتجاه العريض الذي يحتوي كل المناهج التي ذكرناها.

### 3- في المنهج، وآلية البحث:

والآن يأتي دور السؤال الثالث من أسئلة العنوان، حول الكيفية التي سيتبعها الباحث، والأدوات التي سوف يستخدمها، للوصول إلى النتائج، وتسليط الضوء على أهم معالم هذه البنية الثقافية، التي حكمت مجمل إنتاج إميل حبيبي الكتابي عموماً، والإبداعي منه على وجه الخصوص.

### 3 أ: في المنطلق:

لما لم يقلقني، البتة، ما قد يقال من أنني، أنتقل من البحث الجمالي، داخل النص، إلى تلمس الآثار النفعية له، في الخارج - لأنني اعتقدت دائماً أن الجمالية شرط لابد منه، عند تناول أي نص بالدراسة؛ فالنص الذي لا تتوفر فيه الشروط الجمالية، لا يمكن أن يحدث أثراً ثقافياً حقيقياً وطويل المدى - فقد قررت أن يكون منهج النقد الثقافي هذا هو منهجي، في مبحثي حول إميل حبيبي. ومع ذلك، فسوف أتطرق إلى المباحث الجمالية، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، لأن النقد الأدبي لا يمكن فصله عن النقد الثقافي؛ لما بينهما من وشائج قري، بل قل، إن شئت: لأنهما في الحقيقة شيء واحد؛ خصوصاً بعد استعادة النقد الأدبي لموسوعيته، على حد تعبير الدكتورة هدى وصفي<sup>(1)</sup>.

ولعل الفصلين الأخيرين، في هذا البحث، هما اللذان سيتحملان أعباء المباحث الجمالية، أكثر من غيرهما.

كل ذلك لنرى إن كان، هذا التوجه الجمالي الإبداعي - في كتابات إميل حبيبي - موافقاً ومواكباً لتوجه جمالي من نوع آخر، هو الجمال الفلسفي: الذي لا يرى جميلاً إلا ما كان حقاً؟. أم أن هناك ألغاماً ميثوثة في الطريق، تنسف ظاهر الخطاب الجميل، وتؤسس لقبح ثقافي، يتوسل بالأدوات الجمالية، للمرور والهيمنة، وإشاعة مفاهيم، ما كان لها أن تنتشر، دون هذا الخطاب الجمالي المؤثر<sup>(2)</sup>؟.

<sup>1</sup> - انظر: افتتاحية مجلة فصول. عدد 63. صفحة غير مرقومة

<sup>2</sup> - انظر: عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 7 - 8

هذا ما تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء عليه، من خلال منهج نقد ثقافي "يضع في اعتباره - وبنفس الدرجة - نقد الواقع، ونقد التمثيلات الرمزية المسماة أدباً"<sup>(1)</sup> في كتابات إميل حبيبي.

إن السلطة المجتمعية التي طالما امتلكها إميل حبيبي - سواء من موقعه كقائد حزبي عربي، وسط فراغ سياسي لا يملؤه سواه؛ أو من موقعه كأديب بارز تحتفل المؤسسة الأدبية بإنتاجه، وتروج له وتفسره، بأدوات تخاطب مشاعر الجماهير الفلسطينية - قد جعلت من هذا الرجل "واحداً من القلائل الذين نستطيع أن نقول عنه: إنه بلور هوية ومسلك الجماهير العربية، التي بقيت ضمن حدود دولة إسرائيل، بعد عام 1948، على مدار ثلاثة عقود، هي السنوات القاسية والصعبة والمصيرية في تاريخ هذه الأقلية، وتاريخ شعبنا الفلسطيني، والشرق الأوسط كله. هذه السنوات كان إميل حبيبي فيها هو صاحب الصولجان، الأمر الناهي، القادر على أن يقول للأعور أعور: كلمته وحدها السائدة، ولا من يقبل بغيرها"<sup>(2)</sup>.

وحرى بمن كان على هذا القدر من التأثير، أن يهتم به دارس الثقافة، على اعتبار أنه - بموقعه المذكور هذا - نص بحد ذاته، ويحتاج إلى استكشاف مدى هذا التأثير النصي، غير المكتوب، على مجمل عملية إنتاج دلالة نصوصه المكتوبة، خاصة الأدبية منها. ومن هنا تبرز أهمية النقد الثقافي، باعتباره القادر وحده على ذلك.

---

<sup>1</sup> - عبد الله إبراهيم. النقد الثقافي. فصول. عدد 63. ص 206

<sup>2</sup> - نبيه القاسم. مرادة النص. ص 84

فهو قادر على ذلك، باعتباره نقداً لأنساق السلوك والمعاني، التي تشكل الكائنات الإنسانية، وتحيا داخلها؛ دون أن تشعر بهذا التأثير في غالب الأحيان. فهو يقول: لا، لكل الحدود والتقييدات. ويقول: نعم للحرية في استقلالنا عن هذه الأنظمة السائدة<sup>(1)</sup>.

إن استشعار هذا الاختلاف، في المنطلق المنهجي، والحرص على العمل من خلاله، هو ما يوجه مدارس النقد الثقافي، بكل فروعها، وهو ما سيوجه هذه الدراسة، لفحص إنتاج كاتب ساهم في وضع كل هذه الحدود والتقييدات، باعتباره ربيب المؤسسة، وابنها البار.

إذن، فنحن سندرس كتابات إميل حبيبي، باعتبارها ظاهرة ثقافية، تشير إلى ما تحقق في لاشعور النص، ثم ما يتوخى هذا النص إشاعته في الحياة العامة لمجتمعه، من قيم وأيديولوجيا وسلوك وأخلاق وطرائق تحليل... فالمنهج، على هذا، غير متكرر لأدوات التحليل الجمالي، وإن كان يتجاوزها متوسعاً، رغبة في إجراء تحليل، يجعل كلاً من عمليات إنتاج الدلالة والتلقي والآثار السلوكية، جزءاً من اهتماماته، التي هي من صلب مثل هذا النوع من النقد الدينيوي. لأن النص يعيش في الدنيا، وتنتجه الدنيا، ويؤثر فيها. فالنقد هو فن الحياة؛ كما تقول الدكتورة هدى وصفي مرة أخرى<sup>(2)</sup>.

### 3-2: في مشروع النقد الثقافي:

يسعى مشروع النقد الثقافي إلى التعامل مع النصوص الأدبية، من خلال إعادة وضعها داخل سياقها السياسي والاجتماعي، الذي أنتجها. وذلك على اعتبار أن النص علامة ثقافية، بالدرجة الأولى، قبل أن يكون قيمة جمالية. وهذه العلامة الثقافية لا تتحقق

<sup>1</sup> - انظر: إبراهيم فتحي. النقد الثقافي. فصول. عدد 63. ص 131

<sup>2</sup> - انظر: افتتاحية مجلة فصول. عدد 63. صفحات غير مرقومة.



دالاتها، إلا من خلال سياقي الإنتاج والتلقي: سياق المؤلف؛ ثم سياق القارئ، أو الناقد، الذي تلقاها بعد ذلك في سعيه نحو التفسير.

فمصطلح النقد الثقافي، إذن، يوحي بموقف أيديولوجي: إذ يفترض أن تحليل النصوص، كان يمر بمرحلة لا تلتفت إلى محتواها الثقافي. وهذه وضعية إشكالية، يسعى النقد الثقافي إلى تحليلها، وصولاً إلى اقتراح الحل<sup>(1)</sup>.

لقد انشغل النقد الأدبي، طوال عقود، بمهمة اعتبرها أعظم المهمات وأقدسها، مكرساً نفسه بعناد، لبناء منطقة حرام حول النصوص الأدبية؛ تحفظ استقلالها عن أي تدخل خارجي. وغدا النص قيمة جمالية عظيمة، لا يتم التمازج معه، أو تلقيه أو تفسيره، إلا بأدواته هو، ومن داخله هو، دون الرجوع إلى مؤلفه، أو محيطه الاجتماعي، أو آثاره الثقافية. إذ حرص النقد الأدبي، في مراحلها الأخيرة، على قتل المبدع، بشعار لافت أطلقه رولان بارت. ولسوف يصبح هذا الشعار، لما بعد سنوات طويلة، مانفستو النقد الأدبي المفضل: أقصد شعار (موت المؤلف). كما تم قبل ذلك، وبالتوازي معه، استبعاد أي تأثير اجتماعي في الأدب، سواء في إنتاج النص أو تلقيه، في ضربة محكمة لكل المناهج التاريخية، التي نظرت إلى الأدب بوصفه إنتاجاً جمالياً، متأثراً بكل علاقات الإنتاج، التي تحكم حركة المجتمعات.

والحقيقة أن هذا الحرص، المبالغ فيه، كان رد فعل معاكساً لمرحلة طويلة، من سيادة مناهج، نظرت إلى الأدب بصفته محتوى راقياً، لبنية تحتية أعمق، تحكمها علاقات الإنتاج الاقتصادية. فالماركسية، التي صاغت نظريتها الأدبية وفق مقولة الانعكاس الحرفية هذه، كانت قد تأقت - حتى قبل انهيار المعسكر الاشتراكي - ضربة قوية، مع

---

<sup>1</sup> - انظر: نبيلة إبراهيم. النقد الثقافي في إطار النقد النسوي. دراسة منشورة في كتاب: النقد الثقافي والنقد

ظهور جماعة الشكلايين الروس، التي دعت إلى الالتفات إلى الشكل، وتقديمه على المحتوى، على اعتبار أن الصياغة هي الأدب، والشكل الفني وحده هو الذي يحقق الإمتاع وأدبية الأدب؛ لا المحتوى، بما يحمله من إحالات أيديولوجية تخدم السلطة، وتعتبر عنها.

وبهذا، ومنذ ذلك الوقت، سوف يهتم التحليل النقدي بكيفية اشتغال الكلمة على نفسها، قبل أن تكون دليلاً على شيء خارجي، كالمعنى. يقول رومان ياكبسون: "ولكن كيف تتجلى الشاعرية؟. إنها تتجلى في كون الكلمة تُدرك بوصفها كلمة؛ وليست مجرد بديل عن الشيء المسمّى، ولا كانبثاق للانفعال"<sup>(1)</sup>.

لقد صاحب الانتهاء التدريجي، للمعسكر الاشتراكي، صعوداً مقابل للنظرية الأدبية المهتمة بالشكل. ولم يكن من قبيل الصدفة تسمية أولى المجموعات المنادية بتحرير الأدب، من هيمنة المحتوى؛ بجماعة الشكلايين. ولئن بدت هذه التسمية هجائية في ذلك الحين، إلا أنها سوف تصبح بعد ذلك، الأساس الجمالي النظري، الذي سوف تقيم عليه البنيوية صرحها النقدي، جاعلة من فقه اللغة مقدساً أول ومرجعاً نهائياً، في وجه أي محاولة من محاولات البحث عن المعنى؛ وبذا فقد حلت اللغة محل الحقيقة. وهذا هو "آخر عاهات فرع من فروع المعرفة - بحثي - تحول كلياً إلى معرفة خابرة عقائدية في العلوم الاجتماعية"<sup>(2)</sup>.

ولعله غير بعيد عن الحقيقة القول: بأن هذه المغالطة المنهجية، جعلت اللغة معادلاً للعقل والمجتمع والتاريخ والطبيعة، بحيث صارت اللغة هي التي تُنطق الإنسان، وليس العكس. وبحيث صرنا لا نستهن عندما نسمع شاعراً يحدد انتماءه بأنه للغته - لا لوطنه

<sup>1</sup> - رومان ياكبسون. قضايا الشعرية. ص 19

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. الاستشراق. ص 318

الجغرافي ولا لأمته - في شعار صار يخلو لكثير من متقفي هذا الزمان ترديده، في ترميزية قداسية تشير إلى انتصار المعلوماتية على العلم، ووسائل الإعلام على الحقيقة<sup>(1)</sup>.

وقد تنبه الدكتور صلاح فضل، إلى هذا التحول الذي أصاب الحركة النقدية، وأبعدها عن الاهتمام بالمحتوى والمعنى، وأنكره، معتبراً - كما جرت عليه عادته في دراساته التطبيقية - أن الاقتصار على البحث في الشكل، دون المعنى، فيه ظلم للشكل نفسه؛ وذلك على اعتبار أن الشكل يشارك المحتوى في إنتاج الدلالة: بمعنى أن الشكل، هو الآخر، يقول. مع أن كل ذلك لا يغني عن الاهتمام بالمحتوى في النص.

يقول: "وقد شاعت، بين النقاد المحدثين، مقولة فحواها: أن ما يعنيه في النص الشعري، ليس على وجه التحديد ما يقوله هذا النص، وإنما الطريقة التي يقوله بها: أي أنهم لا يبحثون عن معنى الشعر، وإنما عن شكله. وأحسب أن في هذا إساءة لطرح المشكلة؛ إذ إن دلالة أي نص شعري، ليست في معنى افتراضي مسبق له، وإنما هي محصلة مجمعة لكل وسائله الإشارية والمجازية، وتكنيحه في التعبير والرمز. ومن هنا تصبح طريقة القول جزءاً جوهرياً، وعنصراً مكوناً، للقول ذاته"<sup>(2)</sup>.

ويقينا أن ما قاله الدكتور صلاح فضل، هنا، عن نقد الشعر، يصلح للاستشهاد به في التعامل النقدي، مع كل أجناس الفنون.

وإذا كان شعار النقد الجمالي: (لا شيء خارج النص)، هو المنافستو الثاني الذي ينافس زميله السابق - موت المؤلف - فإن لنا أن نفهم كيف حدث أن انشغل النقد الأدبي

---

<sup>1</sup> - "وطني هو لغتي": شعار لا يزال يردده شاعر عربي كبير، في مناسبات متعددة. ولا تزال تذييعه إحدى الفضائيات العربية في مقدمة لافتة ودعائية لأحد برامجها الثقافية.

<sup>2</sup> - صلاح فضل. إنتاج الدلالة الأدبية. ص 23

بعلاقات داخلية متوهمة، في أغلب الحالات، فيما أدى إلى استحالة الخروج بتفسير أو معنى: وبذا فقد غدا النص مستعصياً على التقييم، وتحول الناقد - لشدة سروره - من دارس إلى مبدع، يعيد كتابة نص مات صاحبه!. ولن يكون هذا المبدع الجديد أفضل حالاً، في فهمه للنص، من صاحبه الأول الذي مات، ومات معه تاريخ كتابة النص، والعلاقات الاجتماعية التي أحاطت بهذا المنتج الثقافي، إضافة إلى موت جديد أصاب الدال اللغوي، وجعله يهيم في فضاء مفتوح، دون أن يقع على مدلول، مرجئاً تحقق المعنى إلى ما لانهاية. وهذا هو آخر منتجات التفكيكية<sup>(1)</sup>.

هل هذا هو الأمر الذي حدا بالدكتور عبد الله الغدّامي، إلى القول بموت النقد الأدبي، ليحل محله النقد الثقافي<sup>(2)</sup>؛ خصوصاً وأن النقد الأدبي كان قد انشغل - في مرحله الأخيرة - بدراسة الجمالي في النص، دون الالتفات إلى الثقافي، الذي قد لا يكون جميلاً في أحيان كثيرة؟.

هذا هو الثابت في الحقيقة من قول الغدّامي نفسه؛ وهو الثابت أيضاً من المعنى اللافت لكتاب أصدره أخيراً ألفين كرنان، وعنوانه بالعنوان ذي الدلالة: (موت الأدب)<sup>(3)</sup>.

ونحن لن نقول بموت الأدب، ولا موت النقد الأدبي؛ ولكننا سنقول بإعادة الاعتبار إلى المحتوى. ولا يمكن ذلك على أكمل وجه، إلا بربط خصوصيات النصوص، بأبنية وعلاقات ليست هي هذه النصوص ذاتها<sup>(4)</sup>، وإنما هي مؤثرة في إنتاجها، ومتأثرة بمحتواها الثقافي، في أن واحد. فالنص، في التحليل النهائي، ليس مجرد سؤال ذاتي استخلص جوابه من داخله، بل هو حوار وتجاوب من الداخل إلى الخارج وبالعكس. إنه سؤال موجه

<sup>1</sup> - انظر: عزت محمد جاد. نظرية المصطلح النقدي. ص304

<sup>2</sup> - انظر: عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص8

<sup>3</sup> - انظر ثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب.

<sup>4</sup> - انظر: راييموند ويليامز. طرائق الحداثة. ص256

إلى كل من السلطة والقوة، وبيان مصاد للبيانات المؤسسية السائدة، وذلك لأن التقابلية بين الذات والعالم، هي من أهم ما يميز الأدب. و "قد يوصف الأدب بأنه تاريخ التجاوب الإنساني، مع ما هو حيّ، وما يوشك على الموت، حين تتطور الثقافات وتتفاعل، مع بعضها البعض"<sup>(1)</sup>. ويقول إدوارد سعيد: "إن الأدب لا يمكن أن يُبتر عن التاريخ والمجتمع. إن الاستقلال الذاتي المزعوم للأعمال الأدبية والفنية، يقتضي نوعاً من الفصل، يفرض فيما أرى محدودية مضجرة، تأبى هذه الأعمال الأدبية نفسها أن تقوم بفرضها"<sup>(2)</sup>.

فالأدب، في نهاية الأمر، هو منتج ثقافي متأثر بالواقع الاجتماعي، وموسوم بأثر السلطة والمؤسسة سلباً وإيجاباً: "وذلك لأن تشكيل المرء لنفسه - كما يقول ستيفن جرينبلات - وتشكله بالمؤسسات الثقافية - الأسرة، الدين، الدولة - أمران مرتبطان بلا انفصام؛ حيث لا يمكن وجود لحظات من الذاتية الخالصة غير المقيدة؛ بل لقد أخذت الذات الإنسانية نفسها تبدو غير حرة إلى حد مدهش. وتبين أن هذه الذات، إن هي إلا نتاج أيديولوجي لعلاقات القوة في المجتمع. ومثلما بدت النفس المستقلة وهماً، فإن فكرة النص الأدبي المستقل بدت وهماً هي الأخرى، وصار يتحتم النظر إلى الفكرتين - الذات والنص - جدلياً في إطار تفاعلاتهما المعقدة مع المؤسسات الاجتماعية"<sup>(3)</sup>.

وكل هذا يحتم وجود النقد الثقافي.

أول من طرح هذا المصطلح هو الناقد الأمريكي فنسنت. ب. ليتش: كمشروع نقدي من مشاريع ما بعد الحداثة، وما بعد البنيوية، كما يقول د. عبد الله الغدامي. ويدعو النقد

<sup>1</sup> - سوزان سونتاج، أمريكا وأوروبا: خلاف أم حوار. وجهات نظر. العدد 59. سنة 5. ديسمبر 2003

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. الثقافة والإمبريالية. ص 85

<sup>3</sup> - فنسنت. ب. ليتش. النقد الأدبي الأمريكي. ص 403

الثقافي إلى كشف العيوب النسقية، في الثقافة والسلوك. وذلك من خلال سعيه إلى فك الارتباط التقليدي القائم بين المؤثر (جماليات النص) والمتأثر (المتلقي): إذ كثيراً ما كانت الأبعاد الجمالية المحضة - التي اهتم بها النقد الأدبي - تُشيع قيماً، وتؤسس لسلوكيات قبيحة: أخلاقياً وحضارياً<sup>(1)</sup>.

يعرف تيري إيجلتون النقد الثقافي بأنه: "أحوال من الانفعال والتقويم والإدراك الحسي والاعتقاد، تتسم جميعها بأن لها علاقة برعاية وإنتاج السلطة الاجتماعية"<sup>(2)</sup>. ويحدد محررو مجلة (النقد الثقافي) الهدف من النقد الثقافي، بأنه: ما "يمكن التعبير عنه - بأقصى قدر من الشمولية - على أنه دراسة القيم والمؤسسات والممارسات والخطابات الموروثة، في إطار تكوينها، وأثارها السياسية والاجتماعية والجمالية"<sup>(3)</sup>.

ولقد رأينا كيف اعترض عدد من (جماعة مثقفي نيويورك) عام 1949 - انطلاقاً من هذا المفهوم - على منح جائزة بولنجتون للشاعر عزرا باوند، على ديوانه (أغاني بيزا)، منتقدين ذلك القرار بمرارة.

"ومما له مغزى، أنهم لم يناقشوا المزايا الجميلة الكبيرة لشعر باوند؛ وهم يقرّون بها. وإنما رفضوا منح الجائزة لفاشي معاد للسامية، ساند جانب موسوليني وهتلر في الحرب. وكان طرفاً هذه الحادثة: الجماليات الشكلية البحتة، في مواجهة القيم الأخلاقية السياسية، والليبرالية اليسارية، التي صاغت النقد الثقافي، عند كتاب نيويورك. وبمعنى آخر؛ فقد

---

<sup>1</sup> - انظر: عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 31 - 33، 99 - 102

<sup>2</sup> - انظر: ألفين كرنان. موت الأدب. ص 56

<sup>3</sup> - مجلة (النقد الثقافي) هي مجلة صدرت في جامعة مينيسوتا الأمريكية عام 1985، ونجد في هيئة تحريرها أسماء لامعة منها: نعوم تشومسكي، إدوارد سعيد، تيري إيجلتون، جاياتري سبيفاك، رايموند ويليامز، أليس جاردين... وآخرين. انظر: فنسنت. ب. ليتش. النقد الأدبي الأمريكي. ص 410

فرضت قضية پاوند على المثقفين أن يقرروا، حول وزن كل من الجماليات والسياسة في النقد الثقافي<sup>(1)</sup>.

فالنص ليس مجرد شكل جميل، لخيال أحسنت صياغته. وإنما هو إلى جانب ذلك أيديولوجيا، كما يقول تيري إيجلتون "لأنه أحد الوسائل التي تستخدمها مجموعات اجتماعية معينة، لتمارس وتفرض سلطتها على الآخرين"<sup>(2)</sup>. و"صحيح أن التحليل الجمالي أساسي وضروري، لكنه في نهاية الأمر غير كاف لمشروع النقد الثقافي"<sup>(3)</sup>، الذي يطمح إلى استخدام أدواته، للغوص في لاشعور النص، من أجل كشف المسكوت عنه، من الإشكالات الأيديولوجية، وأنساق التمثيل، وكل ما يمكن تجريده من النص، واعتُبر في مراحل سابقة (خارج النص) وغير مسموح له بالدخول.

وإذا كان الجمالي يتوسل بالنشوة، للوصول والتأثير، فيجب وضع فعل النشوة هذا نفسه موضع التساؤل والفحص، باعتباره فعلاً تم تدريبنا عليه مبكراً، في فترات سابقة، وفي سياق اجتماعي خاص، ليست السلطة السياسية مبرأة من فرضه وتسويقه<sup>(4)</sup>. كما أن النشوة ذاتها ليست مبرأة دائماً من العيوب؛ فليست كل نشوة ناتجة عن عواطف سامية: فنحن نعرف أن هناك نشوات مبتذلة، تنتج عن غياب الإدراك<sup>(5)</sup>، والانجرار الأوتوماتيكي، وراء غرائز تعودنا على الاستسلام لها: كالنشوة في ملاعب كرة القدم، أو النشوة حين يرى المحارب خصمه غارقاً في دمائه... ولعل النشوة التي تعود العرب على الغياب فيها عن

---

1- نفس المصدر. ص 107

2- أنظر: ألفين كرنان. موت الأدب. ص 93

3- فنسنت. ب. ليتش. النقد الأدبي الأمريكي. ص 107

4- أنظر: عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 24

5- أنظر: ميلان كونديرا. الوصايا المغدورة. ص 8

الوعي، لدى سماعهم بيتاً من الشعر، هي من نوع هذه النشوة المرذولة أخلاقياً ونفعياً، لأنها تؤسس للقبول بسيطرة القوة، متوسلة بالبلاغة.

ولكي لا يتحول النقد الثقافي إلى مجرد دراسة اجتماعية، فإن الدكتور عبد الله الغدّامي وضع الجمالية شرطاً لتناول أي نص، وفق هذا المفهوم - كما فعلت مجلة النقد الثقافي الأمريكية - غير مستبعد مواصلة استخدام أدوات النقد الأدبي، إلى جانب أدوات التحليل الاجتماعي. وذلك لأن النقد الأدبي، كعلم، صارت له أسسه الراسخة وامتداده الكوني، خصوصاً بعد استثناء تلك التطرفات الشكلانية، التي أشرنا إليها سابقاً. وهذا العلم، كأى علم، لا يعرف الحدود. لكن إضافة النقد الثقافي اللافتة، كانت إصراره على النظر إلى العلاقات الخارجية، المحيطة بالنص، باعتبارها تؤسس لوعي زائف، يطرب لما يضره، ويتناقض مع مقولاته الفلسفية العامة. وما كان لهذا الطرب أن يحدث، لولا عادات بلاغية تم غرسها في وعينا العربي، منذ وقت مبكر، كأنساق تُلَقّ مسيطرة على الوجدان، ومنغرسه في اللاوعي الجمعي<sup>(1)</sup>. الأمر الذي يحتم علينا "استخدام النقد الثقافي، بوصفه سلاحاً، لتفكيك بعض الأنساق الثقافية، من أجل فضح سيطرتها على الفكر، وقيادتها له دون وعي منه. فنحن بحاجة إلى التركيز على لاوعي النص، من أجل كشف المسكوت عنه"<sup>(2)</sup>.

إن مشاركة الجماعة في بناء نسيج الإنسان، الفكري والشعوري، يعني أن الجماعة هي سلطة قاهرة، ومؤثرة، ومنتج ثقافي. وهذه السلطة - كأى سلطة - سوف تحرص دائماً على ترسيخ قيمها، وتمريها في الخطاب الثقافي، بحيل جمالية، تضمن لها الاختباء تحت القشرة الجمالية للنص، فتفعل أفاعيلها، وتقيم بنى تصوراتها، وتنسخ في كثير من الحالات شعارات المؤلف المعلنة، لأنها كامنة في اللاوعي، منذ بداية تكوين الذات، في مرحلة ما

<sup>1</sup> انظر: عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 59 - 63، ص 76 - 81

<sup>2</sup> هدى وصفي. ندوة النقد الثقافي. فصول. عدد 63. ص 116



قبل التعلم والدراسة. وإن كشف هذه الحيل الجمالية، سوف يكون فعلاً سياسياً بالتأكيد؛ لكنه كذلك فعل ثقافي. ومنذ متى كانت السياسة منفصلة عن الثقافة؟! وإذا كانت المباحث النقدية، في السابق، قد ضربت صفحاً عن كشف تأثير السياسة في الأدب، فإن النقد الثقافي يرفض التنازل عن حقه الطبيعي، في كشف هذا التغلغل، ورصد آثاره. لأن هذا من أهم توجهات التحليل الأدبي، في العصور الأخيرة. وفي هذا المعنى يقول يوزف بيتر شتين: "لقد انقضت الأزمنة التي كنا نستطيع أن نفترض فيها أن الأنشودة السياسية أنشودة كريهة... فإننا اليوم في عصر إضفاء الصبغة السياسية والأيدولوجية، إذا لم يكن على الأدب؛ فبالأكيد على تحليل الأدب"<sup>(1)</sup>.

ولقد رأينا كيف تناول إدوارد سعيد جوناثان سويفت، منتقداً الذين درسوه، بعيداً عن وسطه الاجتماعي، معتبراً أن هذه الدراسات قاصرة عن إدراك حقيقة أن رأسمال سويفت هو رأسمال أي مفكر: براعة البلاغة في ساحة المعركة الأيدولوجية. فسويفت، الذي كان مدافعاً شرساً عن قيم حزب المحافظين، لم يكن صاحب أملاك عقارية، لا في بريطانيا ولا في المستعمرات؛ ورغم ذلك، فلم يكن معروفاً عنه معارضته للكولونيالية البريطانية، التي يربعاها حزب المحافظين، الذي ينتمي إليه. وبناء على ذلك، يعتبر إدوارد سعيد أننا يجب أن ننظر إلى سويفت كمفكر، منهمك في صراعات خاصة، على نطاق محدود. لأنه لم يكن له من خيار آخر - لتحسين موقعه الاجتماعي - سوى تأجير نفسه لأولياء نعمته، من المحافظين أصحاب الأملاك<sup>(2)</sup>.

وإذا كان النقد الجمالي لا يلتفت إلى التاريخ، بوصفه أمراً خارج النص، فإن النقد الثقافي يعتبر التاريخ جنساً من أجناس التعبير، وجسداً نصوياً، واستراتيجية قراءة، تعين على الفهم والتقييم. ذلك لأن النقد الثقافي نظر إلى منتج النص باعتباره بشراً، مثل غيره

<sup>1</sup> - يوزف بيتر شتين. حول الأدب والأيدولوجيا. فصول. مجلد 5. العدد 3. ص 12

<sup>2</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 59 - 67

من الناس، الذين ما زالوا يتعرضون لعملية إخضاع، تصوغ طرائق صناعتهم للأحداث، وأهم من ذلك أنها تضعهم في شبكة اجتماعية، وفي منظومة علامائية، تفوق قدرتهم على إدراك فعلها بهم، وتتعالى على سيطرتهم. ولذا لا يكون التاريخ مجرد حقائق وأحداث تقع خارج النص، بل هو علامائية ألسنية، تجعل كل شيء خارج النص مؤثراً، في حالتي الإنتاج والتلقي.

ولنضرب مثلاً على ذلك، بما حدث في قضية الناقد التفكيكي (بول دي مان)، الذي هاجر من بلجيكا إلى الولايات المتحدة، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. تلك القضية التي شغلت المهتمين بالشأن الثقافي الغربي، مدة سنوات؛ وتتلخص في أن طالباً بلجيكياً عثر في العام 1987 - بعد موت دي مان بأربع سنوات - على مجموعة مقتطفات صحفية، كتبها دي مان في الأربعينيات من القرن العشرين، إبان حقبة النازي في بلجيكا، واستخدمها النازيون في دعايتهم الفاشية. وبمجرد انتشار الخبر، كبرت فضيحة بول دي مان وتدرجت، وعُرف أن عمه كان متعاوناً ذا مرتبة عالية مع النازية؛ الأمر الذي يسر لابن الأخ الكتابة في أكبر الصحف البلجيكية، في ذلك الوقت. ثم أُلقي الضوء من جديد على حقيقة أن دي مان كان قد نجا، في حينه، من الزج به في معسكرات العمل النازية، التي كانت مفروضة على من هو في سنه. ثم أُلقي الضوء، مرة أخرى، على انفصاله عن زوجته الأولى، وأولاده منها، وزواجه مرة أخرى، دون الحصول على الطلاق. ثم تطرق الحديث إلى الأساليب المشبوهة، التي اتبعتها دي مان، لنفي تهمة التعاون مع النازية عن نفسه، ثم عن طريقة التحاقه بجامعة هارفارد. وعلى الصعيد المقابل، حاول بعض تلاميذ دي مان وأصدقائه الدفاع عنه، ونفي كل ما نُسب إليه. وعلى كل، فيمكن القول بأن الفريقين كليهما - المهاجم والمدافع - قد وصفا خلال هذه المعركة الثقافية: "معسكرات الاعتقال في بلجيكا، وشحنات اليهود التي أرسلت إليها، وأعداد فرق العمل التي ذهبت إلى ألمانيا، وتواريخ سفرها، ثم استيلاء الألمان على وسائل الإعلام البلجيكية، والسياسة التحريرية، وصحيفة المساء... ثم سياسات عم دي مان، ومكانته في الحكومة، وأين كان

دي مان يعيش على وجه الدقة، وكيف حصل على الشقة التي يعيش فيها، ثم ما هي علاقته ببقية أعضاء عائلته، ومحاولة الهرب من أوروبا عام 1940. وهكذا.. وهكذا.. وهكذا.. إلخ. فبدلاً من أن لا يكون هناك شيء خارج النص؛ فالحقيقة أن كل شيء كان في الخارج، منتظراً أن يُستدعى إلى الداخل، بقوة الكلمة<sup>(1)</sup>.

الأمر الذي يستدعي السؤال الأخلاقي، في دراسة الأدب، من جديد. ولا شك أن الفنون ظلت دائماً تستدعي المثل الأخلاقية. وهذه المثل الأخلاقية ظلت دائماً - ورغم كل شيء - تحتضن الصدق والحقيقة، وتقبض على الحقيقة بوسائل صادقة: "كأن الأخلاق مهد الفنون جميعها. والفنون ظلال الأخلاق بامتياز"<sup>(2)</sup>. وقد أشارت الدكتورة هدى وصفي إلى هذا الارتباط، بين كل من الأدب والأخلاق، في معرض تلخيصها لأهم سمات الموسوعية في النقد الثقافي<sup>(3)</sup>.

ولأن الدكتور عبد الله الغدامي، لم يشأ التنازل عن الشعار الأشهر للنقد الأدبي: (لا شيء خارج النص)، حتى وهو يتوجه وجهته الجديدة نحو النقد الثقافي، فقد ذهب يقرؤه قراءة جديدة، حولته إلى ما يشبه أن يكون (لا شيء ظل خارج النص، بل كل شيء في الداخل): فكل ما يساهم في تفسير النص هو من النص: فالتاريخ نص. والنص تاريخ<sup>(4)</sup>.

وعلى كل، فسواء بقي هذا الشعار حياً أو مات، فإن لنا أن نقول بأن علاقة النص - في النقد الثقافي - بالمجتمع، هي علاقة ديالكتيكية منتجة ومنتجة في آن: فالنص يشارك في إنتاجه المجتمع (علاقات الإنتاج)، ويشارك هو في إعادة إنتاج المجتمع (القيم والسلوكيات). والنقد، وفق هذا التصور، ليس مجرد فعلٍ متمرّدٍ في متناول أي غاضب،

<sup>1</sup> - ألفين كيرنان. موت الأدب. ص 203

<sup>2</sup> - فيصل دراج. التاريخ وعود الرواية. الكرمل. عدد 70 - 71. ص 140

<sup>3</sup> - انظر: افتتاحية فصول. عدد 63. صفحات غير مرقومة

<sup>4</sup> - أنظر: عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 46 - 47

بل هو - إضافة إلى ذلك - عمل إجرائي شاق، يتخذ من السؤال اليقظ منطلقه الدائم، لاكتشاف مكامن الأزمة في أفكار النصوص، وعلاقتها: تلك العلاقات الماكرة التي التحفت بسكوتها، وهذه الأفكار التي اعتصمت بتعاليتها الجمالي المفتعل، ثم فعلت أفاعيلها، بعيداً عن أعين الرقابة.

وعلى هذا، فالنقد الثقافي يهدف إلى هناك أستار هذه العلاقات والأفكار، ونثر مكوناتها أمام النقد الفاحص، تمهيداً لكشف طبيعة تأثيرها في الحياة، وفي الأفكار الإنسانية، والأحكام الجمالية، على حد سواء.

ونظراً لهذا التحول الجديد، من الشكل إلى المعنى، فقد تولت كل جماعة، من جماعات النقد الثقافي، التبشير برؤيتها التفسيرية، والمساهمة بها في هذا التيار الجارف: حيث تولت جماعات الدفاع عن حقوق المرأة، مهمة تفسير النصوص من وجهة نظر المرأة، فيما سُمي بالنقد النسوي. وتولت جماعة المهاجرين إلى بلاد المركز، مهمة نقد النصوص من وجهة نظر المهاجرين، القادمين من بلاد الهامش، فيما سُمي بما بعد الكولونيالية. وكذا تولت جماعات السود قراءة النصوص من وجهة نظر السود في أمريكا، على اعتبار أن كل قيم المجتمع المؤسسية والسلطوية ينتجها الرجل الأبيض... وهكذا.

## ثانياً: الخطوات الإجرائية:

يرى بيير بورديو أن أي تحليل، للأعمال الثقافية، لن يتم على أكمل وجه، إلا بإقامة الصلة بين بنيتين متماثلتين، هما: بنية الأعمال: أي النوع، والشكل والأسلوب، والموضوع... إلخ، وبنية الحقل الأدبي: كحقل للقوى لا ينفصم عن حقل الصراعات، التي تعتبر حقول الإنتاج الأدبي جزءاً منها. وإن دخول المؤلف في لعبة علاقات الإنتاج هذه، يعني بأنه يقبل ضمناً تحمل هذه الأعباء، والاستفادة من إمكانات هذه الأعباء الكامنة

فيها، والتي تقدم إليه كشروط، تفرض عليه أشياء ينبغي عملها، أو أشكال ينبغي خلقها، أو طرق ينبغي اختراعها<sup>(1)</sup>.

فالنص - ككل جوانب الثقافة الأخرى - ذو دور مؤثر في قبول التابع منطق الإذعان، أو رفضه وتحديه. وقد ميز غرامشي بين نوعين متكاملين من وسائل فرض الهيمنة: الهيمنة باستخدام القوة العسكرية، والهيمنة باستخدام توظيف الثقافة والنصوص، كي تقنع التابع بتخلفه ودونيته، وعدم قدرته على الممانعة، مما ينتج لديه، في نهاية المطاف، شعوراً بسيادة ثقافة السيد الغالب، وتدني ثقافة العبد المغلوب<sup>(2)</sup>. ومن هنا فقد كانت للنصوص، دوماً، تلك القدرة السحرية على المواجهة أو الاستكانة. ولعلنا نذكر جميعاً، كيف جن جنون شامير، وهو يقرأ قصيدة محمود درويش (عابرون في كلام عابر).

أمر آخر ينبغي الالتفات إليه - بالإضافة إلى كل ما سبق - وهو ضرورة الربط بين نصوص الكاتب، واعتبارها كلها، مع سيرته الذاتية، نصاً واحداً، عند أي إجراء تحليلي، يبتغي سبر كنه المحتوى الثقافي للنص. وقد دللت بحوث علم النفس الحديث، على أن كل مواقف الإنسان، في كل الظروف، مترابطة بوشائج قري لا يمكن إنكارها أبداً: فالشخص نفسه يبقى هو ذات الشخص، في المواقف المختلفة. ولا يمكن الحديث، علمياً، عن شخص نموذجي يفصل بين ارتباطاته، في الأنشطة المختلفة، بطرائق مختلفة، تبعاً لنوع النشاط، بمعزل عن عواطفه أو مصالحه الحيوية. وحتى إن وجد، مثل هذا الشخص، فإنه يمثل حالة الشذوذ التي تؤكد صحة القاعدة العامة. و"إن أكبر ابتكار في نظرية اللاشعور، هو إثباتها أن الفصل بين مختلف أنشطة الإنسان ومواقفه، قد كان

---

<sup>1</sup> - انظر: بيبير بورديو. أسباب عملية. ص 83

<sup>2</sup> - فريال جبري غزول. الثقافة بين الهيمنة والمقاومة. فصول. العدد 64. ص 124

اصطناعياً... يوجد أسس مشترك... بين السلوكيات الشاذة والمألوفة، لمختلف أصناف الأفراد، ومراحل العمر"<sup>(1)</sup>.

وقد لاحظنا كيف عنون إدوارد سعيد كتابه، المثير للاهتمام، بالعنوان الدال: (العالم والنص والناقد) حيث جعل النص في منطقة وسطى بين العالم والناقد، فيما أطلق عليه مصطلح (النقد الدنيوي) وهو مصطلح رديف لمصطلح النقد الثقافي. وتنبع أهمية إدوارد سعيد من كونه داعية نشاطاً، لمنهج نقد ثقافي حركي، بأسلوب ما بعد ماركسي - كما يصفه قسننت. ب. ليتش - يدعو إلى تحليل نصي صارم، للصلات الكثيرة، التي تربط النص بكل من المؤلفين والثقافات والمجتمعات؛ معتبراً أن "أي محو لهذه الارتباطات أو التجاورات، تحت مسميات الإنسانية أو الشكلانية أو البنيوية أو أي شيء آخر، يمثل تنازلاً عن المسؤولية النقدية". إضافة إلى كونه واحداً من أهم محرري مجلة (النقد الثقافي) التي كانت تصدر في جامعة مينيسوتا الأمريكية، عام 1985، وجمعت في هيئة تحريرها عدداً كبيراً ممن يهتمون بهذا المنهج الجديد، من أمثال: نعوم تشومسكي، تيري إيجلتون، جاياتري سيفاك، رايموند ويليامز، أليس جاردين<sup>(2)</sup>....

ويرى إدوارد سعيد: "أن إحدى الطرق، لتخيل المسألة النقدية للتكوين الفني، هي: النظر إلى النص على أنه ساحة دينامية؛ لا كتلة جامدة من الكلمات. وهذه الساحة لها سلسلة معينة من الصلات: أي منظومة من المجسات - التي دأبت على دعوتها بـ(صلات التقرب) - الكامنة جزئياً، والفعلية جزئياً؛ بالنسبة للكاتب، والقارئ، ولحالة تاريخية، ولغيرها من النصوص، وللماضي، والحاضر، سواءً بسواء. فبمعنى من المعاني: ما من نص يبلغ نهايته، وذلك لأن سلسلة صلاته المحتملة خاضعة للتمديد، على الدوام، بواسطة أي قارئ إضافي. وها قد صار من الواضح الآن أن مهمة الناقد؛ بادئ ذي بدء:

<sup>1</sup> - جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص 14

<sup>2</sup> - انظر: قسننت. ب. ليتش. النقد الأدبي الأمريكي. ص 406، ص 410

أن يفهم الكيفية التي صيغ، وبصاغ، بها النص. مع العلم أن الفهم، في هذه الحالة، فعل تخيلي: فما من تفصيل من التفصيلات بالغ التفاهة، شريطة أن تكون دراسة المرء موجهة - بمنتهى العناية - نحو النص، ككل ثقافي وفني حيوي. ولذلك فإن الناقد يقلد - أو يكرر - النص، في تمديده له منذ البدء، إلى أن يصبح كلاً متكاملًا<sup>(1)</sup>.

انطلاقاً من كل ما مضى، يمكن القول بأن الملامح الأساسية، لمنهج النقد الثقافي، الذي سوف نتبناه في هذا البحث، يمكن استخلاصها من نص إدوارد سعيد السابق، الذي نلخص أهم أطروحاته في النقاط الآتية:

- النص ساحة تتميز بالحيوية، فهو يشبه الكائن الحي، أكثر مما يشبه مجموعة كلمات، تملك استقلالها الذاتي ومرجعيتها الداخلية.
- النص مرتبط بصلات القرى مع العالم الخارجي، الذي ظلت النظرية الأدبية، في السابق، تعتبره غير ذي صلة، عند التناول النقدي.
- وهذا العالم الخارجي - المتدخل في تفسير النص - مكون من كل من الكاتب والقارئ والظروف التاريخية والزمنية، كما هو مرتبط كذلك بالنصوص السابقة عليه، والنصوص المواكبة له؛ سواء كانت لنفس المؤلف، أم لمؤلفين آخرين، حتى في موضوع مختلف.
- التعامل مع النص كوحدة جمالية واحدة لا تتجزأ، بحيث لا يُسمح باختلاق التعارض بين أجزائه.

وأخيراً، يود الباحث القول، بأنه لا يدعي قدرته على التوصل إلى الحقائق الدامغة، من وراء كل ما يقوله، أو يحاول البرهنة على صحته، لأنه مدرك أن الحقيقة الموضوعية - بمعناها الدال على موافقة القول للواقع كما هو - أمر يتعذر إقامة الدليل القاطع عليه،

---

<sup>1</sup> - إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 183

خصوصاً في حقول العلوم الإنسانية: لأن تعاليم هذا الفرع من العلوم "لا تتطوي إلا على القليل من القضايا والمبادئ الثابتة المقررة، التي لا تقبل الجدل والاعتراض. وأغلب ما يقره، وما يثبت، على درجات متفاوتة من الاحتمال والرجحان. ومن أمارات العقل العلمي قدرته على أن يقنع، بما يقارب اليقين، وقدرته على القيام بعمل إنشائي، والمضي فيه، حتى إن أعوزته الأدلة النهائية"<sup>(1)</sup>.

ورغم ذلك، فالباحث يستطيع الزعم بأنه سوف يقدم، أحياناً، بعض هذه الأدلة النهائية، وإن كان لا يطمح إلى تقديم دليل نهائي، غير قابل للجدل - ثبوتاً ودلالة - في كل محور من محاور البحث، مكثفياً بتقديم ما هو قريب من اليقين، أو ما يبلغ درجة الظن الراجح. وقديماً قرر علماء أصول الفقه، أن أغلب الأحكام الشرعية قائم على غلبة الظن الراجح. وقد بين هذا أحد كبار علمائنا قائلًا: "ورجحانُ الظنِ كافٍ في وجوب العمل. لهذا يقضي القاضي بشهادة الشاهد: وهي إنما تفيد رجحانَ الظن بالمشهود به. وتصحُّ الصلاة بالتحري في استقبال الكعبة، وهو إنما يفيد غلبةَ الظن. وكثيرٌ من الأحكام مبنيةٌ على الظن. ولو التزم القطعُ واليقينُ، في كل أمر عملي، لنال الناسُ الحرجُ"<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: في الخطة وتقسيم الفصول:

لما كان النص، في النقد الثقافي، متأثراً بعالمه التاريخي كمنتج له، ثم كان هذا العالم التاريخي بدوره متأثراً بالنص كنتاج له، فقد بدا للباحث، ضرورة إلقاء الضوء على بنية هذا العالم وعلاقاته، قبل الولوج إلى عالم النص، ومن هنا نبعت فكرة الفصل الأول، والحديث عن المؤسسات الفاعلة في حياة إميل حبيبي خصوصاً، وحياة الشعب الفلسطيني في الدولة اليهودية على وجه العموم.

<sup>1</sup> - سيجموند فرويد. محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي. ص 40

<sup>2</sup> - عبد الوهاب خلاف. علم أصول الفقه. ص 43



ومن هنا كذلك، ولنفس الأسباب، كان لا بد من دراسة نصوص الكاتب السياسية والفكرية، لما كان قد تقرر في المنهج، من ضرورة النظر إلى النص، باعتباره المادة الخام، التي يتم التوصل من خلالها، إلى تأثيراتها الثقافية، وتجلياتها في الحياة الواقعية. وإذا كان النص الإبداعي هو ما يتم التركيز عليه في النقد الثقافي، فما ذاك إلا لما يمثله من لحظة نصية، ذات تأثير جماهيري أوسع. وإن أي فحص لتداعيات هذه اللحظة، وأسباب اندلاعها، سوف تقودنا بالتأكيد إلى علاقات أخرى خارج النص الإبداعي، ولها علاقة بنصوص أخرى، من خارج العالم الإبداعي، كانت واقفة من وراء هذا التأثير، بطريقة لاواعية. ومن هنا نبعت فكرة الفصل الثاني، حول تحليل الإنتاج الفكري للكاتب، مجتمع البحث.

أما الفصل الثالث، المعنون بـ(تحليل الإنتاج الإبداعي من منظور ثقافي) فهو يكاد يكون صلب هذه الدراسة، ومادتها النقدية؛ لأنه يتناول النتاج الإبداعي الذي لا يزال النقد الأدبي يعتبره مادة البحث. مع العلم بأن الباحث لا يزال مصرّاً - خلافاً لرأي الدكتور الغدامي - على أن النقد الثقافي، هو أحد توجهات النقد الأدبي، أو هو النقد الأدبي، بعد أن عاد إلى موسوعيته، على حد تعبير الدكتورة هدى وصفي.

وإذا كان من الطبيعي الاقتصار على بعض إنتاج الكاتب الإبداعي - دون الكل - لما تتطلبه طبيعة كل بحث من الالتزام بقدر محدد من الصفحات؛ فقد جاء اختيار البحث لنصوص حبيبي: المتشائل، واخطية، وسرايا بنت الغول، لأنها آخر إنتاجاته الإبداعية، حيث يتقرر فيها آخر ما لدى المبدع من أدوات، خصوصاً بعد الشهرة التي نالته من وراء المتشائل، بحيث اعتبر ما قبلها إرهاباً بها، واعتبر ما بعدها هوامش عليها - أو على الأقل هذه هي رؤية الباحث التقييمية - التي اختار وفقها هذه النصوص، من بين المتبقي.

ثم كان من الطبيعي، بعد ذلك، إفراد بعض الصفحات، في نهاية البحث، لمحاولة رصد مجمل النتائج، التي توصل إليها الباحث، واعتبرها إجابة على سؤال البحث.

ونظراً لأن كثيراً من المواد، المحال إليها في هوامش البحث، غير متوفرة، بسبب الندرة، أو بسبب الموانع الجغرافية؛ فقد لجأ الباحث إلى إثبات ملحق بأهمها، لكي يتمكن الراغب في دراسة هذا الموضوع، من الرجوع إليها، بعد أن تعذر الوصول إليها في مصادرها الأولى. وغني عن البيان، أن الوصول إلى صحف الأرض المحتلة، خصوصاً القديمة منها، هو أمر شديد التعذر والصعوبة، على أكثر الدارسين، خصوصاً بعد كل هذه الأنواع من الموانع والحواجز الإسرائيلية، المتراكم بعضها فوق بعض، مثل قطع الليل المظلم.

والله المسؤول أن يجعل من هذا البحث منارة على طريق السالكين، ووسيلة لقراءة من نوع مختلف للنصوص، وذخراً ليوم الحساب، ورحمة لوالديّ اللذين ربياني صغيراً، ثم لم ينعماً برؤية ثمرة غرسهما. آمين. وصل اللهم على سيدي ومولاي وتاج رأسي: محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

## الفصل الأول

### إطار الفكر الثقافي عند إميل حبيبي

أولاً: الحزب الشيوعي الإسرائيلي:

أولاً-1: قبل النكبة:

1-1: الحزب الشيوعي الفلسطيني: خلفية تاريخية:

إن ما يميز المؤسسة الحزبية الإسرائيلية، أنها نشأت قبل ولادة الدولة اليهودية؛ بل حتى قبل ولادة الحركة الاستيطانية اليهودية (البيشوف) في فلسطين: فكل من البيشوف ثم الدولة يعتبران النتائج الواقعية المتحققة على الأرض الفلسطينية، لبنية مؤسساتية حزبية قامت في القرن التاسع عشر، ولم تكن إلا صهيونية. وإن نظرة بسيطة منا إلى تعريف الصهيونية، سوف تتيح لنا استيضاح هذا الرابط البنيوي، بين هذه المؤسسات الحزبية والحركة الصهيونية.

يعرف معجم الأعلام بالمنجد الصهيونية بأنها: "حركة المطالبين بوطن قومي لليهود في فلسطين. نشأت في القرن التاسع عشر"<sup>(1)</sup>.. أما موسوعة السياسة فتعرف الصهيونية بأنها: "دعوة وحركة دينية سياسية إجلائية، مرتبطة نشأة وواقعاً ومصيراً

---

<sup>1</sup> - المنجد في الأعلام. مادة: صهيونية.

بالإمبريالية العالمية، تطالب بإعادة توطين اليهود وتجميعهم وإقامة دولة خاصة بهم في فلسطين. بواسطة الهجرة والغزو والعنف، كحل للمسألة اليهودية<sup>(1)</sup>.

فكرة الصهيونية الأساس، هي إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وهذه الفكرة لا تتحقق إلا بالهجرة والاستيطان، اللذين يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً عضوياً شرطياً: حيث لا هجرة إلى لامكان، ولا مكان للشعب اليهودي إلا في فلسطين؛ الأمر الذي يقتضي - إلى جانب الهجرة - (البيشوڤ): أي الاستيطان في الأرض.

وبما أن هذه الأرض ليست خالية - بل إن بها شعباً قد وجد منذ القدم ارتبط اسمه باسمها وتحققت هويته عليها - فلا بد إذن من إخلاتها منه بالعنف والقهر والطرده.

وعلى هذا، فإن أساس فكرة الصهيونية هو تحقيق ما يسمى بتوق اليهودي إلى إقامة وطن قومي له في فلسطين. يقول ديفيد بن غوريون: "الصهيونية هي الشوق لصهيون: أي لأرض إسرائيل، ولإقامة شعب مثالي فيها. وبالتالي فإن بناء إسرائيل الحقيقيين هم الذين أحسوا بالشوق إليها، وقدموا إليها. حتى إن المهاجر اليهودي [أي الذي لم يسجل اسمه في حزب صهيوني] الذي يأتي إلى إسرائيل، يخدم إسرائيل أكثر من ذلك الذي يعتبر نفسه صهيونياً ويقيم خارجها"<sup>(2)</sup>.

هكذا يحدد مؤسس إسرائيل، ورئيس وزرائها الأول، المعنى العميق للصهيونية، باعتبارها مرتبطة، بالدرجة الأولى، بالهجرة والاستيطان: فكل مهاجر يهودي إلى أرض فلسطين، بهدف الاستيطان وإقامة الدولة، هو صهيوني. ولا عبارة بتعريف بعض الشيوعيين الفلسطينيين للصهيونية - انطلاقاً من انتماءات حزبية - على أنها غير ذلك،

<sup>1</sup> - موسوعة السياسة. المجلد 3. ص 659

<sup>2</sup> - جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 54

ومثال ذلك ما قاله سميح سمارة، في كتاب (العمل الشيوعي)، من أن: "الصهيونية هي التعبير عن الجهود الاستعمارية والاضطهادية الحثيثة للبورجوازية اليهودية، التي تستغل الأقليات القومية في شرقي أوروبا، لفرض السياسة الإمبريالية الرامية إلى تأمين سيطرتها"<sup>(1)</sup>. وكأن لا علاقة للصهيونية بفلسطين وأرضها وشعبها!.

لقد تطور البيشوف في فلسطين ونما، من خلال الأحزاب والحركات الصهيونية، التي نشأت قبل ذلك في أوروبا، في القرن التاسع عشر. ولقد كان العدد الأكبر من هذه الحركات متأثراً بالأفكار الاشتراكية؛ حيث أنه من الثابت تاريخياً، أن اليسار الصهيوني لم يعمل فقط على حل ما سمي بالمسألة اليهودية، حلاً قومياً، بل حرص على أن يكون هذا الحل - إلى جانب قوميته - اشتراكياً: فالهجرة والاستيطان تضمنان الحل القومي. وتوفير الحرية والمساواة في العمل تضمنان الحل الاشتراكي<sup>(2)</sup>. كل ذلك لليهود، ولليهود وحدهم.

لقد ظهرت أولى المجموعات الصهيونية في روسيا، في الفترة الواقعة بين الأعوام (1899-1904). وقد عُرفت باسم (پوعلي تسيون)<sup>(3)</sup> أي: عمال صهيون. ويعتبر (دوف بوروخوف/ Dov Borochof) أهم منظري هذه الحركة الصهيونية الاشتراكية.

نشأ بوروخوف في روسيا، "وكان أبوه عضواً في جمعية أصدقاء صهيون، الأمر الذي ترك أثراً عميقاً فيه؛ فقد ظل طوال حياته يحاول الجمع بين الصيغة الصهيونية الأساسية

---

<sup>1</sup>- انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 73

<sup>2</sup>- انظر: جورج كرزيم. جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 1

<sup>3</sup>- انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 2

والديباجة الاشتراكية... وقد ساهم [بعد ذلك] في تأسيس الفيلق اليهودي<sup>(1)</sup> مع كل من بن غوريون العمالي وجابوتسكي اليميني<sup>(2)</sup>.

وإضافة إلى (پوعلي تسيون)، أخذت الأحزاب الاشتراكية الصهيونية، في أوروبا، تتكاثر بعد عام 1905؛ حيث نشأ حزبان هامان هما: (هيوغيل هتسجير) أي: الشباب العامل، و(تسيغيري تسيون) أي: شباب صهيون. وقد دعت كل هذه المجموعات إلى ضرورة الهجرة إلى فلسطين، وبناء القاعدة المادية اللازمة للدولة اليهودية الاشتراكية. وفي عام 1920، انشقت عن مجموعات بوغالي تسيون جماعة من المهاجرين إلى فلسطين، وأسست حزب العمال الاشتراكيين، الذي أصبح يعرف باسم (موسبي): وهو الاختصار العبري لاسم الحزب: (مفليجت پوعاليم سوشياლისتيم). حيث سيعتبر موسبي، بعد ذلك، النواة الأولى للحزب الشيوعي الفلسطيني. وعندما شارك موسبي في المؤتمر التأسيسي، للاتحاد العام للعمال اليهود في أرض إسرائيل (الهستدروت)<sup>(3)</sup> عام 1920، تحول اسمه

---

<sup>1</sup> عبد الوهاب المسيري. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. المجلد 6. ص 276

<sup>2</sup> في 19/9/1944، وافقت الحكومة البريطانية على إنشاء لواء يهودي، يشترك في العمليات الحربية، ويعتبر وحدة قتالية خاصة لها علمها الخاص - وهو علم إسرائيل بعد ذلك - وقد بلغ عدد أفرادها خمسة آلاف مقاتل، وتدرّبوا في مصر، ثم في إيطاليا، قبل أن يلتحقوا بالقوات البريطانية المقاتلة في أوروبا. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، التحق هذا اللواء بعصابات الهاجاناه، التي شكلت النواة الأساسية للجيش الإسرائيلي. انظر: الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلد 4. ص 54

<sup>3</sup> - من أهم مقررات هذا المؤتمر: "إن هدف الهستدروت الرئيس هو تحقيق الفكرة الصهيونية. وإنه يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من العوامل الأساسية في العمل الصهيوني، وفي الهجرة والتوطين والسيطرة على فلسطين واستعمارها". انظر: الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلد 4. ص 543

إلى: حزب العمال الاشتراكيين العبرانيين<sup>(1)</sup>. وواضح من هذه التسمية الجديدة، أنها كانت استجابة لشروط الهستدروت، بصفتها نقابة عمالية مقصورة على اليهود آنذاك<sup>(2)</sup>.

وبعد عدة انشقاقات، داخل حزب العمال الاشتراكيين العبريين، تحول ما تبقى منه إلى (الحزب الشيوعي اليهودي). ثم خرجت منه فئة أكثر يسارية، تتهمه بمهادنة الصهيونية. وأقامت (الحزب الشيوعي في فلسطين). أما ما تبقى من الحزب الشيوعي اليهودي - وهو الجزء المهادن للصهيونية، حسب اتهام المنشقين - فقد أسس أعضاؤه (الحزب الشيوعي الفلسطيني)، بزعامة حاييم أورياخ، وحصل هذا الحزب، في نفس العام، على عضوية الأمم المتحدة الثالثة (الكومنتيرن) المشروطة. وفي أواخر عام 1923 عاد المنشقون - الحزب الشيوعي في فلسطين - إلى حظيرة الحزب المتهم بمهادنة الصهيونية، وتوحد الحزبان، تحت اسم نفس الحزب الذي يتزعمه حاييم أورياخ، وهو: الحزب الشيوعي الفلسطيني<sup>(3)</sup>.

لقد كانت أهم شروط الكومنترن، تتلخص في ضرورة تعريب الحزب، والتناقض مع الصهيونية. ولكن الحزب لم ينجح في تجنيد عربي في صفوفه، إلا في عام 1924<sup>(4)</sup>. ثم ابتعث عدداً من أعضائه العرب - الذين نجح في تجنيدهم بعد ذلك بوقت طويل - إلى موسكو، ليتلقوا تعليماً أيديولوجياً، في جامعة ستالين لعمال الشرق، عام 1934، حيث كانت الأمم المتحدة الثالثة قد عينت للحزب، قبل ذلك بسنتين، العربي (رضوان الحلو) - الملقب

---

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 2

<sup>2</sup> - لم توافق الهستدروت طوال عهد الانتداب على قبول عضوية أي عربي في صفوفها، حتى عام 1959. و فقط في عام 1965، منح الأعضاء العرب حق التصويت والترشح. انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 90

<sup>3</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 3

<sup>4</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 4

باسمه الحركي (موسى) - سكرتيراً عاماً<sup>(1)</sup>، لهذا الحزب المزدحم بالأعضاء اليهود المستوطنين، ذوي الديباجة الاشتراكية.

ويظهر أن استجابة الحزب لطلب التعريب قد آتت بعض نتائجها، وإن كانت محدودة؛ فإضافة إلى زعامة موسى، لوحظ أن الحزب شارك، مشاركة ثانوية، في ثورة 1936، إلى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية. لكن فشل الثورة، بعد ذلك، جعل يوم الحساب يحل: حيث "أدان قسم كبير من الأعضاء اليهود، في الحزب، مشاركة الحزب في ثورة 1936... وتصدى أغلب الأعضاء العرب لهذا التوجه"<sup>(2)</sup>.

وإذ بدأ بعض نشطاء الحزب اليهود، في فرع تل أبيب، يثيرون الاعتراضات على مشاركة الحزب في الثورة؛ داعين "العرب واليهود للإحجام عن إراقة الدماء"<sup>(3)</sup>، فقد كان رد الحزب أن حل لجنة فرع تل أبيب، وطرد بعض أعضائها. ولكن اتساع الخلاف بين الرفاق، على إثر ذلك القرار، قد أجبر القيادة مرة أخرى، على الموافقة على إقامة فرع يهودي، ينفذ نشاطات الحزب في القطاع اليهودي.

ومنذ ذلك صارت الدائرة اليهودية تتصرف كحزب مستقل، وأخذت تترد إلى الصهيونية شيئاً فشيئاً. وفي البداية، أخذت تفرق بين معسكرين، في الصهيونية - تقدمي ورجعي - داعية إلى التعاون مع التقدمي. ثم انتهى بها الأمر، إلى تبني المواقف الصهيونية السافرة. وعند هذا الحد، قرر الحزب حل الدائرة اليهودية، مرة أخرى، عام 1939. ليلجأ

---

<sup>1</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 83، 140 - 141

<sup>2</sup> - موسوعة السياسة. المجلد 2. ص 411 - 412

<sup>3</sup> - محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 16



نشطاء الدائرة المحلولة، إلى تكوين جماعة شيوعية مستقلة باسم (إميت): أي الحقيقة. وصارت هذه الجماعة تتخذ مواقف صهيونية صريحة، وتروج لها<sup>(1)</sup>.

بعد مشاركة الاتحاد السوفيتي، في الحرب العالمية الثانية، عادت جماعة إميت إلى الحزب عام 1942، وحلت نفسها. وبذا فقد أعيد توحيد الحزب من جديد. لكن هذه العودة المملوغة أدت إلى صراعات متكررة، داخل الحزب، على خلفية قومية عربية يهودية، الأمر الذي حدا بالكومنترن إلى حل الحزب، عام 1943، لينقسم نشاطه إلى أربع مجموعات، هي:

- جماعة شمونيل ميكونس: الصهيوني الاشتراكي.
- جماعة إميت: من نشطاء فرع تل أبيب.
- جماعة النشطاء العرب: إميل حبيبي، إميل توما، موسى الدجاني، توفيق طوبي، بولس فرح ...
- جماعة صغيرة ظلت حول السكرتير العام موسى<sup>(2)</sup>.

وقد تبذرت جماعة موسى سريعاً. وأسس النشطاء العرب عصبة التحرر الوطني، في خريف نفس العام 1943. بينما اجتذبت جماعة ميكونس غالبية الشيوعيين اليهود - بمن فيهم جماعة إميت - وشكلوا مرة أخرى (الحزب الشيوعي الفلسطيني)، في نيسان 1944. وبعد ذلك بقليل حصلت جماعة ميكونس على اعتراف قانوني من حكومة الانتداب وواصلت إصدار جريدة الحزب العبرية (كول هعام) أي صوت الشعب<sup>(3)</sup>. ثم عزز الحزب علاقته بالمؤسسات الصهيونية وأجرى نقداً ذاتياً قاسياً لموقفه السابق من ثورة 1936،

<sup>1</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 17

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 17 - 20

<sup>3</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 19

معتذراً عن مشاركته المحدودة فيها، ومعتبراً تلك المشاركة خطأ قومياً يهودياً راجعاً إلى تأثير الكوادر العربية والكمونترن<sup>(1)</sup>. وتبنى شعارات من مثل: التطور الحر للوطن القومي اليهودي - الكفاح من أجل تطوير الوطن القومي اليهودي<sup>(2)</sup>.

وهكذا تبنى الحزب الشيوعي الفلسطيني، أخيراً "سياسة ممالئة للخط الصهيوني، وأصبح التطابق بينه وبين الوكالة اليهودية كاملاً"<sup>(3)</sup>، إلى أن غير اسمه إلى (الحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي) في مايو 1947<sup>(4)</sup>.

## 1- 2: عصبية التحرر الوطني:

اجتذبت عصبية التحرر الوطني عدداً كبيراً، من النشطاء السياسيين العرب، غير الحزبيين، وزعماء النوادي الثقافية والاجتماعية العربية؛ فيما يمكن تسميته تجمعاً جبهوياً عربياً، على أسس وطنية ديموقراطية<sup>(5)</sup> تولى قيادته، في الغالب، شيوعيو الحزب القداماء، من أمثال بولس فرح، وإميل توما، وتوفيق طوي، والشاب إميل حبيبي. وأصدر هذا التجمع بيانه الأول، في فبراير 1944، الذي تضمن ميثاق العصبية، وأسماء أعضاء لجنيتها المركزية<sup>(6)</sup>. وحين نجح إميل توما في الحصول، من سلطات الانتداب، على

<sup>1</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 111

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 19 - 20

<sup>3</sup> - الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلد 6. ص 782

<sup>4</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 20

<sup>5</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 180 - 181

<sup>6</sup> - انظر: الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلدان الأول والثالث. ص 513، 11

ترخيص بإصدار جريدة (الاتحاد) الأسبوعية، في نفس العام، جعلها جريدة العصابة الرسمية<sup>(1)</sup>.

بدأت العصابة في انتهاج سياسة وطنية ثابتة. ودعت إلى جلاء القوات البريطانية. وطالبت باستقلال فلسطين، وإقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية، التي تضمن حقوق جميع سكانها: عرباً ويهوداً<sup>(2)</sup>. لكن الأمر تغير مع إصدار لجنة تقصي الحقائق - التي أرسلتها الأمم المتحدة - مقترح التقسيم عام 1947، الذي رفضته العصابة فوراً، ثم فوجئت بموافقة الاتحاد السوفيتي عليه - ضمناً، ثم صراحة - عندما صار قراراً صادراً عن الجمعية العامة، بعد ذلك. الأمر الذي وضع العصابة - بمواقفها السابقة - في موقف حرج. لذا فقد اجتمعت اللجنة المركزية أكثر من مرة، لبحث هذا الموضوع، ثم أصدرت قرارها برفض التقسيم، خلافاً لموسكو، ووزعت بياناً بهذا القرار، موقعاً من أعضاء اللجنة المركزية، كل باسمه، وبالإجماع<sup>(3)</sup>.

لماذا كانت الحاجة إلى توقيع هذا القرار، بالأسماء، وبهذه الطريقة المعلنة!.

لعلنا نستطيع الاستنتاج هنا، بأن خلافاً كبيراً كان قد وقع، بين أعضاء اللجنة المركزية، بسبب ظهور أقلية داخل اللجنة، تطالب بالتخلي عن ثوابت العصابة، بهدف التوافق مع موسكو أولاً، ثم الحزب الشيوعي الأرض الإسرائيلي ثانياً؛ الأمر الذي أشعر الأغلبية بالتخوف، من وقوع اتصالات سرية، بين بعض الأعضاء، وهذه الجهات. ومن ثم فقد أرادوا أن يوقف كل عضو أمام مسؤوليته التاريخية، من خلال بيان تفرؤه الجماهير، ويسجل كوثيقة تحمّل لكل موقع موقفه، وتحميه في المستقبل. وإن لهذا

<sup>1</sup> - انظر: موسوعة السياسة. المجلد 4. ص 113

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 20

<sup>3</sup> - انظر كلاً من: جورج كرزوم ومحمود محارب. ص 39 - 40، ص 42 - 43

الاستنتاج ما يبهره، مما حدث بعد ذلك: إذ استطاعت قلة من كوادر العصبة - على رأسها إميل حبيبي - الالتفاف على كل ذلك، والدعوة إلى لقاء سري في الناصرة، في أوج معارك 1948 - وافقت فيه الأقلية على التقسيم؛ في غياب الأكثرية، التي لم يتم إعلامها باللقاء<sup>(1)</sup>. وأصدرت بذلك بياناً، زعمت أنه بيان اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني.

### 3-1: المقارنة:

في الوقت الذي واجهت فيه العصبة هذه الانقسامات، كان الحزب الشيوعي الأريزي إسرائيلى - الفلسطينى سابقاً - يعزز من اندماجه فى الحركة الصهيونية: وصار يعلن جهاراً تشجيعه للهجرة، ودعمه لحركة اليبشوف، ويطالب بتوسيعها؛ وصولاً على اشتراكه الفعال، فى الحرب ضد المواطنين الفلسطينيين، حيث لم يكتف الحزب باستقدام السلاح، من دول أوروبا الشرقية، لعصابات الهاجاناه، بل وجه نداءه إلى جماهير العمال اليهود، وأبناء اليبشوف، بضرورة الدفاع عن الدولة اليهودية، فى وجه العصابات العربية المأجورة، معتبراً أن الاستقلال القومى اليهودى، سوف يتم "فقط، من خلال الحرب"<sup>(2)</sup>.

إذن، فخلال الحرب، ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، كان لدينا فى فلسطين تنظيمان شيوعيان: واحد عربى، والآخر يهودى. وكلاهما يعلن رفضه للصهيونية، ويوافق على قرار التقسيم، وإنشاء دولة يهودية فى فلسطين. ومع أن التنظيم اليهودى يمارس أهم فعاليات الصهيونية ويدعمها - الهجرة والاستيطان - ثم يقاتل إلى جانب عصابات الهاجاناه، فى المعارك، ويستورد لها السلاح والطائرات<sup>(3)</sup>؛ إلا أن التنظيم العربى - عصبة

<sup>1</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 42 - 43

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 1

<sup>3</sup> - انظر: وثيقة رقم 2

التحرر الوطني - سوف يعاني من تراجع في مواقفه الوطنية والقومية، وفق متواليه متدرجة، تقوده نحو أطروحات زميله الأرض إسرائيلي، وفق الترتيب التالي:

- أ: عدم تحديد موقف واضح من الهجرة اليهودية إلى فلسطين: حيث لم تستطع العصبية اتخاذ قرار برفض الهجرة، أو محاربتها؛ بل اشترطت منذ البدء، لاستمرار الهجرة، موافقة سكان البلاد. معتبرة المشكلة مسؤولية دولية<sup>(1)</sup>.
- ب: ثم رفض دخول الجيوش العربية إلى فلسطين؛ باعتبارها قادمة لمنع تنفيذ قرار التقسيم، وللسيطرة على الجزء المخصص للدولة العربية، ومنع تحقق الدولة اليهودية. الأمر الذي تطور إلى موقف أكثر عدائية، من هذه الجيوش، في يوليو 1948، عندما قامت العصبية بتوزيع منشورات على الجيوش العربية المحاربة، تدعوها إلى الرجوع إلى بلادها<sup>(2)</sup>، هذا نص أحدها: "نداء إلى الجنود: يا جنود مصر والأقطار العربية الشقيقة، عودوا إلى أوطانكم، ووجهوا نيرانكم إلى صدور المستعمرين وأذنانهم"<sup>(3)</sup>.
- ج: بعد ذلك، جاء دور التنديد بالقيادة الوطنية الفلسطينية، واتهامها بالاشتراك في تجاهل الحقائق، والتخلف عن إدراك الواقع، برفض التقسيم، ومن ثم المشاركة في التسبب بالكارثة. وقد تولى المحرر السياسي لجريدة الاتحاد<sup>(4)</sup>، في عددها الصادر بتاريخ 2 نوفمبر 1947 هذا التنديد<sup>(5)</sup>، وواصله بعد ذلك الشيوعيون الفلسطينيون، إلى درجة القول بعمالة القيادة الوطنية للاستعمار. وها

<sup>1</sup> - انظر: موسوعة السياسة. المجلد 4. ص 113

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>3</sup> - ماهر الشريف. الشيوعيون وقضايا النضال الوطني الراهن. ص 20

<sup>4</sup> - سوف نعرف بعد ذلك أن هذا المحرر السياسي هو إميل حبيبي. من شهادة شفوية للشاعر أحمد دحبور الذي سمعه يفتخر بذلك. وعلى كل حال، فلا أحد من محرري الصحيفة كان له مثل هذا الموقف، في تلك الأيام، باستثناءه.

<sup>5</sup> انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 43

هو بعض ما يقوله سميح سمارة، في كتابه (العمل الشيوعي في فلسطين) في الصفحة 352:

"أما القيادة الرجعية للحركة الوطنية العربية في فلسطين، الممثلة في الهيئة العربية العليا، فقد كانت أشد كرهاً لقرار هيئة الأمم المتحدة، ولحرية فلسطين، من بقية الرجعية في الأقطار العربية. إذ كيف كان ممكناً أن يوافق الحاج أمين الحسيني - عميل هتلر سابقاً، و عميل أمريكا حالياً - على هذا القرار، وهو الذي شاد زعامته، خلال سنين عديدة، على أساس الاحتراب العنصري، وخدمة المستعمرين، من كل جنس ولون!"<sup>(1)</sup>.

لكل هذه العوامل، قامت الجماهير العربية بمهاجمة مقار العصبة، وإحراقها، خلال العمليات الحربية عام 1948<sup>(2)</sup>. وفر أعضاء العصبة المواقفون على التقسيم إلى لبنان. ولم يعودوا منه، إلا بعد أن أعلن بن غوريون إقامة الدولة العبرية<sup>(3)</sup>، لبيحثوا في الطريقة المثلى، لتحقيق كيانهم الحزبي، من جديد، داخل الدولة العبرية الناشئة، والتي ما زالت تخوض المعارك على جبهات القتال<sup>(4)</sup>.

## أولاً-2: بعد النكبة:

### 1-2: وحدة الفرعين وسط المعارك:

مع بداية عام 1948، نشبت الحرب بين المواطنين الفلسطينيين العزل، والعصابات الصهيونية، التي كان قد تم إعدادها جيداً، على يد قوات الحلفاء، وعلى جبهة الحرب

<sup>1</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 177

<sup>2</sup> - انظر: موسوعة السياسة. المجلد 4. ص 113

<sup>3</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>4</sup> - تم إعلان الدولة العبرية في أبريل 1948. واستمرت المعارك مع الجيوش العربية ومقاتلي الهيئة العربية العليا حتى أغسطس 1949

الأوروبية، ثم في داخل المستوطنات. و"خلال هذه الحرب، وقبل تدخل الجيوش العربية، وبينما كانت بريطانيا لا تزال منتدبة على فلسطين، شرعت الهاجاناه - القوة العسكرية الرئيسية للييشوف - في تنفيذ خطتها سلفاً، والمعروفة بخطة (دالت) . كان هدف هذه الخطة: السيطرة على أراضي الدولة اليهودية المقترحة، والدفاع عن حدودها وعن السكان اليهود الذين كانوا خارج حدودها، ضد أي جيش نظامي، أو غير نظامي، وأية قوة تعمل من قواعد، داخل أو خارج أراضي الدولة"<sup>(1)</sup>.

ولتحقيق هذا الهدف، نصت خطة دالت على تكليف قوات الهاجاناه بضرورة: "القيام بعمليات ضد التجمعات السكانية للعدو، الموجودة داخل، أو بالقرب، من نظام (دفاعنا)، بهدف منع استخدامها قواعد لقوة مسلحة ناشطة. [و] تدمير مثل هذه القرى، والقيام بعمليات تفتيش. وفي حال المقاومة: إبادة القوة المسلحة وطرد السكان إلى خارج حدود الدولة. [واحتلال الأحياء] المسيطرة على طرق الخروج من المدن والدخول إليها، [و] يطرد السكان إلى المنطقة البلدية المركزية للعرب [في قرار التقسيم]"<sup>(2)</sup>.

وفيما يخص الحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي - الفلسطيني قبل أقل من عام - فقد كان مستعداً لهذه المعارك منذ البدء، بل حتى منذ ما قبل اشتعالها: ففي أحد الأيام الأخيرة من نوفمبر 1947، طلب السكرتير العام شموئيل ميكونس إجراء اجتماع عاجل، مع إدارة اللجنة القومية - قيادة الييشوف الرسمية - لبحث أمور أمنية. وأبلغ ميكونس القيادة الصهيونية بأن "المسألة اليوم ليست مسألة أمن وضمّان سلام للشعبين فقط... بل إنها

---

<sup>1</sup> - من كتاب: (تاريخ الهاجاناه) الصادر بالعبرية. نقلاً عن: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 43 - 44

<sup>2</sup> - أحمد خليفة (مترجم ومحرر). حرب فلسطين (1947-1948). ص 247

أيضاً، مسألة تعبئة القوى الشعبية - الميليشيا - التي تضطلع - إلى جانب مندوب الأمم المتحدة - بتنفيذ القرارات الخاصة بإقامة دولة يهودية مستقلة<sup>(1)</sup>.

وعند ابتداء العمليات العسكرية، انضم أعضاء الحزب الشيوعي اليهود إلى صفوف الهاجاناه، ومن ثم إلى الجيش الإسرائيلي بعد ذلك. كما ساهم الحزب مساهمة فعالة في تجنيد الهجرة اليهودية المقاتلة، واستيراد المعدات والخبراء العسكريين، من المعسكر الشرقي، لصالح المجهود الحربي الصهيوني<sup>(2)</sup>.

وبعد أن أعلن قيام إسرائيل، على أرض تتجاوز ما خصصه لها قرار التقسيم، لم يطالب الحزب بانسحاب القوات الإسرائيلية، من هذه الأراضي - التي هي حسب أديباته مخصصة للدولة العربية - بل على العكس من ذلك، "انتقد الحزب... الحكومة الإسرائيلية لخضوعها للضغوط الإمبريالية بالانسحاب... ولفشلها في احتلال أراضٍ أخرى خارج الدولة اليهودية... وانتقد الحزب الحكومة أيضاً لفشلها في (تحرير) أراضٍ أخرى... كان في استطاعة إسرائيل (تحريرها)... وأوضح أن الفشل في (تحرير) القدس القديمة من الجيش البريطاني، كان نتيجة خضوع الحكومة لضغوط بريطانيا"<sup>(3)</sup>.

وفي أوج الحرب، ثم بعد الهدنة، لم تنقطع الاتصالات بين نشطاء العصابة، الذين عادوا من لبنان، والحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي، بل إن الوثائق لتدلنا على أن إميل حبيبي وجماعته، على جانبي خط الهدنة، قد أجروا مباحثات حثيثة، مع الرفاق من حزب ميكونس، بهدف العودة إلى الصف، وإقامة حزب شيوعي أممي واحد في إسرائيل. ولأن ميزان القوى كان قد تغير، فقد غدا من الواضح أن شروطاً صعبة سوف تُفرض على

---

<sup>1</sup> - من جريدة الحزب العبرية (كول هعام). نقلاً عن محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 47

<sup>2</sup> - انظر: الوثيقتين رقم 1، ورقم 2

<sup>3</sup> - انظر: الوثيقة رقم 2



هؤلاء العائدين. ولقد كان أهم هذه الشروط، هو ضرورة إجراء عصابة التحرر الوطني نقداً ذاتياً معلناً، لأخطائها القومية السابقة. وبالفعل فقد قبلت العصابة هذه الشروط، وأصدرت بيانها المطول، الذي تعتذر فيه عن ماضيها الوطني. وبذا فقد تم الاندماج أخيراً بين الشيوعيين العرب الفلسطينيين، والشيوعيين اليهود الإسرائيليين، تحت اسم حزب الدولة المنتصرة: الحزب الشيوعي الإسرائيلي<sup>(1)</sup>.

وهكذا، في الثامن عشر من أكتوبر 1948، أصبح لدينا حزب شيوعي أممي واحد في إسرائيل، هو الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ورمزه (ماكي) - اختصاراً من اسمه العبري: مفلجاء كومونستيت يسرائيليت - بلجنة مركزية واحدة، مكونة من عرب ويهود، وبقيادة الرفيق شموئيل ميكونس، الذي ناضل مطولاً من أجل (تحرير) إسرائيل. وإلى جانب ميكونس، ومثير قلنر، في اللجنة المركزية، أصبح لدينا الآن الرفيقان: إميل حبيبي، وتوفيق طوبي. وفي المقابل، تم استبعاد إميل توما من عضوية هذه اللجنة، عقاباً له على موقفه من قرار التقسيم. وبالرغم من أنه كان قد تراجع، ونقد نفسه ذاتياً، على هذا الموقف القومي السلبي، وأعلن أنه ارتكب خطأ، برفضه قرار التقسيم، إلا أن العقاب سوف يستمر قائماً بحقه، ولن يصعد إلى اللجنة المركزية، إلا بعد عدة سنوات<sup>(2)</sup>.

"وبعد هذه الوحدة، نشط الشيوعيون من أجل استقرار الديمقراطية، في الكيان الصهيوني. وانخرط العرب في هذا النشاط، داعمين لحماية الحقوق اليومية للسكان العرب المتبقين. إلا أنهم توافقوا أيضاً مع الشيوعيين اليهود، في الدعوة لقطف الزيتون، من القرى

---

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 5

<sup>2</sup> - انظر: صبري جريس. اليمين الصهيوني نشأة وعقيدة وسياسة. ص 60

العربية الخالية، لصالح الكيرن كيممت<sup>(1)</sup>، كما سكتوا على وساطة الحزب الشيوعي لعقد صفقة الأسلحة التشيكية، واعتبار دولة إسرائيل مفتوحة للهجرة، مضمونة للعمل<sup>(2)</sup>.

وعهد شموئيل ميكونس إلى كل من توفيق طوبي وإميل حبيبي، بتجنيد العمال العرب من الناصرة والرملة، لقطع زيتون اللاجئين. وقام الرفيقان بهذه المهمة خير قيام<sup>(3)</sup>، مما دل على أن السيطرة اليهودية على الحزب، لم تستطع أن تعكس أممية حقيقية، في العلاقة بين الأعضاء، بل عكست سيطرة مجموعة قومية يهودية، على عرب مهزومين، الأمر الذي سوف يظل يعاني منه الحزب إلى فترة طويلة قادمة.

لقد قامت الدولة الآن، وأصدر رئيس حكومتها المؤقت ديفيد بن غوريون وثيقة الاستقلال، وأنشأ مجلس الدولة المؤقت. وتمثل الحزب الشيوعي في هذا المجلس، بشخص سكرتيره العام شموئيل ميكونس. ووقع الحزب - ممثلاً بالرجل الثاني فيه مئير قلنر - على وثيقة الاستقلال<sup>(4)</sup>. وفرضت الحكومة على العرب الأحكام العسكرية، ومنعت تنقلاتهم الليلية، كما منعت سفرهم من قرية إلى أخرى دون إذن مسبق. وأحاطتهم بالمراقبة الدائمة. وبذا فقد صار العرب المتبقون "في فراغ سياسي، بدون تنظيم سياسي وطني. الأمر الذي أخلى الساحة السياسية للحزب الشيوعي الإسرائيلي: الحزب الوحيد الذي أتاحت له السلطة الصهيونية العمل والنشاط، وسط العرب"<sup>(5)</sup>، إلى جانب الأحزاب الصهيونية كالمبام والمباي. وصار الحاكم العسكري الصهيوني بالناصرة، يستقبل كل

---

<sup>1</sup> - الصندوق القومي اليهودي، المكلف بشراء الأراضي من العرب لصالح الاستيطان. وهذا الصندوق ذو صبغة عنصرية بحتة، كون قوانينه لا تسمح بنقل أراضيه لغير اليهود.

<sup>2</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48 نضال مستمر. ص 196

<sup>3</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 207

<sup>4</sup> - انظر: وثيقة رقم 12

<sup>5</sup> - جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 202

عام، في عيد استقلال دولة إسرائيل، جوقة الحزب الشيوعي الموسيقية، لتتشد له نشيد البلماخ: أي النشيد القومي الصهيوني<sup>(1)</sup>.

في مثل هذه الظروف قامت انتخابات الدورة الأولى للبرلمان الإسرائيلي - الكنيست الأولى - عام 1949. وكان على الحزب الشيوعي بذل قصارى جهده، للفوز بأصوات العرب. ولم يكن ذلك سهلاً، مع وجود قوائم عربية تابعة لأحزاب صهيونية أخرى، وعلى رأسها عملاء للسلطة، من الشخصيات العربية التقليدية. وكان عضو اللجنة المركزية توفيق طوبي، قد تقدم بطلب إلى مجلس الدولة، بمنحه رخصة إصدار جريدة الاتحاد، التي كانت قد توقفت بعد النكبة. فتقدم سكرتير الحزب شموئيل ميكونس باستجاب، إلى وزير الداخلية اليهودي، حول تأخير منح الترخيص. فصدر الترخيص باسم توفيق طوبي. وعادت جريدة إميل توما، المعارض السابق للتقسيم، إلى الصدور، باسم رئيس جديد، مقبول عند القيادة اليهودية، وصارت لسان حال الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بعد أن كانت لسان حال عصابة التحرر الوطني<sup>(2)</sup>.

كما سهل ميكونس، للرفاق العرب، الحصول على الإذن بالتجوال، في أماكن التجمع العربية المحاصرة، وعقد الاجتماعات الانتخابية، ومهاجمة سياسة الدولة الخاصة بالفلسطينيين، والمطالبة برفع القيود عنهم، مما أشعر الجماهير العربية - وسط هول هزيمة لم تمر عليها شهور - بأن الحزب الشيوعي، بأعضائه العرب، هو المتنافس الوحيد لهم، خصوصاً عند مقارنتهم بالعملاء، في القوائم العربية التابعة للأحزاب الصهيونية الأخرى، والذين كانوا أكثر جنباً من أن يقوموا بما يقوم به الشيوعيون العرب.

---

<sup>1</sup> - استمر هذا التقليد معمولاً به حتى عام 1952. انظر: وثيقة رقم 3

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 202

ورغم ذلك، فقد كانت نسبة المصوتين اليهود للحزب، أكبر بكثير من نسبة المصوتين العرب، وذلك لأن الكثيرين من أعضاء الأحزاب الشيوعية العربية، في بلدانهم الأصلية - خصوصاً اليهود العراقيين - كانوا قد رقدوا الحزب الشيوعي الإسرائيلي بقوة يهودية، ذات ماضٍ شيوعي، وولاءٍ ماركسي تقليدي. ورغم ذلك فلم يتجاوز عدد المقاعد، التي فاز بها الحزب في الكنيست الأولى، الأربعة مقاعد<sup>(1)</sup>.

وعلى العموم، فلن يستطيع الحزب تجاوز هذا العدد المتواضع من المقاعد، في المستقبل، إلا قليلاً، وفي مرات نادرة، أشهرها عندما تحالف الحزب مع أنصار التيار القومي العربي، في انتخابات الكنيست الثالثة عام 1955، فحصل على ستة مقاعد. لكن هذه التجربة لم تتكرر، في انتخابات الكنيست الرابعة، التي جرت عام 1959، بسبب اختلاف الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم، مع الزعيم العربي جمال عبد الناصر. وبالطبع، فقد انحاز الشيوعيون إلى جانب عبد الكريم قاسم، فحجب عنهم العروبيون أصواتهم، ليعود الحزب إلى حجمه الطبيعي: ثلاثة مقاعد فقط<sup>(2)</sup>.

## 2-2: الانقسام:

حتى العام 1954، كان المنصب الأول في الحزب الشيوعي الإسرائيلي - ماكي - يمثله السكرتير العام للحزب شموئيل ميكونس، المهاجر من أوروبا الشرقية إلى فلسطين، عام 1920، والعضو السابق في مجموعات (پوعالي تسيون)، ثم المهندس المتخرج في جامعة فرنسية<sup>(3)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 202 - 203

<sup>2</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 428 - 429. وانظر: جورج كرزيم. ص 204

<sup>3</sup> - انظر الوثيقتين: 2 و 3

وحتى العام 1939، لم يكن ميكونس عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، بل كان رئيساً لتحرير صحيفة الحزب العبرية (كول هعام). لكن في صيف 1939 - وفي إطار البحث، الذي بدأته قيادة الحزب العبرية، عن عضو يهودي معتدل، يساعد في مواجهة جماعة إميت، التي كان يقودها (حانوخ بسوسا) الملقب (زكين): أي العجوز - وقع الاختيار على ميكونس، ليكون عضواً مراقباً باللجنة المركزية للحزب. ولكن لن يطول الأمر بميكونس، بعد عدة لقاءات له مع بسوسا، حتى ينحاز إلى أطروحاته، بدلاً من مواجهتها، ليصبح من المنادين بضرورة مراعاة "النمو السياسي والاجتماعي والاقتصادي لليهود"<sup>(1)</sup>. الأمر الذي لن يكون له، داخل الحزب، سوى تفسير واحد: انحياز شموئيل ميكونس إلى مشروع جماعة إميت، القاضي بربط مصير الحزب الشيوعي الفلسطيني باليهود المستوطنين الكولونياليين، والمعسكر الصهيوني.

وفي عام 1954، طرأ تطور جديد على الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي صار سكرتيره العام الآن شموئيل ميكونس؛ إذ دخل الحزب عدداً من كوادرات الحركة الصهيونية الكبار، منهم قائد قوات الهاجاناه السابق: موشيه سنيه، المعروف مبكراً بميوله الاشتراكية، مما أدى إلى استحداث منصب جديد يليق بهذا القادم الكبير. فكان أن تم استحداث منصب رئيس الحزب، وتولاه موشيه سنيه، مشاركاً بذلك في قيادة الحزب، مع رفيق السلاح شموئيل ميكونس، وباقي أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية<sup>(2)</sup>.

نشأ موشيه سنيه في بولندا، وبرز فيها كأحد أهم زعماء الحركة الصهيونية العمالية؛ حيث عُرف كمثل لمجموعات (الصهيونيين العموميين) في الوكالة اليهودية. وبعد هجرته إلى فلسطين عام 1940، نشط في صفوف الحركة الصهيونية داخل فلسطين، وتولى عدة مناصب عسكرية وأمنية، ولعب دوراً هاماً في تنظيم عصابات الهاجاناه، ثم قائداً عاماً لها

<sup>1</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 170، 120 - 121

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 401

بين الأعوام (1940 - 1946). كما أصبح عضواً أمنياً، في اللجنة التنفيذية، للوكالة اليهودية<sup>(1)</sup>.

قام موشيه سنيه، مع عدد من الاشتراكيين الصهاينة، بتأسيس حزب مبام الاشتراكي الصهيوني. ثم مع تصاعد المشاعر المعادية للستالينية في إسرائيل، بعد ذلك، تم فصل موشيه سنيه من صفوف مبام - باعتباره ستاليني النزعة - ليؤسس مع عدد من مناصريه (حزب اليسار الاشتراكي)، المطابق في كل شيء للحزب الشيوعي الإسرائيلي، الأمر الذي أدى إلى فتح باب المفاوضات بين الطرفين، ثم اندماجهما. فتقاسم ميكونس مع سنيه المناصب القيادية للحزب الموحد، الذي ظل محتفظاً باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي) واستُحدث لموشيه سنيه منصب جديد هو (رئيس الحزب)، بينما احتفظ ميكونس بمنصب السكرتير العام.

لكن هذا التقاسم الجديد للمناصب، لم يعجب رئيس سكرتاريا الحزب: مئير قلنر، الذي كان قبل تلك التغييرات الرجل الثاني في الحزب، ثم ها هو يصبح الثالث أو الرابع. ومما زاد طين قلنر بلة استبعاده من رئاسة تحرير جريدة الحزب العبرية (كول هعام) وتعيين موشيه سنيه مكانه.

وعندما أُجبر ميكونس زميله مئير قلنر على التخلي عن عضويته في الكنيست الخامسة - التي كان قد فاز بها عام 1961 - لصالح موشيه سنيه، كان وقت الحساب قد حان؛ خصوصاً وأن موعد انتخابات الكنيست السادسة قد صار الآن على الأبواب<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 401 - 402

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 407

وهكذا أصبح لدينا الآن ، في مواجهة جماعة (ميكونس/ سنيه) محور قوي آخر، استطاع مثير قلنر إقامته، خلال السنوات القليلة الماضية، مكون من عدد قليل من الكوادر اليهودية، والعدد الأكبر من الكوادر العربية. وسوف يُعرف هذا المحور من الآن فصاعداً باسم: جماعة (قلنر/ طوبي/ حبيبي) لاشتهار عضوي اللجنة المركزية العربيين فيه: توفيق طوبي وإميل حبيبي. وسوف يسعى هذا المحور إلى تقوية مركزه، داخل الحزب، من خلال التركيز على زيادة عدد المندوبين العرب، في مؤتمر الحزب القادم، المقرر انعقاده قبيل الانتخابات البرلمانية؛ وذلك لكي يكون صوته مسموعاً، في مواجهة كل من سكرتير عام الحزب ورئيسه، اللذين يعتبران أن أي أغلبية، في الحزب، يجب أن تكون يهودية، وأن مكاترة قيادة الحزب، بالمندوبين العرب للمؤتمر، لن تكون مقبولة، "لأن رفيقاً يهودياً يساوي أكثر من رفيق عربي"<sup>(1)</sup>، عند الاختلاف. وهكذا شاء ميكونس أن يكشف هذه المرة عن وجهه العنصري.

لقد جرت الانتخابات الداخلية للحزب، في شهر أغسطس 1964، وسط "حملة تحريض هائلة" شنتها جماعة (قلنر/ طوبي/ حبيبي) ضد خصومها. ونجح في هذه الانتخابات عدد من كوادر الحزب في الرملة، من المحسوبين على هذا المحور الجديد، في الفوز بعضوية المؤتمر العام. ولكن المكتب السياسي، الذي يقوده الثنائي ميكونس وسنيه، رفض التصديق على هذه النتائج؛ كونها تنقل من كفة خصومه الأعضاء في اللجنة (قلنر/ طوبي/ حبيبي).

واستمر الشد والجذب بين المحورين مدة، إلى أن أعلنت جماعة (ميكونس/ سنيه) عن عقد مؤتمرها الخاص - الذي اعتبرته المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي - في أغسطس 1965، وأعلنت خلاله عن عدة شعارات من مثل: (مات الحزب الشيوعي

---

<sup>1</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48 نضال مستمر. ص 199

الإسرائيلي القديم) و(طهرنا الحزب من القوميين العرب والعدميين اليهود). ثم اعتبرت خصومها جماعة منشقة، وعيرتهم بأنهم قد سبق لهم أن انشقوا عن الحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي، قبل أكثر من عشرين عاماً، مذكرة إياهم بماضيهم القومي في عصبية التحرر الوطني<sup>(1)</sup>.

وبالمقابل، قامت جماعة (قلنر/ طوبي/ حبيبي) بعقد مؤتمرها الخاص، في نفس الشهر (أغسطس 1965) وسمته كذلك المؤتمر العام للحزب الشيوعي الإسرائيلي، وفندت فيه أقوال خصومها، واتهمتهم بافتعال المشكلة. ولدحض الاتهامات الموجهة إليها بالانتماء القومي، ذكرتهم بما أسمته: "هجوم الرجعية العربية على الشيوعيين العرب، بسبب تأييدهم لقرارات الأمم المتحدة"<sup>(2)</sup>، بشأن التقسيم. ثم خرج المؤتمر بهيئات قيادية ذات أغلبية يهودية؛ سواء في اللجنة المركزية أو في المكتب السياسي، إضافة إلى تولى مدير قلنر منصب السكرتير العام<sup>(3)</sup>.

انقسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي إلى حزبين، يحملان نفس الاسم، في نوفمبر 1965. وتدخل الاتحاد السوفيتي، ودعا زعماء الطرفين إلى موسكو، محاولاً التوفيق بينهما، إلا أن جهوده لم يكتب لها النجاح<sup>(4)</sup>.

ومع إصرار الفريقين على استخدام نفس الاسم، تدخل قانون الانتخابات الإسرائيلي، ليفرض على فريق (قلنر/ طوبي/ حبيبي) اتخاذ اسم انتخابي جديد، وشعار آخر، لقائمه

---

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 404

<sup>2</sup> - جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 405

<sup>3</sup> - انظر: الجدول الموضح لتقسيم المناصب القيادية في راجاح. وثيقة رقم 8

<sup>4</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 408



التي ستترشح لانتخابات الكنيست السادسة، في نفس العام. ومن هنا نشأت تسمية (راكاح)، كاختصار لاسم القائمة الشيوعية الجديدة: (ريشياهو كومينيستت حداشاه)<sup>(1)</sup>.

أما جماعة (ميكونس/ سنيه)، فقد انضم إليها، لحظة الانشقاق، غالبية أعضاء الحزب اليهود، وأسسوا سوياً حزب (كامس) الذي ظل، كرفيقه راكاح، محتفظاً باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وخاضوا الانتخابات ليفوزوا بمقعد واحد فقط<sup>(2)</sup>.

"وعلى إثر حرب حزيران 1967، اتهم موشيه سنيه الدول العربية بأنها هي المسؤولة عن الحرب، الأمر الذي ناقض موقف الاتحاد السوفيتي... علماً بأن قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح) قد حملت، هي الأخرى، الدول العربية مسؤولية تفجير الحرب... إلا أن تحريض موشيه سنيه ضد الاتحاد السوفيتي، واتهامه بالوقوف إلى جانب العرب ضد إسرائيل، وبالانحراف عن سياسة عدم التدخل في الصراعات الدولية... قد فاقم الخلاف بين موسكو وجماعة (ميكونس/ سنيه). وفي تموز 1967 اعترف الاتحاد السوفيتي، ومعظم الدول الاشتراكية، بالحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح)، على أنه الحزب الشيوعي الشرعي في إسرائيل"<sup>(3)</sup>.

وفي انتخابات الكنيست السابعة، عام 1969، كرر حزب (كامس) نتائج الانتخابات السابقة، وحصل على مقعد واحد فقط. ثم فشل تماماً في الوصول إلى الكنيست الثامنة عام 1973. الأمر الذي تسبب في تفتيت الحزب، ثم تلاشيه من خارطة السياسة الإسرائيلية، وأتاح لباقي كوادره، العودة إلى (راكاح)، دون أن يُطلب منهم إجراء نقد ذاتي، كذلك الذي طُلب من أعضاء عصابة التحرر الوطني، غداة عودتهم إلى حزب ميكونس،

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 457

<sup>2</sup> - انظر: أحمد خليفة. الأحزاب السياسية. دراسة في كتاب حيدر عزيز وآخرين. دليل إسرائيل العام. ص 168

<sup>3</sup> - جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 408

عام 1948. بل إن هؤلاء الأعضاء العائدين، سوف توكل إليهم في (راكاح) مناصب قيادية بارزة<sup>(1)</sup>.

إذن، من الآن فصاعداً، سوف نتحدث عن (راكاح)، باعتباره هو الحزب الشيوعي الإسرائيلي، لأمرين: لأنه هو الذي سيبقى ويقود الحركة الشيوعية في إسرائيل، ثم لأن إميل حبيبي - وهو مجتمع الدراسة في هذا البحث - كان أحد أركان هذا الحزب، وأحد مؤسسيه، في أغلب مراحلها، خصوصاً بعد الانشقاق.

كنا قد تحدثنا سابقاً عن العلاقة العددية، بين أعضاء الحزب العرب واليهود؛ وقلنا إن أغلبية أعضاء الحزب، والمصوتين له، كانوا من اليهود. أما بعد الانشقاق، فقد انقلبت هذه العلاقة العددية، ليشكل الأعضاء العرب الأغلبية، بحيث يمكن القول بأن نسبة المصوتين العرب، منذ ذلك الحين، لم تصل إلى ما دون 70% من مجموع المصوتين الإسرائيليين لصالح الحزب؛ بل إنها بلغت في العام 1973 نسبة 90.7%. ومع ذلك، فقد ظلت قيادة الحزب موكولة إلى اليهودي منير قلنر، منذ عام الانشقاق 1965 حتى العام 1990<sup>(2)</sup>.

ورغم ازدياد تمثيل العرب، في هيئات الحزب القيادية، بعد الانشقاق، إلا أنها لم تصل ولا مرة، إلى تمثيل أمين، يترجم نسبة العرب إلى اليهود في الحزب: فقد احتفظ الحزب بمناصب قيادية عالية للأعضاء اليهود، تفوق أضعافاً مضاعفة نسبة تمثيل العرب: فالعرب الذين تبلغ نسبة تصويتهم - حسب إحصاءات الحزب - أكثر من 90% من مجموع المصوتين للحزب، لم يتمثلوا وفق هذه النسبة، داخل هيئات الحزب القيادية؛ فقد احتفظ هؤلاء العشرة بالمئة، من المصوتين اليهود، بأكثر من 26% من مقاعد اللجنة

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 407

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 400

المركزية، وأكثر من 30% من أعضاء المكتب السياسي، من لحظة الانشقاق، حتى عام 1990. كل ذلك إلى جانب منصب السكرتير العام، الذي ظل محتكراً لليهودي مئير قلنر<sup>(1)</sup>.

## 3-2: الخلاصة:

إن اكتساب الحزب الشيوعي الإسرائيلي لمشروعيته، تاريخياً، من حقيقة نشوئه في قلب الحركة الصهيونية، عبر الهجرة اليهودية والاستيطان الكولونيالي، جعله مرتهاً - حتى بعد تحوله إلى حزب يعتمد كلياً على الأصوات العربية - للشعارات الصهيونية، ورموز الدولة العبرية، من مثل:

- الوطن القومي اليهودي<sup>(2)</sup>.
- حق تقرير المصير للشعب اليهودي<sup>(3)</sup>.
- رفع العلم الإسرائيلي في كل مؤتمراته وتظاهراته<sup>(4)</sup>.
- ترديد النشيد الوطني (هتكفا) في كل مؤتمراته واحتفالاته العامة<sup>(5)</sup>.
- دعمه للهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين المحتلة عام 1948<sup>(6)</sup>.
- دعوته المبكرة إلى فرض التجنيد الإجباري على العرب، بما في ذلك الفتيات<sup>(7)</sup>: تلك الدعوة التي تراجع عنها في السنوات الأخيرة فقط.

<sup>1</sup> - انظر: الجدول الموضح لتقسيم المناصب القيادية في راکاح. وثيقة رقم 8

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب، الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 19 - 20

<sup>3</sup> - من كلمة الرفيق إميل حبيبي في المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 238

<sup>4</sup> - أنظر في كل هذا: كتاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي. المؤتمر العشرون. ص 152

<sup>5</sup> - انظر: كتاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي. المؤتمر الثامن عشر. ص 10

<sup>6</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 209

<sup>7</sup> - انظر: جورج كرزيم الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 165 - 166

- رفضه الانضمام إلى أي تجمع جبهي قومي خال من التمثيل اليهودي<sup>(1)</sup>.
- شجبه للكفاح المسلح، واعتباره إياه تخريباً<sup>(2)</sup>.
- معارضته المبدئية لدخول الجيوش العربية إلى فلسطين، عشية حرب 1948، واعتباره هذا الدخول عدواناً<sup>(3)</sup>.
- توقيعه على وثيقة استقلال الدولة الصهيونية، واستمرار تفاخره بهذا التوقيع، حتى بعد تحوله إلى حزب ذي أغلبية عربية<sup>(4)</sup>.... إلخ.

لقد كون الحزب الشيوعي الإسرائيلي، منذ عشرينات القرن الماضي، فهماً مشوهاً للبنى الاستيطانية في فلسطين - الهستدروت والكيبوتسات وغيرها - وتعامل مع الاستيطان، وفيما بعد مع المجتمع الإسرائيلي، على أساس أنه مجتمع طبيعي ذو تركيبة طبقية عادية، وراهن على إمكانية النضال من داخله، من أجل تثويره، ومن أجل سلخ العمال اليهود عن الصهيونية، التي اعتبرها مجرد أيديولوجيا برجوازية رجعية؛ متجاهلاً أهم صفة للصهيونية، وهي عملها على إنشاء الوطن القومي اليهودي، على أنقاض المجتمع الفلسطيني<sup>(5)</sup>، وهو الأمر الذي تم لها بمساعدة الحزب نفسه ودعمه؛ مكتفياً بدعوة الحكومة الإسرائيلية إلى الانسحاب، من الأراضي المحتلة عام 1967، لإقامة الدولة الفلسطينية عليها، ورفضاً في الوقت نفسه الكفاح المسلح، الذي تقوم به مجموعات قومية، لإقامة الدولة على هذه الشريحة من الأرض، وفق مفهوم الحزب نفسه.

<sup>1</sup> - انظر: عزمي بشارة. العرب في إسرائيل. ص 117. وانظر كذلك: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 437، 445

<sup>2</sup> - انظر: عزمي بشارة. العرب في إسرائيل. ص 113

<sup>3</sup> - انظر: ماهر الشريف. الشيوعيون وقضايا النضال الوطني الراهن. ص 21

<sup>4</sup> - نشر عضو المكتب السياسي للحزب زاهي كركبي مقالاً في جريدة الاتحاد. عدد يوم 1987/12/30. بعنوان

(دفاع عن وثيقة الاستقلال). انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 23

<sup>5</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 82

لقد تحول الحزب - بالنسبة إلى فلسطيني 1948 - إلى مجرد أداة لمطالبه، تسعى إلى تحسين شروط حياة السكان العرب، في ظل الدولة اليهودية، دون إعطاء أي اعتبار لحقوق تقرير المصير على الأرض<sup>(1)</sup>. كما تحول - بالنسبة إلى فلسطيني الأراضي المحتلة عام 1967 - إلى مجرد عزاب للتسوية السلمية؛ يدعوهم إلى الاكتفاء بالوسائل السلمية، في الكفاح ضد الاحتلال الصهيوني، ويشجعهم على الالتقاء بالإسرائيليين، وتطبيع العلاقات معهم. كل ذلك، وعملية بناء المستوطنات، في أراضي الضفة والقطاع، قائمة على قدم وساق<sup>(2)</sup>.

"إن تجاهل الحزب للأهداف الجوهرية الصهيونية، وتأييده لإقامة دولة يهودية، وتأييده للهجرة الجماعية، وعجزه عن فهم خصوصية المسألة القومية في فلسطين، لا يعني أنه قبل الحل الصهيوني للمسألة اليهودية فحسب؛ بل إنه أيضاً قبل، ضمناً، الحل الصهيوني للمسألة القومية العربية الفلسطينية: إذ رغم معرفته - عند قبوله وتأييده بحماسة قرار التقسيم، الصادر عن الأمم المتحدة، في تشرين الثاني 1947 - بأن عدد الفلسطينيين العرب، في الأراضي المخصصة للدولة اليهودية، بموجب قرار التقسيم، كان يساوي بل يفوق عدد اليهود؛ إلا أنه أيد بقوة إقامة دولة يهودية هناك... لقد تجاهل الحزب الواقعي هذا الواقع، وبالتالي فإنه رفض الإقرار بأن مثل هذه الدولة، لا يمكنها أن تكون يهودية، إلا باتباع أحد خيارين: إما أن تعتبر الفلسطينيين العرب دون البشر، مجردين من الحقوق القومية والمدنية، أو تطردهم خارج الحدود"<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - هذا بعض ما قاله إميل حبيبي في مقابلة مع صحيفة يديعوت أحرونوت العبرية بتاريخ: 1966/11/25. وجهها لوجه مع عضو الكنيست إميل حبيبي. انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة.

ص 172

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 472 - 473

<sup>3</sup> - محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 211... 212

## ثانياً: إميل حبيبي والحزب:

الأيديولوجيا تعطي كبار الأيديولوجيين سلطة. وهذه السلطة المعطاة، من ثم، هي التي تحتكر تفسير الأيديولوجيا. وغني عن القول إن هذا التفسير سوف يكون متأثراً بمصالح هذه الطبقة الجديدة، من المفسرين الأيديولوجيين، ويعطيهم بالتالي سلطة أخرى، هي سلطة المعرفة، التي تنتج بدورها أيديولوجيا: فتفسير الأيديولوجيا هو بذاته أيديولوجيا... وهكذا يتم الأمر، وفق علاقة جدلية، تعيد إنتاج أدوات بقائها وتحكمها.

وهناك وجه آخر للعلاقة السابقة، يربط الأيديولوجيا بالمعرفة، ويربط السلطة بالقوة. والعلاقة هنا هي جدلية كذلك، تتحدد بالجمع والربط بين طرفي العلاقة، لا بالفصل والتمييز بينهما. يقول ميشيل فوكو: "القوة تنتج نوعاً من المعرفة، وتؤدي إلى تراكم المعلومات والمعارف، واستخدام كل ذلك من أجل مزيد من ممارسة القوة. وبالمقابل فإن المعرفة - بحد ذاتها - قوة؛ حيث لا يمكن الفصل بين نشأة المعارف وبين ممارسة القوة"<sup>(1)</sup>.

والسلطة ليست مصلحة فقط، لأنها في الأصل نزعة. أما الأيديولوجيا، فليست مجرد معرفة، لأنها، بالإضافة إلى ذلك، مؤسسة: كونها تشكياً حزبياً يحتاج إلى المفسرين، حتى وهي في الهامش. وهي كذلك مؤسسة، بصورة أكثر وضوحاً، عندما تدخل في علاقات السلطة، بطريق المهادنة أو المشاركة، كما هو حال الأحزاب المعارضة الممثلة في البرلمان. وإذا كانت الأيديولوجيا تأنف من وصف نفسها بالمؤسسة؛ فإن السلطة كذلك تأنف من الاعتراف بأنها ترجع إلى تأثير النزعة. لكن كل هذا لا يغير من حقيقة أن السلطة هي، في جوهرها، نزعة إنسانية، وأن الأيديولوجيا مؤسسة تقوم على التنظيم، الذي يضع الحدود بين المسموح والممنوع.

<sup>1</sup> - انظر: نائر ديب مترجم هومي. ك. بابا. موقع الثقافة. هامش صفحة 78

"وإنها لحقيقة: أن النزعة تشفي غليلها في مؤسسة... ففي الزواج تقضي الشهوة الجنسية حاجتها، وفي الملكية [تقضي حاجة] الجشع. إن المؤسسة - وهي مثال أفعال - هي منظومة مجسدة سلفاً لإرضاء ممكن للحاجات... وهي منظومة وسائل، ولكن هذه الوسائل منحرفة: غير مباشرة: هي لا ترضي النزعة من دون أن تقسرها في الوقت عينه... هذا هو الفرق بين الغريزة والمؤسسة"<sup>(1)</sup>.

ولأن الغريزة مطلقة ومخلوقة مع الإنسان، ولأن المؤسسة خلقت للتوفيق - قدر الإمكان - بين الغرائز المتعارضة للبشر، فقد كان لا بد للمؤسسة من أن تحدّ من إطلاق الغرائز، بغية تدجينها وإرضائها بما هو متوفر مؤسسياً. فالمؤسسة - اعتماداً على سلطتها - تمنح الغرائز شيئاً من المتنفس القانوني، حتى لا يحدث الانفجار. لكن المجتمعات تصادف دائماً من لا يقتنع بهذا الإشباع الجزئي، سعياً وراء قدر من الإشباع لا تسمح به المؤسسة. ومن هنا تنشأ طبقة من الخارجين على المؤسسة، وهم الأقل نكاءً، وطبقة من المحتالين عليها، وهم الذين يكتشفون أن أفضل طريقة للخروج على القوانين، هي أن يتحولوا هم أنفسهم إلى مؤسسة: أي إلى مفسرين للأيديولوجيا، ليمتلكوا سلطة القوة من خلال المعرفة، تمهيداً لإشباع أكبر لنزعاتهم المكبوتة، خصوصاً نزعة السلطة: "فمهما أمكن للقواعد العامة أن تفرض من إكراه، على الانفعالات البشرية، فهي في الواقع إبداعات هذه الانفعالات، وهي وسيلة، فقط، أشد مكرراً وأكثر رهافة، لإرضائها. ليس ثمة شيء أشد تيقظاً وأكثر إبداعاً من انفعالاتنا"<sup>(2)</sup>.

وعندما نتأمل شخصية إميل حبيبي، في العام الذي برز فيه على المسرح السياسي - 1943 - فإننا سوف نرى شخصاً نشأ في أسرة ذات أصول ريفية، تتطلع إلى الثورة على

<sup>1</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 57

<sup>2</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 52

طبقتها الاجتماعية، صعوداً نحو البرجوازية المدينية؛ متأثرة بأفكار عن تحول الطبقات. ولسوف ندلل على هذا الافتراض بما يلي:

- لقد ولد إميل حبيبي في حيفا، لأبوين هاجرا لتوهما من قرية شفاعمرو؛ حيث ترك أبوه التعليم، التي كان يمتنه في القرية، وبدأ بالاشتغال بالتجارة.
- كان لإميل أخ أكبر، عضو في الحزب الاشتراكي الفلسطيني (موسي)، الأمر الذي جعل طفولته - في عشرينيات القرن العشرين - تتأثر بالأفكار الاشتراكية، التي حملها اليهود المهاجرون من أوروبا.
- لقد فسر إميل حبيبي انتقال أبويه من الريف إلى المدينة، واشتغال أبيه فيها بالتجارة، برغبة العائلة في التحول من طبقتها إلى طبقة أرقى، في سلم التطور الاجتماعي. وسواء أكان ذلك صحيحاً في وعي الوالد أم لا، فإنه صحيح على الأقل في وعي الولد - إميل حبيبي - لأنه هو الذي سوف يقوم، فيما بعد، بدور المفسر لهذا التحول، فيقول: "إن عائلتي كانت تنظر دائماً إلى فوق: أي تحاول أن تتبرجز"<sup>(1)</sup>.

إن لهجة الفخر في هذه العبارة غير خافية، وقادرة على إضاءة بداية انفعال الولد، إميل حبيبي، بالطموح إلى الترقى في السلم الاجتماعي. ولقد صادف هذا الانفعال، لديه، ما يبرره أيديولوجياً، في الأفكار الاشتراكية، التي ترى حتمية التحول الطبقي في المجتمعات، وصولاً إلى الكمال الشيوعي، حيث آخر المراحل، والجنة الموعودة. وهكذا يبدع الانفعال وسيلته، بالانضمام إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني. يقول إميل، عن تاريخ انضمامه إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني: "لقد أوقفت حياتي كلها تقريباً على بناء هذا الحزب، سنداً للشعب، ولكل المستضعفين في الأرض، ولقضية السلام والتقدم الإنساني.

---

<sup>1</sup> - انظر: محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع. ص 52



انضمت إلى صفوفه في العام 1940: أي حين كنت في التاسعة عشرة من سنّي صباي<sup>(1)</sup>.

وقد كان الحزب الشيوعي الفلسطيني، في تلك اللحظة، يعاني من أشد أنواع الانقسامات الداخلية، بعد فشل ثورة 1936، وظهور جماعة حانوخ بسوسا (زاكين)، التي أخذت تقود الحزب نحو مواقف صهيونية، لم تستطع قيادة رضوان الحلو (موسى) لجمها. يقول عضو اللجنة المركزية بولس فرح، عن تلك الفترة، ما يلي:

"كان الحزب يراقب، بفرح وجزع... الانحراف اليميني الصهيوني، الذي ترأسه بعض الرفاق اليهود، وكانوا، تنظيمياً وسياسياً وتقليدياً، يكونون ثقلاً حزبياً رهيباً: من حيث التنظيم، والتقدم العسكري، والقدرة على التحاور، والإمساك بالجهاز السري والتقني بأكمله، والاتصالات الخارجية والأماكن السرية - التي يسكنها رفاق صامتون، أمرهم الحزب بأن لا يقوموا بأي نشاط، ليقبوا بعيدين عن أعين البوليس - ومعرفتهم [أي الرفاق اليهود] بتقاليد العمل السري"<sup>(2)</sup>.

وإن شاباً في التاسعة عشرة من عمره، ينتظم في حزب شيوعي أممي، ينزاح نحو كل هذه الانحرافات اليمينية الصهيونية، سوف يدرك بعد فترة قريبة، أن عوامل الترتي داخل حزب كهذا، تكاد تكون متعذرة؛ نظراً لحدائثة سنه، ثم لحدائثة انضمامه، ثم لكل هذا التمزق الداخلي.

لقد كانت تلك هي لحظة إدراك الحقيقة، لدى إميل: حقيقة أن الوصول إلى مكانة قيادية حزبية، سوف تتاح له فقط من خلال استغلال هذه التناقضات، والاستفادة من

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 106

<sup>2</sup> - بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 116

أقربها إلى محيطه الاجتماعي. وإذا كان بإمكان الشاب الانضمام إلى التجمع العربي داخل الحزب - خصوصاً وهو الذي يحظى بالمباركة الرسمية من الكرملين<sup>(1)</sup> - فإنها سوف تكون فرصته، في أن يصبح صاحب صوت مسموع، عندما تحين لحظة الانقسام، التي بدا واضحاً أنها قد أصبحت وشيكة.

وعندما حانت لحظة الانقسام فعلاً، بعد ثلاث سنوات فقط، تحول الشاب ذو الثلاثة وعشرين عاماً، مع كبار الكوادر العرب، إلى عصابة التحرر الوطني، التي بدا واضحاً أنها نشأت على أساس قومي. وصار إميل عضواً في لجنتها المركزية، إلى جانب أعضاء كبار في الحزب الشيوعي السابق، كبولس فرح وأمثاله. ولسوف يحافظ عضو اللجنة المركزية الشاب على هذا المنصب، ويستثمر أقصى ما يمكن أن يعطيه إياه، حتى يومه الأخير في الحياة الحزبية.

وهكذا أعطت الأيديولوجيا لإميل سلطة، وتسلمت هذه السلطة المعطاة بديباجة أيديولوجية، ترفض سيطرة الكولونيالية الصهيونية القومية على الحزب الأممي، الذي يفترض فيه أنه معادٍ للصهيونية.

لقد بدا لنا الآن إميل حبيبي - عام 1943 - في هذه المرحلة المبكرة من عمره، معادياً للصهيونية، ولما أنتجته من مقولات، حول تطور الشعب اليهودي على أرض فلسطين، الأمر الذي شجعه - بالاشتراك مع رفيقين من الحزب الشيوعي المنحل - على إصدار بيان جاء فيه:

"إن الحزب الشيوعي الفلسطيني، حزب وطني عربي، يضم في صفوفه يهوداً وافقوا على برنامج الوطن. لقد سبق للحزب أن طهر صفوفه من تلك التكتلات الصهيونية

---

<sup>1</sup> - كان الكومنتيرين قد أصدر أوامره بضرورة التناقض مع الصهيونية.

المنحرفة، حين قام بحل فرعي تل أبيب وحيفا... وأشار البيان إلى أن الظرف أصبح مهيباً - خاصة بعد حل الكومنترن للحزب - لإعادة صياغة الحزب الشيوعي الفلسطيني، باتجاه حركة التحرر الوطني الفلسطيني، ومستقبل الأمة العربية، والعداء للصهيونية<sup>(1)</sup>.

إذن فنحن الآن في عام 1943، ولدينا إميل حبيبي الشاب، الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين، القائد الوطني الذي يوقع، مع اثنين من رفاقه، باسم الحزب الشيوعي الفلسطيني المنحل، على وثيقة تلعب الصهيونية، وتعلن عروبة الحزب. في إرهاب صبروزغ نجم تنظيم جديد، معادٍ مباشر للصهيونية، على أساس قومي وطني عربي تحرري. ولقد قامت العصابة فعلاً على هذا الأساس. يقول بولس فرح عضو اللجنة المركزية للحزب المنحل، عن مداولاته مع السكرتير العام (رضوان الحلو) في تلك الفترة، ما يلي:

"وقلت له: إننا لسنا في وارد تأليف حزب شيوعي، لأن الأحزاب الشيوعية لا تقوم على القومية. وقد تجسّد هذا عملياً عندما أقمنا تنظيمنا السياسي، فأطلق عليه (عصابة التحرر الوطني) ولم نقل: الحزب الشيوعي الفلسطيني، لأننا كنا نتوقع أن ترجع الوحدة للحزب، عاجلاً أم آجلاً"<sup>(2)</sup>.

وبهذا فقد انصهرت عصابة التحرر في بوتقة الحركة الوطنية الفلسطينية، بقيادة الحاج أمين الحسيني، وأعلنت: "أنها لا ترى أي حرج، في تأييد اللجنة العربية العليا، إذا كان برنامجها ديموقراطياً، يستهدف العمل على تحرير هذه البلاد، وتخليصها من الاستعمار والصهيونية"<sup>(3)</sup>. وأصدرت بيانها ضد مقترحات التقسيم. وشتت في صحيفتها هجوماً شرساً

---

1- عبد الرحمن عوض الله. الحركة الشيوعية الفلسطينية وحزب الشعب. من كتاب لعدة مؤلفين بعنوان: الندوة الفكرية السياسية: خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين. ص 87 - 88

2- بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 67

3- عبد الرحمن عوض الله. الحركة الشيوعية الفلسطينية وحزب الشعب. مادة من كتاب بعنوان: الندوة الفكرية السياسية: خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين. ص 87 وللمزيد انظر: الوثيقة رقم 3

عليه، "لأن طريق التقسيم ينشئ الدولة اليهودية العنصرية، في قسم من فلسطين، ويجعل منها نقطة ارتكاز لحشود الاستعمار، يهدد بها الدول العربية"<sup>(1)</sup>.

إذن، وحتى هذا التاريخ، الذي صدر فيه الهجوم على التقسيم، في صحيفة الاتحاد - مايو 1947. نستطيع القول بأن إميل حبيبي، كان قومياً عربياً وطنياً ثورياً راديكالياً معادياً لمقترحات التقسيم. ولم يكن قرار التقسيم قد صدر بعد، وإن كانت المداولات في أروقة الأمم المتحدة جارية بشأنه. ولم يكن الاتحاد السوفيتي قد أعلن موقفاً نهائياً وحاسماً، من مقترحات التقسيم. صحيح أن غروميكو كان قد أيد ضمنا هذه المقترحات، عشية توجه لجنة تقصي الحقائق، المنتدبة من الأمم المتحدة، إلى فلسطين، في يونيو 1947؛ لكن هذا التأييد لم يكن حاسماً، وربما وجد فيه شيوعيو عصابة التحرر موقفاً غير ملزم لهم، خصوصاً وقد كان إعلان غروميكو، لتأييد التقسيم، مشروطاً بفشل مشروع الدولة ثنائية القومية، التي يؤيدها الاتحاد السوفيتي، كحل أمثل للنزاع<sup>(2)</sup>.

لكن موقف إميل حبيبي سوف يبدأ بالتغير، وفقاً للوثيرة التي تغير بها خطاب موسكو السياسي، بشأن مقترحات التقسيم: ففي 13 نوفمبر 1947، خطا مندوب موسكو في الأمم المتحدة (تسارابكين) خطوة نهائية، في اتجاه تأييد هذه المقترحات - التي لم تصدر بعد عن الجمعية العامة كقرار رسمي - عندما صرح بأنه:

"في الظروف الراهنة، التي تدهورت فيها العلاقات بين العرب واليهود، ووصلت إلى حد التوتر... يبدو أن مشروع الأقلية [داخل لجنة تقصي الحقائق والداعي إلى إنشاء دولة

---

<sup>1</sup> - الاتحاد. 1947/5/25. نقلاً عن: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية ص 40

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 39 - 40

ثنائية القومية] لا يمكن تنفيذه، ومن ثم فإن الحاجة تقتضي قبول مشروع الأغلبية<sup>(1)</sup>. أي: اقتراح التقسيم.

ومن هنا، فقد بدأ موقف إميل حبيبي يتغير، ويدعو إلى القبول بالتقسيم، ثم يعلن موقفه هذا من خلال مقالته في جريدة الاتحاد، التي وقعها باسم المحرر السياسي، مخالفاً بذلك موقف العصبة وجريدتها. ولكن رغم كل ذلك، لم يستطع إميل حبيبي استصدار قرار، من اللجنة المركزية للعصبة، بتأييد مقترحات التقسيم، خصوصاً وأن الأغلبية ما زالت ضد هذه المقترحات<sup>(2)</sup>.

اشتعلت الحرب في فلسطين، بين المواطنين واليهود، فور صدور قرار التقسيم رسمياً، بتاريخ 29 نوفمبر 1947. وانشغل إميل حبيبي بجمع كوادرات العصبة الموالين له، لاتخاذ قرار بقبول التقسيم<sup>(3)</sup>. ثم ظل بعد ذلك طوال حياته يفتخر، بأنه هو الذي تلا تقريره في الاجتماع، داعياً إلى قبول هذا القرار<sup>(4)</sup>. ليدعي، بعد ذلك، أن الموافقة كانت بالإجماع، مع أن الراضين للقرار (توما والدجاني وفرح) ظلوا يؤكدون أنهم لم يعلموا بهذا الاجتماع، ولم يدعوا إليه، معتبرين أنه: "لم يكن إجماع ولا اجتماع، إلا تجمع بضعة نفر، كان لهم علاقة - قبل التقسيم وبعده - مع الشيوعيين الصهاينة في تل أبيب، وانتهزوا فرصة الفوضى القائمة، فاتخذوا القرارات التي لم نعلم عنها شيئاً"<sup>(5)</sup>.

<sup>1</sup> - محمود محارب، الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 41

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب، الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 43

<sup>3</sup> - تختلف المصادر في مكان هذا الاجتماع حول مكانين: يافا والناصر. انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 173. وانظر كذلك: موسوعة السياسة، المجلد 4، ص 113

<sup>4</sup> - انظر: إميل حبيبي، الحوار الأخير. مشارف، العدد 9، ص 27

<sup>5</sup> - بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 174

وهكذا، مع بداية عام 1948، كانت عصابة التحرر الوطني قد كفت عن الوجود، بعد أن أحرقت الجماهير الغاضبة مقارها<sup>(1)</sup>. وهرب إميل حبيبي، وبعض الرفاق إلى لبنان، وسط معمعة الحرب بين المواطنين الفلسطينيين والبيشوف، وقبل دخول الجيوش العربية<sup>(2)</sup>.

ونتيجة لخطة (دالت)، التي طبقتها قوات الهاجاناه، في الحرب ضد المواطنين الفلسطينيين، تم طرد مئات الألوف من الفلسطينيين من مدنهم، وتدمير قراهم، تحت عين القوات البريطانية المنتدبة، بحيث صارت الأرض ممهدة لإعلان الدولة اليهودية، فور إنهاء الانتداب. وبالفعل، فقد أعلن بن غوريون قيام الدولة اليهودية، في نفس يوم إعلان بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين. ثم بعد ذلك فقط تدخلت الجيوش العربية<sup>(3)</sup>. واجتمع عدد من الأحزاب الشيوعية العربية، في بيروت، ليشجبوا هذا التدخل، ويطالبوها بالانسحاب، تنفيذاً لقرار التقسيم، الذي يضمن استقلال فلسطين؛ حسب رأي المجتمعين، الذين ربما كان إميل واحداً منهم. كما طالبت هذه الأحزاب الرفاق الشيوعيين العرب في فلسطين، بالتعاون مع الهاجاناه، وتشكيل كتبية تحارب إلى جانب القوات اليهودية، إن أمكن<sup>(4)</sup>. ولئن لم يتمكن شيوعيو فلسطين العرب من تشكيل هذه الكتبية، فلقد تمكنوا من إلقاء مناشير فوق رؤوس الجيوش العربية، تطالب الجنود بالعودة إلى بلادهم<sup>(5)</sup>.

وفي يوليو 1948، عاد إميل حبيبي من لبنان إلى حيفا، التي أصبحت الآن أكثر أمناً في ظل دولة بن غوريون<sup>(6)</sup>. ولقد قيل يومها إن هذه العودة تمت بمساعدة الاستخبارات

<sup>1</sup> - انظر: موسوعة السياسية. المجلد 4. ص 113

<sup>2</sup> - انظر: الوثيقة رقم 3

<sup>3</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 44

<sup>4</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>5</sup> - انظر: ماهر الشريف. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 20

<sup>6</sup> - سقطت حيفا في يد قوات الهاجاناه بتاريخ: 21 أبريل 1948. انظر: وثيقة رقم 3

العسكرية لقوات الهاجاناه<sup>(1)</sup>. ورغم أن المدافعين عن إميل يؤكدون أن عودته كانت بطريق التسلل، إلا أننا لا نستطيع الاقتناع بهذا التفسير، خصوصاً عندما نعلم أنه اجتمع مع ميكونس، سكرتير الحزب الشيوعي الإسرائيلي، فور هذه العودة، لبحث ضرورة إعادة توحيد جناحي الحزب: الحزب الشيوعي الإسرائيلي وعصبة التحرر الوطني. فليس هذا فعل متسلل عاد إلى البلاد، دون علم الحكام الجدد. ثم إن المتسلل لا يمكن أن يصبح بعد أقل من ثلاثة شهور - من تسلله المعلن - عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، الموحد، والمُعترف به رسمياً، والممثل في مجلس الدولة المؤقت، في زمن الحرب<sup>(2)</sup>.

وفي هذه الفترة الملتبسة من شهور الحرب - ما بين عودة إميل حبيبي إلى فلسطين، وإعلان وحدة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، من يوليو إلى أكتوبر 1948 - سافر شموئيل ميكونس، سراً، إلى تشيكوسلوفاكيا، وعدد من دول أوروبا الشرقية، لعقد صفقة أسلحة وطائرات، لصالح قوات الهاجاناه، التي بدأت تعاني في الجبهة الجنوبية من قصف الطيران المصري<sup>(3)</sup>. ولقد قيل كلام كثير حول مشاركة إميل حبيبي لميكونس، في الوفد المسافر، لعقد هذه الصفقة<sup>(4)</sup>، ولم يستطع أحد إثبات هذه المشاركة بالدليل القاطع، خصوصاً مع صمت الرفاق، عن الحديث (العلمي) حول هذا الموضوع. ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا بإلحاح: لماذا تم اختيار إميل حبيبي، لإلقاء هذه القنبلة على رأسه، من دون كل أعضاء العصبة العرب، الموافقين على التقسيم؟ لقد كان توفيق طوبي،

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 6

<sup>2</sup> - تم هذا التوحيد في 6 أكتوبر 1948. وذلك حسب بيان الحزب نفسه. انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 245. أما بخصوص عودة إميل حبيبي، فانظر: وثيقة رقم 3

<sup>3</sup> - ذكر ذلك عيزر وايزمان، مؤسس سلاح الطيران ورئيس إسرائيل الأسبق، في مذكراته بعنوان: على أجنحة الصقر. كتاب بالإنجليزية ترجمه أحد أصدقاء السجن، وقرأته هناك عام 1989. ولم تتم طباعته حتى الآن. وانظر:

وثيقة رقم 2

<sup>4</sup> - انظر: الوثيقتين 6، 11

الموافق على التقسيم، رفيقا لأميل في الهروب إلى لبنان، كما كان أكثر أهمية للحزب الشيوعي الإسرائيلي؛ بدليل أنه أصبح صاحب جريدة الاتحاد، بدلاً من إميل توما المعارض السابق للتقسيم، ومع ذلك فلم يقم أحد باتهامه بالمشاركة في عقد الصفقة!

وإذ كان على عصابة التحرر الوطني، بعد هذه المستجدات، أن تعود إلى أحضان الحزب الذي خرجت منه سابقاً، فقد اشتترطت قيادة الحزب الصهيونية، على محاورى العصابة (حبيبي - طوبي - توما) إصدار بيان نقد ذاتي، يقرون فيه بخطئهم، في إنشاء العصابة على أساس قومي، قبل خمس سنوات. وبالفعل صدر البيان. وتم توحيد الحزب. وصار إميل حبيبي عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي) مع توفيق طوبي، وشموئيل ميكونس، ومثير قلنر... واستُبعد إميل توما، عقاباً له على معارضته السابقة للتقسيم<sup>(1)</sup>.

ومنذ ذلك اليوم، بدا واضحاً أن إميل حبيبي، قد قرر أن يكرس باقى عمره للإخلاص لهذا الانتماء الجديد، مكتفياً بالمطالبة، بحقوق مدنية (للسكان العرب) في الدولة اليهودية، مستعينا على ذلك بدعوتهم إلى الاندماج في المجتمع (الديموقراطي) الجديد، والمساهمة في تطويره. ومن مواقفه المبكرة في هذا الشأن: القيام بتجنيد العمال العرب، من الناصرة والرملة، لقطف زيتون إخوانهم النازحين العرب<sup>(2)</sup>، لصالح الكيرن كييمت<sup>(3)</sup>. ثم تحميله المستمر المسؤولية، عن حدوث النكبة، للطرف العربي. إلى حد إعلان الشماتة بهزيمة

---

<sup>1</sup> - لقد أنشأ إميل توما نقداً ذاتياً لموقفه السابق من التقسيم، ثم أصدر عدة كتب تحاول إثبات النظرية الصهيونية في (تطور الشعب اليهودي على أرضه) ولكن كل ذلك لم يشفع له عند قيادة الحزب التي ظل مستبعداً منها حتى أواخر

الستينيات. انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 304

<sup>2</sup> - أشادت جريدة الاتحاد يوم 6 ديسمبر 1948 بحسن أداء إميل حبيبي وتوفيق طوبي لهذه المهمة، التي كلفهم بها السكرتير العام شمئيل ميكونس. انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 207

<sup>3</sup> - الصندوق القومي اليهودي. وهو المسؤول عن شراء ما يمكن من أراضي فلسطين وتمليكها لليهود فقط. ويمارس نشاطه حتى الآن. ويعتبر في العالم الحر مؤسسة عنصرية



الجيش العربية في فلسطين: "بعد أن نجح دفاع الشعب اليهودي عن دولته، في صدها، ونجحت هي في إلقاء العرب في البحر"<sup>(1)</sup>، على حد قوله.

ولئن كان العرب قد ألقوا مادياً، في المرة الأولى في البحر، بقوة الهاجاناه، فإن إميل حبيبي ظل يلقبهم معنوياً في البحر، كل يوم، بقوة الأيديولوجيا، متناسياً وجودهم القومي في فلسطين المحتلة عام 1948، إلى درجة الإنكار. ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى إعلانه عام 1952، من على منصة مؤتمر السلام في فيينا، بأنه: "لا يوجد في إسرائيل قوميتان، وإنما يوجد شعب إسرائيلي واحد"<sup>(2)</sup>. وربما توجد في هذا الشعب الواحد "مجموعات عربية"<sup>(3)</sup>، لكنها لا تُعتبر. في نظر إميل حبيبي - ذات خصائص قومية، تبيح لها المطالبة بحق تقرير المصير. لذا، فلم يكن مستغرباً أن يثبط هذه المجموعات عن نضالها القومي، داعياً إياها إلى مقاطعة إضراب يوم الأرض، الذي دعت إليه القوى الوطنية العربية في إسرائيل، عام 1991<sup>(4)</sup>.

لقد تلعف إميل حبيبي بالأيديولوجيا، في سبيل السلطة. ولقد أعطته هذه السلطة - من ثم - حق تفسير الأيديولوجيا، كما ألمعنا سابقاً. ولقد بدا واضحاً لإميل - منذ البدء - أنه لا سلطة دون أيديولوجيا، ولا أيديولوجيا (تفيدة) إذا كانت مفرغة من السلطة. بهذه الطريقة أوصلت سلطة التفسير الأيديولوجي إميل حبيبي، إلى السلطة السياسية، وعضوية الكنيست. لقد كان عليه أن يبدو، في نظر الشيوعيين الأممين، شيوعياً أممياً، يرفض أن تظل عقيدته "محصورة في حقل الفلسفة النظرية، بل تتطلع إلى ممارسة دور حاسم، في

---

<sup>1</sup> - انظر: مقال إميل حبيبي في الاتحاد. وثيقة رقم 7

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>3</sup> - انظر: وجهاً لوجه مع عضو الكنيست إميل حبيبي. يديعوت أحرونوت العبرية. عدد يوم 1966/11/25. نقلاً عن

جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 172

<sup>4</sup> - انظر: صحيفة كول حيفا العبرية عدد يوم 1991/3/29

طابع الحياة المجتمعية، وتقرير الفعل السياسي [مشتربة] وجود معرفة محررة من نير الأحكام المسبقة، ومطهرة من تأثيرات سلطة ما<sup>(1)</sup>.

ولقد ظهر له، منذ لحظة العودة إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، أن ماضيه القومي في العصبية، سوف يبدو في نظر رفاقه اليهود، نوعاً من الحكم المسبق، المانع له من التطهر الكامل، من سلطةٍ قوميةٍ تسببت له، في الماضي القريب، بالانشقاق عن الحزب الأممي، الذي يجمع العرب واليهود في (رفقة شيوعية) لا تعترف بالقوميات. ولهذا فقد كان عليه أن يعلن تطهره، ببيان في النقد الذاتي، يلغي وجوده السابق. يقول ميلان كونديرا، في مثل هذا النوع من النقد:

"حين تفرض المحكمةُ نظامَ المحاكمةِ على بلد، فإن الشعب كله ينضم إلى آليات المحاكمة، ويزيد نفوذها مئة ضعف. وكل شخص يعرف أنه يمكن أن يُتَهَمَ في أية لحظة، لذلك يجتزئ - مقدماً - نقداً ذاتياً. النقد الذاتي: خضوع المتهم للمتهم، إنكارٌ لأناه، طريقة لإلغاء ذاته بوصفه فرداً"<sup>(2)</sup>.

لقد سبق إميل حبيبي كل محاولة صهيونية لاتهامه، بالمبادرة إلى اتهام نفسه. ولكن هذه الخطاب الاستباقي، إذا كان يلبي رغبة القيادة الصهيونية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، فإنه لا يمكن أن يرضي الجماهير العربية، عن سياسيٍ محتاجٍ لأصواتها الانتخابية. فكيف يمكن أن يوائم إميل بين هاتين الحاجتين المتناقضتين؟!، إذن، فقد كان لابد من الشعار الأيديولوجي، لإرضاء جهة، ثم توظيف محتواه، لإرضاء الجهة الأخرى. ومن يومها، صار على المعرفة التجريدية، المنلغظة بالديباجة الاشتراكية، أن تطبق نفسها على إميل حبيبي، بنزاهة حديّة. وصار عليه - تبعاً لذلك - أن ينظر إلى المجتمع

<sup>1</sup> - ياكوب بارون. ما الأيديولوجيا. فصول. المجلد 5. العدد 3. ص 166

<sup>2</sup> - ميلان كونديرا. الوصايا المغدورة. ص 229

الإسرائيلي، الناشئ على أنقاض فلسطين العربية، وفق تقسيمات طبقية، تفسر الصراع القائم داخل بنيته، باعتباره صراعاً بين قوى العمال والفلاحين المستغلين من جهة، وقوى الرأسمالية وأصحاب الأراضي المستغلين من جهة أخرى: فكل العمال والزراع - وربما كل الفقراء عربا ويهودا - هم خيرون ومستغلون. وكل أصحاب رؤوس الأموال والأراضي - وربما كل الأغنياء عربا ويهودا - هم أشرار ومستغلون.

وبذا فقد تخلق إميل حبيبي أيديولوجياً مرة أخرى، لكن وفق وعي مزيف، يفضل الحزب على الوطن، ويفسر مقولات الوطن من خلال شعارات الحزب!. لكأنما تشياً الرجل، وتحول إلى مخلوق سياسي تستعبده تفسيراته الأيديولوجية. ولقد دلنا لوكاش مبكراً، على أن الإنسان يصل إلى هذه المرحلة من الاغتراب، عندما تستقل عنه منتجاته المادية، وتبدأ بالتحكم فيه؛ الأمر الذي يدفعه إلى خلق واقع وهمي، يعوضه عن أحلامه الضائعة. وقد يكون هذا الواقع الوهمي صورة، يخلقها لنفسه في أعين الآخرين، أو سلطة يحقق بها ذاته، وتساعد في خلق هذه الصورة الجديدة<sup>(1)</sup>.

لقد كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي، في المجتمع العربي المتبقي في فلسطين المحتلة منذ عام 1948، منتجاً مادياً أنتجه إميل حبيبي، فاستعبد وعيه، وصار يطالبه بفعل أشياء، يجد نفسه مضطراً إلى تليبيتها، من ناحية، ثم يجد نفسه مضطراً إلى إنكارها أمام الجماهير العربية، من ناحية أخرى. وهكذا تخلق لديه الوعي المزيف، مبكراً، وقاده طويلاً، وسط دروب، ما كان لوطني عربي فلسطيني أن يسلكها.

لقد دفع هذا الوعي الزائف إميل حبيبي - طوال حياته - إلى الدفاع المستميت عن حق إسرائيل في الوجود: دفاعاً لا نرى عشر معشاره، عن حق الشعب الفلسطيني في تحقيق كيانه القومي المستقل، أو الكفاح المسلح للوصول إليه.

---

<sup>1</sup> - انظر: رمضان بسطاويسي محمد غانم. علم الجمال عند لوكاش. ص 37 - 38

ولئن اعتبر إميل حبيبي - دائماً - أن الرفاق اليهود في صفوف الهاجاناه، الذين قُتلوا في معارك 1948، قد "سفكوا دماءهم دفاعاً عن الوطن"<sup>(1)</sup>، فلقد بخل على إخوانه الفلسطينيين - حتى لحظة مماته الأخيرة - في الاعتراف لهم بمثل هذا الحق؛ مستنكراً "بشدة كل أعمال التخريب التي تقوم بها المنظمة التي تُدعى فتح"، ومغرياً دولته بالعدوان على سوريا، من خلال استنكاره "أي تأييد مباشر، أو غير مباشر، من جانب دوائر حاكمة في سوريا، لعمليات عدوانية تقوم بها هذه المنظمة"<sup>(2)</sup>، قبل أقل من ثمانية أشهر، فقط، من حشد إسرائيل لقواتها على حدود سوريا: ذلك الحشد الذي أدى، في حينه، إلى اشتعال الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، في يونيو 1967.

لم يخرج إميل حبيبي من عباءة الأيديولوجيا، طوال حياته الحزبية: بل إنه فسرها وأعاد تفسيرها، مرات ومرات. فلما وصل منطق التفسير الأيديولوجي، على يديه، إلى حدوده القصوى، كان لا بد له من الانتهاء؛ حسب تحليل جاك دريدا<sup>(3)</sup>.

انهارت الأيديولوجيا، عندما انهارت سلطتها: وأجبر إميل على الخروج من صحيفة الاتحاد - وكانت قلعة، بعد استقالته الإجبارية من الكنيسة - فلم يعد أمامه إلا أن يستقيل من الحزب<sup>(4)</sup>، ويقف عارياً، في مواجهة واقعه الوهمي، مجرد الصدر من الدرع، الذي

---

<sup>1</sup> - من كلمة إميل حبيبي في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح). انظر: جورج كرزوم.

الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 31

<sup>2</sup> - جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 108

<sup>3</sup> - انظر: كريستوفر بتلر. التفسير والتفكيك والأيديولوجيا. دراسة في كتاب بنفس العنوان. بيتر بروك وآخرون. ص 103.

<sup>4</sup> - أقيّل إميل من رئاسة تحرير الاتحاد في أبريل 1989. فاستقال من مناصبه الحزبية في مايو من نفس العام. انظر:

جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 417 - 418

تعود عليه<sup>(1)</sup>، ليحاول أن يتغذى على مقولات ثقافية بائسة، من مثل: قوة الكلمة، ودور المثقف الكاتب الأديب ورجل السلام، وسعيه الدؤوب للتطبيع... إلخ.

ومنذ البدء، لم يكن مثل هذا الموقف غريباً، على رجل ظل ينظر إلى دولة اليهود، على أنها "تجسيم لحق الشعب الإسرائيلي في تقرير المصير"<sup>(2)</sup> ثم يرفض، في نفس الوقت - وفي تاريخ مقارب - حقاً مشابهاً لإخوانه الفلسطينيين، قائلاً: "نحن لا نعترف إطلاقاً، بما يسمى حق تقرير المصير لعرب إسرائيل... إننا نقول بأن حق تقرير المصير هو لشعوب، وليس لمجموعات"<sup>(3)</sup>.

وهكذا أخيراً تفوز العصابات الصهيونية، لدى إميل حبيبي، بلقب (شعب) ويتحول الفلسطينيون إلى مجرد (مجموعات) تفتقر إلى هوية واضحة!.

وعلى الرغم من معارضة إميل حبيبي الكلامية للصهيونية، ووصفه إياها بكل الأوصاف السلبية - ذات يوم - إلا أن انشغاله بالسخرية من العروبة، ظل أشد وأكثر حماسة، إلى درجة أن قرنهما بالفاشية، مفتخراً بانشغاله الطويل بمحاربتهما، إضافة إلى (العنصرية في الصهيونية). ينقل الدكتور فيصل دراج، عن إميل حبيبي، عبارة من تصريحه اللافت، في العدد 744 من صحيفة (المجلة)، تقول: "انشغلت ثقافتنا بالكفاح ضد الفاشية، والكفاح ضد العروبة، والكفاح ضد الاستعمار، وضد العنصرية الصهيونية". ثم يردف دراج هذا الاقتباس بالتعليق التالي: "يمائل إميل بين الفاشية والعروبة والاستعمار

---

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي. عن الإبداع وعن خضراء الدمن. مشارف. العدد 3. ص 9

<sup>2</sup> - كلمة إميل حبيبي. الحزب الشيوعي الإسرائيلي: المؤتمر السادس عشر. ص 238

<sup>3</sup> - وجهها لوجه مع عضو الكنيست إميل حبيبي. بديعوت أحرانوت. عدد يوم 1966/11/25. نقلاً عن جورج كرزوم.

الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 172

والصهيونية. يكافح ضد العروبة بلا تحفظ، وبضيف إلى الصهيونية كلمة تسبقها هي العنصرية<sup>(1)</sup>.

فالعروبة، عند إميل، لا تصل في سلبيتها، إلى حد التماثل مع الصهيونية، بل هي تتماثل مع العنصرية في الصهيونية، في قول متحفظ يجعل الصهيونية أقل وقعاً على العقل والقلب، من كل من المتماثلين: الفاشية، والعروبة، والاستعمار!.

لكن، هل يستمر إميل حبيبي في معارضته الكلامية المحدودة للصهيونية؟. كلا. لأنه سيقوم بعد قليل، بتجريد الصهيونية من عنصريتها، معلناً أمام العالم في مؤتمر الأدباء، الذي عقد في عشق آباد عام 1989، بأن "الصهيونية ليست عنصرية"<sup>(2)</sup>.

"ولذلك لم يكن للدهشة مكان، حين قبل بجائزة الإبداع الإسرائيلية، بعد مرور ثلاث سنوات على تصريحه المبرر للصهيونية من عنصريتها... وذلك خلال حفل رسمي أقيم في القدس المحتلة، بمناسبة مرور 44 عاماً على إنشاء إسرائيل... [معتبراً أن هذه الجائزة تمثل] اعترافاً بالثقافة الفلسطينية في إسرائيل، كجزء من تطور التراث الإسرائيلي"<sup>(3)</sup>.

هكذا إذن!.. الفلسطينيون مجرد مجموعات سكانية في فلسطين المحتلة. واليهود يملكون حقاً مقدساً في الدفاع عن قوميتهم، وتحققها، في فلسطين التي احتلها بالقوة. وهوية سكان فلسطين العرب هي هوية عنصرية، تقارب الفاشية. والصهيونية لم تكن عنصرية بالإطلاق، ثم لم تعد عنصرية أبداً!... وصولاً إلى اعتبار الثقافة العربية الفلسطينية جزءاً سيفسائياً مجملاً، من أجزاء تطور التراث الإسرائيلي، في ذاكرة أيديولوجي "يستظهر التعاليم الجاهزة عن تطور ثقافة الأقليات، في الاتحاد السوفيتي،

<sup>1</sup> - فيصل دراج. يؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. ص 114

<sup>2</sup> - فيصل دراج. ذاكرة المغلوبين. ص 85

<sup>3</sup> - فيصل دراج. يؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. ص 106 ... 107 ... 117

كجزء عضوي من الثقافة السوفيتية الشاملة. والأمل هو الثقافة الإسرائيلية، التي تحنو على الفرع الجديد، الذي تمثله الثقافة الفلسطينية<sup>(1)</sup>!

فهل آن لنا أن نستذكر عبارة جان بول سارتر، في وصف العلاقة بين الثقافة المقهورة وقاهاها؟! يقول:

"حين يفصل سدّ من نار بينك وبين العدو، فليس لك إلا أن تحكم عليه، إجمالاً، بأنه الشرّ المجسّد... لكن الأمر على النقيض من ذلك في الشعوب المحتلة المقهورة، المختلطة بقاهاها، فإنها بالتعود، وعلى إثر الدعاية البارعة، تتعلم من جديد كيف تنظر إلى هؤلاء القاهاها، على أنهم من الناس: أناس طيبون أو خبيثاء، أو طيبون وخبيثاء معاً"<sup>(2)</sup>.

وقد حدث عند إميل حبيبي شيء من هذا: انهار السدّ بينه وبين العدو، ولم يعد لديه العدو شراً مجسّداً. والاختلاط - ذو الأثر السلبي هذا - هو الذي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما قال: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين"<sup>(3)</sup>. فهكذا تفعل المعاشرة حين تكون بين طرفين، أحدهما مهزوم حتى نخاع العظام، والثاني منتصر حتى ذؤابات الشعر.

لقد غدا العدو السابق، في نظر إميل حبيبي، من البشر الطيبين. إن سدّ النار هذا الذي يتحدث عنه مقاتل عريق في صفوف المقاومة الفرنسية، إيّان حقبة النازي، قائم في الواقع مثله، بين الفلسطيني ومحتل أرضه: يحرص الفلسطيني على تشييده وتقويته، ما دام هناك احتلال. وسدّ النار هذا هو الذي يحفظ على الفلسطيني فلسطينيته بالتضاد.

<sup>1</sup> - فيصل دراج. بؤس الثقافة الفلسطينية. ص 117

<sup>2</sup> - جان بول سارتر. ما الأدب. ص 71

<sup>3</sup> - رواه أبو داود والترمذي والنسائي. انظر: ابن الأثير. جامع الأصول. المجلد 4. ص 445

ولقد رأينا كيف يفعل انهيار هذا السد بالناس؛ عندما يزيل التناقض الحيوي بينهم وبين سالب كينونتهم، فيصبح سلب الكينونة أمراً يمكن تقبله. إن سلب الكينونة - الناتج عن سلب الأرض من تحت الأقدام - هو الذي حول الفلسطينيين من شعب يقف فوق أرضه، يزرعها ويحقق ذاته من خلالها، إلى مجموعة لاجئين، موزعين على أقطار متعددة، ينتظرون مساعدات الآخرين.. يمكن القول - بدرجة عالية من الصحة - بأن كينونة الفلسطيني لم ترجع إليه، إلا بعودة هذا التناقض الساخن بينه وبين عدوه، بفعل الثورة.

"إن الفلسطيني عرّف هويته وميّزها، من خلال صراعه مع الحركة الصهيونية... ما يميّز الهوية الفلسطينية هو التشريد وعدم الأمان؛ إضافة إلى خبرات النكبة، التي تنتقل من جيل إلى آخر. ولذلك فإن عملية بناء الكيان الفلسطيني ارتبطت بالكفاح المسلح: بمقاومة الاحتلال يصبح أحدهم فلسطينياً. وبالتالي، فإن أي فلسطيني يولد وفيه شعور بأن له الحق في المقاومة"<sup>(1)</sup>.

وإن أي محاولة لسلب الفلسطيني حقه في المقاومة، هي في ذات الوقت، محاولة لسلبه كينونته المتجددة. وفي مثال إميل حبيبي رأينا أن الحركة الصهيونية، لم تنجح في سلبه حقه في التناقض الوجودي معها، فحسب؛ وإنما كذلك، فرضت عليه نوعاً من أنواع التشكل المضاد: بحيث تحول - بسبب فداحة الهزيمة - من معادٍ سابق، إلى شخص مفرط في عنايته بالعدو، والإذعان له<sup>(2)</sup>. يقول الروائي الفلسطيني أحمد عمر شاهين، في شهادته على إميل حبيبي:

---

<sup>1</sup> - عاصم خليل. على ضوء الواقع الفلسطيني. رؤية. السنة 3. العدد 28. ص 36

<sup>2</sup> - انظر: جابر عصفور. تعريف بالمصطلحات الأساسية. ثبت في نهاية الكتاب الذي ترجمه لإديث كريزويل.

عصر النبوية. ص 405



"آخر لقاء لنا كان عام 1994... في معرض القاهرة للكتاب، الذي هوجم فيه إميل يومها هجوما شرسا، على موقفه من التطبيع الثقافي مع إسرائيل... قال بنبرة أسي ساخرة: جمال الغيطاني يقول اليوم في المعرض: إن الإسرائيليين شذاذ آفاق، فكيف تكون لهم ثقافة؟! ثم ضحك بافتعال، ونظر إلينا بجديّة قائلاً: هؤلاء زبدة الناس، لو تعلمون. وكررها مرتين. لم أعلّق. ولم أقابله بعدها، أو أسعى إلى مقابلته. وقلت للصديق غالب شعت: يبدو أن الرجل قد أصبح في الجانب الآخر تماماً"<sup>(1)</sup>.

لقد صار العرب الفلسطينيون واليهود المغتصبون - في ذلك الجزء الذي تهوّد<sup>(2)</sup> من ضمير إميل حبيبي - إخوة، تجمعهم وحدة الوجود والمصير، حتى في مواجهة العرب، بالضبط تماما، كما أحب أن ينظر إلى الوحدة المفترضة، بين القوميات المختلفة في الاتحاد السوفيتي. ولقد ذهب إميل في هذا التصور إلى مناطق لا رجعة منها. قال في مقابلة له مع صحيفة حداثوت العبرية، خلال الهجوم الأمريكي على العراق، في حرب الخليج الأولى: "بأن الحرب قد خلقت وحدة المصير، بين عرب دولة إسرائيل واليهود. وبأنه مع إزالة التهديد الوجودي للعراق، سيعم الفرح العظيم، الذي سينغرس في أعماق وعي اليهود والعرب في إسرائيل؛ بحيث لا يمكن نسيانه إلى الأبد"<sup>(3)</sup>.

فاليهودي، في نظر إميل حبيبي، قريب وحليف. والعراقي بعيد وعدو!.. إلى هذا الوعي الشقي<sup>(4)</sup> انتمى إميل حبيبي وصفّق، طوال حياته: في الكنيست وخارجها، في الإبداع والسياسة، في الحزب وبعد خروجه منه، قبل قدوم السلطة الفلسطينية وبعدها،

1- أحمد عمر شاهين. تواصل مع أسلوب السرد العربي. مشارف. عدد9. ص102

2- حسب تعبير الدكتور صلاح فضل. انظر: على حد السيف. مشارف. عدد9. ص97

3- صحيفة حداثوت العبرية. عدد يوم10/20/1991. انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين

التناقض والممارسة. ص419

4- التعبير للدكتور صلاح فضل. انظر: على حد السيف. مشارف. عدد9. ص97

عندما حصل على جائزة فلسطين، وعندما حصل على جائزة إسرائيل، عندما طبعت كتبه منظمة التحرير، وعندما طبعت كتبه (دولة إسرائيل) وترجمتها إلى العبرية، عندما بدأ في عصابة التحرر الوطني، وعندما انتقل إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، عندما أقام لجنة للتطبيع الثقافي مع المثقفين الصهاينة، وعندما حاول أن يشرك معه، في ذلك، المثقفين المصريين؛ الذين لا أعرف ما هو المشترك بينه وبينهم، بعد أن كفر مبكراً بما كان يمكن أن يكون مشتركاً: العروبة!... على هذا عاش، وعلى هذا مات، ووفق هذا يمكن قراءته قراءة كاشفة.

### ثالثاً: إميل حبيبي والمؤسسة السياسية الفلسطينية:

لقد أضأنا، في السطور السابقة من هذا الفصل، بعضاً من طبيعة العلاقة بين إميل حبيبي ومنظمة التحرير الفلسطينية: حيث ألقينا الضوء هناك على هجائيات إميل حبيبي لزعيم المنظمة الأول، أحمد الشقيري، ولحركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، الصاعدة آنذاك نحو التحرير والتمثيل.

وللحق والحقيقة، فإن هناك ثلاث ملاحظات ابتدائية لافتة، نود الإشارة إليها، قبل التعمق في تحليل هذه العلاقة الجديدة، بين الحزب الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية. وهذه الملاحظات الثلاث يأخذ بعضها برقاب بعض، وتقود سابقتها إلى اللاحقة عليها:

- تقول الملاحظة الأولى: إن كلاً من إميل والحزب الشيوعي الإسرائيلي، لم يؤيد يوماً كفاح الشعب الفلسطيني المسلح، لتحرير أرضه وتقرير مصيره عليها، سواء في بدايات كل منهما، وسواء في تاريخه المعاصر، بل إن العكس هو الصحيح.

- أما الملاحظة الثانية فتقول: إنه عندما حانت لحظة اعتراف الحزب بالمنظمة، كان الرفاق اليهود، أسبق من الرفيق العربي إميل حبيبي، في اعتبار منظمة التحرير، حركة تحرر قومي، تستحق الاحترام، ومن ثم الاعتراف السياسي.
- في حين تقول الملاحظة الثالثة: إن لقاءات إميل حبيبي مع أعضاء المنظمة، لم تتم إلا بعد خروجه من الكنيست بزمن متأخر.

وبخصوص الملاحظة الأولى، يمكن الاستشهاد بالواقعة التالية، التي حدثت يوم 2 سبتمبر 1970، عندما نشرت صحيفة الحزب العبرية (زوهديخ)، مقالاً لسكرتير الحزب مئير قلنر، قال فيه: "إن المنظمات الفلسطينية قد اكتسبت طابعاً جديداً، وتحولت إلى حركة قومية". وقرر، من ثم، بأن كلاً من حرب حزيران 1967، ومشكلة اللاجئين المتفاقمة، وسياسة خلق الحقائق على الأرض، قد أدى إلى "تطور حركة قومية عربية فلسطينية شعبية"<sup>(1)</sup>.

أما إميل حبيبي، فقد قلنا سابقاً بأنه كان قد تخلق أيديولوجياً، وفق وعي زائف، ينطلق من مصالحه الذاتية، وإن ترفع بالديباجة الاشتراكية. ومن المعلوم أن من شأن وعي كهذا، أن يحيل إلى قياس كل المتغيرات، بحذر بالغ، ويؤجل اتخاذ المواقف، لحين استقرار العواصف؛ تمهيداً لاستكشاف الاتجاه النهائي للريح. لذا فقد تمهل الرجل، ولم يعلن موقفاً متسرعاً، من هذه التغيرات الحزبية، وظل يردد لازمة الحزب الرئيسية السابقة، فيما يمكن اعتباره موقفاً وسطاً، يقف على تخوم الشعارات السابقة، ولا يتعداها إلى توضيح موقف جديد. وقد تمثل هذا الموقف الوسط، بصورة نموذجية، في منتصف مارس 1973، عندما أعلن، في صحيفة الاتحاد، بأن له "كل الحق، في انتقاد السياسات والأعمال المغامرة -

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. المصدر الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 139

وغير العادلة - التي تظهر لدى هذه المنظمة، أو غيرها من منظمات الشعب العربي الفلسطيني<sup>(1)</sup>.

لقد بدا واضحاً الآن، لدى الباحث، بأن موقف إميل حبيبي هذا، بعد مرور ثلاث سنوات كاملة، على تصريح زعيم حزبه - اليهودي الموقع على وثيقة الاستقلال - يختصر ويمزج تلك الملاحظات الابتدائية الثلاث. ويلقي ضوءاً على موقف ملكي أكثر من الملك ذاته.

إن ذاكرة إميل حبيبي لقوية؛ إذ يتذكر مواقف منير قلنر؛ قبل (قيام الدولة) ويقارنها بمواقفه هو، في حينه!. مدركاً أنه لن ينسى له أبداً أنه كان يوماً أحد المنشقين عن الحزب، على أساس قومي<sup>(2)</sup>. وإذا كان ذلك كذلك، فما حاجته الآن، وبعد كل تلك الرحلة، إلى مواقف (متطرفة) من هذا القبيل، إذا كان غيره يغنيه عنها!. ثم ما بالك إذا كان هذا (الغير) يهودياً، لا يمكن الطعن في ولاءه!.

لقد كان إميل حبيبي، في أعماقه مدركاً قوة اليهود، ودورهم في الحركة الشيوعية العالمية. وكان هذا الإدراك لا يزال يشكل له هاجساً، يقض مضجعه، فيتشكل وفقاً لتأثيره، تشكلاً مضاداً<sup>(3)</sup>، يبالغ من خلاله في إظهار الولاء لهم، خوفاً من بطشهم. ولقد يتذكر الآن بأنه لم يعد عضواً في الكنيسة، وربما لن يكون. دع عنك ادعاءه الدائم، بأن سبب خروجه هو الرغبة في التفرغ للأدب، لأنه ما من أحد يدرك الحقيقة مثله، ولأنه ما من شيء في وعيه مقدم على السياسة، لأن "النشاط السياسي هو الضرورة الاجتماعية

---

<sup>1</sup>. كلمة الاتحاد. عدد يوم 16/3/1973

<sup>2</sup>. عن شك قلنر الدائم في إميل حبيبي، انظر شهادة الكاتب الصهيوني نتان زاخ. مشارف. العدد 9. ص 75

<sup>3</sup>. انظر: جابر عصفور. تعريف بالمصطلحات الأساسية. ثبت في نهاية الكتاب الذي ترجمه لإديث كريزويل.

عصر النبوية. ص 405

الأولى. وأما الإبداع، فيحتل المكان الثاني بين الضرورات الاجتماعية: هي أول، وهو المكان الثاني<sup>(1)</sup>. ومن عاشر اليهود يعرف أنهم لا يغفرون<sup>(2)</sup>.

ولقد كان يخلو أحياناً لإميل حبيبي، أن ينفس عن هذا الكبت، أمام رفاقه البعيدين، الذين يأمن عاقبة أيديولوجيتهم، بوطنيتهم وانفصالهم الجغرافي عن الدولة التي يحكمها اليهود؛ فيظهر لهم وجهاً آخر، أقرب إلى العنصرية، ومعاداة الجنس اليهودي بأكمله. يروي محمد دكروب، القيادي الشيوعي اللبناني المعروف، الحادثة التالية، عن لقائه بإميل في موسكو، عام 1975، فيقول:

"بادرني بالسؤال عن كتابي: (جذور السنديانة الحمراء)، وكان قد صدر في أواخر العام 1974، وفيه أروي حكاية تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني... وقال: تعال الآن واحمل لي نسخة من الكتاب. ثم قال باهتمام وبلهجة ساخرة عودنا عليها في كتاباته: أريد أن أعرف إذا كنت، كآخرين، وقعت في مطب الألعوية المخادعة، القائلة بهوس أممي سطحي: إن بعض اليهود - يا رعاك الله - هم الذين أعدوا مراسيم تعميد، أو حتى تأسيس، بعض أحزابكم الشيوعية المجيدة"<sup>(3)</sup>.

ويظهر أن هذا الموقف، هو الذي كان يخلو لإميل حبيبي أن يظهره، لرفاقه العرب، في تلك الفترة من الحرب الباردة، وتنامي التيار القومي. فهل كان إميل يتشكل وفق الواقع

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. عن الإبداع وعن خضراء الدمن. مشارف. العدد 3. ص 9

<sup>2</sup> - أوضحت الصحافة الإسرائيلية، في حينه، بأن إجبار الحزب الشيوعي الإسرائيلي للنايب إميل حبيبي على الاستقالة كان ناتجاً عن رغبة الحزب في تعزيز تمثيله اليهودي في الكنيسة، عشية الانتخابات القريبة. وقد تمت هذه الخطوة بالتنسيق مع موسكو. انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 455

<sup>3</sup> - محمد دكروب. إميل حبيبي والمتشائل. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 161

على الجبهتين؟. وهل اليهود جنس يستحق الكراهية<sup>(1)</sup>، أم هم زبدة الناس؟. وعلى العموم، فهو الآن - في اللحظة التي يصرح فيها تصريحاته المتشددة بشأن المنظمة - يعيش في إسرائيل، ويحكمه اليهود، الذين تفضلوا بعد انتصارهم، وقبلوا بعودة المهزوم إلى صفوفهم، بعد انشاقه القومي السابق. وحرّي بمن كان هذا شأنه أن يظل أكثر احتراساً!

لقد أُجبر إميل حبيبي على الاستقالة من الكنيست، في عام 1972، لصالح الرفيق اليهودي (أبراهام لفنبراون)، في نفس العام الذي بدأ فيه الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بالتطرق - لأول مرة - إلى الشكل الذي سوف يمارس به الشعب الفلسطيني حقه، في تقرير المصير، بعد زوال الاحتلال الإسرائيلي عن الأراضي المحتلة، عام 1967<sup>(2)</sup>.

وفي ديسمبر 1973، حدث تحول سياسي تاريخي، في مؤتمر القمة العربي السادس المنعقد بالجزائر؛ تمثل في اعتراف النظام العربي الرسمي، بمنظمة التحرير، ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، بعد مرور أكثر من ثماني سنوات، على انطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة. حيث تلا ذلك، وتواكب معه في تاريخ مقارب، تحول مشابه في موقف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، من المنظمة، واعتراف بها، ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، مقروناً باعتراف مماثل بأن القضية الفلسطينية ليست مجرد قضية تحرر قومي فحسب، بل إنها لب النزاع العربي الإسرائيلي أيضاً<sup>(3)</sup>.

وبعد أن بدأت تظهر في الأفق، إشارات على بدء مرحلة التفاوض، على إثر حرب أكتوبر 1973، بين مصر وإسرائيل، وظهرت إلى الوجود فكرة عقد مؤتمر دولي، يجمع الأطراف المتصارعة في جنيف، برزت في التخطيط الاستراتيجي للمنظمة، فكرة السلطة

<sup>1</sup> - يقرر كريم مروة القيادي الشيوعي اللبناني، بأن إميل كان يجهر أمامه بمعاداة اليهود بطريقة عفوية. الطريق.

العدد 3. السنة 55. ص 134

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 115

<sup>3</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية ص 216

الوطنية. وقد تم التمهيد، للتعامل مع هذا المؤتمر، ومحاولة المشاركة فيه، بعقد الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني بالقاهرة، في يونيو 1974، وصدر عنه ما عُرف حينها ببرنامج النقاط العشر، الذي اعتُبر أساساً للبرامج السياسية المرحلية اللاحقة. وقد كان أهم ما ورد في هذا البرنامج ما يلي: "تناضل م. ت. ف بكافة الوسائل، وعلى رأسها الكفاح المسلح، لتحرير الأرض الفلسطينية، وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة، على كل جزء من الأرض الفلسطينية، التي يتم تحريرها"<sup>(1)</sup>. ومع ذلك، فإن الرفاق اليهود في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، سوف يظلون السباقين، في التصريح باقتربهم من المنظمة، وفقاً لاقتربها من برنامجهم؛ حيث سنجد أن الرفيق أبراهام ليفنبراون - الذي حل محل إميل حبيبي في الكنيست - هو أول من سيبادر بالقول، من على منصة الكنيست، في يوليو 1975، "بأن هناك قوى هامة، في م. ت. ف، مستعدة للذهاب إلى مؤتمر جنيف، والجلوس - سوياً مع ممثلي الدول العربية، وممثلي إسرائيل - للبحث في تسوية سلمية، تقوم وفقها دولة فلسطينية مستقلة، إلى جانب دولة إسرائيل"<sup>(2)</sup>.

فقط، بعد ذلك بخمسة شهور، سوف نقرأ تصريحاً لإميل حبيبي، في افتتاحية الاتحاد، يرقى إلى عدم التشنيع على المنظمة، ويلوم حكام إسرائيل، على تفریطهم بهذه التوجهات العقلانية: فلو "أن وجهتهم كانت نحو السلام العادل والمقيم، لكانوا اعترفوا بالشعب العربي الفلسطيني وبحقوقه، وأسهموا في عملية نمو الاتجاه الواقعي والعقلاني، في منظمة التحرير، القائم على الاعتراف المتبادل"<sup>(3)</sup>.

---

1- جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 116

2- جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 141

3- افتتاحية الاتحاد. عدد يوم 1976/1/6

وما كان لإميل أن يصرح بهذا التصريح، لولا أن كان قد سبق لسكرتير الحزب مثير قلنر، أن اصطحبه وتوفيق طوبي، في وفد الحزب المسافر، في مهمة سرية، إلى موسكو، للاجتماع بزعيم المنظمة، ياسر عرفات عام 1975<sup>(1)</sup>.

فإذا ما تذكرنا تصريحات صليبا خميس، بوجود علاقة غريبة بين رئيس الموساد، وبين السكرتير العام مثير قلنر، والتقارير التي يقدمها له<sup>(2)</sup>، فسوف ندرك أن إميل حبيبي، كان مطمئناً إلى سلامة موقفه، من الناحيتين الحزبية والقانونية. حيث لا يعقل لعضو اللجنة المركزية، أن لا يكون شاعراً بما شعر به العضو السابق، صليبا خميس، مع أن كليهما من طينة واحدة<sup>(3)</sup>.

إذن، فبدايات التقارب، بين مواقف إميل حبيبي ومنظمة التحرير، تعود إلى عام 1973: عام كتابة المقال المذكور. وبداية اللقاءات مع رئيس المنظمة، تعود إلى عام 1975. ثم إن من حقنا، بعد ذلك، أن نستنتج أن ذلك اللقاء تبعته لقاءات أخرى، أتاحت لإميل حبيبي هذا الاحتفاء، منقطع النظير، الذي استقبلت به روايته الأشهر: الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، وذلك اللقاء، للذان سوف يؤديان، بعد ذلك، إلى طباعة الرواية للمرة الرابعة عام 1980<sup>(4)</sup>، وإلى تلك الحفاوة

---

<sup>1</sup> انظر: فيصل حوراني. حبيبي الباقي في حيفا وفيينا. مشارف. العدد 11. ص 85 - 86. وحيث أن حوراني لم يذكر تاريخ هذا اللقاء، فقد قمت بمقارنة لقاء حوراني بكل من حبيبي ومحمد دكروب، بما رواه دكروب عن لقائه الأول بحبيبي في موسكو عام 1975 مستنتجاً أنه نفس اللقاء. انظر كذلك مقالة محمد دكروب. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 160

<sup>2</sup> انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 417

<sup>3</sup> انظر: مسدس وسيارة لصليبا. الوثيقة رقم 3

<sup>4</sup> انظر: الغلاف الداخلي لكتاب إميل حبيبي: سداسية الأيام الستة - الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل وقصص أخرى. ط 7. حيفا. دار الاتحاد للطباعة والنشر. 1985. وكلما أحلنا إلى المتشائل بعد ذلك سنعني به هذه الطبعة.



العظيمة بها وبمؤلفها (المناضل من الأرض المحتلة)، بطريقة لا يمكن أن تكون عفوية، فالأمر لا يتناول نبوة جديدة أو عملاً خارقاً للعادة، كما بدا ليفصل حوراني، في قوله:

"أدهشت المتشائل جميع الذين قرأوها، ممن عرفتُ، وخلقت في دمشق جواً لم يخلقه أي كتاب حديث غيرها. وتحمس لها الكتاب: قوميوهم، وماركسيوهم، والمحافظون منهم. وبدا وكأن ضيفاً محبوباً، وعزيزاً ورفيع المقام، قد حل في المدينة، وتبارى الجميع في إكرامه: أعيد طبع الكتاب، وبزّت دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، والجهات الفلسطينية الأخرى، الآخرين؛ فأعدت طبعه عدة مرات، ووزعته على أوسع نطاق، فصار (كتاباً مقدساً) يتخاطفه القراء، ويحثون معارفهم على قراءته... وفي سياق الاهتمام برواية المتشائل، والسعي لتعميم تأثيرها، برزت فكرة تحويلها إلى عمل سينمائي، أو تلفزيوني. وتصدّر سعيد حورانية جماعة من الكتاب والفنانين، بحثت هذا الأمر. وتبنت دائرة الثقافة، في م. ت. ف، اقتراحها بتحويل المتشائل إلى مسلسل تلفزيوني. وحاول الكثيرون إخراج الفكرة إلى حيز الوجود، إلا أنهم اصطدموا بعقبة، يضيف اكتشافهم لها شهادة جديدة، لصالح القصة: فقد تبين تعذّر بناء عمل، تبقى فيه فرادة الحكاية، وفرادة تعبيرها. وحده مصطفى أبو علي، المخرج الفلسطيني الذي كان رئيساً لقسم السينما، في الإعلام الموحد، خطأ خطوة، اتخذها على عاتقه: فوضع سيناريو سينمائياً، مستنداً إلى حكاية المتشائل، وطلب من م. ت. ف أن تخصص خمسة ملايين دولار، لتنفيذه"<sup>(1)</sup>.

لكن الأمر يتناول كتاباً، لرجل يستقبله زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، ويتفق معه على برنامج للعمل السياسي، في المرحلة القادمة. ومن كان في استطاعته يومذاك ألا يتلقف هذه الإشارات الدالة!.

---

<sup>1</sup> - فيصل حوراني. حبيبي الباقي في حيفا وفينا. مشارف. العدد 11. ص 82 - 83

لقد اقتربت المنظمة من برنامج الحزب الشيوعي الإسرائيلي، فاقتربت إميل حبيبي من زعيمها، بعد أن تأكد له أن هذا الاقتراب نهائي، وأنه لا حرج عليه من الاستفادة من هذا الواقع الجديد.

ثم بعد ذلك توالت اللقاءات، بين وفود الحزب الشيوعي الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية، التي كان أشهرها لقاء براغ، في شهر مايو 1977، الذي اعتبر يومها اللقاء الرسمي الأول<sup>(1)</sup>. ويغلب على الظن أن أغلب هذه اللقاءات كانت بمشاركة إميل حبيبي. خصوصاً لقاء التعارف الذي تم في صوفيا، بين ممثلين عن الحزب ورئيس المنظمة ياسر عرفات، في إطار برلمان الشعوب العالمي للسلام، في أيلول 1980<sup>(2)</sup>.

وإذ يقرن الباحث بين كل هذه اللقاءات، وبين ما هو معلوم من وجود قانون إسرائيلي اسمه: (قانون منع اللقاء بأعضاء منظمة التحرير)، فلقد يحق له أن يصدق كلام صليبا خميس، حول علاقة سكرتير عام الحزب بجهاز المخابرات العام (الشاباك)؛ كما يحق له أن يرجح، بأن كل هذه اللقاءات، ما كان لها أن تتم، دون إذن مسبق من هذا الجهاز، الذي يتحكم في كل مفاصل الحياة، في الدولة اليهودية؛ خصوصاً عندما يقرأ كل هذه الأحداث، على ضوء ما جرى مع الناشط السياسي الدكتور أحمد الطيبي، بمناسبة كشف النقاب، حينذاك، عن اجتماعاته مع رئيس م. ت. ف، حيث تصدى رئيس الدولة اليهودية: عيزر وايزمان، للدفاع عنه، مؤكداً أن الزيارات التي قام بها الدكتور أحمد الطيبي... إلى الدول العربية، قد جرت بالتنسيق مع الشاباك... وأن رئيس الشاباك طلب

<sup>1</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 217

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 144

منه، في حينه، إجراء اتصالات مع الطيبي، الذي رتب له وايزمان إصدار تصريح من الشباك، ليقوم بزيارة إلى عمان<sup>(1)</sup>.

لقد كان إميل حبيبي يتشاعل منذ زمن بعيد<sup>(2)</sup>، ويوفر لكل اللغة التي يحب سماعها، مستنداً إلى حماية الأيديولوجيا، وسطوة مؤسسة الحزب (المناضل). وليس من الغريب، بعدئذ، أن نكتشف أنه استخدم هذه السلطة الأولية المتوفرة، لاقتناص سلطة أخرى، هي سلطة المؤسسة الفلسطينية الرسمية، إذ غدت زيارته، لمقر المنظمة في تونس، متكررة، ومتوالية، يستخلص خلالها، من الدائرة الثقافية للمنظمة، الدعم المالي، لمشروعاته الهادفة إلى (تعزير صمود المتقنين الفلسطينيين)، في الأرض المحتلة منذ 1948، وإقامة مؤسسات ثقافية تعزز - بزعمه - الانتماء إلى فلسطين وكفاحها الوطني<sup>(3)</sup>.

وإذ لم تكن طبيعة زيارات إميل حبيبي، لمقر المنظمة، منذ البدء، ذات طبيعة ثقافية - كما نعلم مما سبق - فقد كان من الطبيعي إذن أن تكثر لقاءاته وتوالي، مع رموز المنظمة وقادتها السياسيين؛ ابتداء برئيس المنظمة ياسر عرفات، وليس انتهاء بمحمود عباس (أبو مازن)، الذي لم تكن رئاسته للجنة الفلسطينية العليا، المشرفة على المفاوضات مع الإسرائيليين، مجرد صدفة، ولم تكن لقاءاته بإميل حبيبي لبحث شؤون الأدب، وآخر تقنيات الرواية الحديثة، بالطبع؛ فنحن نعلم أن إميل حبيبي كان يجتمع مع

---

<sup>1</sup>- انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة ص 273

<sup>2</sup>- انظر: إلياس خوري. الأخطاء والأضداد. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 155 - 156

<sup>3</sup>- أفاد بهذا السيد عبد الله الحوراني، رئيس المركز القومي للدراسات والتوثيق، بالسلطة الفلسطينية. وهو الشخص الذي كان موكلاً بتقديم هذا النوع من المساعدات، بسبب من طبيعة منصبه آنذاك، كرئيس للدائرة الثقافية بمنظمة التحرير الفلسطينية.

هذه اللجنة ورئيسها، لتقديم الاقتراحات، "بشأن الدور الذي يمكن أن يقوم به لدعم م. ت. ف" (1).

لا انفصال بين المعرفة والسلطة، كما تقرر منذ بدء هذا البحث، ولقد كان إميل حبيبي يدرك هذا دائماً، ويستثمر هذا في كل حين؛ بحيث صرنا نراه يرفع يده مهدداً، عند استشعاره أدنى خلاف في الرأي معه، مذكراً الجميع بأنه يعمل مستشاراً أساسياً لرئيس السلطة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات (2) الذي أقنع زملاءه في القيادة الفلسطينية بضرورة "ارتضائها العودة إلى بلادها من باب المسيرة السلمية الحالية، حتى ولو كان أضيّق من ثقب الإبرة [وقاد بذلك الشعب الفلسطيني إلى ضمان] حقه بتقرير مصيره بنفسه، وبحسب قدراته" (3).

وفي عهد السلطة الوطنية الفلسطينية، كذلك، لم يتوقف إميل حبيبي عن استثمار ما لديه، مثل أي سياسي بارع: فلقد رأيناه يستخلص - من كل من رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، والدولة الإسرائيلية - دعماً مزدوجاً يؤمن إصدار مجلته (مشارف) (4)، الهادفة إلى رعاية التطبيع بين المتقنين على جانبي الجبهة: العرب الفلسطينيين واليهود المستوطنين (5).

1- فيصل حوراني. حبيبي الباقي في حيفا وفينا. مشارف. العدد 11. ص 91

2- انظر: كريم مروة. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 139

3- انظر: الحوار الذي أجراه إميل حبيبي مع الكاتب الجزائري الطاهر وطار. مشارف. العدد 5. ص 109

4- انظر: الموقع الإلكتروني للشاعر الفلسطيني، من الأرض المحتلة عام 1948، فاروق مواسي. بتاريخ

2005/10/22. رابط: <http://www.geocities.com/faruqmawasi/hiwarat.htm>

5- انظر: البيان التأسيسي لمجلة مشارف. العدد الأول. ص 163

كما رأيناه، على مستوى آخر، لا يدع فرصة إلا وبنوه فيها إلى شيء مما قاله في المتشائل، تدليلاً على بعد نظره السياسي وعمق تجربته في الحياة<sup>(1)</sup>، حتى أرهق نفسه وأرهق الدارسين المحبين، فماذا باستطاعة أي منهم أن يفعل، مع كاتب يضيء كل المفاصل الخفية في النص!. ولئن كانت المدارس الجمالية تجد لها مندوحة في القول بفصل النص عن صاحبه، للذهاب إلى قراءات مختلفة؛ فأبي مندوحة سوف يجدها مؤرخو تاريخ الأدب، أو نقاد الدرس الثقافي، للهروب من هذا الاعتراف المدوي من إميل حبيبي بأنه هو المتشائل ذاته؟. بل ماذا سوف يفعل السياسيون الوطنيون، عندما يكتشفون فجأة، بأنهم منحوا وسام جائزة القدس لسعيد أبي النحس المتشائل شخصياً، ثم روجوا له هذا الترويج؟.

لقد خُير إميلُ فعلاً بين خيارين، فاختر المواطنة الإسرائيلية، والجائزة الإسرائيلية، والجري المجنون لفرض كل تصوراتهِ، عن (أنسنة العدو)<sup>(2)</sup>، و(الوجه الحقيقي لشعب إسرائيل)<sup>(3)</sup>، على المثقفين العرب. ولولا اتفاق أوصلو، لما أمكن له أن يحظى مرة أخرى بالتقاء ياسر عرفات. لكن الرئيس الفلسطيني، بعد عودته، كان قد قرر تجريب أساليب جديدة، واستخدام أدوات جديدة، كان أحدها إميل حبيبي. لهذا استقبله في مقره في غزة، ولهذا حظي إميل بدعمه المادي، مرة أخرى، لإصدار مطبوعة مشارف، لعلها تجند من المعسكر المقابل، من يخفف عنه هذا الحصار.

---

<sup>1</sup> - انظر على سبيل المثال: اخطية. الأعمال الأدبية الكاملة. ص576. ونحو عالم بل أفاص. ص88، وص104،

وسراج الغولة. مشارف. العدد16. ص11، وفي مجال التعريف. مشارف. العدد الأول. ص6

<sup>2</sup> - انظر: إميل حبيبي. شبك ليبيك، عبدك بين يديك. مشارف. العدد5. ص9

<sup>3</sup> - انظر: إميل حبيبي. لا حاجة بنا إلى الانتحار. مشارف. العدد8. ص9

## رابعاً: إميل والهيئات الشعبية العربية في الدولة اليهودية:

### تمهيد:

عرفت فلسطين الأحزاب السياسية، منذ أن بدأت تتشكل، تحت وطأة الاحتلال العثماني: إذ من المعروف أن عدداً غير قليل من الفلسطينيين، كانوا قد انتظموا في صفوف الأحزاب العربية، المطالبة باللامركزية: تلك الدعوات التي اعتبرت، في حينه، بداية لمطالبة العرب بالاستقلال عن اسطنبول. كما أن من المعروف الآن أن سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني، كان أحد أبرز الشخصيات العربية التي شاركت في حضور مؤتمر دمشق عام 1919، الذي عقدته الدولة العربية، فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، ودخول قوات الثورة العربية الكبرى، العاصمة السورية، بعد هزيمة الجيش العثماني. وفي ذلك المؤتمر وقف زعيم فلسطين الشاب، ليتحدث عن الهجرة اليهودية وخطرها، على عروبة الأرض الفلسطينية. ويظهر من سياق الأحداث، أن الحاج أمين لم يلمس، لدى حكومة فيصل بن الشريف حسين، التجاوب الكافي، حيث قيل إنه وقف أمام المجتمعين، رافعاً علم الثورة العربية الكبرى، بعد أن قلبه على أم رأسه، إشارة إلى هذا الشعور بالانتكاس، الذي تعانيه فلسطين، من هؤلاء المجتمعين. ومن يومها صار هذا هو علم فلسطين: علم الثورة العربية الذي يعلوه السواد.

كما نشأ، في فلسطين، عدد من الأحزاب السياسية العربية الصرفة، في حقبة الانتداب البريطاني، التي انحصرت مهمتها في المطالبة بالجلء، ومنع الهجرة، وتحقيق الاستقلال<sup>(1)</sup>. وقد اندمجت هذه الأحزاب في هيئة مشتركة، إبان ثورة 1936، ثم أعادت إنشاء هيئة مشابهة، في السنوات الأخيرة للانتداب، بغية التصدي للهجمة الصهيونية

<sup>1</sup>. انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 423

عام 1948، وهي الهيئة العربية العليا، بقيادة الحاج أمين الحسيني، وقد اعتبرت الجماهير الفلسطينية هذه الهيئة، هي القيادة الوطنية الشرعية الوحيدة لنضالاتها.

ولقد بينا، في الصفحات السابقة، أن الحزب الشيوعي الفلسطيني كان قد اشترك، حسب قدراته، في ثورة عام 1936. أما في العام 1948 فقد اشتركت عصابة التحرر - وهي القسم العربي من الحزب - في التصدي، مع القيادة الوطنية، للهجمة الصهيونية، قبل أن يلتف على قراراتها إميل حبيبي وجماعته، ويصدروا باسمها بياناً بقبول قرار التقسيم، الأمر الذي تسبب في هجوم الجماهير على مقراتها، وإحراقها وهروب قادتها إلى لبنان.

مع انتهاء حرب 1948، وقيام إسرائيل، وجد ما تبقى من الشعب الفلسطيني نفسه في فراغ سياسي، بدون تنظيم سياسي وطني، يقود نضالاته الوطنية. الأمر الذي أخلّى الساحة السياسية للحزب الشيوعي الإسرائيلي: الحزب السياسي الوحيد الذي تبقت قياداته العربية في فلسطين، بعد رحيل الآخرين. ونظراً لموقف هذه الكوادر العربية المعروف، من قيام دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية، فقد أتاحت لهم السلطة الصهيونية العمل والنشاط، وسط السكان العرب، في إسرائيل<sup>(1)</sup>.

"ورغم أن الحزب كان يؤمن، بأن فلسطين أصبحت وطناً للشعبين العربي واليهودي، وأن كليهما لهما الحق في تقرير المصير، وأن حق (شعبي فلسطين) في تقرير المصير، في كيان قومي حر، هو القاعدة التي قام عليها قرار التقسيم... رغم كل ذلك، أنكر الحزب حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم المستقلة، الخاصة بهم. ومن الواضح أن الحزب لم يتعامل على نفس المستوى مع الحقوق القومية لكلا الشعبين: فبينما فسر حق الشعب اليهودي في فلسطين، بأنه يعني حصوله على دولته المستقلة، الخاصة به، [نراه] فسر حق

---

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 202

الشعب العربي الفلسطيني، في تقرير المصير، بأنه يعني حق اللاجئين العرب، في العودة إلى إسرائيل<sup>(1)</sup>.

ومن هنا يجب أن لا نستغرب مواقف قائد من قادة هذا الحزب، ينكر هذا الحق القومي على شعبه، كإميل حبيبي، لأننا إن توقعنا منه خلاف ذلك، نكون كمن يطلب من الأشياء أن تخالف طبائعها. وإنما محل الاستغراب هنا، هو قدرة هذا الحزب الفائقة، على الادعاء بأنه حزب ماركسي لينيني، يؤمن بحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، ثم ينكر هذه الحقوق، عند أول تجربة له على الصعيد العملي، كون النظرية الماركسية اللينينية، في الأساس، تعتبر حقوق الأمم في تقرير مصيرها بنفسها بحرية؛ حقوقاً مقدسة، بما في ذلك حقها في الانفصال عن الدولة المستعمرة، وإقامة دولتها الخاصة بها!<sup>(2)</sup>

ويجمل رجا اغبارية وصفه لحالة الجماهير العربية الفلسطينية آنذاك بقوله:

"بعد أن انفصلنا عن باقي قطاعات شعبنا، وبعد أن سُردت قيادتنا الوطنية التقليدية، وبعد أن فُرض علينا الحكم العسكري الإسرائيلي، حتى سنة 1966؛ أصبحنا عملياً نعيش داخل (غيتو) معزول، لا يربطنا بشعبنا الفلسطيني وبأمتنا العربية، إلا جهاز الراديو. لقد حولت إسرائيل فلاحي هذا القطاع [من السكان] إلى عمال عبيد، يخدمون الاقتصاد الصهيوني؛ بعد أن صودرت أراضينا الزراعية: مصدر رزقنا الأساسي حتى سنة 1948. إن كل تلك الأسباب، وغيرها، مهدت الطريق إلى تصفية هويتنا الوطنية. لقد أطلقوا علينا اسم (عرب إسرائيل)، وساهموا بذلك في عملية تصفية حقوقنا السياسية، المستندة إلى هويتنا الوطنية والقومية، المتميزة من الأغلبية اليهودية في إسرائيل. وللأسف، ساهم الحزب الشيوعي الإسرائيلي في عملية تفتيت هويتنا الوطنية ودفنها عبر قبوله المبدئي

<sup>1</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 61

<sup>2</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 52



والرسمي لدولة إسرائيل، التي اعتبرها تجسيداً لحق تقرير المصير للشعب اليهودي في البلد. لقد تخلى مؤسسو عصبة التحرر الوطني عن عصبتهم، وعن أهدافهم، وعملوا وقبلوا لاحقاً على اندماجنا في المجتمع الإسرائيلي حتى وصل بهم الأمر إلى رفع شعار: الشعب الإسرائيلي عرباً ويهوداً<sup>(1)</sup>.

وعلى كل حال، فقد كان من حسن طالع الحركة الصهيونية وحكومة إسرائيل، أن وجدنا نفرأ قليلاً في أوساط الضحايا - من أمثال إميل حبيبي - يتجاوب، إلى حد كبير، مع مزاعم الحركة الصهيونية، وينكر وجود قومية عربية فلسطينية في إسرائيل<sup>(2)</sup>.

إذن، فلم يكن أمام المواطنين العرب في إسرائيل، والحالة هذه، إلا واحداً من الخيارات الثلاثة التالية:

- إما مقاطعة الانتخابات.
- أو المشاركة بانتخاب الأعضاء العرب - عملاء أجهزة الأمن - في الحزبين الصهيونيين الكبيرين: ماابام ومابابي.
- أو انتخاب الأعضاء العرب الذين يعدونهم بتحقيق بعض المطالب المدنية والمساواة بينهم وبين (إخوانهم) اليهود.

ولقد كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي يعلم، بأن الخيار الثالث هو الذي سيفوز، في نهاية المطاف، خصوصاً في تلك المراحل الأولى العصبية، التي تلت هزيمة عربية عسكرية مدوية، وأحلاماً كبرى محطمة. لذلك فقد ركز نشاطه، في الوسط العربي، وفق

---

<sup>1</sup> - انظر: وليد العمري. رسالة الأراضي المحتلة عام 1948. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 10. ص 137

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

برنامج يسعى لتحسين ظروف معيشة السكان العرب، وإلغاء الحكم العسكري، والكف عن مصادرة الأراضي<sup>(1)</sup>.

ولقد بلغ استهتار هذا الحزب، بمشاعر العرب القومية، إلى حد وقوف سكرتيه العام شمونييل ميكونس، وسط تجمع شعبي عربي في الناصرة، مفتخراً بحقيقة أن لحزبه "اليد الطولى في شحن الأسلحة، التي تسلمتها إسرائيل من تشيكوسلوفاكيا، وأسهمت في (تحرير البلاد) عام 1958"<sup>(2)</sup>. كما أن (المناضلين الشيوعيين) العرب، من أعضاء الكنيست، لم يوفروا جهداً في المساهمة في هذا الاحتقار القومي، إلى درجة وقوف عضو الكنيست توفيق طوي عام 1950، ليطالب من على منبر الكنيست، بفرض التجنيد الإجباري على المواطنين العرب، أسوة بإخوانهم اليهود<sup>(3)</sup>.

لكن حركات الشعوب لا تتوقف طويلاً أمام القهر. ولئن مرت السنوات القليلة الأولى، على هذا القطاع من الشعب الفلسطيني، بمرها ومرها؛ فلقد نعلم أنها حفرت أخاديد عميقة في ذاكرته، سرعان ما حفزته للحركة مرة أخرى. فمع انبعاث حركة المد القومي العربي، بعيد ثورة يوليو المصرية عام 1952، وما أعلنته من شعارات الوحدة والقومية وتحرير فلسطين؛ بدأ التأثير السحري لتلك الثورة يتملك الجماهير الفلسطينية المقهورة، وبدأ صوت المناضلين يعود إلى الارتفاع مرة أخرى، خصوصاً بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، إذ آمن الكثيرون منهم بأن "هذه الوحدة مثل قطار سريع، سينضم إليه المزيد من العربات، بحيث لا يعود بإمكان أي شيء أن يقف في وجهه"<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. القصة الكاملة لحركة الأرض. شؤون فلسطينية. العدد الأول. ص 112

<sup>2</sup> - حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 428

<sup>3</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 166

<sup>4</sup> - رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 2. ص 138

وإنها لحقيقةٌ بأن أحداً لم يفرح بهذه الثورة - ثم بهذه الوحدة - فرح الشعب العربي الفلسطيني. دع عنك تصور مدى اليأس والإحباط، اللذين أصابا الفلسطينيين بانهياب الوحدة، ولولا انطلاقة الرصاصة الأولى للثورة الفلسطينية، بعد أقل من أربع سنوات، لما علم إلا الله، ماذا كان سيحدث لهذا الشعب المنكوب.

ولقد دلت الإحصائيات، التي أجرتها مراكز صناعة القرار الإسرائيلي، في حينه، على ارتفاع نسبة المقتنين لأجهزة التلفاز والراديو، بين السكان العرب، مقارنة باليهود، حتى قبل أن تنشئ إسرائيل شبكة التلفزة الخاصة بها<sup>(1)</sup>. ومعلوم أن تلك الأجهزة كان لها فعل السحر، في تلك الفترة، سواء في مساعدتها للعرب على التواصل مع ذويهم اللاجئين، أو في تأثر المواطنين العرب، في فلسطين المحتلة، بشعارات الثورة المصرية الشابة، والوحدة العربية الملهمة.

## 1- حركة الأرض:

يمكن القول بأن الإرهاصات الأولى للحركة الوطنية الفلسطينية، داخل أراضي 1948، تعود إلى العام 1952، عندما شكل الناشط القومي حبيب قهوجي (رابطة الشعراء)، بهدف المحافظة على التراث العربي، ورعاية المواهب التي تكتب باللغة العربية. وقد كان أبرز اسم، بين أعضاء تلك الرابطة، هو اسم الشاعر (راشد حسين)، الذي سيتأثر به بعد ذلك محمود درويش، أيما تأثر، ولا جرم؛ فلقد كان شعر راشد حسين، في تلك المرحلة المبكرة، يكاد يكون هو الشعر العربي الفلسطيني الوحيد، الذي يتغنى بالأرض، بنغمة وحدت بين الأرض والإنسان الفلسطيني. ولعل هذا هو الذي حدا بمحمود درويش، إلى اعتباره أباه الروحي، لأننا نرى الآن إلى أي حد استلهم محمود درويش، هذا المعنى وطوره، حتى

---

<sup>1</sup> - انظر: رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 2. ص 139

عُرف أحدهما بالآخر، فصار محمود درويش شاعر الأرض - بحق - ثم شاعر الوطنية الفلسطينية، بلا منازع.

في تلك الأيام، كان الصراع على أصوات العرب، على أشده، بين الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وبين حزب ميام الاشتراكي الصهيوني، المتعاطف مع الحقوق الإنسانية، للسكان العرب، وقد بلغ هذا التنافس إلى حد قيام (ميام) بإصدار مجلة عربية، يقوم على تحريرها مثقفون عرب، هي مجلة (الفجر): التي تحولت، مع الأيام، إلى منبر للأقلام الوطنية، ولعبت دوراً هاماً في إضعاف الحزب الشيوعي بين العرب، وكشف تناقضاته الأيديولوجية، وأقامت علاقات بين مثقفين عرب وطنيين، ضمن حدود (الديموقراطية الإسرائيلية). وقد كتب في هذه المجلة الشاعر راشد حسين، وعدد من هؤلاء المثقفين العرب الوطنيين<sup>(1)</sup>.

"ولم يتنبه قادة ميام إلى الدور الوطني، الذي تلعبه المجلة، في نشر الدعاية القومية بين العرب، إلا في وقت متأخر. وعندها جرى نقاش داخلي في الحزب، حول هذه القضية، طلب الحزب على إثره من الكتاب، عدم (التطرف قومياً). ثم رويداً رويداً، ذبل هذا الخط الوطني، وماتت المجلة"<sup>(2)</sup>.

ورغم كل هذا القهر، فإن السلطات الصهيونية لم تنجح، في إسكات كل الأصوات الوطنية، ولم تستطع الحيلولة بينها وبين الصراخ، بين آونة وأخرى. إذ قام حبيب قهوجي ما بين الأعوام 1953 و 1966، مع عدد من الناشطين القوميين والشيوعيين، بإنشاء لجنة الدفاع عن المواطنين العرب<sup>(3)</sup>. ولئن كانت هذه الأصوات الوطنية قد اضطرت، في

1- انظر على سبيل المثال مقالة راشد حسين في هذه المجلة. وثيقة رقم 3

2- حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 499

3- انظر: حبيب قهوجي. القصة الكاملة لحركة الأرض. ص 112 - 113

المرحلة الأولى، إلى التنسيق مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي؛ فقد ظلت، مع ذلك، مدركة طبيعة الحدود الفاصلة بينها وبينه، وتعرف إلى أي مدى يمكن لها أن تذهب، في هذا التنسيق.

ولقد استطاعت هذه الأصوات الجديدة، من المناضلين الوطنيين، أن تعقد الكثير من المؤتمرات الجماهيرية، في النوادي الشيوعية، لتحريض الجماهير العربية، وتوعيتها، بأساس مشكلتها القومية، من ناحية، والمطالبة ببعض المطالب المدنية، للمواطنين العرب، من ناحية أخرى. وقد برز من بين أسماء هؤلاء النشطاء يومئذ، كل من: (يئي يئي) رئيس بلدية كفر ياسيف، و(جبور جبور) رئيس بلدية شفاعمرو، و(منصور كردوش)، و(طاهر الفاهوم)، و(الدكتور يوسف حداد)، و(حبيب قهوجي)، و(القسيس رفيق فرح)، و(الشيخ جمال الدين السعدي)، إضافة إلى (حنا بولس) عضو اللجنة المركزية، لكل من الحزب الشيوعي وعصبة التحرر الوطني، قبل أن تقبل بقرار التقسيم... وآخرين<sup>(1)</sup>.

كان من الطبيعي أن يحدث ما حدث، وربما بالطريقة التي بها حدث، لأن الحكومة الإسرائيلية كانت، في كل محاولة سابقة، تسبق المجتمعين إلى إصدار قرارات الاعتقال، أو تحديد الإقامة ومنع الحركة بين المناطق. أما والمجتمعون يجتمعون تحت ظل الحزب الشيوعي الإسرائيلي، فلا بأس: لأن السلطات الإسرائيلية كانت تعلم إلى أي مدى، كان سيبلغ هذا الحزب، إضافة إلى شعورها بأن الصبغة الشيوعية لهذه الاجتماعات، سوف تساعدها في صرف الجماهير عنها. ومع ذلك، فقد نجحت هذه الاجتماعات، وآتت أكلها بعد حين، عندما تمخضت في النهاية، عن بلورة فكرة إقامة تنظيم عربي قومي<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 436، ص 438

<sup>2</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 537، و: القصة الكاملة لحركة الأرض. ص 113

وفي التظاهرة الوطنية الحاشدة، التي دعا إليها نشطاء هذا التوجه الجديد، في الأول من أيار/مايو 1957 - مستغلين حلول مناسبة عيد العمال العالمي - برز، إلى جانب الشعارات المطالبة المعروفة، شعاران جديدان، هما: حق تقرير المصير للعرب الفلسطينيين، واستقلال الجزائر، مقروناً برفع صورة كبيرة للمناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد. وقد انتهت هذه التظاهرة باشتباك المتظاهرين مع قوات الشرطة وحرس الحدود<sup>(1)</sup>.

وعلى إثر نجاح هذه التظاهرة، شعر الوطنيون الفلسطينيون بأن الوقت قد حان، لإنشاء جبهة عربية مشتركة، مع بعض الكوادر العربية في الحزب الشيوعي الإسرائيلي. وقد كان. ووافق الحزب هذه المرة على التعاون، طمعاً في الاستعادة من هذا الزخم الجماهيري. وهكذا تقرر إنشاء الجبهة العربية في إسرائيل، من جناحين فلسطيني قومي عربي، وشيوعي أممي اجتماعي، وفق صيغة تحفظ لكل جناح موقعه ومسامه.

ورغم أن الوقت كان ما يزال مبكراً، على طرح الشعارات القومية؛ خصوصاً مع هذا الحضور الشيوعي، شبه الرسمي، إلا أننا وجدنا أن القوميين قد استطاعوا، أن يضمنوا البيان التأسيسي، الصادر عن الجبهة الجديدة، هدفين ذوي مضمون لافت، هما: رفع الاضطهاد القومي، وضرورة اعتبار اللغة العربية لغة رسمية ثانية للبلاد، واستخدامها في جميع الدوائر الرسمية<sup>(2)</sup>.

قدمت الجبهة العربية طلباً للسلطات الإسرائيلية، بغية تسجيلها كجمعية عثمانية. لكن السلطات الإسرائيلية رفضت هذا الطلب، متذرة بأن اسم الجبهة يحيل إلى مفاهيم عنصرية، لا يسمح بها القانون. فغير المؤسسون اسم الجبهة العربية، إلى (الجبهة الشعبية الديمقراطية). ورغم أن السلطات لم ترد بالإيجاب، على هذا الطلب الجديد، إلا

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 537.

<sup>2</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 439.

أن قيام الجبهة كان قد حصل الآن على قانونيته، اعتماداً على القانون العثماني، الذي يعتبر عدم رد السلطات على الطلب، خلال أربع وعشرين ساعة، قبولاً قانونياً بالتسجيل.

بدأت الجبهة الشعبية الديمقراطية - المكونة من الجناحين المذكورين - نشاطاتها، بحيث استفاد كل جناح من الآخر: فالقوميون استفادوا من مطابح الحزب القانونية، والشيوخ استفادوا من هذا الحضور القومي اللافت، في مرحلة المد القومي الناصري.

وعلى مستوى آخر، كان القوميون في الجبهة، يجتمعون لبحث المستجدات، وما يمكن لهم عمله، بشأن المحافظة على شخصيتهم، وضمان استقلالهم. حتى استقر رأيهم على ضرورة السعي لإصدار صحيفة تحمل اسم (الأرض)، ومن ثم إقامة تنظيمهم السياسي الخاص بهم، دون الخروج من هذا التجمع الجبهوي. ومن يومها أصبحت تلك المجموعة تعرف، داخل الجبهة، باسم (جماعة الأرض)<sup>(1)</sup>.

أصدرت جماعة الأرض بيانها الأول، باسم الجناح القومي في الجبهة الشعبية الديمقراطية، وفيه ما يلي:

"الجناح القومي، في الجبهة الشعبية الديمقراطية، يعلن أنه جزء من الشعب العربي الفلسطيني، الذي هو بدوره جزء من الأمة العربية. وأن هذا الجناح يناضل داخل البلاد، من أجل المساواة التامة بين العرب واليهود. وطالب البيان إسرائيل بأن تنتهج سياسة، تتضمن بأن الحركة القومية العربية، هي الحركة الحاسمة في المنطقة، وأن على إسرائيل أن تقطع ما بينها وبين الحركة الصهيونية، من صلة. كما طالب البيان بعودة اللاجئين إلى أراضيهم وأماكنهم"<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 446 - 447

<sup>2</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 55

أثار البيان الحزب الشيوعي الإسرائيلي، على حركة الأرض، وجعلها هدفاً لحملاته التحريضية. ثم ساءت الأمور أكثر، بين جناحي الجبهة الشعبية الديمقراطية، على إثر الخلاف الذي اندلع عام 1959، بين الرئيس جمال عبد الناصر، والزعيم العراقي عبد الكريم قاسم، حيث انحاز شيوعيو الجبهة إلى قاسم، وانحاز القوميون إلى جمال عبد الناصر، وفشلت كل محاولات التوفيق. وحدث الفراق، بين الجناحين، وكفت الجبهة عن الوجود<sup>(1)</sup>.

تواكب كل هذا مع توسع انتشار حركة الأرض، بين الجماهير، وتقدم عدد كبير من الشباب المتحمسين للانضمام إليها، وكان جلهم من المثقفين وطلبة الجامعات، بالإضافة إلى الفئات الاجتماعية الأخرى. وإذ رفضت السلطات الصهيونية الموافقة على إصدار صحيفة الأرض، فقد قرر نشطاء الحركة استغلال ثغرة في قانون الحكم العسكري، الموروث من زمن الانتداب البريطاني - تبيح لكل مواطن إصدار نشرة، لمرة واحدة - ليصدروا نشرتهم كل مرة، باسم محرر آخر من أعضاء الحركة، مع إجراء تغيير طفيف على اسم الصحيفة، يحافظ على وجود كلمة (الأرض)، ويمنع في نفس الوقت، خروجها على القانون. وهكذا بدأت النشرات بالصدور والتتابع تحت أسماء ك: (الأرض) و(شذى الأرض) و(الأرض الطيبة) و(هذه الأرض) و(نداء الأرض)... وهكذا، إلى أن بلغ العدد ثلاثة عشر<sup>(2)</sup>.

انتشرت الصحيفة بين المواطنين العرب، وأحدثت صدى واسعاً، أقض مضجع السلطات من هذا التوجه الجديد. وإذ لم تبلغ الديمقراطية الإسرائيلية إلى هذا الحد، من الانفتاح وإطلاق الحريات، فقد عمدت إلى إغلاقها، واعتقال محرريها، وزجت بهم في

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 443 - 447

<sup>2</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 55



السجون، ثم أصدرت بحقهم أحكاماً بغرامات مالية باهظة، كفيلة بقصم ظهورهم، وإخافة من وراءهم<sup>(1)</sup>.

ورغم كل ما مضى، فقد تقدم نشطاء الحركة مرة أخرى، إلى السلطات، بطلب السماح لهم بإنشاء شركة تجارية، باسم (شركة الأرض المحدودة للطباعة والنشر)، كسبيل جديد لإعادة إصدار الصحيفة.

وأمام رفض السلطات تسجيل الشركة، قامت الحركة بخوض معركة قضائية ضدها، في محكمة العدل العليا، انتهت بالحكم لصالحها، وتسجيل الشركة، التي تقدمت للسلطات من جديد، بطلب إصدار صحيفة باسم الشركة. لكن السلطات أصرت على الرفض. وبعد عدة معارك قضائية، صدر الحكم لصالح السلطة، ومنعت الشركة من إصدار الصحيفة، التي ما تكونت، أصلاً، إلا لأجلها<sup>(2)</sup>. وكرد فعل على كل هذه الممارسات، قامت حركة الأرض بتحضير مذكرة مطولة، كتبت باللغة الإنجليزية، وأرسلت في 1964/6/23، إلى كل من الأمين العام للأمم المتحدة، والسفارات الأجنبية في إسرائيل، وعدد كبير من الصحف، وشخصيات عالمية، وأعضاء البرلمان الإسرائيلي، وإلى العديد من المؤسسات الإسرائيلية<sup>(3)</sup>. شرحت فيها بالتفصيل الممارسات الإسرائيلية بحق المواطنين العرب مقسمة إلى أربعة مظاهر هي: (قوانين مصادرة الأراضي - الحكم العسكري - التعليم في الوسط العربي - التمييز العنصري). وطلبت المذكرة في الختام تدخل الأمم المتحدة، لحماية حقوق المواطنين العرب في إسرائيل.

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. القصة الكاملة لحركة الأرض. ص 114 - 115

<sup>2</sup> - انظر: حبيب قهوجي. القصة الكاملة لحركة الأرض. ص 449 - 451

<sup>3</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 57 - 59

لقد أحدثت هذه المذكرة في حينه ضجة في الخارج، رغم ضعف الاهتمام بها في العالم العربي، الأمر الذي زاد من حنق السلطات الإسرائيلية، على الحركة، فأصدرت قرارها باعتقال قياديين، وحل كل من (شركة الأرض المحدودة) و(حركة الأرض)، واعتبارهما خارجتين على القانون<sup>(1)</sup>.

ولم يفوت إميل حبيبي هذه الفرصة، كعادته، وكتب في صحيفة الاتحاد منشقياً، بأن "كل الثوريين يطلبون الآن الانعتاق المطلق والاشتراكية، وأنهم يتقدمون باتجاه واحد، وفي جبهة واحدة، وباتجاه حزب واحد. وفي بلدنا، هذا الحزب هو الحزب الشيوعي"<sup>(2)</sup>.

ولئن كان إميل حبيبي، بهذا الهجوم، يتوخى أداء واجبه الحزبي، على أكمل وجه، كما عودنا، فلقد جاءت النتيجة على العكس من ذلك تماماً، إذ أن الجماهير العربية، التي كانت قد منحت الحزب في الانتخابات السابقة سبعة مقاعد، انفضت الآن عنه، تعاطفاً مع حركة الأرض. فخر الحزب ثلاثة مقاعد كنيسة، عائداً بذلك إلى حجه الطبيعي، قبل تحالفه مع حركة الأرض<sup>(3)</sup>.

في بدايات عام 1965، وقبيل انتخابات الكنيست السادسة، تبلورت لدى قيادة الحركة المحظورة فكرة خوض الانتخابات البرلمانية، كطريقة للقفز من على كل هذه الصعوبات. وعن ذلك يقول عضو الحركة المؤسس حبيب قهوجي: "قررنا أن نكون أنفسنا، وأن ننزل إلى الانتخابات بشعارات واضحة وأهداف قومية... وسمينا أنفسنا بالقائمة الاشتراكية،

<sup>1</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 57 - 63

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 197

<sup>3</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 496

واتخذنا حرف (ض) رمزاً لها... وتوجهنا للجمهور العربي لكي يزكي القائمة الاشتراكية...  
[و] كان علينا أن نقدم دفاتر التزكية إلى لجنة الانتخابات<sup>(1)</sup>.

إلا أن جميع أعضاء اللجنة، الممثلين للأحزاب الإسرائيلية المختلفة، رفضوا الموافقة على القائمة، بذريعة وجود أعضاء من حركة الأرض المحظورة، على رأسها. ومن الجدير بالذكر، أن ممثل الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ركاح) كان من ضمن هؤلاء الممانعين<sup>(2)</sup>.

وهكذا أسدل الستار، عام 1965، على حركة عربية قومية ناهضة، بمساعدة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وتأييد أعضائه العرب.

## 2- أبناء البلد:

شكلت التجربة المريرة لحركة الأرض، مأساة ظلت ماثلة في أذهان الكثيرين من الوطنيين؛ إذ لم تنشأ أي حركة سياسية عربية، ذات طابع قومي تحرري، طوال الفترة الممتدة ما بين العامين 1965 و 1967، فهاهم قادة حركة الأرض وكوادرها موزعون ما بين معتقل ومنفي<sup>(3)</sup>. واقتصرت نشاط المتبقين من نشطاء السياسيين، على إقامة المؤسسات الاجتماعية والثقافية، محاولين إبقاء الجذوة مشتعلة، ولو تحت الرماد<sup>(4)</sup>.

وقد استغل الحزب الشيوعي الإسرائيلي هذا الغياب، أحسن استغلال؛ إذ بدا الآن كمثل وحيد لهذه الشريحة المقهورة، من الشعب الفلسطيني، في الأرض المحتلة منذ

---

<sup>1</sup> - حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 469 - 470

<sup>2</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 466 - 473

<sup>3</sup> - لقد تم نفي كل من حبيب قهوجي، وصبري جريس. كما تم سجن صالح برانسي لمدة عشرة أعوام، تحت ذرائع

مختلفة. انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 558

<sup>4</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 65، ص 98 - 99

عام 1948، عبر الاكتفاء بمطالبته بحقوقهم المدنية، بديلاً عن الحقوق القومية والسياسية. وتعاطم الخوف من أسرلة المجتمع العربي، وتصفية هويته الوطنية، وبدا للمراقب، في تلك الأيام العصبية، أن هذا القطاع من الشعب العربي الفلسطيني، قد بدأ يراوده شعور باليأس، وإحساس خطير بالانقطاع، عن أمته العربية، وشعبه الفلسطيني في الشتات<sup>(1)</sup>.

لكن الآمال بدأت تنتعش، مرة أخرى، عشية نشوب الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، في حزيران/يونيو 1967، إذ بدا للمراقب حينئذ، أن هذه الشريحة قد اكتسبت إحساساً بالقوة، وشعوراً متزايداً بالأمن الذاتي. إلا أن نتائج الحرب المأساوية، بعد ذلك، أصابتهم بالصدمة مرة أخرى، وعادوا إلى الشعور بالضياغ، من جديد.

لكن شعور الضياغ هذا، سرعان ما تبدد سريعاً، مع ظهور عمليات حركة المقاومة الفلسطينية، كجذوة أمل، من بين كل هذا الركام، خصوصاً بعد انتصارها العظيم في معركة الكرامة. فقد سجلت الصحف الإسرائيلية، وجلسات المحاكم، عدداً من الأعمال الفدائية، التي أثارت القلق، رغم قلة عددها، وقد تبدى حجم هذا القلق، في الحكم الغريب على قائد حركة الأرض (صالح برانسي)، بالسجن لعشر سنوات كاملة، لمجرد توفر شبهات، لدى أجهزة الأمن، باتصاله بحركة المقاومة<sup>(2)</sup>.

كما أن مما له دلالة، قيام بعض الصحف والمؤسسات الحكومية، آنذاك، بإجراء بعض الاستفتاءات بين المواطنين العرب، بين الفينة والأخرى، حول أسباب الهزيمة العربية، ورأيهم في نتائج (الأعمال الإرهابية)، التي تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية. وهذه نتائج استفتاء أجرته، لهذا الغرض، صحيفة دافار العبرية، ونشرته صحيفة الاتحاد، في عددها الصادر بتاريخ 1969/9/29:

<sup>1</sup> انظر: وليد العمري. رسالة الأراضي المحتلة عام 1948. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 10. ص 137

<sup>2</sup> انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 558

أولاً: حول مدى نجاحات هذه (الأعمال الإرهابية)، أو مدى إخفاقاتها، أفاد المستفتون العرب، في (الدولة المنتصرة)، بما يلي:

- 31% منهم، مقتنعون بأن (أعمال الإرهاب) قد حققت نجاحات جزئية.
- 8% منهم، يرون أنها قد حققت نجاحات تامة.
- 14% يعتقدون بأنها قد أخفقت نسبياً.
- 14% منهم، متأكدون بأنها قد أخفقت كلياً.

ثانياً: حول أسباب هزيمة الجيوش العربية، في يونيو 1967، أفاد نفس المستفتين، عن قناعاتهم، وفق ما يلي:

- 29% منهم، مقتنعون بأن أسباب الهزيمة كانت الخيانة العسكرية.
- 13% منهم، يعتقدون بأن سبب الهزيمة يعود إلى التفوق العسكري الإسرائيلي.
- 31% منهم، يرون بأن السبب يعود إلى أن العرب لم يكونوا مستعدين للحرب كما ينبغي<sup>(1)</sup>.

ولئن بدا واضحاً من هذه الأرقام، التي أوردناها آنفاً، بأن هناك عدداً غير قليل من المستفتين، لم يدلوا برأيهم، دليلاً على عمق الضياع، وضعف القدرة على تكوين تصور، واضح حول قضية مهمة كهذه؛ فلقد يمكن اعتبار مجرد المشاركة، في إبداء الرأي حول هذه القضية، في تلك المرحلة السوداء، من قبل أغلبية المستفتين، علامة لافتة، تشير إلى ابتداء مرحلة النهوض، لدى المواطنين العرب في الدولة اليهودية.

بقيت ملاحظتان حول المحتوى الأيديولوجي، لكل من السؤال والجواب:

---

<sup>1</sup> - انظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 558 - 559

- الملاحظة الأولى: بخصوص القسم الأول من السؤال، وهو الذي تصدى للإجابة عليه 67% من المستفتين: وتقول هذه الملاحظة، بأن الأغلبية منهم (39% من 67%) مقتنعون بأن (الأعمال الإرهابية) قد حققت نجاحاً، إلى هذا الحد أو ذاك. وفي هذه النتيجة يمكن قراءة ذلك التحدي الخفي، الذي يكمن في القناعة بنجاح ما تصفه الدولة المنتصرة بأنه إرهاب. والسؤال المطروح، بين ثنايا الكلام، هو: ماذا لو كان السؤال بصيغة أكثر حيادية؟!.
- أما الملاحظة الثانية: فبخصوص القسم الثاني من السؤال، وهو الذي تصدى للإجابة عليه 55% من المستفتين. وتقول هذه الملاحظة بأن الأغلبية منهم (42% من 55%) مقتنعون بأن انتصار إسرائيل، لا يعود إلى تفوقها العسكري، أو الذاتي، على العرب؛ بل يعود إلى تقصير العرب أنفسهم (خيانة أو عدم استعداد). والمضمر الحاضر بين ثنايا الكلام، هنا، هو أن العرب - حتى في تلك المرحلة السوداء - كانوا غير مقتنعين بالمقولة الإسرائيلية، حول التفوق الذاتي للعنصر الإسرائيلي.

وهنا يجب أن لا ننسى وجود عاملين، أولهما: ما حققته الثورة الفلسطينية من إنجازات، خصوصاً في معركتها العظيمة في (الكرامة) في 1968/3/21: ذلك الحدث العظيم في حينه، والذي اعتبر - بحق - الانتصار العربي الأول على إسرائيل، بعيد شهور قليلة من أشنع هزيمة عربية في التاريخ المعاصر. والعامل الثاني: حرب الاستنزاف المجيدة، التي كانت مشتعلة آنذاك على الجبهة المصرية. حيث بدا واضحاً للمواطن الفلسطيني في الدولة اليهودية، بأن العرب قادرون على هزيمة إسرائيل، إذا ما تحلوا بالاستعداد الجيد، والإرادة الوثابة.

وكما تبحث الشعوب العظيمة عن نقطة الضوء، في قلب حالك الظلام، فقد وجدت هذه الشريحة من الشعب الفلسطيني أملها، مرة أخرى: "فعلى الرغم من صدمة العرب، في

إسرائيل، بالهزيمة العربية، في حرب الأيام الستة، فإن احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، كانت له تأثيرات مهمة فيهم: فاستعادة صلتهم بشعبهم الفلسطيني هناك... عززت وعيهم وهويتهم العربيين، وإحساسهم بالارتباط الفلسطيني، وبالانتماء العربي... [وجعلتهم] عرضة لتأثيرات جمهور عربي فلسطيني وقومي متقدم... فكان أن راحت الهوة تتسع، بين (البراغماتيين) والقوميين، الذين ازدادت قوتهم"<sup>(1)</sup>.

في هذا الجو، وعلى هذه الخلفية تجمعت عام 1969، عناصر من (أم الفحم)<sup>(2)</sup>: المدينة التي تحوي أكبر تجمع عربي في فلسطين، المحتلة عام 1948، لتبدأ تكوين نواتها الأولى، كحركة سياسية فلسطينية قومية، معتبرة نفسها - كما يقول أمينها العام، رجا اغبارية - "امتداداً طبيعياً لحركة الأرض، وتعبيراً منظماً لروح منظمة التحرير، والمد الوطني الفلسطيني، الذي غمر الشعب الفلسطيني برمته، في الستينات والسبعينات... وقد تُرجم هذا النهج، عبر محاربة شعارات الأسرلة، وتعميم الفلسطنة، في كل حدث ومناسبة نضالية، وعلى رأسها يوم الأرض، الذي رُفِر العلم الفلسطيني فيه عالياً، تحميه الجماهير، رغمًا عن قوات الجيش الإسرائيلي، وعلى الرغم من معارضة الحزب الشيوعي الإسرائيلي... كتعبير كفاحي عن مسألة الانتماء، واحتجاج رسمي وشعبي على يهودية الدولة"<sup>(3)</sup>.

لقد نما الوعي القومي، في صفوف هذه الشريحة المقهورة من الشعب الفلسطيني، رغم كل المحاولات الإسرائيلية، لاعتبارهم مجرد سكان عرب، في أرض إسرائيل، ورغم كل هذه الهزيمة العربية حديثة العهد. فقد بدا لافتاً حقاً، هذا الحضور الجماهيري الواسع، بحجمه ومعناه - كما يقول المؤرخون الصهاينة - يوم وفاة الزعيم جمال عبد الناصر، عام 1970،

1- رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 2. ص 139 - 140

2- انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 129

3- انظر: وليد العمري. رسالة الأراضي المحتلة عام 1948. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 10. ص 139

عندما خرج العرب، في الدولة اليهودية، من بيوتهم، معبرين عن أشد الأسى، وعظيم التصميم على المواصلة. و"سار الآلاف منهم، في جنازة رمزية، في قرى الجليل والمثلث، وهم يهتفون: ناصر، ناصر: ارقد بسلام، سواصل النضال"<sup>(1)</sup>.

ويمكن للمراقب أن يلاحظ مدى القلق، الذي ألم بالحزب الشيوعي الإسرائيلي، نتيجة لظهور مثل هذه الحركة المنافسة، على التمثيل العربي، من خلال التصريح اللافت، الذي أطلقه إميل حبيبي، في المؤتمر العام السادس عشر للحزب؛ عندما قال: "بشكوك قوية، ها نحن نراقب ظاهرة كتابة شعارات مغامرة، وأحياناً شوفينية، في عدد من القرى العربية في إسرائيل"<sup>(2)</sup>.

وهكذا نرى، منذ البداية، ما سوف يواجهه هذه الحركة، من صوت الأيديولوجيا، الذي يمثله إميل حبيبي، كما واجه سابقتها: حركة الأرض.

"تكونت النخبة المؤسسة، لحركة أبناء البلد، من بعض الطلاب والمتقنين، وخريجي الجامعات العرب الوطنيين، وسجناء سياسيين سابقين، وعمال كادحين"<sup>(3)</sup>. وبدأ نشاطها في الظهور إلى العيان، مع إعلان المحامي توفيق كيوان، دخول معركة الانتخابات المحلية، في أم الفحم، عام 1973<sup>(4)</sup>، باسم حركة أبناء البلد، التي كان قد تم إعلان ولادتها، كجمعية عثمانية، تستمد وجودها من عدم وجود قانون يمنعها، وليس بسبب وجود قانون يدعمها<sup>(5)</sup>. هذا، وقد اعتبرت حركة أبناء البلد تنظيمياً سياسياً، "ينظر إليه باعتباره ممثلاً للاتجاه القومي، ولاحقاً، الوطني الفلسطيني، الذي رفض الاعتراف بشرعية دولة

1- رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 2، ص 140

2- كلمة الرفيق إميل حبيبي. كتاب المؤتمر السادس عشر. ص 239

3- جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 199

4- انظر: حيدر عزيز وآخرين. دليل إسرائيل العام. ص 174

5- انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 131



إسرائيل، والمشاركة في اللعبة السياسية البرلمانية فيها، وتطلع إلى حل قومي عربي وطني فلسطيني، للقضية الفلسطينية، ولمشكلة الشعب الفلسطيني"<sup>(1)</sup>.

امتد نشاط الحركة إلى قرى المثلث والجليل. وتمكنت، منذ عام 1974، من الفوز بعضوية عدد من المجالس المحلية، في التجمعات العربية في المثلث والشمال، مركزة على ضرورة بث الوعي القومي، والانتماء الفلسطيني، في صفوف المواطنين العرب. واعتبرت منظمة التحرير الفلسطينية، ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، في كافة أماكن وجوده. وسرعان ما شجع ظهور هذا "التنظيم، وتحقيقه هذا النجاح المحدود، أنصار التيار القومي، على إقامة تنظيمات مشابهة، في عدد من القرى، مثل تنظيم (النهضة) في الطيبة و(الفجر) في عارة وعرة. وقد أقامت هذه التنظيمات صلات فيما بينها... لكنها لم تتحول إلى تنظيم قطري موحد، ينشط تحت اسم أبناء البلد، إلا في فترة لاحقة"<sup>(2)</sup>.

تنامت قوة أبناء البلد، وحضورهم الجماهيري، الأمر الذي انعكس على تصاعد قوتهم الانتخابية، حيث فازوا بتسع مقاعد في الانتخابات المحلية عام 1983، بعد أن كان فوزهم الأول، عام 1973، مقتصرًا على مقعد واحد. ثم وصل عدد المقاعد التي حصلوا عليها في المجالس المحلية، عام 1989، إلى ثلاثة عشر مقعداً. بيد أن نجاحهم الأكبر، كان في أوساط الطلاب العرب، في الجامعات الإسرائيلية، في النصف الثاني من الثمانينيات، حيث نافسوا الشيوعيين بنجاح ملموس، وتمكنوا، مع حلفائهم، سنة 1989، من الفوز

---

<sup>1</sup>- حيدر عزيز وآخرون. دليل إسرائيل العام. ص 174

<sup>2</sup>- حيدر عزيز وآخرون. دليل إسرائيل العام. ص 174

بأغلبية المقاعد في اللجان الطلابية العربية، في الجامعتين: العبرية وبن غوريون، إلى جانب فوزهم بتمثيل قوي، في جامعات تل أبيب، وحيفا، والتخنيون<sup>(1)</sup>.

رفضت حركة أبناء البلد التسويات السياسية الجزئية، خاصة قراري الأمم المتحدة، 242 و338، باعتبارهما لا يحققان التطلعات القومية للشعب الفلسطيني. وحددت انتماءها السياسي، إلى جانب الحركة الراديكالية الفلسطينية والعربية، داعية إلى إقامة المجتمع الديمقراطي العلماني، في فلسطين الكاملة. كما استطاعت إصدار صحيفة أسبوعية، ناطقة باسمها، هي صحيفة (الرأية)<sup>(2)</sup>.

ويعد أن بدأ يظهر للعيان، الخطر الذي باتت تشكله هذه الحركة، على استقرار الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بتمثيل (السكان العرب)، في إسرائيل، جن جنون الحزب، خصوصاً بعد ظهور توجهات لدى العديد من نشطاء أبناء البلد، بضرورة خوض انتخابات الكنيست. وكالعادة تصدى صوت الأيديولوجيا: إميل حبيبي، لشن حملة مجنونة على الحركة، وقد بلغ به الغضب إلى درجة استخدام الألفاظ السوقية، والتعبير بالقومية والخيانة، عندما قال:

"الآن يصبح واضحاً أن القوميين المزاولين، ومرتزة المتكديمت<sup>(3)</sup>، وبعض متزعمي حركة أبناء البلد، الذين يتلاعبون بمشاعر أبنائنا وبناتنا الوطنية الصادقة، ليسوا فريقاً وطنياً على الإطلاق، ولذلك لا يمكن أن تشملهم الوحدة الوطنية... لذلك يعودون -

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص174 - 175

<sup>2</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو48: نضال مستمر. ص132

<sup>3</sup> - متكديمت: كلمة عبرية بمعنى: التقدمية. والمقصود القائمة التقدمية للسلام. وهي قائمة عربية أسسها محمد ميعاري وتتكون نواتها من عناصر من الخارجيين من كل من أبناء البلد والحزب الشيوعي.

بصفاقة الخيانة نفسها - إلى تشويه أهداف النضال الفلسطيني العادل، وإلى تشويه أهداف م. ت. ف نفسها<sup>(1)</sup>.

هذا على الرغم من حقيقة أن إميل حبيبي نفسه، كان قبل أيام فقط، في اجتماع شعبي في الناصرة، قد هاجم بيانات القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة - ذراع م. ت. ف نفسها، في الضفة والقطاع - بقوله:

"ها هي القيادة تصدر البيان رقم 1. (قالها وهو يمتط الأحرف). والبيان رقم 2. (قالها ساخراً أيضاً). والبيان كذا. وكذا البيان الأخير رقم!.. وهنا توجه الكاتب إلى الجمهور متسائلاً: ما رقمه؟. ما رقمه؟. (أي ما رقم البيان الأخير) فأخذ يجتهد بشكل تدريجي، محاولاً تذكر الرقم. وتوجه إلى أحد الجالسين أمامه، قائلاً: (شو نمرة رجلك يا أخ؟). وأخذ يضحك لهذه المقارنة"<sup>(2)</sup>.

كما وصل تحريض إميل حبيبي، على حركة أبناء البلد، إلى مدى غير مسبوق، عندما تحدث، في الإذاعة الإسرائيلية، عن منجزات صحيفة الاتحاد، التي يرأس تحريرها، مقدماً إياها على أنها "هي المناضلة الأساسية ضد الوطنيين العرب، والفلسطينيين"<sup>(3)</sup> القوميين.

وللحق وللحقيقة، فإن الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وقيادته في الوسط العربي، كانا حريصين على أن لا يتعدى (النضال) الفلسطيني، في الدولة اليهودية، المظاهر المدنية. وكلما ظهرت حركة، تسعى إلى تطعيم هذا النضال بلون وطني سياسي، سارعت قيادات الحزب العربية، إلى مواجهتها، وتشويهها، بل التعاون مع السلطات، لتلافي شرها. حتى

1. كلمة الاتحاد. عدد يوم 1/4/1988

2. دبور. لسعة: كنادر حبيبي. الصنارة. عدد يوم 8/4/1988

3. انظر: وثيقة رقم 6

لقد ذهب كثيرون من الوطنيين، إلى اتهام إميل حبيبي شخصياً، بأنه يتعاون مع الأجهزة الأمنية الصهيونية، ضد الوطنيين الفلسطينيين. ولئن لم يصمد مثل هذا الاتهام، أمام التمحيص القانوني، فلقد يبدو واضحاً أن أسبابه قوية، وأن هناك ما يشابهه من أفاعيل الرجل. ولنا الآن أن نتذكر، رسالته - بعد بضعة أشهر من هذا الهجوم - إلى زملائه الكتاب الإسرائيليين اليهود، في 12 يوليو 1988، المتضمنة لاستفساراته الاستنكارية، حول "صمتهم، وصمت وسائل الإعلام الإسرائيلية المطلق، إزاء موقف الحركة التقدمية، الخاص برفض وجود إسرائيل". وقد أرفق حبيبي، برسالته هذه، موادّ خاصة بالحركة التقدمية، تبرهن على موقفهم هذا، وناشد الكتاب اليهود بقوله: "انحنوا شرف عدم الجلوس، في حركة واحدة، مع الوطنيين العرب، لأننا نرى في مواقفهم كارثة لشعبنا أولاً"<sup>(1)</sup>.

وبالفعل، فقد قامت السلطات الصهيونية، بعد هذه الوشاية، وعلى إثر تحريض الحزب ضد القوى الوطنية [بتجديد]... حملة الاعتقالات الإدارية لستة أشهر، لتشمل ثلاثة قياديين من حركة أبناء البلد، وحسن جبارين من حركة الأنصار، وصالح برانسي مدير مركز إحياء التراث بالطيبة... وفي نهاية عام 1988، أغلقت السلطة بشكل دائم صحيفة الرابطة الناطقة باسم حركة أبناء البلد"<sup>(2)</sup>.

لكن نهج أبناء البلد، الذي استمد قوته - معنوياً وسياسياً - في الماضي، من حركة التحرير الفلسطينية والعربية والمعسكر الاشتراكي، أصبح يعاني - مع انهيار كل هذا - من أزمة سياسية، فقد ارتفعت، وسط صفوف الحركة الرافضة، أصوات تدعو إلى المشاركة البرلمانية؛ الأمر الذي رفضته قيادة الحركة، من منطلقاتها المبدئية المذكورة. فانشقت

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 300 - 301

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 334

عنها بعض المجموعات، وأسست (جبهة الأنصار)، التي سرعان ما تبددت وتوقفت، ولم تتجح في دخول الكنيست<sup>(1)</sup>.

ورغم ذلك فقد بدأ المراقبون، في السنوات الأخيرة، يلحظون تحولاً تدريجياً في مواقف الحركة، منذ العام 1988، باتجاه قبول الطروحات الأخيرة، لمنظمة التحرير، في إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، تتعايش بسلام مع دولة إسرائيل. إلا أن ذلك لم يقترن، حتى الآن، بتخلي حركة أبناء البلد عن هدفها المعلن الأول: إزالة إسرائيل، وإقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية العلمانية، على أنقاضها<sup>(2)</sup>.

وعلى كل، فيمكن فهم مواقف الحركة، من ملاحظة موقعها على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت): حيث يتصدره شعار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين<sup>(3)</sup>، الأمر الذي يمكن معه القول، بأنها غدت فرعاً لهذه الجبهة، في الأرض المحتلة عام 1948.

---

<sup>1</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 131

<sup>2</sup> - انظر: حيدر عزيز وآخرين. دليل إسرائيل العام. ص 175

<sup>3</sup> - انظر: الموقع الإلكتروني: [www.abnaa-elbalad.org](http://www.abnaa-elbalad.org) بتاريخ 2006/3/2



## الفصل الثاني

### تحليل الإنتاج الفكري

#### تمهيد:

لقد اخترنا في هذه الدراسة، منذ البدء، تقسيم إنتاج إميل حبيبي إلى إبداعي وفكري، واعتبرنا الإنتاج الإبداعي، هو مجموع ما كتبه، في مجال القصة القصيرة، والرواية، والنصوص المسرحية.

أما الإنتاج الفكري، فهو مجموع كتاباته السياسية، وتصريحاته، وحواراته الصحفية.

وفي هذا الفصل، سوف نعرض لنماذج من كتابات إميل حبيبي، السياسية والفكرية، في محاولة لاستكشاف أهم معالم فكر الرجل، الذي أتى الساحة الفلسطينية بما لم يأتيها به أحد قبله، وتغيرت مواقفه - أو بدا للمراقب أنها تغيرت - من النقيض إلى النقيض، وذهب فيه الناس مذاهب شتى، كانت هي الأخرى عرضة للتغير، تبعاً لمواقفهم ومواقفه. كل ذلك تمهيداً لطرح السؤال الأهم، وهو:

لماذا انبهرنا بإبداعات إميل حبيبي الجمالية، وغضضنا الطرف عما تحتويه من مواقف ثقافية، قد لا نوافق على أكثرها؟. وذلك تمهيداً لما يتطلبه جواب هذا السؤال، في الفصل الذي يليه.

## المراحل الفكرية من خلال الكتابات السياسية:

إن ما يحاوله الباحث هنا هو جد عسير ومتطلب، وما ذاك إلا لحوائل الرأي، التي لا يخلو منها باحث، مهما حاول التنزه عن الانحياز. ولقد وعد الباحث نفسه، منذ البدء، بأن لا يسمح لنفسه بالانجرار وراء رأي مسبق، مع أنه يعلم أن له رأياً منذ المقدمة. ولكن الرأي شيء، والوثائق - النصوص - شيء آخر، ينبغي الانصياع لحكمه، إذا ما أردنا إنشاء معرفة جديدة، عن طريق الدراسة النقدية، أو "إنتاج طراز من التفكير الذي يجب أن يكون - في غمرة انهماكاته - معرفة، تعديلاً لما يعرفه، تماماً - وفي الوقت نفسه - تحويلاً لمنط من الوجود، الذي يتأمل فيه" كما يقول ميشيل فوكو<sup>(1)</sup>.

وإذ ظلت هذه الاستنتاجات - التي فرضها هذا البحث على النصوص - تؤرق الباحث طوال مفاصل الدراسة، فقد شكل له هذا قلقاً وتشككاً دائماً، فكلما صادف استنتاجاً يعزز رأيه، كان يتوقف ممتحناً أدواته، و مراجعاً لمواقفه، ونصب عينيه مقولة برنار لويس، التي تصلح للاستشهاد بها هنا، لأن كلاً من النقد الثقافي والتأريخ، يتعامل مع الوثائق، وإن اختلف تفسير كل منهما لمسمى الوثيقة، وطرائق التعامل معها. يقول لويس:

"إن ولاء المؤرخ قد يؤثر فعلاً في اختياره لموضوع بحثه، غير أنه لا ينبغي أن يؤثر على معالجته له. وإذا حدث - خلال تطور أبحاثه - أن وجد أن المجموعة، التي يوحد هويته بها، دائماً على حق، وتلك المجموعات الأخرى، التي هو في نزاع دائم معها، على خطأ؛ فمن المستحسن له - بحق - أن يتساءل بشك عن سلامة استنتاجاته، وأن يعيد

---

<sup>1</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 215



امتحان الفرضية، التي قام على أساسها باختيار أدلته، وتفسيرها؛ ذلك أنه ليس في طبيعة المجتمعات البشرية، أن تكون دائماً على حق<sup>(1)</sup>.

والحق أن هناك عاملين رئيسيين قررا هذه الطريقة، في مراجعة الفرضيات، بين حين وآخر: الأولى، تلك الملاحظات السديدة، التي ظل يقدمها الأستاذ الفاضل الدكتور صلاح فضل، طوال مسيرة البحث. ثم هذه المقولة لبرنار لويس، التي وافقت توجيهات المشرف المكتوبة، وإن كان الباحث يشك في التزام لويس بها، في إنتاجه التاريخية.

في البدء، وبعد استقراء سريع للمتغيرات الفكرية عند إميل حبيبي، يمكن القول بأن الرجل قد مر بعدة مراحل من التطور، يمكن رصدها وفق المحاور الأساسية التالية:

- مرحلة البدايات: من المتمرد، إلى المواطن المثالي.
- المرحلة الثانية: المناضل المدني.
- المرحلة الثالثة: بعد هزيمة يونيو 1967.
- المرحلة الرابعة: بعد عام 1973.
- المرحلة الخامسة: الانتفاضة، ثم الخروج من الحزب.
- المرحلة السادسة: بعد الخروج.

وسوف نتناول كل مرحلة على حدة بشيء من التفصيل.

---

<sup>1</sup> - انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق. ص 316 - 317

## 1- مرحلة البدايات: من المتمرد، إلى المواطن المثالي:

### 1-1: الطموح:

وهي المرحلة الممتدة من انضمام إميل إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، إلى السنوات الأولى من إقامة الدولة اليهودية. وقد ابتدأت ملامح هذه المرحلة في الاتضاح، منذ العام 1943: أي بعد دخوله الحزب بثلاث سنوات.

لقد كانت هذه المرحلة هي بدايات تبلور الوعي السياسي، لدى إميل حبيبي. وهي التي طبعت حياته وفكره بطابعها الخاص.

وإن خطورة هذا الماضي لا تكمن في مجرد اعتباره زمناً أفضياً، انتهى وانقضت آثاره؛ بل في حقيقة تحوله إلى لاهوت مسيحي، أو مرجع فقهي، يحتكر الحقيقة، ويعيد إنتاجها لغوياً، في كل مناسبة، حتى بدا لنا الرجل مجرباً وحيداً، وكلي القدرة، في توجيه النصائح إلى العرب، فقط، في (مرحلة السلام). وحتى بدت كل تنظيراته الفكرية، اللاحقة على تلك المرحلة، مفسرة لها، أو معلقة عليها، على طريقة الحواشي، في المصادر القديمة.

ولعل هذا هو ما يستدعي مقولة إدوارد سعيد، حول تأثير الماضي في صياغة الحاضر<sup>(1)</sup>: إذ تتحول التجربة المبكرة إلى طبع منغرس في اللاشعور: "فما نسميه الطبع، إنما ينبني على الآثار الذكورية لانطباعاتنا، بل إن الانطباعات التي كان لها أكبر الأثر في نفوسنا - تلك التي تلقيناها في أول عهدنا - هي، بالتحديد، التي لا تصبح شعورية أبداً"<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - "إن الكيفية التي نصوغ بها الماضي، أو نمثله، تصوغ فهمنا للحاضر، ووجهات نظرنا فيه". الثقافة والإمبريالية.

ص75

<sup>2</sup> - سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ص531.

ولقد كانت تلك المرحلة، حقاً، هي مرحلة طفولة الفكر السياسي، لشاب لا يتعدى العشرين، إلا ببضع سنوات.

منذ البداية، يجب الاعتراف، بأننا لا نعرف شيئاً عن تاريخ الرجل، في الحزب، وعلاقاته بباقي الرفاق، ومواقفه السياسية الفارقة، قبل هذه المرحلة. وإن كنا قد رجحنا، في الفصل الأول، أن يكون إميل قد انحاز، منذ البداية، إلى موقف القيادة العربية، التي يمثلها رضوان الحلو (موسى)، وبولس فرح، وأمثالهم. ولقد رأينا أن بولس فرح - عضو اللجنة المركزية البارز، وخريج جامعة ستالين لعمال الشرق - لم يتناول شيئاً من تاريخ إميل، قبل هذه السنة. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لفتى لم يتجاوز عمره العشرين عاماً، وقتها<sup>(1)</sup>، وانتظم في الحزب وهو يعاني من كل تلك الانقسامات القومية.

لكننا سرعان ما سنعرف إميل حبيبي، فور حل الكومنتيرين للحزب عام 1943، وسوف يبدو لنا لحظتها متميزاً بوعي قومي لافت، إلى جانب وعيه الماركسي الأممي، ووطنيته الفلسطينية: سنلاحظ ذلك من خلال موقفه الحازم من جماعة (هاميت)، وتصديه لمحاولاتها صهيئة الحزب، عندما أصدر عام 1943، مع اثنين من رفاقه، بياناً باسم الحزب المنحل، يؤكد هويته الوطنية، معتبراً الرفاق اليهود أعضاء قابليين بهذه الهوية العربية<sup>(2)</sup>، كما نصت عليها لوائح الحزب، وتوجيهات موسكو<sup>(3)</sup>؛ وداعياً، في نفس الوقت،

---

<sup>1</sup> - إميل من مواليد عام 1920.

<sup>2</sup> - انظر: عبد الرحمن عوض الله. الحركة الشيوعية الفلسطينية وحزب الشعب. مادة من كتاب بعنوان: الندوة الفكرية

السياسية: خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين. ص 87

<sup>3</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 71

إلى إعادة صياغة الحزب، من منطلقات جديدة، تضمن التحالف مع قوى التحرر الوطني والعربي، في مواجهة الصهيونية<sup>(1)</sup>.

إذن فالشباب، ابن الاثني عشر عاماً<sup>(2)</sup>، الذي لم يمض على عضويته الحزبية ثلاث سنوات، يتصدى لمحاولة إعادة بناء حزب أممي، هدمته الفرقة والخلافات القومية، ويختار الوقوف إلى جانب القيادة الشرعية، التي صادف أنها عروبية النزعة.

وما دمنا الآن على أبواب صياغة قومية، للحزب الأممي السابق، فلا شك في بروز النشاط. وقد كان إميل واحداً منهم، فاستحق أن يرتفع مرة واحدة إلى مرتبة عضو لجنة مركزية. وعلى العموم، فهؤلاء هم النفر القليل الذي سيشكل عصبية التحرر، بعد قليل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل كان من الممكن لشباب في هذه السن، حديث العهد بالانتماء الحزبي، أن يصل إلى منصب كهذا، في الظروف العادية؟ ثم ماذا كان سيكون موقع إميل حبيبي الحزبي، لو أنه انحاز إلى الفريق الذي سوف ينحاز إليه بعد خمس سنوات؟.

لقد ظل الكيان الحزبي لـ (الحزب الشيوعي الفلسطيني) قائماً بنفس الاسم - بعد الحل الرسمي الذي أصدره الكومنتيرن<sup>(3)</sup> - ولكن بقيادة يهودية صهيونية، هي قيادة شموئيل ميكونس، الذي انحاز عند الانشقاق إلى جماعة (هاميت)<sup>(4)</sup>. ومن الممكن القول حينها -

---

<sup>1</sup> - انظر: عبد الرحمن عوض الله. الحركة الشيوعية الفلسطينية وحزب الشعب. مادة من كتاب بعنوان: الندوة الفكرية السياسية: خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين. ص 87 - 88

<sup>2</sup> - انضم إميل إلى الحزب عام 1940، وهو ابن تسع عشرة سنة، كما يقول. انظر: نحو عالم بلا أقطاص. ص 106

<sup>3</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 18

<sup>4</sup> - يراعى ملاحظة أن الهاء هنا هي أل التعريف. وعلى هذا فكلما (إميت) تعني: حقيقة. أما (هاميت) فتعني: الحقيقة. وقد لزم التنويه من الباحث، لأننا نستخدم الكلمة بالطريقتين، وفق السياق.

وفق منطق إميل القادم بعد خمس سنوات<sup>(1)</sup>. بأن هذا الحزب شرعي وأمي، ولا يجوز الخروج عليه، تحت أية ذرائع قومية. ولو فعل إميل، إذن، لما أمكن له أن يصل إلى اللجنة المركزية بعد ذلك.

إذن فالوصول إلى عضوية اللجنة المركزية، لن يكون إلا من خلال طفرة، لا تعترف بمنطق التدرج. وإن هذه الطفرة لا يمكن لها أن تتأتى، إلا من خلال استغلال الواقع الجديد، لتأسيس حزب جديد، مع وجود كل هذه القيادات التاريخية العربية، خارج الحزب الشيوعي، ومع وجود كل هذه المشاورات، لتكوين جبهة قومية واسعة، لا تلقي كثير بال إلى الأيديولوجيا.

ولقد نميل إلى الاعتقاد بأن إميل حبيبي، كان يعلم منذ البداية، بأن تأسيس عصابة التحرر، هو مرحلة آنية، سوف تتبعها بعد ذلك مرحلة لاحقة، تتمثل في عودة الوحدة إلى الحزب المنقسم<sup>(2)</sup>. ولقد التقطها الشاب الطموح، واعتبرها فرصته، إذ لا بد أن تكون الوحدة القادمة على أساس من التراضي، وتقاسم المواقع القيادية، كما جرت العادة في مثل هذه الصفقات. وإذا كان قائداً هنا، فمن البديهي أن يكون قائداً هناك.

## 1- 2: الانكسار والعدمية القومية:

مع صدور قرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين إلى دولتين، بدا واضحاً أن أهم هدف للحركة الصهيونية، قد صار الآن على وشك التحقق: فهي هي الدول الكبرى تقر بضرورة إقامة (وطن قومي لليهود) على الجزء الأكبر والأغنى والأهم من فلسطين. وإن نظرة

<sup>1</sup> - انظر وثيقة رقم 5

<sup>2</sup> - يقول بولس فرح: "كنا نتوقع أن ترجع الوحدة للحزب، عاجلاً أم آجلاً". من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 67

تاريخية عادلة إلى مواقف الأطراف، في تلك الفترة، ليحتم على الباحث المنصف، النظر بعين التفهم، إلى موقف القيادة الفلسطينية، آنذاك، برفض هذا القرار .

لقد كان من المحقق أنه لا يمكن لفلسطيني أن يقبل بانتزاع وطنه منه، لمجرد أن موازين القوى، في لحظة (غير مباركة) من التاريخ، كانت تميل إلى غير صالحه!. فليس هذا هو منطق أصحاب الحق. ولو كان الأمر كذلك، إذن لتخلى العرب المسلمون، منذ زمن مبكر، عن فلسطين والقدس، عندما داهمتهم قوات أوروبا مجتمعة، في الحروب الصليبية. لكن التاريخ قال لنا غير ذلك تماماً: قال لنا إن بعضاً من حكام الولايات، هنا أو هناك، قبل بهذا (الأمر الواقع) مع أن روح الأمة وقيادتها الحقيقية، ظلت رافضة في أحلك الأزمان. وكلنا يعرف سيرة السلطان نور الدين محمود زكي، الذي استمر يقاتل ويعاني من هؤلاء (الواقعيين)، حتى تم له تحرير مصر منهم، وتوحيد الأمة مرة أخرى، ثم قيادة الحرب من جديد، إلى أن فُيِّض لخليفته السلطان الناصر صلاح الدين، أن يحقق الانتصار. ومثل هذا الأمر كان قد سبق أن فعله سلاطين مصر العظماء: الملك الصالح، والمظفر قطز. بل فعلته المرأة العظيمة شجرة الدر.

وعلى الصعيد الآخر، فلا يزال التاريخ، حتى اليوم، يصب لعناته على الحكام الذين تقبلوا (الأمر الواقع)، ويصممهم بالخيانة. وكلنا يعرف كيف التف الشعب، في سوريا، حول الأمام المجاهد عز الدين بن عبد السلام، عندما شجب هؤلاء الحكام، واتهمهم بالخيانة، وأعلن عزلهم.

كما يود الباحث التذكير، في هذا الصدد، بأن الشعب العربي المصري ظل رافضاً لواقع القوة، الذي حاولت فرضه إسرائيل عام 1967، وظل يطالب بالحرب. ولقد كان من اللافت حقاً، في تلك الفترة، أن كان كل سياسي يلجأ - عند رغبته في التشنيع على خصومه - إلى اتهامهم بالتشكيك في إرادة مصر على خوض المعركة. إن هذه الروح هي

التي قادت الدولة والشعب، نحو صناعة واقع آخر، وحققت النصر، حتى قبل عبور القوات للقناة نحو الشرق.

"إن المشكلة الرئيسية للدولة ليست، في الواقع، مشكلة تمثيل، بل اعتقاد. ليس على الدولة - في رأي هيوم - أن تمثل المصلحة العامة، بل أن تجعل من المصلحة العامة موضوع اعتقاد، عن طريق إعطائها - إذا لم يكن بشيء، فبجهاز عقوباتها - تلك الحيوية التي تمتلكها المصلحة الخاصة وحدها، بالنسبة إلينا، بشكل طبيعي"<sup>(1)</sup>.

لقد كان على القيادة، حقاً، أن تحول المصلحة العامة، للشعب العربي الفلسطيني، إلى اعتقاد راسخ. ولم يكن من الممكن مطالبها بغير ذلك، لسبب بسيط وواضح، هو: أن قيام إسرائيل - ولو على جزء من فلسطين - لا يمكن له إلا أن يكون سلباً لحقوق الأمة، واحتقاراً لكبريائها القومي. إضافة إلى أنه لن يدرأ عنها الأخطار الأخرى.

ولقد قبل بالفعل بعض الفلسطينيين البقاء في بلدانهم، لكن ما حدث، بعد ذلك، هو أن القوات الصهيونية حملتهم، وألقت بهم خارج الحدود، أو نقلتهم إلى أماكن تجمع بعيدة، بعد أن سلبتهم أراضيهم. وأهلنا شاهدون على أن سكان مدينة المجدل، في جنوب فلسطين، قد تم ترحيلهم إلى قطاع غزة في العام 1950. كما أن أهل قرنتي أقرت وكفر برعم، في الشمال، مازلوا مهجرين داخل الدولة اليهودية، وأن السلطات التنفيذية لم تسمح لهم بالعودة إلى أراضيهم، برغم صدور قرارات قضائية عدة تلزم الحكومة بذلك. ومع ذلك فلا يزال يتم تصوير إسرائيل بصورة الدولة التي يحكمها القانون!.

هذا ما حدث مع تجمعات قليلة، هنا وهناك. فما الذي كان سيحدث لو لم يهاجر السكان؟. لقد كانت المذابح هي الجواب، على هذا السؤال المحتمل: من دير ياسين، إلى

---

<sup>1</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 65

كفر قاسم، إلى قبية، ونحالين... لأن الصهيونية قد أرادتْها نقية حقاً، كما قال بن غوريون نفسه، ورغم ذلك يعود إميل حبيبي إلى التناسي، وإلقاء اللوم على الضحية.

حسناً. لقد حدث ما حدث. وقبلت الوكالة اليهودية قرار التقسيم. ورفضه الشعب الفلسطيني. ولقد كان من الغريب حقاً، أن يعتبر إميل حبيبي ذلك القبول حكمة من اليهود، وهذا الرفض حماقة من العرب!. فمن هو ذلك اللص الذي يرفض حلاً يمنحه ثلاثة أرباع الغنيمة!. وأين يوجد صاحب البيت هذا الذي يقبل بسلب ثلاثة أرباع بيته، لمجرد أنه ضعيف!. وأي شيء سيكون في نظر أبنائه القادمين!؟. ثم من هو هذا الذي يستطيع أن يسجل، في تاريخه، أنه هو أول من تنازل عن وطنه، لمجرد التلويح بالقوة!؟.

إن الرجال يواجهون القوة بالتحدي، ولا ينحنون أمامها بالخنوع. ثم لا بأس بعد أن يهزموا في مواقف الشرف، خصوصاً إذا ما كانت النتيجة واحدة في الحالتين. وإن القبول بقيام إسرائيل كوطن (للشعب اليهودي) على ثلاثة أرباع فلسطين، لم يكن يعني - على كل حال - إلا تشريد أهل هذه الثلاثة أرباع. فهل كان على القيادة الوطنية الفلسطينية (التقليدية الرجعية عميلة هتلر) أن تقبل بتشريد هؤلاء، خوفاً من تشريد أكثر قليلاً؟. سبحانك، هذا بهتان عظيم!.

استخلاصاً مما سبق، فإننا نعتقد بأن قبول إميل حبيبي بقرار التقسيم، في حينه، لم يكن إلا نتاجاً لوعي زائف، فرضته مفاهيم أيديولوجية، قررت مسبقاً بأنها وحدها، تقرأ حركة التاريخ، وأنها وحدها، قادرة على معرفة الطريق الصحيح، وسلوكه. وإذا كان الاتحاد السوفيتي قد قبل بالتقسيم، فهي الحكمة الخالصة إذن<sup>(1)</sup>، بل وهي المصلحة الذاتية الخاصة كذلك.

---

<sup>1</sup>. انظر: وثيقة رقم 5



هذا هو حكم الأيديولوجيا، كنوع من الوعي الزائف: ف"نحن نستعمل كلمة الأيديولوجيا اليوم بمعناها السلبي، في غالب الأحوال، وهو المعنى الذي يرجع إلى ماركس وأنجلز. وقد بقي هذا المعنى محتفظاً بدلالاته السلبية، في ميدان الاجتماع والسياسة في المقام الأول: فالتفكير المنوط بأيديولوجيا ما، يوصف بأنه منعدم الصلة بالواقع، لأنه يعد النظام المجتمعي - المستتب على صعيد الذهن المجرد، والنابع من فكرة مسبقة - نظاماً ممكناً على صعيد الواقع. ولأنه أيضاً، يطالب بتحقيق النظام المذكور"<sup>(1)</sup>.

لقد قامت إسرائيل، وعاد إليها إميل حبيبي، واستقر، بموافقة السلطات الجديدة. وإذا كان قد عاد متسللاً كما يقول محبوبه<sup>(2)</sup>، أو بالتعاون مع قوة الاستخبارات التابعة للوكالة اليهودية، كما يقول معارضوه<sup>(3)</sup>، فالأمر سيان، لأن السلطات الإسرائيلية سوف تمنحه المواطنة فوراً، في وقت تلاحق فيه المتسللين - كما يقول ذلك إميل حبيبي نفسه<sup>(4)</sup> - والحزب الشيوعي الإسرائيلي سيعينه عضو لجنة مركزية، فوراً، كذلك.

ولفهم الحالة النفسية لإميل حبيبي، لحظة هذه العودة، يمكن لنا الاستعانة بنص كاشف، من نصوص الاعترافات الأخيرة للرجل، يقول فيه: "وكل فارس، حين يبقى مثل السيف فرداً، يرنو ببصره دائماً نحو المحيطين به من كل جانب، ينظر نحوهم بعيني الأمل والسؤال المصيري: هل هناك من يقبل التحدث معنا؟"<sup>(5)</sup>.

---

<sup>1</sup> - ياكوب بوربون. ما الأيديولوجيا. فصول. العدد 3. مجلد 5. جزء 1. ص 168

<sup>2</sup> - انظر: محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع. ص 16

<sup>3</sup> - انظر: وثيقة رقم 6. ويلاحظ أن السيرة الذاتية، التي نشرها له مكتبه، بعد وفاته، لم تتطرق إلى موضوع عودته من لبنان عام 1948. انظر: إميل شكري حبيبي. سيرة ذاتية. مشارف. العدد 9. ص 28

<sup>4</sup> - انظر: المتشائل. ص 72

<sup>5</sup> - إميل حبيبي. ذكريات سراج الغولة، أو: لا تطفئوا هذه الشمعة. مشارف. العدد 6. ص 20

والخطير في هذه العبارة، هو ما تحيل إليه من تعميم التجربة وتعميم نتائجها، على طريقة رجل كإميل حبيبي: إنه يبدأ عبارته بالتعبير الجامع: (كل فارس). فالمتحدث هنا ينوب عن كل الفرسان، ويختزل شخصياتهم المتعددة، في خطاب لغوي، يبسط المفاهيم، ويجعلها مؤهلة للتناول، مثل حبة الأسبرين. فأنا وأنت وهم والجميع وإميل حبيبي متشابهون. والذي يقرر هذا التشابه هو الخطاب اللغوي الخداع. إما هذا، وإما أن لا نكون فرساناً!.

وبالطبع، فلسوف نقبل هذه الدغدغة لكبريائنا، دون أن نلتفت إلى الفخ القادم من وراء الكلمات. وما هو الفخ: (كل فارس يجد نفسه وحيداً، فسوف ينحني مستعظفاً أعداءه). هكذا هي الفروسية في خطاب إميل!. وهكذا يمارس الكاتب الكبير - بعد أن جاوز السبعين وحصل على الجائزتين - بحقنا قمعاً لغوياً، تمّحي فيه شخصياتنا، وتذوب، في أنه المتفردة الكلية. ويا ليتها لم تكن مهزومة.

إن سردية الماضي هي التي تقول هذه العبارة، لا واقعية الحاضر: لقد دخل إميل فلسطين، عائداً من لبنان، يبحث عن فرصة للبقاء في حيفا، بعد أن دخلها الصهاينة. وصار يجول ببصره بين كل من شموئيل ميكونس، ومثير قلنر، وأبراهام بن تصور، وديفيد بن غوريون، متذكراً حادثتين متناقضتين معاً: بيان عروبة الحزب، الذي أطلقه قبل خمس سنوات، وبيان قبول التقسيم، الأحدث عهداً. فأسقط في يده، وصار يجيل الكلمات في صدره، ليبرر ما حدث، أو ليستدل بما أحدث.

هكذا يحول إميل حبيبي تلك الحادثة التاريخية إلى حكاية، بطلها منكر تصنعه الأحداث، فيعيد إنتاج الاستلاب كل مرة، بطريقة مختلفة. لكنه لا ينجح هذه المرة في إجبارنا على القراءة وفق منظوره هو. فلقد يباح لنا أن نستنتج أنه، كان قد قرر، في تلك اللحظة، أن يستفيد من بيان قبول التقسيم، لصالح حديثٍ يبدأ بدايةً مختلفة. إن تلك

العودة - التي حدثت قبل هذا الخطاب اللغوي بتسع وأربعين سنة - هي التي صاغت هذه السردية الآن: في العام 1997.

فلنتصور الآن حالة إميل حبيبي تلك، خصوصاً وهو يتذكر - إضافة إلى ما سبق - هجوم الجماهير الفلسطينية على مقرات العصابة، وإحراقها لها، واضطراره من ثم إلى الهروب إلى لبنان<sup>(1)</sup>. لأن كل هذا له علاقة بهذه العبارة: (كل فارس). ويساهم في صياغتها.

إن الراوي العليم هنا مالك لوظيفتي السرد والتفسير في آن: فالسرد منبثق من طبيعة الصورة التخيلية، الناتجة عن هذا الخطاب اللغوي. أما التفسير فناتج عن هذه التعميمية، التي ترتدي لباس الحكمة. وفي ذلك يعاد خلق الحقائق، من منظور أيديولوجي، يقرر إعادة صياغة النفس البشرية، وفق ما يشتهي الراوي. إنه يحول الحدث إلى أسطورة، ويفضي إلى تصعيدها إلى مجال الخارق، متطلباً من المتلقي تمثّلها، وتفسير العالم من خلالها، على طريقة الأيديولوجيين، في تحويل التجربة التاريخية إلى دين، يتسامى فوق عوامل الزمن.

حسناً. لقد كان هذا هو حال إميل حبيبي، حينذاك. ولنا أن نعتبر طمعه في الجنسية الإسرائيلية مبرراً ومشروعاً، لأنه يهدف من ورائه إلى البقاء في حيفا. لكن السؤال الذي سوف يطل برأسه فوراً هو: فما هو الدافع، لدى ميكونس، للسعي إلى تنفيذ هذا الطلب لإميل (المنشق)؟.

---

<sup>1</sup> - انظر: موسوعة السياسة. المجلد 4. ص 113

إننا لا يمكن لنا، ابتداءً، أن نحسن الظن بمن جاؤوا ليطردوا شعباً من بيته، ويقيموا مكانه بيتهم. ولكن علينا أن نبحث عن دوافع أخرى، لهؤلاء السياسيين (الواقعيين). وسوف نحاول ذلك بمقارنة التواريخ.

لقد عاد إميل حبيبي إلى الدولة اليهودية، في يوليو 1948<sup>(1)</sup>. وفي نفس الشهر ألفت عصابة التحرر الوطني منشوراتها فوق رؤوس الجنود، في الجيوش العربية، تدعوها إلى العودة إلى بلادها، والانشغال بأمورها، بدلاً من محاربة إسرائيل<sup>(2)</sup>، ثم صدر بيان النقد الذاتي، الذي أعاد الوحدة للحزبين اليهودي والعربي، في أواخر سبتمبر 1948<sup>(3)</sup>، أي بعد العودة بثلاثة أشهر تقريباً. إذن فقد كان الدافع - لتشجع ميكونس في السعي لدى بن غوريون، لتأمين الجنسية الإسرائيلية لحبيبي - هو معرفته بأنه يحمل، لبن غوريون، مادة شديدة الإقناع!

وعلياً أن نلاحظ أن كل هذا كان يحدث سوية، وسط هدير المدافع، على كل الجبهات. كانت الجيوش العربية قد دخلت فلسطين يوم 15 مايو 1948، وكانت المعارك بين المجاهدين الفلسطينيين وقوات الهاجاناه قد اشتعلت قبل أكثر من خمسة أشهر<sup>(4)</sup>، وكانت شببية الحزب الشيوعي الإسرائيلي تهاجم القرى الفلسطينية، يداً بيد مع الهاجاناه<sup>(5)</sup>. وعندئذ، وفي هذا الوقت بالذات، وجد إميل حبيبي أن أفضل ما يبدأ به هذا العهد الجديد، هو الاعتذار عن كل ماضيه القومي، وإصدار البيان المتضمن لأشد أنواع النقد الذاتي،

---

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 7، وانظر كذلك: ماهر الشريف. الشيوعيون وقضايا النضال الوطني الراهن. ص 20

<sup>3</sup> - انظر: وثيقة رقم 5

<sup>4</sup> - ابتدأت المعارك قبل نهاية عام 1947. انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 43

<sup>5</sup> - انظر: الوثيقتين: 2، 4 وانظر حول تعبئة الحزب للمليشيا: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية ص 47

وأقساها، ليصبح من ثم عضو لجنة مركزية، في الحزب الذي تشارك قواته - في تلك اللحظة<sup>(1)</sup>. في الهجوم على وطنه القومي السابق، وليشارك كذلك في إصدار بيان، باسم اللجنة المركزية للحزب، يدعو إلى احتلال القدس الشرقية، وضمها إلى دولة إسرائيل<sup>(2)</sup>. فهل بعد ذلك من المستبعد، أن يكون قد ذهب فعلاً مع ميكونس، لإحضار الأسلحة والمتطوعين، إلى دولة إسرائيل؟! إن مقارنة التواريخ لأمر فضح!.

لقد نشرت مجلة الصنارة مقالها، الذي كشف لأول مرة، ما كان يتحدث به الرفاق سرّاً<sup>(3)</sup>. ولئن كان إميل قد قام، في تلك الفترة، برفع دعوى قضائية على صحيفة الصنارة، أمام المحاكم الإسرائيلية، وكسبها؛ فلقد يكون من المفيد حقاً أن نعلم، بأنه لم يرفع دعوى مماثلة على الشاعر سميح القاسم، بعد نشره للمقال المدوي (في التعريف بما هو معروف)، الذي كشف فيه بصراحة، أن إميل حبيبي كان مرافقاً لشموئيل ميكونس، في تلك الرحلة المشؤومة، التي أحضرت الطائرات، وكافة أنواع الأسلحة، لصد (عدوان) الجيوش العربية، وبالخصوص لمواجهة سلاح الطيران العربي الوحيد في الجبهة الجنوبية: سلاح الطيران المصري<sup>(4)</sup>.

لقد بين قرار المحكمة الإسرائيلية، لماذا كان على صحيفة الصنارة أن تخسر الدعوى، وقال: لأنها لم تذكر مصادرها<sup>(5)</sup>. ولقد صدر قرار المحكمة، ذاك، في شهر أبريل، من العام 1988، أي قبل أكثر من خمس سنوات، من نشر مقال سميح القاسم (كل العرب:

---

<sup>1</sup> استمرت المعارك حتى أغسطس 1949. بينما كان بيان النقد الذاتي ووحدة الحزب الشيوعي الإسرائيلي في أواخر سبتمبر 1948. انظر: وثيقة رقم 5

<sup>2</sup> انظر: جورج كرزوم، الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 26، وانظر كذلك: وثيقة رقم 2

<sup>3</sup> انظر: وثيقة رقم 6

<sup>4</sup> انظر: وثيقة رقم 2

<sup>5</sup> - أرشيف المحكمة المتوسطة (باللغة العبرية ومحفوظ لدى الباحث). أمام القاضي: ج. جينات. المدعي: إميل حبيبي. الناصرة. 388/88. ضد: 1. لطي مشعور، 2. فيدا مشعور، 3. شركة الصنارة المحدودة.

1993/7/16)، لكن سمياً كان قد تعلم الدرس جيداً. كما أن من المحتمل أن يكون لم ينشر مذكراته، إلا بعد محكمة الصنارة. لذا فقد نشر سميح مقاله، كاشفاً مصدره الوثيق المنشور، الذي لا يستطيع إميل أن يواجهه، في محكمة. وصمت إميل: الرجل القدير على خوض المحاكمات، والمعروف ببذاعة اللسان، وعدم التورع عن البدء بالعدوان<sup>(1)</sup>. وها هي عبارة سميح، كما أوردها الدكتور عادل الأسطة، في دراسته المنشورة بمجلة جامعة النجاح:

"لم يقرأ إميل مذكرات معلمه الشيوعي الصهيوني العريق: شموئيل ميكونس، بشأن رحلتها التاريخية إلى براغ؟! وماذا بشأن صفقة السلاح التشيكي، الأولى من نوعها في تاريخ إسرائيل، والتي تم تزويد الشاويش في الجيش الإسرائيلي بها؟"<sup>(2)</sup>.

لقد ذهب الوعي الزائف بإميل حبيبي بعيداً، في تلك الفترة العصبية المبكرة، إلى درجة أعمته عن حقيقة العدوان، ودفعته إلى المساهمة، فيه في بعض الأحيان. ولئن كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بعد إعادة الوحدة (العربية اليهودية) إلى صفوفه، قد استنكر على حكومة بن غوريون، عدم (تحريرها) غزة من القوات المصرية، فلقد يمكن لنا أن نتوقع أن توزيع تلك النشرة الداخلية، في غزة، في ربيع 1951، بتوقيع عصابة التحرر الوطني - والمطالبة بأن ينشط أعضاء العصابة في غزة من أجل ضم القطاع لدولة إسرائيل، بدلاً من بقاءه تحت الإدارة المصرية، بحجة أن إسرائيل دولة ديمقراطية مستقلة متقدمة، يسودها النظام الرأسمالي؛ بخلاف مصر المتخلفة، ذات النظام الإقطاعي<sup>(3)</sup> - لم يكن بعيداً عن يد إميل. ولعل في هذا ما يفسر تلك التحية الرومانسية المفعمة بالعرفان،

<sup>1</sup> - يقول إميل عن نفسه: "أنا حاد اللسان وسليط إلى حد ما. وحين أستنار، ألتجئ إلى الألفاظ البذيئة. وعموماً،

أعداؤنا يخافون لساني". انظر: محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع. ص 27

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 11

<sup>3</sup> - جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 13

التي دأب مؤير قلنر على توجيهها للرفاق العرب - في الجزء الآخر من أرض إسرائيل - الذين سقطوا "وهم يقاتلون قتالاً سرياً في عمق العدو"<sup>(1)</sup>.

إن الذي يرجح لدينا هذا الاحتمال، هو ما حدث بعد ذلك، من سحب هذه النشرة، وشجب قيادة العصابة في غزة لمحتواها<sup>(2)</sup>. فنحن نعلم من سوابق ماضية أن هذا هو أسلوب إميل حبيبي، من يوم أن نشر مقالته في الاتحاد - تحت اسم المحرر السياسي - بتأييد التقسيم، خلافاً لموقف قيادة العصابة، وصاحب امتياز الصحيفة حينذاك: إميل توما<sup>(3)</sup>.

في تلك المرحلة من فقدان التوازن، كان على إميل حبيبي أن يثبت ولاءه في كل مناسبة. ولقد نعلم أن إثبات الولاء للآخر، على حساب النفس، يقتضي تبرئة هذا الآخر من التسبب بالضرر الواقع عليها، تمهيداً لإقناعها بتقبل العقاب. وهكذا بدأ إميل حبيبي يكيل التهم للعرب (النفس)، بتضييع فرصة الاستقلال الفلسطيني على ربع فلسطين. وهذه هي بعض أقواله في افتتاحية العدد الثاني للاتحاد، بعد قيام الدولة اليهودية:

"نتيجة لسياسة استعمارية خبيثة، ونتيجة لتغريب الرجعية العربية بالجماهير، ونتيجة لسياسة تهدف إلى إجلاء السكان العرب عن جميع مناطق الدولة الإسرائيلية، أصبح مئات الألوف من سكان حيفا وعكا وطبريا وصفد وبيسان ويافا واللد والرملة والقرى العربية الكثيرة مشتتين مشردين... هل من أحد يستطيع أن يتجاهل الدور الإجرامي البشع الذي قام به رجال الاستخبارات البريطانية والجيش في إجلاء العرب عن مناطق دولة

---

<sup>1</sup> - انظر الوثيقتين: 3، 4

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 13

<sup>3</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 43

إسرائيل؟... هل من أحد يستطيع أن يتجاهل الدور العفن الذي قام به إجراء الاستعمار من جماعة الهيئة العربية العليا ومن جماعة المكتب العربي والبنك العربي والشركات المرتبطة بهما وبالرأسمال الأجنبي في دعوة الناس إلى الرحيل عن منازلهم؟<sup>(1)</sup>.

لقد تمتع إميل حبيبي بواقعية مرهقة، منذ وقت مبكر، و"أدرك أن الوجود الإسرائيلي في فلسطين ليس ظاهرة عابرة، إن خيراً وإن شراً"<sup>(2)</sup>. وأراد لشعبه أن يمارس هذه الواقعية، لكي يتمتع بحق السكنى في (إسرائيل الديمقراطية). ومن هنا فقد نشط، ورفاقه الشيوعيين، في دعم "استقرار الديمقراطية... لحماية الحقوق اليومية للسكان العرب المتبقين"<sup>(3)</sup>. كما سارع إلى تنفيذ أمر ميكونس، بتجنيد العمال العرب، لقطف زيتون العرب الغائبين، الذين يطالب الحزب بعودتهم إلى قراهم<sup>(4)</sup>.

## 2- المرحلة الثانية: المناضل المدني:

### 2-1: تقرير المصير، وانزياح المصطلح:

وتبدأ هذه المرحلة، من عودته إلى رئاسة تحرير الاتحاد، وعضويته في الكنيست، وتمتد إلى عام 1967، حيث نتأج حرب يونيو، واحتلال الضفة والقطاع، والجولان، وسيناء.

في البداية نود تأكيد حقيقة معروفة لكل دارسي الحقب التاريخية؛ وهي استحالة تقسيم المراحل الزمنية لحركة التاريخ، بصورة دقيقة وحادة، كما السكين، لأن التاريخ يتناول حياة البشر في الزمن. وهذه الحياة ليست مجرد حركة أفقية ممتدة، من اليوم إلى الذي يليه، بل

<sup>1</sup> - انظر: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 66

<sup>2</sup> - ذكريات سراج الغولة، أو: لا تطفئوا هذه الشمعة. مشارف. العدد 16. ص 12

<sup>3</sup> - جيريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 196

<sup>4</sup> - انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 207



هي إضافة خبرات الأمس إلى اليوم. وبهذا المعنى، تظل المراحل السابقة حية ومؤثرة. لكن التقسيم، في هذه الدراسة، يبتغي التركيز على الظواهر الأكثر بروزاً، في كل فترة، دون استبعاد ما سبقها.

إذن فالهدف من هذا التقسيم أكاديمي نظري، أكثر من كونه محققاً لواقع.

وفي البدء، سنقوم باقتباس بعض من أقوال إميل حبيبي، التي نشرها في مقالين متقاربين زمنياً، في صحيفة الاتحاد، تحت الاسم المستعار (جهينة). ويتطرق المقالان، بطبيعة الحال، إلى الشعب الفلسطيني في الدولة اليهودية.

في شهر يوليو من العام 1959، وبعد خروج حزب المباش (1) من حكومة بن غوريون، انتهر إميل هذه الفرصة، ليشتت بالحزب الذي ينافسه على أصوات العرب، فكتب مقالته، تحت عنوان (أبكي عليكم) (2)، معدداً فيها مخازي الحكومة، وملقياً باللوم على المباش، لمشاركته فيها. وما يهمننا هنا هو الجزء المتطرق إلى حقوق عرب فلسطين. يقول إميل مخاطباً مباح:

"انتشرت، يا (حناء شيبية العروس الشمطاء)، في مشارق الأرض ومغاربها، تبيّضون صفحة السياسة العدوانية البنغوريونية. ألبستم بن غوريون جناحي حمامة سلام: يا لطيف

---

<sup>1</sup> - حزب يساري صهيوني ذو ديباجة ماركسية. وقد كان ينافس الحزب الشيوعي على أصوات العرب.

<sup>2</sup> - هذا التعبير لا يحيل إلى معناه المقصود، في اللغة العربية، القاضي بالثناء والسماحة، بل يحيل إلى معناه العبري المعاكس، بمعنى الشماتة والاستهزاء. وعندما يتلفظ به اليهودي، فإنه يفعل ذلك على طريقة الطبقات الشعبية المصرية في قول الواحد منهم لزميله المغبون: (أخخي). ولفظه عند اليهود: (أبكي عليك).

ويا لطيف ويا لطيف!. وفي مجالس السلام العالمية بلعتم حقوق عرب فلسطين المشروعة. ولما رفعناها، نحن الشيوعيين، عالياً، رجعتم تحرضون علينا الرأي العام<sup>(1)</sup>.

وفي شهر ديسمبر من العام نفسه، وتحت عنوان (شراكة دنسة)، تناول إميل حبيبي بالسخرية، قرار الحكومة الإسرائيلية، بزيادة المساعدات المقدمة (للقرى المسلمة والمسيحية والدرزية)، لافتاً النظر إلى هذا التقسيم الطائفي، الذي تعمد إليه حكومة بن غوريون، قائلاً:

"والحقيقة أنك لا تجد، في أية وثيقة حكومية، أية كلمة عن (شعب عربي) أو حتى عن (أقلية عربية) إنما يتحدثون عن وجود (أقليات) في هذه البلاد: لا أقلية. عن أقليات طائفية. ولولا بعض حياء، لتحدثوا عن عوائل وحمائل. وهم بهذا يصدرون، في عمام السياسي، عن واقع تنكرهم لمجرد وجود الشعب العربي، في هذه البلاد. إن الأحزاب الصهيونية لا تكنفي بعدم الاعتراف بالحقوق القومية للشعب العربي، بل إن هذه الأحزاب، التي تؤكد أن يهود الهند ويهود بولونيا هم أمة واحدة، تنكر وجود الرباط القومي، الذي يوحد عرب البلد الواحد، من مختلف الطوائف. وفي هذا الموقف لا يختلف المباني<sup>(2)</sup> عن المبام، ولا وزارة الصحة عن وزارة الأديان"<sup>(3)</sup>.

إن إميل حبيبي الآن عضو كنيست، يتمتع بحصانة برلمانية، تتيح له المعارضة، من داخل المؤسسة الصهيونية. ولكي يحتفظ بهذه الحصانة، فلا بد له من الالتزام بالقوانين، التي قامت على أساس من سلب الحق الفلسطيني، في الأرض وتقرير المصير. إذن فعليه أن يبحث عن ميدان نضال لا يتعارض مع هذه القوانين. وقد وجدته أخيراً في تسمية

1- الاتحاد. عدد يوم 3/7/1959.

2- حزب بن غوريون. وهو الحزب اليساري الذي سيكون بعد ذلك القوام الرئيسي لحزب العمل.

3- الاتحاد. عدد يوم 25/12/1959.

المسميات بغير أسمائها المتداولة، فهو يتحدث عن (حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني) ولكنه يفرغ هذا المصطلح السياسي المعروف من محتواه، ويصب فيه محتوى مناسباً لواقع الحال. وهذا المحتوى الجديد هو: الحقوق المدنية. حيث يصبح بإمكانه المناداة بحق تقرير المصير، ثم إنكار أن يكون هناك في دولته اليهودية، أمة عربية تستحق هذا الحق السياسي، لأنها (مجرد مجموعة)، وليست أمة ذات هوية متبلورة.

ونحن إذا تفحصنا المقالين السابقين، فنلاحظ أن مصطلح (حق تقرير المصير) موجود في خطاب إميل حبيبي، ومنادى به، بهذه الصيغة العامة، غير التفصيلية. ولقد كان من الممكن لنا أن نقبل بهذا التعميم، لما يحيل إليه من معرفة مقررة مسبقاً لدينا - بأن هذا الحق يعني حرية اختيار نظام الحكم، والحق في الاستقلال السياسي، ورفع العلم الخاص، والنشيد الوطني، وتشكيل حكومة ذات سيادة - لولا تعارض هذه العمومية المقصودة، مع ألفاظ محددة، تدل بأفرادها، على أن هذه الدولة، التي بعض عرب فلسطين من رعاياها، ليست دولة مواطنيها، بل هي دولة اليهود، حتى لو كانوا في آخر الأرض. لم يقل ذلك الصهاينة فقط، بل قاله بصورة واضحة إميل حبيبي، وظل يقوله، بطريقة لازمنية - مثل كل حقيقة كلية - بغض النظر عن كل المتغيرات. قاله في المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي بالنص التالي: "نحن نعارض المخططات الشوفينية والمغامرة القائلة بالقضاء على دولة إسرائيل: هذه الدولة التي هي تجسيم لحق الشعب الإسرائيلي في تقرير مصيره"<sup>(1)</sup>. ثم قاله لصحيفة حدشوت العبرية، بهذه الصيغة الأكثر وضوحاً: "نحن لا نعترف إطلاقاً بما يسمى حق تقرير المصير لعرب إسرائيل... إننا نقول بأن حق تقرير المصير هو خاص بالشعوب وليس بالمجموعات"<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - كتاب المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 238

<sup>2</sup> - وجهاً لوجه مع عضو الكنيست إميل حبيبي. يديعوت أحرونوت العبرية. عدد يوم 1966/11/25. نقلاً عن جورج

كرزم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 172

وإذا كان الخاص مفسراً للعام، ومخرجاً له عن إطلاقه - كما يقول علماء أصول الفقه - فقد خرج كل معني يحيل إلى مدلول سياسي، من كل مصطلحات تقرير المصير للعرب في الدولة اليهودية، التي يستخدمها إميل حبيبي في مقالاته بالاتحاد. وصرنا نعرف الآن، أن حق تقرير المصير، عند عضو الكنيست، يعني الحقوق المدنية، خصوصاً مع كل تلك التوضيحات، التي دأب إميل حبيبي على تقريرها، في الصحف العبرية، التي لا يقرؤها جمهور الناخبين العرب.

إن إميل حبيبي الاتحاد، هو غير إميل حبيبي الكنيست؛ على الأقل فيما يتناول حق تقرير المصير لفلسطيني الدولة اليهودية. ولا جرم، فلقد علمنا الثمن الباهظ الذي كان على الرجل دفعه، مقابل البقاء في حيفا عضو كنيست، ولو حتى في حزب معارض شكلاً. فكلما هادنت السلطة معارضيها، تحولت المعارضة ذاتها إلى خطاب مهادن - كما يقول غراف - الذي يؤكد أن نجاح الثورة يعني سقوطها كخطاب معارض، ومن ثم فإن النجاح الحقيقي هو في الإخفاق، أو في الأقل، أن تظل في الهامش قدر الإمكان<sup>(1)</sup>.

إنه الآن مدرك تمام الإدراك لموقعه في المجتمع الجديد، وعالم لطبيعة القيود التي عليه أن يمثل لها: إنه مواطن إسرائيلي، من أقلية قومية، تعاني من الإجحاف بحقوقها المدنية، وتقييد حرياتهما في التنقل والعمل، وتطبيق عليها الأحكام العسكرية، من دون باقي المواطنين؛ لذا فإن بإمكانه أن يجد له دوراً هنا. ثم إن بإمكانه أن يطور من صورة هذا الدور، إن لم يكن في عيون المنتصرين، فلا أقل من أن يفعل ذلك في عيون المهزومين، فالقليل في نظر المحروم كثير. وهم لا شك سيشعرون بالرضى والقناعة، إن هو طالب لهم بشيء من الحقوق الإنسانية، يستخلصها من بين أنياب هؤلاء المستوطنين، الذين أصبحوا الآن يملكون الأرض ومن عليها. وحتى يتم ذلك، فإن عليهم أن يتذرعوا بالصبر

---

<sup>1</sup> - عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 46

والهدوء، ويشاركوا في بناء الدولة الجديدة، ويعتبروها دولتهم، وأن يتناسوا كل المشاعر القومية، التي تسببت لهم في الماضي بكل (هذا الخراب). وإن ما أخذ منهم بالقوة، من الممكن له أن يعود تدريجياً، عن طريق النضال السياسي.

إن الذي حرر البلاد - في نظر إميل حبيبي - من الاستعمار هم اليهود لا العرب. ولقد كان على العرب أن يتوحدوا مع اليهود، لتحرير كل البلاد. أما وقد اختاروا طريقاً آخر، فقد كان على هذا الطريق أن يوصلهم إلى تحرير قسمهم، الذي (أعطتهم) إياه الجمعية العامة، لا أن يطمعوا في حصة الآخرين، فيصيروا إلى خسارة كل شيء، كما فعلت عصابة التحرر قبل أن يربطها إميل بالحزب الشيوعي الإسرائيلي<sup>(1)</sup>. وهذه هي عبارته بنصها:

"إن تنظيم عصابة التحرر الوطني، على أساس قومي منفصل، قد أوجد في سياستها وهماً مفاده أن الشعب العربي لوحده، ودون اعتبار القوى الثورية داخل الشعب اليهودي، يستطيع أن يحرر البلاد وأن يقضي على المستعمر"<sup>(2)</sup>.

أما الآن، وقد حدث ما حدث، فإنه الآن لا ينتهز هذه الفرصة، ليتخلى عن واجبه تجاه شعبه. لكن على هذا الشعب أن يكون (واقعياً)، وأن يقبل بفهم الحقوق القومية، وفق تفسير جديد، يدرك إميل حبيبي أنه - بالقطع - لا يحيل إلى المعنى الحقيقي لهذا المصطلح، لأنه عندما يضطر، أمام العالم الخارجي، إلى (تحرير المصطلح)، فإنه يحرره فعلاً، ويبين موقفه مما يراد به في الدولة اليهودية: ففي مؤتمر السلام في فيينا سنة 1952، قال إميل حبيبي: لا يوجد في إسرائيل قوميتان، وإنما يوجد شعب إسرائيلي فقط. وفسر ذلك برجوع اللغتين والشعبيين إلى أصل واحد. وبما أن الشعب اليهودي (أي

<sup>1</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 194

<sup>2</sup> - وثيقة رقم 5

بني إسرائيل) هم الأكثرية، فيجب أن يسمى سكان إسرائيل - عرباً ويهوداً - باسم: الشعب الإسرائيلي<sup>(1)</sup>.

وهكذا يبرز لنا الدور المنوط بعضو الكنيسة، أو الدور الذي فهم أنه منوط به، منذ الأيام الأولى لعودته، بعد سقوط حيفا في يد الهاجاناه. وهذا هو واقع حال خطاب رئيس تحرير الاتحاد أيضاً. يقول إدوارد سعيد:

"وواقع الحال يدل أيضاً على أن المثقفين، وبموافقة كل من بيندا وغرامشي، مفيدون غاية الفائدة في تفعيل الهيمنة. وهذه الحقيقة ما هي بالطبع إلا خيانة المتعلمين المأمورين، إذ إن مساهمتهم غير اللاتقة في الوصول بالمشاعر السياسية إلى حد الكمال هي الشيء الذي يشكل بمنتهى الأسف نفس جوهر خيانتهم الجماعية المعاصرة"<sup>(2)</sup>.

ها نحن هنا نرى كيف يتحول إميل حبيبي، لا إلى مجرد عالم تاريخ، يستمد مادته من التوراة، بل يصبح، إلى جانب ذلك، "فيلولوجياً عالماً بفقهِ اللغات، فيحشر نفسه فيما يتقن وما لا يتقن"<sup>(3)</sup>، بغية تفعيل الهيمنة الإسرائيلية على شعبه، وإقناعه بأنه مكون من مجموعة مواطنين إسرائيليين. وأن مواطنهم هذه هي قوميتهم. بدلاً من قومية ضيعها أصحابها، حين رفضوا قرار الجمعية العامة. يقول:

"وكل إنسان نزيه في بلادنا وفي البلاد العربية، لا بد وأن يكون قد وصل الآن، من تجربة هذه السنوات الثماني، إلى النتيجة التالية: إنه لو جرى تنفيذ الحل الذي وضعته الأمم المتحدة للقضية الفلسطينية؛ لو لم تقع الحرب التي فرضها المستعمرون على سكان فلسطين؛ لو لم تقم جيوش الدول العربية - بدفع من الاستعمار - بالهجوم على فلسطين،

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 3

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 16

<sup>3</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 175

بما في ذلك الهجوم على إسرائيل؛ لو قامت الدولة اليهودية والدولة العربية، في أوضاع سلام ووحدة اقتصادية فيما بينهما؛ لما تشرذ الشعب العربي الفلسطيني من بلاده، ولما وجدت إسرائيل نفسها الآن في عزلة عن أقطار الشرق الأوسط"<sup>(1)</sup>.

إن علينا الآن، بعد التمعن في الفقرة السابقة، من كلام إميل حبيبي، أن نلاحظ أن الشعب العربي الفلسطيني، المقصود هنا هو شعب القسم العربي، وفق قرار التقسيم، لا شعب فلسطين كله: لأن الباقيين يحملون صفة اللاجئين، الذين لا يجد إميل في المطالبة بعودتهم إلى قراهم أي حرج، لأن هذه المطالبة هدف حزبي من أهداف ميكونس، ولو في الظاهر على الأقل. وبذا يمكن أن نفهم بأن إميل هنا لا يخرق القواعد، البتة.

إن المسؤول عن النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني، حسب منطق إميل، هو الأمور التالية مجتمعة:

- رفض قرار التقسيم.
- الحرب التي فرضها المستعمرون على الفلسطينيين والمستوطنين.
- الحرب التي فرضتها الجيوش العربية على اليهود سكان إسرائيل.
- الحرب التي فرضتها الجيوش العربية على العرب سكان فلسطين.
- عدم تحقق الاستقلال للفلسطينيين في أوضاع سلام.
- عدم نشوء الوحدة الاقتصادية بين الشعبين، في دولتي أرض إسرائيل.

إن هذا المنطق، يحيل إلى نتيجة مؤداها أن المذنب الوحيد هم العرب، والفلسطينيون منهم بالذات، فما جاءت الجيوش العربية إلا بعد اندلاع القتال بين الطرفين بخمسة أشهر. كما أن هذا المنطق يتعمى، عن حقيقة أن الصهاينة، قد احتلوا جزءاً غير قليل،

---

<sup>1</sup>. وثيقة رقم 7

من أراضي القسم العربي، وساهموا (ولو بقدر ضئيل) في عدم تحقيق الاستقلال الفلسطيني. لكن المواطن المثالي إميل حبيبي، لا يريد قول ذلك، بل يريد إلقاء التهمة على بني قومه، لا شيء، إلا لكونهم ضعفاء مهزومين:

"ولكن التجربة المؤلمة، التي عبرت على الشعب العربي الفلسطيني، أظهرت من هو الخائن لشعبه، ومن هو الأمين المخلص لقضية شعبه ومستقبله. لقد ظهر فيما بعد أن هؤلاء الزعماء التقليديين، من مفتي القدس السابق، إلى معارضيه التقليديين، قد اشتركوا مع الاستعمار، في مؤامرة ترحيل الشعب العربي الفلسطيني من بلاده. وأما (الجنرالات)، الذين جاؤوا (لإلقاء اليهود في البحر)، فقد نجحوا في إلقاء العرب - فعلاً وعملاً - في بحر يافا وحيفا. وبعد أن نجح دفاع الشعب اليهودي عن دولته، نجح هؤلاء (الجنرالات) في القضاء على الدولة العربية المستقلة، التي كان يجب أن تقوم"<sup>(1)</sup>.

وفي البدء نود الإشارة إلى أننا عندما ينقل قولاً لقائل، بنصه، فإنما نتوخى عدم حذف شيء من علامات التنصيص المميزة، التي وضعها منشئ الخطاب في الأصل. وهذا الأمر ينسحب على كل ما يتم نقله بنصه. بين المزدوجات. ولهذا نرجو ملاحظة الأقواس، في داخل النص.

إن استخدام إميل للأقواس، في عزل بعض العبارات أو المصطلحات، عما حولها من سياق الخطاب، لم يتأت من فراغ، أو لمجرد هدف جمالي؛ بل جاء، كما هو واضح، ليحمل الخطاب مدلولات ساخرة، من قولٍ يقال ويحيله منشئ الخطاب إلى قائله، كما هو، في دلالةٍ على الاعتراض، بينما تتبقى مفاصل الخطاب الأخرى مقبولة منه، ومنسوبة إليه، بروحها ومعناها.

---

<sup>1</sup>. وثيقة رقم 7



فإميل يعترض ابتداءً على وجود مسمى الجنرال، في جيوش المحاربين العرب، لأنهم لو كانوا جنرالات حقاً، لنفذوا تهديدهم، ولألحقوا باليهود في البحر. ولأنهم لم يستطيعوا، فلقد وضع إميل مقولتهم، بين قوسين. ألا نرى هنا كيف تتدخل علاقات القوة في إنشاء الخطاب في نفس منتهجه؟. والسؤال هو: ماذا لو انتصر (الجنرالات)؟. يقيناً، لما وجدت هذه الأقواس ابتداءً، أو لأحاطت بتعبير آخر هو: (دفاع الشعب اليهودي عن دولته)، بدلاً من إطلاقه هكذا، كحقيقة يتبناها المؤلف، وينافح عنها، بقوة المواطنة، وسلاح عضوية البرلمان الصهيوني.

إن هذا الكرنفال من الكلمات، ليحمل في طياته محتوى ثقافياً، سيطر على منثى الخطاب. وهذا المحتوى بلاغي في أصله، وناتج عن لاشعور جمعي أنتجه تاريخ طويل قطعه الإنسان، قبل أن ينزل عن الشجرة، وظل - من وراء كل مراحل الحضارة التالية - موسوماً بطابع الاقتتان بالقوة:.. حيث يجعل من كل ما هو قوي جميلاً، كما يجعل من كل ما هو ضعيف قبيحاً. "وقد تغلغل في الأدب هذا التبجيل لمن هو أقوى، من الناحية الجسدية. ولا نثني على أحد الأعمال لأنه يتصف بما هو حقيقي، بل لأنه يتصف بالقوة، وينصب مديحنا عليه لأنه أترّ فينا"<sup>(1)</sup>، كما يقول توماس كارليل.

ولئن كان كارليل قد لمس آثار هذه الفتنة، في مجال تقييم النصوص الأدبية، فلقد نعلم أن هذا التقييم ينسحب على كل مجالات التعبير الأخرى، من يوم أن أطاح النقد الثقافي بالفروق بين أجناس التعبير<sup>(2)</sup>.

إن إميل حبيبي - في النص السابق - يبدو لنا متلفعاً بالبراغماتية المطلقة، وقاذفاً بكل القيم الأخلاقية إلى عالم الرومانسية المنسي، الذي تمت هزيمته على يد (الأمر الواقع).

<sup>1</sup> - انظر: رايوند وليامز. الثقافة والمجتمع. ص92

<sup>2</sup> - انظر: ماري تريز عبد الفتاح. القراءة التاريخية للنصوص. فصول. العدد67. ص164.

إنها كلمات تنتقل من عالم الأيديولوجيا، المعزول ذهنياً، إلى العالم الدنيوي. وقد سبق أن قيل بأن الأيديولوجيا لا تقبل باستمرار هذا العزل الذهني، بل إنها تصر على التحقق في العالم<sup>(1)</sup>.

"الكلمات ليست أشياء منعزلة باهتة، بل هي سحرية في مقدرتها على الاستدعاء والتشكيل والسيطرة على الأشياء. وقد تكون في عيني الفيلسوف، مجرد خدعة أو حيلة كبيرة. ولكن، ماذا تملك أحاديث الفيلسوف القصيرة من امتيازات، أمام الدليل الذي نعرفه، طوال حياتنا، لقدرتنا على تقرير ما هو واقع، وما هو حق؟! فالكلمات تعمل في العالم، وهي تجعل الناس أغنياء أو فقراء، وتجعلهم سعداء أو أشقياء، حكماء أو حمقى. فهل هناك دليل، أفضل من ذلك، على قوة الكلمات وامتلائها بالمعنى!"<sup>(2)</sup>.

وهل هناك من دليل، على (خيانة المفتي)، غير هذه الكلمات، التي تلقفها المثقفون اليساريون، وروجوها، وصارت بفضل منشئها الأول عقيدة لاهوتية، لا يجوز ليساري أن يقول ما يناقضها؟.

إذن، فالحرب العربية على (فلسطين بسكانها من الشعبين)، هي التي تسببت في تشريد الفلسطينيين!. والباحث عندما يستخدم الأقواس من جهته، لا يسعى إلى تحميل مقولة إميل حبيبي ما لا تحتل، لأن (أرض إسرائيل) ظلت هي بلاد إميل حبيبي، التي لا يعرف له بلاداً غيرها. ولقد قال ذلك تصريحاً، في مرحلة الاعترافات الأخيرة من حياته، في معرض امتداح النفس، على إبداعه للمتشائل، بهذا النص:

---

<sup>1</sup> - انظر: ياكوب بوربون. ما الأيديولوجيا. فصول. العدد 3. مجلد 5. جزء 1. ص 168

<sup>2</sup> - ألفين كرنان. موت الأدب. ص 204 - 205

"وقد كرمني شعبا بلادي الاثنان، باستقبال مدهش لهذه الرواية، مما جعلني أتفاءل خيراً بشعبي العربي الفلسطيني، على اعترافه بالأمر الواقع، وبشعب إسرائيل على اعترافه الضمني بالذنب"<sup>(1)</sup>.

إن البلاد التي تحتل شعبين، هي (أرض إسرائيل)، لا فلسطين، كما يقرر ذلك كل من الخطاب الصهيوني المعلن<sup>(2)</sup>. في هذه المرحلة على الأقل - وخطاب الحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي سابقاً، ثم بكافة تنوعاته بعد ذلك. لذا فقد اعتبر الكادر الحزبي إميل حبيبي نفسه مواطناً من مواطنيها، المناضلين عنها وفيها، منطلقاً من مفهوم أيديولوجي، ينافح عن حقوق المواطنين العرب المدنية، حيناً، ويخوض معارك الحركة الشيوعية، في المنطقة العربية، حيناً آخر.

## 2- 2: الضغط الناعم وعلاقات القوة:

أما على صعيد الدفاع عن المواطنين العرب، في الدولة اليهودية، فقد كان لإميل حبيبي وحزبه الفضل العظيم، في كشف مذبة كفر قاسم، التي ارتكبتها القوات الصهيونية بحق المواطنين العرب، إذ استغلت انشغال الرأي العام العالمي، بالحرب المشتعلة على الجبهة المصرية، خلال العدوان الثلاثي عام 1956، وفرضت منع التجوال، على قرية كفر قاسم، قبيل ساعات المغرب، وترصدت للأهالي العائدين من حقولهم - في اليوم الأول للحرب - لترصهم صفوفاً، وتعدمهم بدم بارد، على أبواب قريتهم، ثم لتمنع وسائل الإعلام من نشر الخبر. وقد بلغت حصيلة القتلى يومها تسعة وأربعين شهيداً.

<sup>1</sup> - ذكريات سراج الغولة، أو: لا تطفئوا هذه الشمعة. مشارف. العدد 16. ص 11

<sup>2</sup> - مفهوم أرض إسرائيل - في المرحلة الأولى للخطاب الصهيوني المعلن - تمتد على جانبي نهر الأردن، كما صرح بذلك عدد من رؤساء الوزارات الصهيونيين. وهم يستدركون دائماً على هذه التصريحات، باعتبار هذه الأرض (التوراتية) قابلة لإيواء شعبي البلاد: العرب واليهود. على أن يكون العرب شرقي النهر، واليهود غربيه.

وبعد مرور حوالي الشهرين، على هذه المذبحة الهمجية، وبعد ضغط مستمر من الكتلة البرلمانية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، سمحت الرقابة العسكرية بنشر الخبر. ووقف توفيق طوبي في الكنيسة، ليكشف المذبحة. فتعرض له رئيس الوزراء ديفيد بن غوريون بالمقاطعة، وصاح به أن يسكت. فكتب إميل حبيبي في الاتحاد ما يلي:

"إن توفيق طوبي يعيش في إسرائيل، لا في المريخ، يا نواب. (أسكت، أسكت). أسبوعاً في إثر أسبوع، وقف مع بقية رفاقه في الكنيسة، يستنكر سياسة حكومة بن غوريون الاضطهادية تجاه المواطنين العرب. يستنكر تشريدهم من المجدل، من كفر برعم، من الغابسية، من إقرث، من المجيدل، ومن غيرها من عشرات القرى. يستنكر سلب الأراضي والأموال والأرزاق، بالقوانين وبغير القوانين. ويستنكر أعمال الاعتقالات والملاحقات الإدارية، وغير الإدارية، ثم مجزرة كفر قاسم!. والفلاح العربي البسيط يسأل الآن: إذا كان رئيس الوزراء، في داخل الكنيسة، يسمح لنفسه بتوجيه إهانات ساقطة، إلى عضو عربي في هذه الكنيسة، أفلا يستطيع ضابط حرس حدود، في قرية عربية، أن يسمح لنفسه بتوجيه الرصاص إلى صدر إنسان عربي بسيط؟!"<sup>(1)</sup>.

وقد استمرت حملة الحزب الشيوعي، ووجدت لها أصداءً، بين أوساط عدد من اليهود التقدميين، من النشطاء السياسيين والشعراء وحملة الأقلام الأحرار. وأصدرت اللجنة المركزية للحزب بيانها "لنرفع أصواتنا ضد الحوادث المريعة في المثلث"<sup>(2)</sup>. وخرجت التظاهرات، التي دعا إليها الحزب، في مراكز التجمع العربية. وخاض الحزب الشيوعي نضالاً مدنياً، أثمر عن صدور قرار بتشكيل لجنة تحقيق، ثم محكمة، حكمت بتجريم بعض المتهمين، قبل أن تفرج عنهم الحكومة، بعد مدة قصيرة.

<sup>1</sup> - الاتحاد عدد يوم: 1956/12/30. نقلاً عن: إميل حبيبي. كفر قاسم: المجزرة - السياسة - ص52

<sup>2</sup> - إميل حبيبي. كفر قاسم: المجزرة - السياسة. ص55

ثم أقام الحزب لجنة شعبية لإحياء ذكرى الشهداء. وظل طوال عشرة أعوام يعلن الإضراب العام في يوم الذكرى. ونشرت الاتحاد - التي يرأس إميل حبيبي تحريرها - على عرض صفحتها الأولى، الشعار التالي، بمناسبة حلول الذكرى الأولى للمذبحة: "دم شهداء كفر قاسم وأطفال صندلة وعرب السواعد وأم الفحم والمغار والبقيعا يستصرخ الجماهير للإضراب، غداً الثلاثاء، لإنهاء الاضطهاد القومي والحكم العسكري. الاحتقار والعار للخارجين عن الوحدة"<sup>(1)</sup>.

ثم جاءت افتتاحية العدد نفسه بعنوان: "لهيب نضالنا يحرق الظالمين" وقال فيها إميل حبيبي ما يلي: "الحكم العسكري طغى وتجبر!. وفي عشية يوم كفر قاسم بلغ سيل الاضطهاد القومي الزبي"<sup>(2)</sup>.

إن تجربة إميل حبيبي، تحت الاحتلال، وفي هذه الفترة بالذات، لغنية بالدروس والمآثر، كما هي غنية بالإحباطات، وبما لا يستطيع المراقب الناقد إلا أن يرفضه. لقد أدرك إميل حبيبي - بفطرته - أن إقامته في الدولة اليهودية، ولو كفر من أفراد أقلية مضطهدة، سوف يتيح له أن يلتقط عدداً من التناقضات المجتمعية، في الدولة (الديموقراطية)، ويستخدمها، في بناء فاعلية سياسية، "يتم من خلالها التدخل في لغة السلطة، وكشف انشطارها، وإعادة إنتاج تلك اللغة، في حالة متبدلة تماماً، على نحو يطيح بحسابات المتمكنين، ويتيح لغير المتمكنين أن يعرفوا الاستراتيجيات، التي يضطهدون من خلالها، وأن يستخدموا تلك المعرفة، في بناء مقاومة"<sup>(3)</sup>.

---

1- الاتحاد. عدد يوم 1957/10/28.

2- الاتحاد. عدد يوم 1957/10/28.

3- تائر ديب. من مقدمته لترجمة كتاب: هومي. ك. بابا. موقع الثقافة. ص 13

ففي منظور إميل للمسألة، إذن، بعدّ يركز على الاختلافات، التي لا بد أن توجد داخل المجتمع الإسرائيلي - بهذه النسبة أو تلك - ويجمع أجزاء قوتها بعضها إلى بعض - مستنداً إلى الحزب، الذي هو عضو في لجنته المركزية - لمواجهة المؤسسة الحاكمة، من داخلها، وبأدوات اللعبة الديمقراطية، التي تعلن تمسكها بقواعدها.

لقد كان إميل مدركاً لعقدة الاضطهاد الجمعي، التي يعاني منها اليهود عموماً، والمتفقون منهم على وجه الخصوص، وبارعاً في استثمارها. بحيث وجدت الحكومة نفسها محاصرة، بكل هذا الضغط (الناعم)، ومجبرة على تقديم أجوبة.

وإذ كان من الطبيعي لإميل أن يستشهد، في مجادلاته مع السلطة الصهيونية، بمبدعين يساريين، معارضين لسياستها القمعية، بخصوص (السكان العرب)، فلقد كان من المفاجئ للسلطة حقاً، أن يجد إميل مبدعين يهوداً يستشهد بهم عليها، ويستتكرون صمتها، ممن طالما كانوا محسوبين عليها، وموالين لها. وقد نشر إميل حبيبي في كتابه، عن مجزرة كفر قاسم، مقاطع مترجمة من قصيدة الشاعر اليهودي (نتان ألتزمان) - الذي لم يحتمل الصمت على هذه المجزرة، رغم نعت إميل له بلقب (شاعر البلاط) - قال فيها:

"وهكذا، منذ اقتراف العملية، وحتى الآن، يظل ذلك الفصل رهناً الهمس، بإفشاء سرٍ لم يعد سراً: فقد راح يتسكع في أنحاء العالم. هكذا، منذ ذلك الوقت وحتى الآن، يحوط هذه القضية تعميم غير إنساني، وغير عادل، وغير ضروري. وأما المغنون والمغنيات فينشدون أناشيد حرس الحدود<sup>(1)</sup>. وصوت دماء الأبرياء يخندق في الأرض ويحفر القنوتات... وهكذا، يظهر أن الشعب، الذي يريد أن يكون نوراً أمام الأمم، لا يبدي أي

---

<sup>1</sup> - الفرقة التي نفذت المجزرة كانت من سلاح حرس الحدود. وقد درجت العادة، في الدولة اليهودية، على توجيه الشكر للجيش وحرس الحدود، بعيد كل عملية.

إشارة على تأثره، ولا أبسط إشارة... لا يمكن أن تقوم جماعة بشرية، ولا يمكن أن توجد جماهير عاقلة، ثم لا يصيبها الذهول، أمام مثل هذا الحدث، ولا تسأل - دون حاجة إلى مبشرين - كيف جرى الذي جرى، وكيف كان من الممكن أن يقع الذي وقع، وكيف على الناس أن يتصرفوا، وماذا يجب أن يفعلوا، حتى لا يقع غداً أمر شبيه بالذي وقع؟!<sup>(1)</sup>.

ورغم أن قائل هذه القصيدة شاعر بلاط - كما يقول إميل حبيبي - إلا أن أرواح الناجين من المحرقة النازية هي التي كتبها. وهي التي تعلن من خلالها رفضها، لأن تعيد الضحية السابقة إنتاج ما يماثلها، بحق الآخرين. الأمر الذي يشعر الباحث بضرورة وجود متسع - في هذا البحث الجاد - لإبداء شيء من العواطف الجميلة، لكل من المقول والقائل، رغم كل شيء، مستذكراً قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يشكر الله، من لا يشكر الناس".

وعند العودة إلى مذبحه كفر قاسم، وطريقة إميل حبيبي في التعامل معها، سوف تبرز أمامنا الملاحظات الآتية:

- أولاً: أن إميل حبيبي لم يسجل، في كتابه عنها، أنه قدم بشأنها استجاباً برلمانياً للحكومة، في أروقة الكنيست، ولم يذكر لنا أنه قدم اعتراضات لرئيس الحكومة. بل إنه يذكر أن بطل هذه الاعتراضات كان هو رفيقه توفيق طوبي.
- ثانياً: أنه لم يوقع مقالاته، التي نشرها في الاتحاد، باسمه الشخصي؛ رغم أنه كان يكتب في كل عدد من أعداد الصحيفة، أكثر من مقالة: واحدة باسمه الشخصي، والأخرى باسمه المستعار المشهور (جهينة).

---

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي، كفر قاسم: المجزرة - السياسة. ص 50 - 51

- ثالثاً: أن كل ما كتبه عن المذبحة - وهو جدير بالتقدير - كان بتوقيع: (كلمة الاتحاد). أي أن الكلمة كانت - رسمياً - باسم الحزب، والصحيفة الناطقة باسمه.
- رابعاً: أنه أصدر كتابه، عن المذبحة، بعد حدوثها بعشرين عاماً كاملة، وفي مناسبة حدوث مذبحة أخرى، هي مذبحة يوم الأرض - التي حدثت في يوم 1976/3/30- إذ صدر بعدها الكتاب بحوالي سبعة أشهر، وتحديداً في أكتوبر 1976<sup>(1)</sup>.

لقد كان إميل، في تلك اللحظة، عضو كنيست. وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، التي يرأسها شموئيل ميكونس، فاعلة في شجب الحدث، والمطالبة بالتحقيق فيه، وإيقاع العقوبات بالفاعلين، ومن وراءهم. وكانت الجماهير العربية مشحونة، وتلبي نداءات الحزب. وبرز عدد من النشطاء من شباب الحزب العرب الوطنيين، في هذه التظاهرات، وتعرض عديد منهم للملاحقة والاعتقال، وقد كان من هؤلاء، المناضل الشاب توفيق زياد، عضو مجلس بلدية الناصرة وقتها، والشاعر الفلسطيني المعروف بعدها. بل إن عضو الكنيست الآخر، توفيق طوبي، لم يسلم من الملاحقة والتضييق عليه في الحركة<sup>(2)</sup>.

إن الرجل لشديد الحذر، حتى وهو يرفع راية التمرد. لأنه مدرك لطبيعة علاقات القوة، في المجتمع الإسرائيلي: فطالما عرف الرجل حدود الممكن، وميزها عن حدود غير الممكن، منذ أيام قرار التقسيم. وإن لموقعه الآن حدوداً تتحدد تبعاً لها حدود موقفه. لذا

<sup>1</sup> انظر: إميل حبيبي. كفر قاسم: المجزرة - السياسة. الصفحات على التوالي: ص 52، 62، 63، ثم صفحة الغلاف الداخلي.

<sup>2</sup> انظر: إميل حبيبي. كفر قاسم: المجزرة - السياسة. الصفحات على التوالي: 66، 63



نراه يمارس ضبطاً ذاتياً، يمنع الفعل من الخروج عن حدود السيطرة. يقول ستيفن جرينبلات:

"إن ما يجعل علاقات القوة جبارة ومهيمنة، هو حقيقة أن الذات تمارس القمع الذاتي، والتنظيم الذاتي، في آن معاً؛ الأمر الذي يلغي الحاجة إلى استخدام القوة العنيفة، من أجل تسهيل حسن قيام السلطة بخدمة مصالح الأيديولوجيا المهيمنة. الذات هنا - وهي المصوغة أيديولوجياً ولغوياً وثقافياً - هي التي تتولى عمليات إنتاج الهيمنة: بذاتها ولذاتها"<sup>(1)</sup>.

ولقد أشار إميل حبيبي، أكثر من مرة، في نصوصه الإبداعية، إلى ممارسته لهذه الرقابة الذاتية، عن طريق استخدام الحذر، كآلية ضبط مانعة، مما يمكن أن يحدث له، في لحظة من الخروج عن السياق. ولقد اعتبرناها يومئذ مجرد علامة كاريكاتورية، يسخر عن طريقها، بالعمل المرتبط بالعدو: سعيد أبي النحس المتشائل. لكننا الآن نعيد قراءة تلك العلامة، في ضوء هذه المستجدات المتعددة - خصوصاً بعد اعترافه بأنه هو المتشائل - مرة أخرى، وبطريقة مختلفة.

فلنقرأ كيف وصف سعيد أبو النحس المتشائل نفسه، أو كيف وصف إميل حبيبي ملكة الحذر لديه:

"فمنذ أن أصبح سر باقية سري، أصبحت الحذر يمشي على اثنتين. فلما أدركت أن الحذر هو من ذوات الأربع، رحلت أمشي على أربع"<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - صبحي حديدي في استعراضه لكتاب جون براينغان: (التاريخانية الجديدة والمادية الثقافية). الكرمل. العدد 59.

ص 258

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 139

كما وصف الحذر الذي يمتلكه، على لسان الراوي، في سيرته الذاتية<sup>(1)</sup>: (سرايا بنت الغول)، بقوله:

"وفيما هو على هذه الحال، سمع نعيق غريان صادراً من فوقه. قال: ففتحت إحدى عينيّ تحسباً من عاقبة الغفلة، وأبقيت الأخرى مغمضة تحسباً من عاقبة اليقظة!"<sup>(2)</sup>.

ولقد نميل إلى الاعتقاد، بأن ذلك الحذر المبالغ فيه، من إميل، راجع إلى عوامل متعددة، ربما يمكن رصد بعضها في النقاط التالية:

- أولاً: طبيعة الظروف التي أحاطت بعودته الملغزة من لبنان، عام 1948، بعد قيام الدولة اليهودية.
- ثانياً: إدراكه لطبيعة القيادة الصهيونية، المسيطرة على الحزب، وقت حدوث المذبحة. تلك القيادة التي لم يكن قد تم التخلص منها بعد.
- ثالثاً: الوقع النفسي للهزائم العربية المتوالية، من 1948، إلى 1956. وعدم ظهور أي بصيص أمل في القوة العربية المحيطة.
- رابعاً: ربما كان الرجل يخشى من تعرضه لكشف ما قيل، عن صفقة السلاح، وسط جدل سياسي صاخب، يضطر المؤسسة الصهيونية لإسكاته. بل ربما لوح له أحد ما بهذا الأمر.
- خامساً: لم يكن إميل حبيبي قد حقق مجداً أدبياً، يحوطه بهالة من التعظيم الحامي، كما حدث بعد نشره للمتشائل. لذا فيمكن القول بأنه كان أضعف الأعضاء العرب موقفاً، في قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي) .

---

<sup>1</sup> - إميل هو الذي يعتبرها سيرة ذاتية. انظر كتابه: نحو عالم بلا أقطاب. ص 107

<sup>2</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 25

لكن عندما تغيرت الأحوال، على عديد من الأصعدة السابق ذكرها، أمكن لإميل أن ينطلق. فلقد جاء نشر الكتاب، بعد انشقاق مجموعة ميكونس وسنيه الشديدة الصهيونية، عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي. وأصبح إميل - حليف مئير قلنر - بالتالي، أكثر قوة داخل (ركاح) الذي غدا، على يديه، ممثلاً شبه وحيد للجماهير العربية، وبعد حدوث أول انتفاضة عربية في الدولة اليهودية - يوم الأرض الموافق 30 مارس 1976 - وبعد تحقق أول نصر عربي في أكتوبر 1973، وبعد الاستقبال الحافل الذي لقيته رواية المتشائل، في صفوف المقاومة الفلسطينية بالخارج.

إن إميل حبيبي، الذي كان مطعوناً في عرويته، لدى القيادة الفلسطينية السابقة، قد أصبح الآن ملء القلب والعين. وبعد أن كانت ذكرياته مع القيادة الفلسطينية السابقة تقض مضجعه، وتحوطه في عيون الفلسطينيين بهمس مكتوم يراه في عيونهم، فقد تغير الحال الآن، خصوصاً بعد اقترابه من القيادة الفلسطينية الجديدة، الأمر الذي أشعره بكثير من الأمان النفسي، في وجه كل ما يمكن أن يمس شخصيته، أو يبعث ماضيه المكبوت.

ولسوف نتمكن من إدراك أهمية كل هذه المشاعر، لدى إميل حبيبي، عندما نقارن أوضاعه، في تلك الفترة، بأوضاعه بعد ذلك، عندما اجتمع عليه الأمران: الخروج من الحزب، وتخلي القيادة الفلسطينية عنه بعد جائزة شامير: الأمران اللذان حاول التعويض عن أولهما بصدقاته اليهودية، وعن ثانيهما بالعودة إلى نفس الأحضان بعد أوصلو.

## 2-3: المعارك الفكرية والحزبية:

كانت المعارك الحزبية، في الدولة اليهودية، على أصوات الناخبين العرب، في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، على أشدها بين الأحزاب الثلاثة: (مبام)، و(مباي)، و(الحزب الشيوعي الإسرائيلي)، الذي يرفض تصنيف نفسه كحزب صهيوني،

رغم ممارسته لأهم فعاليات الحركة الصهيونية: الاستيطان والدفاع. إذ كان حزب مباي - الابن الشرعي للوكالة اليهودية، الذي يرأسه مؤسس الدولة الصهيونية، ورئيس حكومتها الأول ديفيد بن غوريون - يستغل وجوده في السلطة ليقوم بتجنيد الزعامات العشائرية، والمخاتير، لإقناع الناخبين العرب بالتصويت لصالحه، مقابل بعض المكاسب الشخصية الطفيفة. بينما كان مبام، بطبيعة ديباجته الماركسية، يعمد إلى منافسة الحزب الشيوعي، بالظهور بمظهر المدافع عن حقوق العرب المدنية، والمطالبة لهم بالمساواة؛ وينشئ المنابر الثقافية، التي تنادي بحقوق العرب، كمجلة (الفجر)، التي وجد فيها عدد غير قليل من الوطنيين القوميين، في تلك الفترة، متنافساً لهم، خصوصاً في مراحل الخلاف مع الشيوعيين<sup>(1)</sup>.

فلا جرم، والحالة هذه، أن كانت أغلب المعارك الحزبية، التي يخوضها الحزب الشيوعي الإسرائيلي، في الوسط العربي، تدور بينه وبين مبام بالدرجة الأولى، ثم تأتي معاركه مع مباي في المرتبة التي تليها. ومع ذلك فقد ظل المباي يحصد أصوات الأكثرية العربية، المنقادة وراء مخاتيرها وزعماء عشائرها. وهذا مقطع من مقالة إميل حبيبي، بعد انتخابات الكنيست الرابعة عام 1959:

"أنا من الانتخابات كالنازل من طائرة، لا تزال ضوضاؤها تطن في أذني كخلية نحل. فما حيلتي إذا رجعت بكم إليها؟. النتائج السلبية لهذه الانتخابات، هي من الضخامة، بحيث لا تخفى على أحد. ومع ذلك هناك نتائج إيجابية، تدعو إلى التفاؤل. فقد كتبت دافار<sup>(2)</sup>، كمن يستر عورته بكفه، إن المباي وقوائم العربية (فالمباي حيوان غريب يدب على ثلاث قوائم) قد نال بين العرب، هذه المرة، حوالي 55 بالمئة من أصواتهم. إنني أعتقد أن هذه النسبة مبالغ فيها. ومع ذلك فهي أقل نسبة نالها المباي وقوائم العربية،

<sup>1</sup> انظر: حبيب فهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 499

<sup>2</sup> - الجريدة الرسمية للمباي.

من الناخبين العرب، في كل تاريخه. ففي الماضي كان ينال حوالي 70 بالمئة من أصوات الناخبين العرب. يقيناً أن أكثر هذه الأصوات لم يذهب في الاتجاه الصحيح، بل ذهب إلى أحزاب صهيونية أخرى. ولكن المهم في الأمر أن انخفاض نسبة المباي وقوائمه العربية، بين العرب، حدث في وقت ارتفعت فيه نسبة المباي، ارتفاعاً كبيراً، في إسرائيل عموماً. إن هذا يثبت أن الجماهير العربية، بينما لم يقو أكثرها على انتخاب الحزب الوحيد - الحزب الشيوعي - الذي يدافع عن حقوقها القومية واليومية؛ إلا أنها قويت، ولأول مرة، على إرهاب المباي، ورفضت السير وراء أجراءاته العرب الخنوعين. إن انخفاض نسبة الحزب الشيوعي في الناصرة، في هذه الانتخابات، هو أمر يدعو إلى القلق حقاً. ولكن هل يعني هذا الانخفاض أن الناصرة خفضت هامتها للمباي وللحكم العسكري؟. ألف مرة لا. فلأول مرة في تاريخ الناصرة، في إسرائيل، لم ينل المباي وجميع قوائمه العربية، من أصوات الناصرة، أكثر من 37 بالمئة. إن المباي، صاحب الحكم العسكري وأجهزة الدولة، لم يستطع أن يقتنص سوى أقلية من أصوات الناصرة. إنني أنتظر إجراء تعديلات وتنقلات في جهاز المباي، والحكم العسكري، والـ(ش.ب)<sup>(1)</sup>، في الناصرة. وكلمة حول المباي، الذي وضعت عليه الحركة الصهيونية، مهمة تصفية الحزب الشيوعي بين اليهود والعرب. إنه يعلن أنه زاد عدد أصواته بين العرب، بينما مجموع أصواته في إسرائيل عموماً لم يتغير. وهذا بحد ذاته اعتراف بأن جماهيره اليهودية تنفض من حوله. إن شعار (تصفية الحزب الشيوعي)، الذي رفعه في هذه الانتخابات، لم ينفذه، بل إنه الطريق لتصفية نفسه. ومن سار على الدرب وصل<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - مختصر عبري مكون من حرفين يلفظ (شين بيئت) ويشير الحرفان إلى جهاز الأمن (شירות بيتحون) وأحياناً يرمز لنفس الجهاز بثلاثة أحرف: ش.ب.ك. وتلفظ (شباك) ومعلوم أن الكاف هي مختصر لكلمة (كللي) أي العام. أي (شירות بيتحون كللي). مع ملاحظة أن الألف وسط الكلمة (شباك) تلفظ ولا تكتب.

<sup>2</sup> - جهينة. مروج الذهب. الاتحاد. عدد يوم 1959/11/13

وما لم يذكره إميل حبيبي في هذه المقالة، عن سبب تراجع نسبة ما حصل عليه الشيوعيون من أصوات العرب، في الدولة اليهودية، أهم مما ذكره، وهو معروف، وأشرنا إليه في الفصل الأول، ويعود إلى طبيعة العلاقة بينه وبين الاتجاه القومي العربي، الممثل حينها في حركة الأرض.

إن الحزب الشيوعي لم يخسر حقيقةً، في هذه الانتخابات التي يتحسر على نتائجها القائد الحزبي إميل حبيبي، فلقد علمنا أن هذه هي نسبته الحقيقية السابقة على تحالفه مع حركة الأرض، في انتخابات الكنيست السابقة. ولئن كان قد حصل يومها على ستة مقاعد، فلقد كان ذلك بفضل تحالفه مع الحركة القومية، التي كانت شريكته في الجبهة الشعبية. أما وقد شن الحزب حربه على عبد الناصر - بعد خلافه مع عبد الكريم قاسم - وانفرط عقد التحالف مع حركة الأرض، فقد كان من الطبيعي أن توقع به الجماهير العربية هذا العقاب القاسي، ليتراجع عدد نوابه إلى ثلاثة، بدلاً من ستة. أي أن الحزب قد فقد، على يد القوميين، نصف ما عمل طوال عمره على جمعه<sup>(1)</sup>.

عندما هاجم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الشيوعيين - خلال خطابه في بور سعيد أواخر عام 1958- كانت الجبهة الشعبية، التي تجمع القوميين والشيوعيين في تحالف سياسي، مازالت قائمة. ونحن عندما نتذكر الآن أن عدداً من القوميين العرب، في الدولة اليهودية، كانوا يكتبون مقالاتهم، في مجلة (الفجر) التي أشرف حزب مبام على إصدارها في تلك الفترة؛ ثم نقرأ ما كتبه إميل حبيبي يومها، في لمز شركائه في الجبهة الشعبية، ثم تطرقه إلى التعليق على خطاب الرئيس عبد الناصر، ندرك أن رحلة الانقسام في الجبهة قد بدأت مسيرتها، منذ تلك اللحظة. وهذه مقاطع من مقالته في الاتحاد:

---

<sup>1</sup> - انظر: جبريل محمد وآخرين. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 54

"لقد زغردت قلوبنا لكل انتصار حققته حركة التحرر القومي العربية. ووجفت قلوبنا أمام كل عدوان وقع عليها، أو نكبة أصابتها. وهذه الحقيقة هي التي تثير ثائرة الكابيلوكيين في بلادنا. لو كان الأمر بأيديهم، لحولوا جميع أبناء شعبنا إلى موميאות، كصبيان المبام العرب، يتغنون بمدائح الحركة الصهيونية (التحررية)، التي تتبنى (الاشتراكية)، على أراضي كفر برعم. زغردت قلوبنا حين أمم جمال عبد الناصر شركة قنال السويس، فأدخل حركة التحرر القومي العربية في مرحلة الصراع المباشر، ضد المستعمرين وامتيازاتهم... ولذلك وجفت قلوبنا حين رأينا المستعمرين، وصحفهم ومبعوثيهم، يعاودون محاولتهم القديمة الفاشلة، لإثارة الخلاف بين الدول العربية المتحررة، ولعزل الجمهورية العربية المتحدة عن العراق... لذلك وجفت قلوبنا حين لم يؤكد جمال عبد الناصر (في خطابه في بورسعيد) وأمام مؤتمرات التفرقة الاستعمارية (كما أكد قبل سنة، حين تهدد الخطر سوريا) على قضية التضامن مع عراق الثورة، بل استعاض عن ذلك بالتلويح بالبيع الشيوعي... فما أسخف الذين يريدون أن يفسروا اهتمام شعبنا، هنا، بحملة عبد الناصر على الشيوعيين، أنه (ذهول) وبلبل، أو أن حملة عبد الناصر ستشقى صفوف شعبنا هنا!... وأما عن (ذهول) الشيوعيين العرب في إسرائيل، فلا يكتشفه سوى (خبير) مثل كابلوك المبامي، الذي أمضى سنة 1958 في (اكتشاف) انقسامات مزعومة في الحزب الشيوعي الإسرائيلي. لم نذهل حين منع عبد الناصر الحزب الشيوعي، في مصر، ثم في سوريا. فموقف حركة عبد الناصر، من حزب الطبقة العاملة في بلاده، لم يبدأ من خطابه في بورسعيد؛ إنما بدأ منذ قيام هذه الحركة. إن حزينا الشيوعي الإسرائيلي، كما صرح بذلك رفيقنا توفيق طوبي: (قد أيد، ولا يزال يؤيد، سياسة الاستقلال القومي، التي تنتهجها حكومة الجمهورية العربية المتحدة، برياسة جمال عبد الناصر، مع علمنا التام بأنها حكومة برجوازية، لا تميل إلى الشيوعية، وتعمل وفق مصالح البرجوازية الطبقة)"<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. لقد نجح شعبنا في إصابة حكومة بن غوريون بالخل. الاتحاد. عدد يوم 1958/12/30

لقد كان هذا هو الإسفين الأول، الذي يدق في تحالف الجبهة الشعبية، وهو الذي أدى بعد ذلك إلى الحملات المتبادلة، بين القوميين والشيوعيين، وانتهى من ثم بانهيار الجبهة، وعودة كل اتجاه إلى مواقعه، على ما فصلناه في الفصل الأول.

وعلى العموم، فسوف تتصاعد معركة إميل حبيبي مع القوميين، بعد ذلك، وتمتد إلى أواخر حياته. فهو لن ينسى لهم أن أول من بدأ بالتلميح، حول علاقاته مع الهاجاناة، كان أحد قادة الفكر البارزين لديهم، وأحد أهم شعراء الحداثة العرب، في فلسطين: راشد حسين<sup>(1)</sup>، الذي يطبع بطابعه الحركة الشعرية الفلسطينية، في الأرض المحتلة، ويلهم الشاب الناهض آنذاك محمود درويش، ما يعتبره بسببه أباه الشعري.

ومن الملاحظ أن هذه المعركة، التي شنّها إميل حبيبي على القوميين، قد تطورت بعد ذلك إلى حرب، على فكرة العروبة ذاتها، وعلى الرئيس جمال عبد الناصر - رمزاً وشخصاً - طوال العمر؛ إلى درجة أن صارت العروبة، في منطق، وباءً وبيلاً، ينبغي الانشغال بالكفاح ضده، أكثر من (الكفاح السابق) ضد الصهيونية، التي سيأتي عليه وقت، ينفي فيه عنها تهمة العنصرية، حتى قبل أن تتمكن أمريكا، من إجبار الجمعية العامة للأمم المتحدة، على لحس قرارها السابق، الذي قضى يوماً علي الصهيونية بأنها حركة عنصرية. لكن الوقت، الذي سوف يتم فيه تبرئة العروبة من تهمة الشوفينية، لن يأتي عند إميل حبيبي أبداً. بل إنه سوف يستدرك على كل كفاحه السابق، ضد الصهيونية، باستدراك تفسيري، يبين أن ذلك الكفاح لم يكن، يوماً، ضد الصهيونية كعقيدة وأيديولوجيا، بل ضد ما يمكن أن يلحق بها من تشوهات لا تشكل صلب فكرتها. أي أن كفاحه كان

---

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 3 هذا وقد مات راشد حسين شاباً في السبعينيات من القرن العشرين.



ضد (العنصرية الصهيونية) فحسب<sup>(1)</sup>. أما العروبة، فلا بواقي لها، ولا استدراقات تفسيرية؛ بل عمومٌ يستحق تأبّد الانشغال بالكفاح ضدها!.

### 3- المرحلة الثالثة: بعد هزيمة يونيو 1967:

على الرغم من أن الصدمة الكبرى بهزيمة يونيو 1967، قد أصابت جميع الشعوب العربية، بلا استثناء؛ إلا أن تأثيرها على الشعب الفلسطيني، كان أكبر من كل التقديرات. ومع ذلك، فقد كان تأثيرها على الفلسطينيين، في الدولة اليهودية، مضاعفاً، خصوصاً بعد تأكدهم من أن التحرير لم يعد في المتناول، في المدى المنظور على الأقل.

ولمتخيل أن يتصور شكل الفرد الفلسطيني، وهو يرى الجنود الإسرائيليين يهزجون في الشوارع، فرحاً بنصر لم يكونوا يأملونه قبل أيام، ثم يوجهون نظرات الشماتة باتجاه هؤلاء (المواطنين العرب) الذين كانوا إلى الأمس فرحين باقترب انهيار الدولة اليهودية، ويعدونهم بمعاملة أفضل مما لقوه على أيديهم، قبل تسعة عشر عاماً!.

وإذا كان لكل مصيبة وجه آخر، فإن احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة - وهما المنطقتان المتبقيتان من فلسطين - كان ذلك الوجه الآخر، الذي حمل في عمق مأساته بعضاً من السلوى. فلطالما نُظر إليهم باعتبارهم مواطنين إسرائيليين، تتصارع الأحزاب الإسرائيلية على أصواتهم، في مواسم الانتخابات، ثم يُسامون الخسف باقي أيام السنة، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين الإسرائيليين، إلى أن هناك عنصراً مكتسباً في شخصياتهم، بدأ يتبلور باتجاه تقبّل الهوية الإسرائيلية، بعد سنوات من المواطنة المنقوصة. أما الآن، فقد وجدوا أنفسهم - من حيث لم يتوقعوا - وقد استعادوا صلتهم بأهلهم في الضفة والقطاع، بعد تسعة عشر عاماً من الانقطاع؛ الأمر الذي قلب حسابات هؤلاء

<sup>1</sup> - انظر كتابي فيصل دراج: (ذاكرة المغلوبين) و(بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية). ص 85، و ص 114

المؤرخين اليهود، وجعلهم يقررون - متعجبين - أن هذه المصيبة، التي حلت بالمواطنين العرب في الدولة اليهودية، قد أحدثت "تأثيرات مهمة فيهم: فاستعادة صلتهم بشعبهم الفلسطيني هناك، ووجهت ضربة قاصمة للعنصر الإسرائيلي، المكتسب في هويتهم" وعززت من وعيهم وانتمائهم العربيين. يقول يحيى الدباغ، العامل الاجتماعي من بلدة دير الأسد:

"كنا نعيش وضعاً من الإحساس بالعزلة والفراغ. لم نكن مندمجين في المجتمع الإسرائيلي. وكنا معزولين عن أشقائنا المشتتين في أنحاء العالم العربي... لقد صمدنا خلال تلك الفترة الصعبة والمحبطة. لكننا بينما كنا مستلبين في المجتمع الإسرائيلي، كانت هناك أيضاً درجة من التعاون والاندماج. بلغني أن عالم اجتماع إسرائيلياً كتب مرة يقول: إن لكل عربي في إسرائيل روحين، واحدة قادرة على التكيف وأخرى ثائرة. ماذا أستطيع أن أقول لك، سوى أن هذا صحيح!. وبعد حرب 1967 اجتاحتنا إحساس بالحرية. فجأة جرى لقاء جديد مع شعبنا، مع الفلسطينيين في المناطق المحتلة. لقد حسدناهم؛ فقد نمت في وسطهم نخبة مثقفة ومسيسة ذات صفات قيادية مثيرة للإعجاب. لكن كنا نحن أيضاً فخورين بأنفسنا: بالإبداع الثقافي الذي نشأ بين العرب الذين يعيشون في إسرائيل، بمتقينا وشعرائنا وفنانينا، وفرادة التعبير عن هويتنا القومية الفلسطينية، وهي فرادة وليدة وجودنا الفريد تحديداً، كعرب في إسرائيل"<sup>(1)</sup>.

لكن الشعور قد لا يتطابق دائماً مع ما يقال، خصوصاً على صعيد الخطاب السياسي، لعضو برلمان يمثل أقلية، في دولة معادية لقوميته، كإسرائيل. ولقد كان إميل حبيبي مدركاً ذلك، ويفكر في الطريقة التي سوف يصوغ بها خطابه السياسي في هذه المرحلة الجديدة.

---

<sup>1</sup> -رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 2. ص 139

تطرقنا في الفصل الأول، إلى عدد من التفاصيل الخاصة بمواقف إميل المعلنة، من عمليات الفدائيين الفلسطينيين، التي كانت تجري ضد الدولة اليهودية قبل حرب 1967، حيث نعلم أنه واضب على شجبها، دفاعاً عن الدولة. لكن ما نود التذكير به هنا هو موقف إميل من طرفي الحرب: العرب والدولة اليهودية؛ وموقفه من نتائجها.

لقد شجب الحزب الشيوعي الإسرائيلي إغلاق مصر لمضائق تيران؛ معتبراً ذلك انتقاصاً من (حق) إسرائيل في الملاحة الحرة، مع علمه بأن هذا (الحق) كان قد انتزع من مصر بالقوة، خلال العدوان الثلاثي عام 1956. لكنه، مع هذا الشجب، عارض استخدام إسرائيل للقوة العسكرية، لتأمين هذا (الحق)، معتبراً أن خطوة مصر هذه ضارة، ومنحت الإمبرياليين وحكام إسرائيل الذريعة لشن الحرب<sup>(1)</sup>.

هذا الموقف الواضح من الحزب، في توزيع اللوم على الطرفين بالتساوي، وجد له لدى الكوادر العربية صدى أكثر قسوة على العرب، تمثل في تصريح إميل توما مثلاً، بأن سبب الحرب هو سياسة قيادات الحركة القومية العربية، التي منحت إسرائيل الذريعة للعدوان، وخاصة دعوتهم إلى إلقاء اليهود في البحر<sup>(2)</sup>.

وما كان لإميل حبيبي أن يكون أكثر إخلاصاً من رفيقه، خصوصاً وهو قائد المسيرة في القبول بقرارات الأمم المتحدة. ولئن كان قرار مجلس الأمن وقتها - في صيغته التي فهمها العرب<sup>(3)</sup> - قد دعا إلى الانسحاب من الأراضي، التي احتلت جراء هذه الحرب، فلقد تبنى الحزب هذا القرار، متوافقاً مع موسكو. وقال إميل حبيبي، في كلمته في المؤتمر السادس عشر للحزب:

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 111

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 111

<sup>3</sup> - قرار رقم 242. والمقصود أن الإسرائيليين قد فهموا من النص في صيغته الإنجليزية، أنه يدعو إلى الانسحاب من أراض احتلت عام 1967.

"أيها الرفاق: تضمن تقرير اللجنة المركزية، إلى مؤتمرنا، الذي قدمه الرفيق مئير قلنر، حقائق تثبت أن حكام بلادنا فوتوا، في الماضي، فرصاً أتاحت تسوية سلمية عادلة مع الأقطار العربية. والآن، أيضاً، بعد حرب حزيران، يوجد خطر مماثل. لقد هزت حرب حزيران الشعوب العربية، من الأعماق. وأوصلتهم - بين ما أوصلتهم إليه - إلى شجب المخططات والتصريحات الحربية والشوفينية والادعائية، حول (تحرير فلسطين)، و(القضاء على كيان دولة إسرائيل)<sup>(1)</sup>، شجباً تاماً. وأدار الشعب العربي الفلسطيني ظهره للقادة الذين تاجروا بمصيره: الشقيري<sup>(2)</sup> والشقيريين؛ وألقوا بهم في سلة مهملات التاريخ. وجماهير الشعب في المناطق المحتلة، أبدت رغبة صادقة في إقامة العلاقات مع إسرائيل، على قاعدة جديدة... لا طريق نحو وضع حد لسفك دماء الأبرياء اليهود والعرب، سوى الانسحاب من المناطق المحتلة... وبالإضافة إلى ذلك فإننا نقول لإخوتنا أبناء الشعب الفلسطيني: لا تسمحوا لأنفسكم بالانجرار، مرة أخرى، وراء مغامرين شوفينيين، ساعدوا في الماضي - ويساعدون اليوم - المستعمرين، وأذئابهم في إسرائيل، على دوس حقوقكم العادلة"<sup>(3)</sup>.

وهكذا أصبحت لإميل حبيبي مهمتان فلسطينيتان: أولاهما تتعلق بفلسطيني الدولة اليهودية، والأخرى بفلسطيني المناطق المحتلة، في الضفة الغربية وقطاع غزة. حيث يعتبر إتمام المهمة الأولى قيد التحقق، بتسهيل دمجه في المجتمع اليهودي دمجاً كاملاً، في حين أن إتمام المهمة الثانية، لا يزال يقتضي جهداً سياسياً، هدفه إقناع الحكومة الإسرائيلية بضرورة سحب قواتها، من المناطق التي احتلتها، في العدوان الأخير، بعد أن تم التأكد من أن فلسطيني تلك المناطق قد فهموا الدرس، بما لن يسمح لهم بالعودة إلى

1. الأوقاس كما هي في نص إميل الأصلي.

2. أحمد الشقيري، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية.

3. كتاب المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 235 - 236 ... 237 ... 238

الانقياد لزعماء، من أمثال عبد الناصر، والشقيري، و(المنظمة التي تسمى فتح) وتقوم بأعمال تستحق الشجب<sup>(1)</sup>.

لم يؤمن إميل حبيبي، مرة واحدة، بجدوى أي كفاح مسلح، يقوم به العرب ضد منتهكي إنسانيتهم، بغض النظر عن الزمن. ورغم كل ذلك، فقد رأينا كيف حملت هذه (العقيدة) نقيضها في داخلها، وعبرت عنه عند تغير الموقع. فنحن نرى هذا (السلامي العربي) معجباً بالقوة، والكفاح المسلح، عندما يكون المقصود كفاح اليهود، بل إنه ليذهب في مديح (كفاحهم المسلح)، إلى درجة اعتباره بطولة واعتبار الصهاينة أبطالاً "سفكوا دماءهم دفاعاً عن الوطن"<sup>(2)</sup>، لكأن هذا الوطن الفلسطيني لا يرحب بالمضحين من أجله إلا إذا كانوا يهوداً!. يقول في حوار مع مجلة عبرية ما يلي:

"كنت أقول بأن شعب إسرائيل - وبحق - يقول بأنه لا يملك وطناً غير هذا. وكلنا يعترف بما حدث للشعب اليهودي في كافة الأماكن في العالم. ولكني أقول بأن هناك شعباً آخر كذلك، لا مكان له سوى فلسطين، هو الشعب الفلسطيني. من الممكن أن تكون هذه الهجرة هي خطيئته. أنا أتحدث عن شعبي... لا تطلب مني الحديث عن الشعب اليهودي. إنه شعب بطل. لكن دعني أتحدث عن شعبي"<sup>(3)</sup>.

فها نحن نرى الوسيط، القرير العين، ينظر إلى مسألة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي نظرة محايدة، مبرأة من الانحياز القومي، بدليل أنه يعترف ببطولات العدو على أرض بني قومه، ولا مانع مع ذلك من توجيه بعض اللوم لمن هاجر من قومه، فقد كان بإمكانهم أن

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرز. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 108

<sup>2</sup> - من كلمة إميل حبيبي في المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاج). انظر: جورج كرز. جورج كرز. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 31

<sup>3</sup> - إميل حبيبي. مقتطفات من الحوار الذي أجراه معه الصحفي الإسرائيلي: يعقوب أجمان. بعنوان: لقاءات. للمجلة العبرية (عينيم بنكوماه فيشوعل). عدد شهر يوليو 1997. ص 677

يوافقوا على التقسيم، أو أن يعودوا متسللين، أو حتى بطرق أخرى!. فالمهم هو أن يظلوا. إنها ليست الأيديولوجيا كوعي زائف فحسب؛ بل إنه لتهوّد جزءٍ من الضمير، حقاً، كما يقول الدكتور صلاح فضل<sup>(1)</sup>.

إن هذه العبارة، في الحوار السابق (كنت أقول) لا تحيل، في أصلها العبري، إلى زمن محدد، رغم أنها قيلت في العام 1997: فصيغتها العبرية (هيتي أومير) تعني التعالى على الزمن. ورغم ترجمتنا لها بطريقة حرفية، إلا أن معناها العام هو: (كنت ولا زلت). فهي صيغة لازمنية، تحيل إلى دوام الأمر، وامتداد المقول على طول الحياة. وهي على هذا لست صالحة للرجوع إليها، في سياق البحث عن الماضي فحسب، بل في سياق الحاضر والمستقبل كذلك.

إذن فإميل حبيبي كان يقول، منذ المراحل الأولى للصراع مع اليهود، ولا يزال يقول إلى الآن، بأنهم شعب بطل، كما أنهم شعب ضحية، كما يقول منطوق العبارة السابقة. والباحث لا يعترض على اعتبار اليهود ضحايا للنازية، لأنهم كذلك بالفعل. ولكنه يحاول مناقشة آليات تحقق هذا القول، في واقع إميل حبيبي.

- فاليهود ضحايا. وهو ينهى دوماً عن لوم الضحايا.
- والشعب الفلسطيني ضحية. ولكنه يوجه له اللوم.
- واليهود أبطال.

والنتيجة معروفة سلفاً، لما هو مركز في النفوس من الإعجاب بالبطولة، والدينونة لها. الأمر الذي يحينا، مرة أخرى، إلى تفسير دوافع مقولته المشهورة "لا تلوموا

---

<sup>1</sup>. انظر: على حد السيف. مشارف. عدد 9. ص 97

الضحية"<sup>(1)</sup>، في سياق الإعجاب بالبطولة اليهودية، في مواجهة النازي، وفي تحقيقها الوطن الذي يمنع تكرار الكارثة. ويا ليت هذا الوطن لم يكن فلسطين، فلربما كنا عندئذ أكثر تفهماً لدوافع إميل حبيبي وعواطفه!. يقول جيل دولوز، شارحاً مفهوم هيوم<sup>(2)</sup> للعلاقة بين السياسة والأخلاق، ما يلي:

"إن العالم الأخلاقي هو الجملة التي تتكامل وتتجمع فيها الأهداف الخاصة. أو هو منظومة الوسائل التي تتيح لمصلحتي الخاصة - مثل مصلحة الغير - أن تشفي غليلها وتتحقق... إن الوعي الأخلاقي ووعي سياسي. الأخلاق الحقيقية هي السياسة، مثلما الأخلاقي الحقيقي هو المشرّع. أو: الوعي الأخلاقي هو تحديد للوعي السيكلوجي: هو الوعي السيكلوجي المدرك حصراً بمظهر قدرته الإبداعية"<sup>(3)</sup>.

لقد أصبح الاحتلال الصهيوني، للجزء الأكبر من فلسطين عام 1948، واقعاً مألوفاً لدى إميل حبيبي، وليس بالمستطاع تغييره؛ بل يمكن القول بأنه قد كَوّن عنه تصوراً واضحاً من قبل أن يحدث، كما رأينا ذلك في أسلوب تعامله معه، في الفصل السابق. ولقد أصبح هذا التصور، مع طول الزمن، واقعاً مقبولاً، لا يستطيع المغامرة بالتفكير في احتمال زواله. ومن هنا، فقد تبلورت ماهوية إميل حبيبي، السياسية والفكرية، في ضرورة دفع بني قومه للقبول بما قبل به، كشرط أولي قبل البدء بأي حوار. وكل من رفض تعليق هذه الأيقونة الحبيبية على صدره، كان لابد من اعتباره قومياً متطرفاً، أو مدسوساً عميلاً، يبتغي الإضرار بشعبه والقضاء عليه. وقد فسر ذلك فيما بعد بقوله:

---

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. كع بن كع. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 505

<sup>2</sup> - "ديفيد هيوم (1711-1776) فيلسوف بريطاني من المدرسة التجريبية، آمن بأن الفلسفة هي علم دراسة الطبيعة البشرية".

<sup>3</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 44 - 45

"أما في القضايا الأساسية، فلا أعتقد أنني ربحت حقد الحاقدين المذهل، إلا على إصراري - منذ اليوم الأول، وما دمت حياً - على تجنب شعبي ألغام التطرف، وبقيّة الألغام الاستفزازية الأخرى، التي وضعها في طريقه متطرفون قوميون صادقون، أو مدسوسون مثلثمون بأقنعة التطرف القومي"<sup>(1)</sup>.

#### 4. المرحلة الرابعة: بعد عام 1973:

لقد اخترنا هذا التاريخ، لما يحمله هذا العام من تأثيرات متعددة، على وقائع الأحداث، ومن ثم على فكر إميل حبيبي. ففي هذا العام حقق العرب، كأمة، أول نصر عسكري يُعتد به، منذ زمن بعيد. وفي ديسمبر، من نفس هذا العام، بعد شهرين تقريباً - والأمور ليست منفصلة عن بعضها - حدث تحول سياسي تاريخي، في مؤتمر القمة العربي السادس، المنعقد بالجزائر؛ تمثل في اعتراف النظام العربي الرسمي، بمنظمة التحرير الفلسطينية، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني. وقبل ذلك بعام واحد، أُقيل إميل حبيبي من الكنيست، واقترب حزبه من الاعتراف بالمنظمة، كحركة تحرر وطني. وكل هذا قد تناولناه في الفصل الأول، بما يغني عن إعادته هنا.

ينقل رضى سلمان عن المؤرخ الإسرائيلي إيلي ريخس قوله:

"إن النهوض العربي بعد حرب 1973، وصعود م. ت. ف في الساحتين العربية والدولية، أثرا تأثيراً عميقاً في عرب 1948، لا بفعل روابطهم بباقي الشعب الفلسطيني، في المناطق المحتلة وفي الشتات فحسب، بل أيضاً بفعل ارتباطهم التاريخي العربي العميق، الذي يحول دون حصر عالمهم السياسي ضمن حدود إسرائيل، ويجعلهم معرضين دائماً للتأثر بالتطورات في العالم العربي. وهكذا نشأ مسار ثنائي الاتجاه: ازدادت صلة

---

<sup>1</sup>. نحو عالم بلا أفاص. ص 121



عرب 1948 بـ م. ت. فكإطار تمثيلي للفلسطينيين، واتجهت م. ت. ف نحو اهتمام أكبر بهم لربطهم بالنضال الوطني الفلسطيني العام<sup>(1)</sup>.

إن حقيقة معارضة إميل حبيبي لمنظمة التحرير، حتى بدايات هذه المرحلة، كان مرجعها إلى قيام المنظمة بعمليات عسكرية، ضد الدولة اليهودية. وإذ بدأت المنظمة تتحو باتجاه التفاوض مع إسرائيل، فقد بدأ إميل حبيبي يشعر بأنه يستطيع وحزبه أن يستفيدا من ذلك بالتقرب منها، والظهور أمام المجتمع العربي في الدولة اليهودية - الذي بدأ يتراجع تأييده للحزب الذي دعم قيام إسرائيل - بمظهر الممثل للمنظمة لديهم، بشكل أو آخر. فإميل حبيبي، كأبي سياسي براغماتي، لا تتفصه حاسة الشم. وقد رأيناه، في الفصل الأول، قادراً بفطرته على التنبؤ باتجاه الريح، والتوجه نحو مسارها..

هكذا حدث له مع المنظمة. وهكذا حدث له مع حرب أكتوبر المجيدة، فبعد أن رأت المجموعات المعارضة اليهودية بأنها (زلزال)، تبنى تعبيرها هذا، وصار أثيراً لديه، مع انزياح كان لا بد له من الحدوث، وفق أيقونة إميل حبيبي السلامية: فالمعارضون اليهود كانوا، كما هو معروف، من كبار جنرالات الجيش<sup>(2)</sup>، الذين بدا لهم، منذ الآن، أن جيشهم من الممكن له أن يُقهر، وأن إسرائيل ليست حقيقة جغرافية، بمقدار ما هي إرادة فعل القوة، التي باتت الآن في الميزان. وقد علمنا جميعنا في تلك الفترة، بهذه الحركة، ومصطلحها الذي أطلقته على حرب أكتوبر: (الزلزال).

وقبل الحرب بشهور، انبرى إميل حبيبي للدفاع عن الاتحاد السوفيتي، في وجه الشائعات، التي قالت حينها أنه يرفض تزويد العرب بأسلحة حديثة، لمواجهة إسرائيل. وإن ما يدعوننا إلى التطرق إلى هذه الحادثة، هو ما لاحظته من قدرة إميل على أن يكون محباً

<sup>1</sup> -رضى سلمان. المنسيون. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد2. ص141

<sup>2</sup> - كان على رأسهم رئيس الأركان السابق (بجال يادين). وقد ألف كتاباً حول الموضوع سماه (الزلزال).

للحرب، عندما يوافق ذلك مصالحه (الأممية)، ولا يتعارض مع أيديولوجيته القاضية بالدفاع عن بقاء إسرائيل، في حدود عام 1948، "وليس إسرائيل الكبرى"<sup>(1)</sup> خارج المناطق المحتلة عام 1967. قال:

"ما من شعب، في عصرنا، تصدى للعدوان على أراضيه وعلى حريته، إلا ويعرف قيمة السلاح السوفيتي، ويعرف أن الدعم السوفيتي هو أمر مقرر. ولا يتشدد على قيمة الدعم السوفيتي للشعوب إلا رجلاً: رجعي وعدو وقح للشعوب، أو شخص بعيد عن المعارك يتشاطر من وراء مقعد رئيس تحرير. أما الإمبرياليون، فمهما يبلغوا من القوة والغطرسة، فإنهم ينظرون بكل جدية إلى دعم الاتحاد السوفيتي لقضايا الشعوب"<sup>(2)</sup>.

ومع انطلاق حملة الدعاية الانتخابية، لأول دورة كنيست في إسرائيل، بعد معركة أكتوبر، رأينا إميل حبيبي يستخدم مصطلح (الزلازل)، فينشئ مقالة بعنوان: "الانتخابات الأولى بعد الزلزال الأول، ومكان الجماهير العربية في خارطة السلام"، مقررًا أن هذا الزلزال قد "أزال غشاوة الغطرسة القومية والعسكرية عن عيون الكثيرين حتى بدأوا يرون إسرائيل في حجمها الطبيعي"، وأن على المتنفذين الإسرائيليين أن يحذروا من "الزلازل القادمة، التي ليست بالضرورة حروباً؛ بل هي حتمية اكتشاف "شعب إسرائيل"، ضرورة اتباع سياسة الحزب الشيوعي: "الحزب الوحيد، الذي يجد الشعب في سياسته مخرج السلام العادل، الذي يرضي الأماني القومية المشروعة، لشعب إسرائيل، وللشعب العربي الفلسطيني على السواء"<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. كتاب المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 237

<sup>2</sup> - كلمة الاتحاد. عدد يوم 1973/3/20

<sup>3</sup> - انظر: إميل حبيبي. الانتخابات الأولى بعد الزلزال. الاتحاد. عدد يوم 1973/12/14

إذن فإميل حبيبي، بعد الزلزال، متفائل لإسرائيل وللفلسطينيين، بزوال الغمة، وبقاء إسرائيل على أرض عام 1948، وانبعاث حق الفلسطينيين، في تقرير مصيرهم، على أراضي الضفة والقطاع، كمكان طبيعي لهم، يقيمون دولتهم عليه. أما دور (الجماهير العربية في إسرائيل)، الموكل بها في الانتخابات القادمة، فهو أن تتوط "آمالها دائماً، بأنه سيأتي يوم ويتحقق فيه السلام العادل والثابت". ويومها فقط، سوف يتم اعتبارهم مواطنين، كاملي المواطنة، في الدولة اليهودية<sup>(1)</sup>.

وفي العدد الذي يليه من الاتحاد، شدد إميل حبيبي من هجمته على الائتلاف الحاكم في إسرائيل، وعلى قوائمه العربية، التي ما زالت مرتبطة به. وعاد إلى تعبير الحكومة بزلزال أكتوبر، وتعبير المرشحين العرب، على قوائمها، بأنهم "أزلام السلطة الاضطهادية" الذين بمذلتهم "التي لا قعر لها، أوهموا حكام إسرائيل، بأن الشعوب العربية، هي مثل هؤلاء الأزلام، لا تفهم سوى لغة القوة". ثم عيّرهم بنشرهم دعايتهم الانتخابية، "في ورقة الأنباء"<sup>(2)</sup> الحكومية، كأن الدنيا هي الدنيا، وكأن الزلزال لم يقع!". ثم عرج بالهجوم، في نهاية المقال، على القائمة الاشتراكية الثورية، التابعة لحركة (ماتسبين)<sup>(3)</sup>، لأنها قررت خوض الانتخابات، ومنافسة الحزب الشيوعي، على جمهوره من العرب المقهورين، وبقايا الماركسيين اليهود. ولم ينس أن يتهمها بالرجعية<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي، الانتخابات الأولى بعد الزلزال. الاتحاد. عدد يوم 1973/12/14

<sup>2</sup> - الأنباء: صحيفة أسبوعية، باللغة العربية، كانت الحكومة تصدرها في تلك الفترة. ثم توقفت بعد ذلك.

<sup>3</sup> - ماتسبين: كلمة عبرية بمعنى البوصلة. وهي حركة ثورية تروتسكية، تضم عرباً ويهوداً، ينطلقون من مفهوم خاص لحل المسألتين اليهودية والفلسطينية، يقول بإزالة أنظمة الحكم في كل من إسرائيل والدول العربية المجاورة، وإقامة شرق أوسط اشتراكي، تزول فيه كل المشاكل العرقية. وقد ألقى القبض على خلايا من هذا الحركة، وأودعوا السجن، بتهمة التعاون مع نظام الرئيس السوري صلاح جديد. ولم تتمكن الحركة من الوصول إلى الكنيست.

<sup>4</sup> - انظر: جهينة. لو كان العيب يعرف أنه عيب. الاتحاد. عدد يوم 1973/12/21

"إن المعنى الحقيقي للفهم - بحسب هيوم - هو بالضبط: جعل انفعال أنيساً، وجعله مصلحة اجتماعية. إن الفهم يعكس المصلحة"<sup>(1)</sup>. ولقد فشل إميل حبيبي، فعلاً، في رؤية أي جانب إيجابي، في كل الطروحات السياسية المختلفة مع رؤيته الفكرية، لطبيعة الصراع بين الفلسطينيين واليهود، على أرض فلسطين بشقيها - داخل الدولة وفي الضفة والقطاع - وهاجم كل المختلفين، معه واتهمهم بأقصى التهم. ولئن كان هجومه على القوائم العربية، المرتبطة بالأحزاب الصهيونية، مفهوماً، على المستوى الوطني؛ فإن هجومه على حركة ماتسبين لا يمكن فهمه، دون إرجاعه إلى المصلحة الحزبية، التي ليست منفصلة عن المصلحة الشخصية.

ومع كل هذا الترحيب بالسلح السوقي، ويزلزال أكتوبر، ومع كل هذا الهجوم على غطرسة القوة، لدى (السلطة الاضطهادية)، ثم مع اعترافه في تاريخ قريب، بأن الدعاية الصهيونية قد دأبت "زهاء ربع قرن، على إخفاء قضية الشعب العربي الفلسطيني، المشرد عن وطنه قهراً، عن الرأي العام العالمي"<sup>(2)</sup>، فسوف يظل إميل حبيبي شاجباً أبدياً<sup>(3)</sup>، لكل محاولة من الشعب الفلسطيني - الذي يبشره بقرب تحقق مصيره على أرض الضفة والقطاع - للقيام بعمليات حربية، ضد معتصب هذه الحقوق، وفي مواجهة هذه الغطرسة!. وكان ذلك القسم من الفلسطينيين، قادر على الوصول إلى الكنيست، وحيازة أغلبية برلمانية بها، تتيح له فرض رؤية سلامية، على الجنرالات الصهاينة!.

إن تفهم إميل حبيبي للعالم الذي يعيش فيه، لم يأت معزولاً عن موقعه التاريخي، داخل ثقافة المجتمع اليهودي، الذي تفهم دوافعه حيناً، وبررها حيناً آخر. فلقد تعايش مع المستوطنين اليهود مبكراً، داخل الحزب، وفي مصفاة حيفا، التي عمل بها في سنوات

<sup>1</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 7 - 8

<sup>2</sup> - كلمة الاتحاد. عدد يوم 16/3/1973

<sup>3</sup> - سوف يشجب بعد ذلك العمليات الحربية الفلسطينية، في الضفة والقطاع، إبان الانتفاضة.

شبابه الأولى. ولم يعتبر اليهود شراً مطلقاً، بل كانوا في نظره ناساً من الناس، منهم الطبيب، ومنهم الشرير. ورغم احترامنا لهذه النزعة الإنسانية، لدى الكاتب المثقف وعضو الكنيسة، إلا أنه يظن بأنها حالت بينه وبين رؤية العدو الحقيقي، القابع بداخلهم، من يوم أن ركبوا السفن من بلاد بعيدة، لينزلوا على شواطئ فلسطين، وهم يعلمون أن بها شعباً، مهمتهم إبادته، أو طرده، ليقبوا على أنقاض دولتهم. "ذلك أن على الناقد أن يدرك، إدراكاً كاملاً، ويتحمل مسؤولية، ضروب الماضي التي لم تجد طريقها إلى التعبير، أو التمثيل، والتي تتعقب الحاضر التاريخي"<sup>(1)</sup>.

لقد عايش الباحث الكثيرين من هؤلاء اليهود (الإنسانيين)، في السجون؛ بل إن بعضهم كان من المقذال - الحزب الديني الصهيوني المتطرف، الذي يدعو إلى طرد السكان العرب من إسرائيل - ولكن ذلك لم يمنعه من ممارسة بعض العلاقات (الإنسانية) مع المعتقلين، وتقديم بعض التسهيلات لهم، هنا أو هناك. ورغم ذلك فإن مثل هذا التصرف من هؤلاء الجنود لم يعش عيون المناضلين، لحظة من نهار، عن حقيقة أنهم في نهاية المطاف سجانون، وأنهم قبل ذلك أعداء الكينونة. فالمناضل لا يتوخى شفقة مشفق، أو رحمة مستنق؛ لأنه لا يريد إلا حقه. وحقه فحسب - يا لله! هل هذا كثير! - والسؤال هو: ماذا سيكون رد هؤلاء اليهود (الإنسانيين)، فيما لو قلنا لهم: شكراً لشفتكم. ولكننا نريد أن تعودوا من حيث أتيتم، وتخلوا لنا بيوتنا. ثم بعد ذلك، فقط، بإمكاننا أن نتحول إلى أصدقاء!.

لقد قرأنا قصة (صمت البحر) الفرنسية، التي تتناول حياة أسرة فرنسية، أُجبرت على إيواء ضابط نازي، في سنوات الاحتلال الأولى لفرنسا، قبل أن تنتشط المقاومة السرية للاحتلال. ولقد رأينا كيف بدأت هذه الأسرة ترى - رويداً رويداً - في الضابط النازي،

---

<sup>1</sup> - هومي ك. بابا. موقع الثقافة. ص 60

إنسانية من نوع ما، وبدأت تتعايش معه، من خلال صمت الكبرياء الذي فرضه أفرادها على أنفسهم في مواجهة كل محاولاته للتقرب منهم. ثم بعد فترة من هذا التعايش الصامت بدأت الأسرة ترى، أن بإمكان جندي الاحتلال أن يكون إنساناً يحب الموسيقى، ومتحضراً يحترم السيدات، إلى درجة وقوع الفتاة في حبه آخر الأمر. مما يوقعها في تناقض وجودي مع النفس عندما تعلم أن (قاهرها المحبوب)، معرض لمحاولة اغتيال على يد المقاومة.

ولقد أعجبت هذه القصة القراء آنذاك، ونالت شهرة عظيمة لدى الفرنسيين. لكن مع بدء عمليات المقاومة، تغير الموقف، وحيل بين الألمان والفرنسيين، من جديد، بحاجز خفي من النار - كما يقول سارتر - "فلم نعد نرغب في معرفة إذا ما كان الألمان... جناة أم ضحايا للنازية، ولم يعد يُكتفى حيالهم بالاحتفاظ بصمت الكبرياء. على أنهم لم يكونوا ليحتملوا هذا الصمت: ففي نقطة التحول هذه، أثناء الحرب، كان لا مناص من أن يكون المرء معهم أو ضدهم. وبدأت قصة (فركور) وكأنها نسيج ساذج، يتغنى بألحان الحب، وسط الضرب بالقنابل، والمذابح، والقرى المحترقة. ففقدت القصة بذلك جمهورها؛ فقد كان جمهورها يتمثل فيمن عاصر عام 1941، ممن استخدمتهم الهزيمة، ولكنهم كانوا في دهشة مما لاقوه من لطف المحتل... وما دام [الجمهور] قد اكتشف، في دهشته، أن غالبيتهم كانوا أناساً مثلنا؛ فكان من الواجب أن يوضح له، من جديد، أن الإخاء كان محالاً، حتى في هذه الحال"<sup>(1)</sup>.

ويغلب على الظن أن إميل حبيبي قد حدث له شيء شبيه بهذا، مع فارقين بسيطين: أولهما؛ أنه لم يكن مجرد شخص ساذج من الجمهور، بل هو سياسي منوط به إدراك المخاطر، التي تحيط بالهوية الوطنية، للجمهور الذي انتخبه بناء عليها. والفارق الثاني؛

---

<sup>1</sup> - جان بول سارتر. ما الأدب. ص 71 - 72

أن إميل لم يشعر بوجود قوة عربية قادرة على شن الحرب، ووضع المتاريس بين الفريقين المتحاربين. فالعجز العربي، في نظره، هو الذي برر له أن يراوح عند المرحلة الأولى، من مراحل العلاقة مع المحتل - كما هي في قصة فركور - ولو ملك العرب تلك القوة، فلربما رأينا إميل حبيبي ينحاز إلى رؤية أخرى، قريبة من رؤية الجنرال ديغول، بدلاً من هذه السخرية المريرة، التي تفوح من سطوره، كلما اقترب من كل ما هو عربي، خصوصاً إذا كان من المحيط المجاور. مما يجرنا إلى تساؤل من نوع آخر: هل يبرر الضعف كل هذا الاستخزاء؟! أوليس بإمكان الرجل، الذي سُلِبَ بيته، أن يعضّ على جراحه، منتظراً أن يكبر الأبناء؟! أوليس الاحتلال شيئاً يبلغ من القبح درجة تستحيل معها رؤية خير فيه؟! إننا لا نستطيع أن نترك بلادنا لأناس، لمجرد أنهم أصدقاءنا (الإنسانيون)، أو لشعورنا بأنهم (زبدة الناس)، كما يصفهم<sup>(1)</sup>!. يقول إدوارد سعيد:

"إن تاريخ الإمبريالية ليعلمنا، أنه ليس في وسع شيء - سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة - أن يقاوم قوة الإمبريالية ويصدها. وإنها لمأساة بحق، أن جهلنا للتاريخ وللقوة الاستعمارية، يبدو أنه علمٌ مهندسي أو سلو الفلسطينيين، أن الاستسلام الخانع المتذلل - مصحوباً بصرخات النصر الكاذبة - قد يحقق النتيجة ذاتها، التي تحققها حملة حقيقية من الاستنهاض والمقاومة. بل إنها لمأساة وإهدار وضياع. بيد أن أجيالاً من الفلسطينيين قد تستيقظ وتعي هذا الواقع"<sup>(2)</sup>.

تطورت علاقة إميل حبيبي بمنظمة التحرير، في هذه المرحلة - كما أوضحنا ذلك في الفصل الأول - أو تطورت علاقة منظمة التحرير بإميل حبيبي: فكلاهما بدأ يسلك طريق الحوار مع الدولة اليهودية، وإن كانت الدوافع متباينة. الأمر الذي أتاح لإميل حبيبي، أن يرد على منتقديه، بأن التاريخ قد أثبت بأن موقفه هو الصحيح، وأن له الحق في

<sup>1</sup> - انظر: أحمد عمر شاهين. تواصل مع أسلوب السرد العربي. مشارف. عدد9. ص102

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. الثقافة والإمبريالية. ص12

الافتخار، بأنه لم يحد عن هذا الموقف الصحيح، طوال حياته<sup>(1)</sup>. كما أتاح له أن يزيد من جرعة السخرية من الأطروحات العروبية المطالبة بالصمود، بله من القومية العربية ورموزها، حتى وصل به الأمر إلى التلويح بالسخرية المقيتة، من شخص عبد الناصر بعد وفاته: باعتباره الفارس الأسمر، الذي لم يأت على حصانه الأبيض، من وراء الحدود ليخلصنا. ولو جاء؛ إذن، لما أنقذ إلا المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية من ورطتها، كما يقول<sup>(2)</sup>!.

لكأن مسيرة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، خير من كل الدماء العربية، التي أهدرت على مذبح فلسطين العربية!.

إن هذه السخرية لتستدعي، في وعي الباحث، حادثة طريفة، مما كان قد قرأه في مراحل الصبا، ولا يرى بأساً في إثباتها هنا، على سبيل التقليل من بعض جهامة هذا البحث. تقول الحادثة إن القاضي العربي أسد بن الفرّات - قبل أن يتحول إلى الفاتح العظيم الذي نعرفه - كان يتلقى العلم، في صباه، على يد فقيه مالكي، أغراه تعصبه، يوماً، بالسخرية من الإمامين: أبي حنيفة، والشافعي. فما برح الصبي حتى قام محتدماً، ليقول له: إن مثلك، ومثلهما، كمثل رجل بال بين بحرين، فلما رأى بوله وقد أرغى، قال: هذا بحر ثالث. يقول ديفيد هيوم:

---

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 11

<sup>2</sup> - صحيفة الشرق الأوسط. عدد يوم 30/3/1992. انظر: فيصل دراج. بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية.



"إن كنه الوعي الأخلاقي هو التأييد والاستهجان. إن لهذا الشعور الذي يجعلنا نمتدح أو نلوم - لهذا الألم وتلك اللذة، اللذين يحدوان العيب والفضيلة - طبيعة أصلية: إنها ناتج التبصر في طبع على وجه العموم، من دون الرجوع إلى مصلحتنا الخاصة"<sup>(1)</sup>.

## 5. المرحلة الخامسة: الانتفاضة ثم الخروج من الحزب:

### 5.1: الانتفاضة:

لم يتردد إميل حبيبي في تأييد الانتفاضة الفلسطينية، التي اندلعت مع نهايات عام 1987، ضد قوات الاحتلال، في الضفة والقطاع، في عهد ما سمي يومها بـ(حكومة الوحدة الوطنية) أو (حكومة الرأسين): لأنها قامت على قاعدة المشاركة والتناوب، بين الحزبين الكبيرين: الليكود بزعامة شامير، والعمل بزعامة شمعون بيرس، حيث تولى كل واحد منهما رئاسة الحكومة، لنصف المدة، على أن يتولى الثاني وزارة الخارجية. وقد قامت الانتفاضة في مدة رئاسة شامير وخارجية بيرس، بينما كان يتولى وزارة الدفاع إسحق رابين: الرجل الثاني في حزب العمل، والذي كان موكلاً بقمع الانتفاضة، بإعلانه عن قيام الجيش بحملة حقيقية لتكسير عظام المنتفضين.

وفي مقالته الأسبوعية، التي يوقعها باسمه المستعار (جهينة)، قال إميل حبيبي:

"لا يخرج الجنين إلى النور حتى يتكامل. فإذا خرج، خرج ضعيفاً: إذا جاع بكى. ويخرج بدون تجربة: لا يعرف فعل النار إلا إذا أحرق إصبعه، فلا يمسك عود الثقاب إلا من جانبه غير المشتعل. وإذا وقع، يتلافى الوقوع ويبحث عن سبيل لا وقعة فيه. يجبو حتى ينتصب ماشياً على قدميه. ويغدو يبربر حتى يتعلم النطق. فإذا نطق وفهمه، الآخرون ازداد اعتماداً على نفسه، ورغبة في الجماعة. حينئذ، وحينئذ فقط، يصبح

<sup>1</sup> - جيل دولوز. التجريبية والذاتية. ص 37

واضحاً هل هو (ابن معيشة) أم عكس ذلك. فإذا كان (ابن معيشة) عاش. لقد مرت الانتفاضة على هذه المراحل كلها، وعاشت؛ فهي إذن (بنت معيشة)، وليكف (الخائفون عليها) عن التساؤل: (إلى متى ستعيش)؟. لقد عاشت، وقضى الأمر... ومما يطمئنا، نحن طلاب السلام العادل والشامل اليهود والعرب في إسرائيل، إلى أن جسم الانتفاضة قد كسب هذه المناعة فعلاً، وانقضى الأمر، هو ما جاء من آيات الاحترام المتبادل، لدور العمال، ولدور أصحاب العمل، في إطار الانتفاضة، وشعب الانتفاضة... فالإنجازات الساطعة تتجلى، ليس في إفشال مخططات التآمر الأمريكي الرجعي، وأحلام استمرار السيطرة على الأراضي المحتلة فقط، بل أيضاً في انتشار مناخ التأييد الدولي، للأهداف العادلة، وفي توفر المقدمات الملائمة، أكثر مما في أي وقت مضى، وفي ظل الاتفاق السوفيتي الفلسطيني المشترك، لإنجاح عقد المؤتمر الدولي كامل الصلاحيات، على أرضية الحقوق الوطنية المشروعة. وكذلك في تقويم لقاء عرفات - الأسد، على أنه تنويع للسير الصحيح، في الاتجاه الصحيح، في مجال استعادة التحالف الكفاحي السوري - الفلسطيني<sup>(1)</sup>.

إن الطبيعة السلمية لفعاليات الانتفاضة الفلسطينية، خصوصاً في بداياتها، كانت هي العامل الذي شجع حبيبي على تأييدها، باعتبارها لا تتناقض مع مفاهيمه النضالية، داخل الدولة اليهودية. فمن جهة، كان إميل مرتبطاً بموقف حزبه - بل وبموقفه الشخصي أيضاً - القاضي بشجب كل عمل عنيف، في مواجهة الاحتلال. ومن جهة ثانية، كانت الحوارات، بين حزبه ومنظمة التحرير، قد بدأت منذ حوالي ثلاث سنوات، كما أوضحنا في الفصل الأول، مما يعني أنها قد وصلت الآن إلى مرحلة متقدمة.

---

<sup>1</sup> - جهينة. في انتظار العائدين إلى حضن شعبهم. الاتحاد. عدد يوم 6/5/1988

ولهذا فلقد أمكن لإميل حبيبي أن يقنع نفسه - كعادته في قراءة الأحداث من خلال المنظور الأيديولوجي - بأن هذا الأسلوب (النضالي السلمي) كان "علامة على توفر رغبة لدى الشعب الفلسطيني في التسليم بوجود دولة إسرائيل، وللبحث عن طريق للتفاهم بين الشعبين"<sup>(1)</sup>. ولهذا أيضاً عزز من هجومه - في ذات المقالة - على الجماعات القومية الفلسطينية داخل الدولة اليهودية التي لا توافق على أسلوبه هذا<sup>(2)</sup>.

إن تأمل المقالة المذكورة، ليعطينا إشارة دالة على طريقة إميل حبيبي في (توفير الذخيرة): بمعنى أنه لا يكلف نفسه الاستناد إلى مخزونه الأيديولوجي، في مواجهة الجماعات المنافسة، فربما لم يكن هذا المخزون صالحاً، أو كافياً، في كل الأحوال. لذا نراه يستعين بالانتفاضة، وباسم المنظمة، وباسر عرفات، ليقول: هأنذا سيدكم، في كل الأحوال. تدعون أنكم الوطنيون. فهأنذا أهتف باسم المنظمة، والانتفاضة، والأسد، وباسر عرفات. بل إنكم لتعلمون أنني أنا الذي جلست معه، وأخذت بركته، دونكم. وبذا فإن عليكم الاعتراف بأن نهجي، العقلاني، هو الصحيح الوحيد، حتى لو دافعت عن وثيقة إعلان استقلال الدولة اليهودية.

وفي الحقيقة فإن إميل حبيبي انبرى، وسط هذه المعمة، للدفاع عن مقالة زاهي كركبي (دفاع عن وثيقة الاستقلال)، في وجه الهجوم الذي شنه القوميون على المقالة وكاتبها - وكان عضو المكتب السياسي زاهي كركبي قد نشر مقالته، في عدد الاتحاد الصادر بتاريخ 1987/12/30، في أوج الأيام الأولى للانتفاضة - فغير إميل حبيبي القائمة التقديمية للسلام، المنشقة عن أبناء البلد، بأنها الآن، تقع فيما وقع فيه الشيوعيون، من قبل. فقال:

---

<sup>1</sup> - لقاء مع إميل حبيبي. كول هعير (عبرية). عدد يوم 1990/7/13. أجرى اللقاء يهودا ليطاني

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 10

"كنا نود أن نتعامل عينياً مع قرارات مؤتمر المتكديمت، على الرغم من سيطرة الأيديولوجيا الصهيونية على نصوصها، خصوصاً في النص الواضح عن اعترافهم بأن إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي... كان من الممكن اعتبار هذه القرارات تراجعاً عن المزودة القومية، التي حاولت المتكديمت أن تصم بها آذان شعبنا... كان من الممكن اعتبارها مواقف عقلانية، تخلصنا من بلبلة (الأسرلة) والهجوم المغموم على وثيقة قيام إسرائيل"<sup>(1)</sup>.

فحتى في هجومه على الخصوم، وشماتته (بسقطاتهم)، لم يملك إميل حبيبي نفسه، من تعبيرهم بخضوعهم لسيطرة الأيديولوجيا الصهيونية، واعترافهم بيهودية الدولة، مستدركاً - فيما يحور آخره أوله - بوصف هذه (السقطات القومية) بالمواقف العقلانية، التي تستحق التشجيع! - لكانه نسي أنه سيتكلم، بعد سطور، عن وثيقة قيام إسرائيل - التي وقع عليها حزبه، وتعتبر إسرائيل دولة اليهود في كل العالم - ثم ينسى أنه كان قد قال ذات مرة بأن دفاع الشعب اليهودي عن دولته، قد نجح في صد الجيوش العربية<sup>(2)</sup>.

ولقد نعلم بأن اتهام الآخرين بالصهيونية، كان في ذلك الوقت، يمثل مسبة وخيانة، في قاموس الحزب الشيوعي، وإميل حبيبي كليهما. لكن اعتباره لقبول الخصوم بالصهيونية أمراً عقلانياً، كان مرجعه إلى رغبة إميل في رؤيتهم يتساوون معه، حتى في هذه (السقطات القومية)، كونها تخلصه من اتهامهم السابق بأنه يسعى إلى أسرلة الفلسطينيين، داخل الدولة اليهودية.

---

<sup>1</sup> - جبهة. الامتحان الأخير. الاتحاد. عدد يوم 13/11/1988

<sup>2</sup> - انظر : وثيقة رقم 7

وبذا يصبح الأمر، وفق منطق إميل حبيبي، على هذه الشاكلة: ها نحن قد تساوبنا فيما هاجمتموني بسببه. وإذ أصبح كلانا داعية أسرلة، فلماذا إذن هنا الهجوم (الملغوم) منكم على وثيقة الاستقلال؟!.

وعندما نلاحظ أن استخدام تعبير (الهجوم الملغوم)، في الحوارات السياسية الفلسطينية، يحيل إلى مفهوم مرتبط بالعمالة مع العدو؛ ندرك كم هي (جرأة) هذا الرجل، في اتهامه للناس بالخيانة، لمجرد أنهم ذات يوم كانوا يرفضون الاعتراف باستقلال إسرائيل، وندرك أي تسرع مارسه إميل، في السابق، بحق كل من رفضوا مثل هذا الاعتراف، وخاضوا الحروب لمنع تحققه.

انطلقت الانتفاضة الفلسطينية أواخر عام 1987، في عالم كان واقفاً على الحافة بين مرحلتين: مرحلة حرب باردة تؤذن بالغياب، ومرحلة انتصار غربي يوشك أن يتحقق، بعد أن بدأت تظهر أولى علاماته.

ففي الاتحاد السوفيتي، كان الزعيم الجديد، ميخائيل غورباتشوف، قد أعلن جملة من القرارات (الإصلاحية)، وفتح أبواب بلاده أمام الريح القادمة من الغرب. ورغم أن المعارضين الأيديولوجيين، في الداخل، كانوا لا يزالون يمثلون أمامه حائط سد، بدا منيعاً، إلا أن كثيراً من شيوعيين العالم العربي، راهنوا على هذه التغييرات الغورباتشوفية، مؤملين أنفسهم بنجاحها، في تعزيز قوة الاتحاد السوفيتي، التي بدا تراجعها واضحاً، في مجال التطور التكنولوجي والاقتصادي.

أما الغرب، فقد كان مستعداً، ويعرف ما عليه فعله، ومنتظر الإعلان النهائي لمرحلة الحرب الباردة.

وإذ أدرك إميل حبيبي، أن التغيير حادث لا محالة، فلقد قرر أن يستثمره، كعادته، خصوصاً وقد ارتبط مفهومه الأيديولوجي، مبكراً، بتعاليم (الدولة الأم) أكثر من ارتباطه بجماع منظومة الفكر الماركسي النظرية. لهذا وجدناه ينتهز الفرصة فوراً، ويعلن إيمانه بكل من البيروسترويك والغلانسنوست<sup>(1)</sup>، مع أنهما مفهومان يتناولان مظاهر الحياة في الدولة السوفيتية، ولا علاقة لهما بالأحزاب الشيوعية المعارضة في العالم.

إذن فقد بدأ الشرق يفتح أمام مفاهيم جديدة، كان من الواضح أنها من صياغة الغرب، خصوصاً عندما نقارنها الآن بمفاهيم كـ(العولمة) و(الانفتاح) و(السوق العالمي)... وبدأت، من ثم، لغة إميل حبيبي، تتغير. وهذا نموذج مما كتبه في تلك المرحلة المبكرة، من عام 1988، بمناسبة ما تناقلته وكالات الأنباء، حينها، من بيع الصين منظومة صواريخ، لبعض الدول العربية. قال:

"قَدَرْنَا، منذ اللحظة الأولى، أن هذه الضجة الكبيرة، التي أثارها الأوساط الحاكمة، وخصوصاً (الليكوذ)، ووزير (الأمن) إسحق رابين، حول ما يسمى ببيع الصين صواريخ (أرض - أرض)، تحمل رؤوساً نووية، إلى الدول العربية، هي ضجة مفتعلة، تستهدف زرع الهلع والهستيريا القومية، بين الرأي العام الإسرائيلي، وصرف أنظاره، وأنظار العالم، عن القضية الحيوية، المصيرية، المطروحة حقاً على بساط البحث، وهي قضية إنجاز السلام العادل. وهاهو وزير الدولة عيزر فايتسمان، في محاضرة شاملة أمس الأول، يؤكد أن (الليكوذ يريد تخويف الشعب، وزرع الهلع في صفوفه. بينما لدينا جيش قوي وأدوات مناسبة). وقال: (إن الكمادات الوحيدة التي أحتاج إليها، هي كمادات لمواجهة البندورة والبيض، في حملة الانتخابات). وفي اعتقادنا، أن هذه الحملة، بالإضافة إلى أهدافها الداخلية في إسرائيل، تستهدف، أيضاً، التخريب على الجهود المبذولة لعقد المؤتمر الدولي

---

<sup>1</sup> - البيروسترويك تعني إعادة البناء. والغلانسنوست تعني الشفافية والمصارحة. وقد تم الإعلان عن ذلك مع تولي ميخائيل غورباتشوف زعامة الاتحاد السوفيتي في مارس عام 1985

للسلام في الشرق الأوسط، والتخريب على الجهود الأمريكية - السوفيتية لإيصال روح الوفاق، وحل النزاعات الإقليمية سلمياً، إلى منطقتنا العطشانة إلى السلام. ومما لا شك فيه، أن هذه الضجة الهستيرية، الآن بالذات، بينما منظمة التحرير تطرح على إسرائيل مشروعاً شاملاً ومتكاملاً للسلام الإسرائيلي - الفلسطيني العادل، هي برهان على مدى انقطاع حكام هذه الدولة عن روح عصرنا ومناخه الجديد، انقطاع عن روح عالمنا كله...<sup>(1)</sup>.

فنحن نلاحظ، في هذه اللغة الجديدة، ثلاثة أمور جديدة هي:

- الأول: تصور إميل حبيبي أن العالم قد بدأت تجتاحه روح جديدة، من الوفاق ونبذ الحروب، أو على الأقل، توفر النية لدى القوى العظمى، لحل النزاعات الإقليمية.
- والثاني: اعتقاده بأن إنجاز السلام العادل، هي قضية مطروحة بجدية. وهي تتحرك نحو الإنجاز، لولا أن الليكود يشغل (الرأي العام الإسرائيلي) عنها، بمشاغل مفتعلة.
- والثالث: أن هناك بالفعل جهوداً جادة، من قبل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، لعقد المؤتمر الدولي للسلام.

فإميل حبيبي مقتنع بقوة، بسيادة روح الوفاق، وأنه ليس بمقدور إسرائيل الصمود أمامها طويلاً، بنفس قوة قناعته بأن توجه الرأي العام الإسرائيلي، الحقيقي، إنما هو نحو السلام. وأن من يزيف مشاعره هو حزب الليكود اليميني المتطرف، بتخويفه من الأعداء المحيطين.

---

<sup>1</sup>. كلمة الاتحاد. عدد يوم 30/6/1988

وعلى هذا فسوف يكتشف إميل حبيبي مهمته، في إقناع هذا الرأي العام، بأن لا ينجر وراء شامير، وألاعيبه السياسية. فالسلام الآن قيد الإنجاز، وفي متناول اليد، وما على (الرأي العام الإسرائيلي) إلا أن يستمع إلى صوت ضميره الداخلي، ويمد يده ليتناوله!.

وما دام السلام قريباً إلى هذه الدرجة، وما دام الذي يكتشف هذا الاكتشاف الخطير هو (العربي الإسرائيلي) المتمرس بأساليب الكفاح الديمقراطي، فما على الفلسطينيين في الضفة والقطاع إلا أن يتعلموا هذه الأساليب الكفاحية، من هذا الرجل المجرب، ويصبروا على نتائجها. يقول في رد على سؤال صحفي:

"الذي وجهة نظر ليست بنت اليوم، بل هي قديمة... إن صورة النضال المتواصل لعرب إسرائيل، هي التي انتقلت إلى المناطق المحتلة: عندما فقد الناس هنا كل الآمال والخيالات، بحدوث حرب تحرير عربية فلسطينية، عندما فهم عرب إسرائيل بأنه لا يوجد غير طريق النضال الديمقراطي، انتشر هذا الأسلوب وتعاضم. ونفس الشيء حدث في المناطق المحتلة. عندما توصلوا إلى استنتاج بأنه لا منقذ لهم سوى أنفسهم، وجدوا الطريق، واستنتجوا نفس النتائج التي استنتجناها سابقاً"<sup>(1)</sup>.

كما أن إميل مقتنع كذلك بوجود جهود جبارة، من الاتحاد السوفيتي وأمريكا، لعقد المؤتمر الدولي للسلام، تحقيقاً لاتفاقاتهما في اجتماع واشنطن، الذي انعقد بين ريغان وغورباتشوف في ديسمبر من العام 1989: تلك الاتفاقات التي نصت على اتفاق الطرفين على حل النزاعات بالحوار.

---

<sup>1</sup>. كول هعير (عبرية). عدد يوم 1990/7/13



وهكذا تتسلل مصطلحات الحرب الباردة إلى لغة إميل الجديدة دون وعي: فالقوة الجبارة تبذل جهوداً جبارة!. كما لو أنه لم يعلم بأن جلّ محادثات واشنطن<sup>(1)</sup>، قد تركزت على طلب الروس من الغرب تزويدهم بالتكنولوجيا المتطورة، خصوصاً ما يتعلق منها بالحواسيب الإلكترونية، التي كان الروس محتاجين إليها حاجة شديدة، تبرز تنازلهم في أمور أخرى، بالقطع كان الشرق الأوسط واحداً منها.

إن إميل حبيبي يقدم لنا صورة للإسرائيلي (الإنسان)، المتلهف (بمجموعه) للسلام. ولولا العوائق، إذن، لأمكن لنا أن نتعايش وإياه، على أرضنا!. لكن هناك عائقاً بسيطاً، هو الليكود والمؤسسة الحاكمة!. وهذا المنطق، من إميل، يفترض مقدمتين كلتاهما لم تقع، ولا حتى إحداها: الأولى تقول: إن الشعب الفلسطيني قبل، واقتنع، بأن يتعايش مع (دولة إسرائيل)، وهو ينتظر إشارة منها بالموافقة. بينما تقول الثانية: إن المؤسسة الحاكمة متسلطة على رقاب الإسرائيليين، وتحجب عنهم المعلومات، عن استعداد (جيرانهم) للتعايش معهم، ونسيان (أحلام العودة). وكأن المؤسسة الحاكمة، في إسرائيل، مجموعة انقلابية سيطرت على الحكم بالقوة، وزيفت وعي (الجماهير الإسرائيلية)!.

والحقيقة أن هذا (الرأي العام الإسرائيلي)، الذي يتحدث عنه إميل، بهذه اللغة، هو الذي يتجه أكثر فأكثر إلى اليمينية والأصولية الدينية. وأن الأحزاب السياسية تجاربه في نزعاته هذه، للوصول إلى السلطة. فهذا (الرأي العام) لا يريد مع العرب إلا سلام الأموات. لكن كيف يمكن للمهزوم أن يرى خصمه، خصوصاً إذا بلغت الهزيمة منه مُشاش العظم!.

لقد بحث إميل، في أوج يأسه، بين المنتصرين، عمن يقبل بالحديث معه. فلما لم يجده، خلق له صورة على الشاكلة التي يحب. يقول:

---

<sup>1</sup> - تم الاتفاق في هذه القمة على تدمير فئة كاملة من الصواريخ النووية الروسية متوسطة المدى والقصيرة.

"ومن حقنا الاعتزاز بنهجنا، المنطلق من سعينا إلى أنسنة العدو، ولو من أجل تحميله المسؤولية، عما يرتكبه من عدوان، ومن اضطهاد. فعبر هذا النهج، أسهمنا في الظاهرة الإنسانية المدهشة: ظاهرة الأطفال الفلسطينيين، الذين لا يتراجعون أمام جندي الاحتلال، المدجج بالسلاح، من أخصم قدميه، حتى أعلى أذنيه"<sup>(1)</sup>.

متناسياً أنه لم يؤنس العدو، بل جرّم مقاتلي الحرية، وأسلم دماء أطفالهم لفوهة الموت، وشهوات يهوه: إله الجنود.

## 5- 2: الخروج من الحزب:

كانت رئاسة إميل حبيبي للاتحاد، قد أصبحت في مهب الريح، مع بداية نشره لمقالاته المؤيدة للبيروسترويك والغلانوسست فيها، منذ العام 1985. فنحن ندرك أن هذه الصحيفة حزبية، ولا يستطيع رئيس تحريرها الاستمرار في نشر مقالات فيها، تخالف رأي قيادة الحزب، ثم يظل دون عقاب. لذا فقد تحالف عليه خصمان: ثقته المفرطة بنفسه وآرائه السياسية، ثم رئاسته لتحرير صحيفة ليس هو صاحبها.

فمن جهة، كان السكرتير العام منير قلنر، ينتظر الوقت المناسب، لمعالجة هذا الصدام، الذي أخذ حليفه القديم يسببه له. ومن جهة أخرى، كان صاحب الصحيفة المسؤول، توفيق طوبي، قد سئم من تفرد إميل برئاسة التحرير، وتحويله الاتحاد إلى إقطاعية عائلية، يعين ابنه (سلام) مديراً لمطبعتها، ويقصي منها من يشاء، من كوادر الحزب، المخالفين لنهجه<sup>(2)</sup>.

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. شبيك لبيك عبدك بين يديك. مشارف. العدد 5. ص 9

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 418

وفي إبريل عام 1987، كان الوقت قد حان. وأصدر المكتب السياسي قراره بإقالة إميل حبيبي من رئاسة تحرير الاتحاد. وبعد أقل من شهر، وتحديداً في الأول من مايو من نفس العام، خطب مئير قلنر في الناصرة، بمناسبة حلول عيد العمال العالمي. وتطرق في كلمته إلى انتقاد البيروسترويك والمؤيدين لها في الحزب. وكان من جملة ما قاله: "يتحدثون عما يسمونه بيروسترويك، في الاتحاد السوفيتي، ويطالبون بأن نجري تغييرات في حزينا أيضاً. ولكن سياستنا صحيحة وأثبتت صحتها. ولن نجري فيها أي تغيير. الآخرون هم الذين يجب أن يغيروا"<sup>(1)</sup>.

ولعل هذه كانت هي الإشارة الأهم - إن لم تكن الأولى - من السكرتير العام، إلى عضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي إميل حبيبي، بأن القرار يوشك أن يطبق، وأنه يرتكب خطأ، إذا ظن أن باستطاعته الجمع بين الدعوة إلى تبني نهج غورباتشوف، ورئاسة تحرير (الاتحاد).

ورغم ذلك. فيبدو أن تحذيرات مئير قلنر لم تكن كافية، أو أن تنفيذ قرار الإقالة، كان يحتاج إلى بعض الوقت؛ إذ رأينا إميل حبيبي يسافر، في الشهر الذي يليه مباشرة، إلى موسكو - مايو 1987 - بصفته رئيس تحرير الاتحاد، للمشاركة في المؤتمر العالمي، الذي نظمه الكرملين آنذاك، لرؤساء تحرير الصحف الشيوعية، بمناسبة مرور سبعين عاماً على صدور (البرافدا)<sup>(2)</sup>.

وفي موسكو، تأثر إميل كثيراً "بقول الرفيق غورباتشوف: أنه آن الأوان لإنهاء المسافة، التي تفصل العمل السياسي عن الأخلاق". وبمجرد عودته، قام بنشر التقرير

---

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفقاص. ص 23

<sup>2</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفقاص. ص 22

الذي ألقى في المؤتمر، في صحيفة (الاتحاد)، بينما رفضت جريدة الحزب العبرية (زوهديرخ) نشره. كما رفض رفاقه، في المكتب السياسي، بحث مضمون التقرير<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن إميل حبيبي كان يأمل، حتى تلك اللحظة، بأن يتم إلغاء القرار بحقه، خصوصاً بعد سماح الحزب له بالسفر، لهذه المهمة التي لا يقوم بها إلا رؤساء التحرير. ويشجعنا على هذا الاستنتاج، ما قاله إميل نفسه في خطاب الاستقالة. وهذا نصه:

"ليس هيناً على إنسان في عمري، وفي تاريخي، أن يسمع بأذنيه التهمة القتالة، بأنني أقمّت من هيئة تحرير (الاتحاد) كتلة معادية للحزب، وأن هدف الإصرار على إقالتني من مهمة رئيس التحرير، هو من أجل إرجاع (الاتحاد) إلى سيطرة الحزب"<sup>(2)</sup>.

فهذا النص يقرر بأنه قد جرى نقاش بين إميل حبيبي ورفاقه، في إمكانية عدم تنفيذ القرار، أو إلغائه، لكنه وجد منهم إصراراً، صدمه وسبب له الألم.

ولما عاد إميل من رحلة موسكو، واجتمع مع مثير قلنر وتوفيق طويي، وطرح عليهما وجهة نظره، مرة أخرى، في ضرورة تبني البيروسترويك والglasnost، لم يجد منهما إلا صداً. مما أشعره، فعلاً، بأن قرار الإقالة نهائي وأن لا جدوى من المراجعة فيه، خصوصاً وقد بدأت هجمات الرفاق تتصب عليه، وتلقي عليه التهم، وتكشف ما ظل مستوراً لأمد بعيد<sup>(3)</sup>. ولقد يأتي زمان يُسأل فيه إميل حبيبي عن هذا الهجوم، الذي تعرض له قبل الاستقالة، فيقول:

---

1- انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 22

2- إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 13

3- انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 22

"لقد سألت نفسي كيف تحملت هذا الوضع، طوال سنوات؟. ثم توصلت بعدئذ إلى الاقتناع بأنني تصرفت، حينذاك، بطريقة غير مفهومة. وعندما شعرت بأنني كذابة في الطريق، غادرت فوراً إلى الكتابة الأدبية، التي أجد خلالها أنني أكتب عن نفسي بأمانة. في الكتابة الأدبية أنت لا تستطيع أن تكذب. كل كذبة صغيرة سوف يتم كشفها فوراً. لقد جاء زمن اعتقدت فيه أن الكذب في السياسة مسموح به"<sup>(1)</sup>.

وعندما يسأله الصحفي بإلحاح، عما إذا كان هذا يعني أن الغاية، لديه، كانت تبرر الوسيلة، يرد بصراحة صادمة:

"تقريباً. وهذا هو الجانب السيئ، الذي سرق مني الأشياء الجميلة، التي تولد مع الإنسان، قبل أن تلوثه الحياة اليومية: حب العدل، حب الحقيقة، كل هذه القيم التي نسميها العدالة، المساواة، وكل هذه الأشياء. لقد ضاعت مني كل هذه الأشياء - رويداً، رويداً - عندما ظننت بأن كل ذلك مسموح به: مقدس، جيد. لقد سألتني كيف أشرح ذلك؟. أنا أشرح، ولكنني لا أحكم"<sup>(2)</sup>.

وهكذا يكتشف إميل متأخراً، وعلى يد غورباتشوف، ضرورة مراعاة الحد الأدنى من الحكم الأخلاقي، حتى ونحن نمارس الألاعيب السياسية. ولكن متى تم هذا الاكتشاف، وهل كان من الممكن لإميل قبول حكم الأخلاق، في السياسة، قبل غورباتشوف؟. لقد نستطيع الرد بالسلب على هذا التساؤل، في ضوء ما تم التوصل إليه من استنتاجات سابقة، نقول بأن إميل، المتخلق أيديولوجياً، لم يكن ليؤمن، بأن في مقدور أيّ كان، أن يصحح له، باستثناء (منظر حزبي كبير)، بحجم غورباتشوف.

---

<sup>1</sup> - لقاءات. حوار مع الصحفي الإسرائيلي: يعقوب أجمان. عينيم بتكوماه فيشوعل (عبرية). عدد يوليو 1997. ص673

<sup>2</sup> - لقاءات. حوار مع الصحفي الإسرائيلي: يعقوب أجمان. عينيم بتكوماه فيشوعل (عبرية). عدد يوليو 1997. ص674

لقد اصطدمت الأيديولوجيا بالأيديولوجيا، أو فنقل بأن الصدام قد جرى بين رؤيتين، انطلقت كل منهما من موقعين مختلفين. وغير خاف على أحد، أن المصالح كثيراً ما تحدد المواقع، ثم تأتي بعد ذلك الأيديولوجيا، كوعاء نظري، يضيء شيئاً من الاحترام، على هذا الاحتراب غير المبرر أخلاقياً. مما يعيد الاعتبار إلى مقولة ماركس الشهيرة: ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يحدد وعيهم<sup>(1)</sup>.

لهذا لم يكن أمام إميل حبيبي إلا الاستقالة، من عضوية اللجنة المركزية وكل هيئاتها، بما فيها المكتب السياسي، معتبراً أن إقالته، من رئاسة تحرير الاتحاد، عمل مهين، وجريمة عظمى بحق شعبه "وبحق مبادئ الشيوعية السامية"، إضافة إلى أنه غير مبرر دستورياً أو أخلاقياً، ولا يدع من فرصة أمامه سوى هذه التظاهرة الاحتجاجية<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن إميل لم يكن راغباً في الاستقالة رغبة حقيقية، لأنه واصل بعث المقترحات للجنة المركزية والسكرتير العام، مشدداً على ضرورة تبني الإصلاحات السوفيتية. ولكن اللجنة المركزية كانت، هذه المرة، قد قررت انتهاز الفرصة، والتخلص منه مرة واحدة وإلى الأبد. لذلك سرعان ما قبلت استقالته، متذرة بانقطاعه عن حضور الاجتماعات<sup>(3)</sup>. وهكذا انطوت الصفحة الأهم في حياة إميل حبيبي.

---

<sup>1</sup> - انظر: تيري إيجلتون. الماركسية والنقد الأدبي. فصول. مجلد 5. عدد 3. ص 23

<sup>2</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 11، 47

<sup>3</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 418

## 6- المرحلة السادسة: بعد الخروج:

### 6-1: إعلان القطيعة:

حتى يوم 19/8/1991، لم يكن إميل حبيبي يعتبر نفسه خارج الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بالرغم من تقديمه استقالته السابق من كافة مسؤولياته الحزبية، بل إنه على العكس من ذلك، أعلن نفسه ذاهباً إلى العمل الحزبي، كعضو بسيط في هيئته القاعدية بفرع الناصرة<sup>(1)</sup>. والطريف في الأمر أن إميل لم يذهب إلى الناصرة، ولم يتصرف كعضو بسيط، بل سافر إلى أمريكا ثم أوروبا، وبدأ من هناك يكتب مقالاته الانتقادية ويطالب صحيفة الاتحاد بنشرها!. ولكنها بالطبع لم تنشرها<sup>(2)</sup>.

ورغم ذلك، فيمكن اعتبار إميل حبيبي شخصاً خارجاً من الحزب، من لحظة تقديمه لاستقالته تلك؛ لأنه تصرف وفق ذلك، وتُصرف معه تبعاً لذلك.

ولقد يمكن للباحث تفهم تلك الصعوبة الكبيرة، التي واجهها إميل في اتخاذ قرار الاستقالة؛ فلا شك أنه كان مدركاً تماماً بأن كل هذا الحضور، الذي حققه في الحياة الفلسطينية، السياسية والأدبية، لم يكن ليحدث له دون الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ودون أن يكون متمتعاً بمكانة مميزة فيه: فعلاقاته مع منظمة التحرير، لم تكن لتتطور على هذه الشاكلة، لولا جنوح المنظمة إلى منهج التفاوض، والبحث عن البدائل المتعددة، في إطار حرصها القوي، على تولي دور ما، في ما ظن حينها أنها حلول قادمة، بعد حرب أكتوبر 1973، ثم بعد ظهور أن مرحلة الحرب الباردة مشاركة على الانتهاء. ولقد بدا الأعضاء الفلسطينيون، في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، مستعدين لتقديم خدماتهم في هذا الصدد. كما بدا إميل حبيبي من أكثرهم تطلعاً، لتقديم هذه الخدمات. وقد عرضنا في

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفقاص. ص 11

<sup>2</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفقاص. ص 58

الفصل الأول طرفاً من ذلك. كما عرضنا للمجد الأدبي الذي حققته هذه الاتصالات، حيث تضافرت قوتا الأيديولوجيا والإعلام، في المنطقة العربية، على الترحيب بصاحب المتشائل، كل لدوافع مختلفة.

أما الآن، وقد انفض عنه العقائديون، فلم يتبق إلى جانب إميل حبيبي إلا الواقعيون. وقد كان منهم في منظمة التحرير الكثير. ومن هؤلاء الواقعيين، كان هناك من لا يزال يرى فيه (المناضل الإنسان)، الذي استطاع المحافظة على هوية الجماهير العربية، في فلسطين المحتلة، رغم كل أنواع القهر. غير مدركين أنه ربما ساعد في المحافظة على بقائهم هناك فعلاً، لكن الثمن الذي طالبهم به، من جراء ذلك، كان باهظاً، ولحسن الحظ لم يوافقوه على دفعه: أعني هويتهم العربية.

وهذا ما تنبه له، الدكتور عزمي بشارة، أحد أبرز مفكري الجيل الشاب في الحزب - خرج منه على خلفية الخلاف حول الهوية - إذ رأى بحق، أنهم كانوا في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، قد ذهلوا عن حقيقة أن "شعاري المساواة والحكم الذاتي لا يمكن تحقيقهما، إلا بإلغاء الطابع الصهيوني اليهودي للدولة"، الكولونيالية الإسرائيلية. وعلى هذا، فإن "الأولوية للصراع القومي؛ وهذا طبيعي في صراع مع كيان كولونيالي". ثم أضاف - بلسان حاله قبل الخروج من الحزب - متنبهاً ومنتقداً:

"في نضالنا من أجل المساواة، من ناحية: نخوض معركة غير ممكنة؛ ومن ناحية أخرى: نزرع قيماً فاسدة في نفسية الجماهير، ونعزلها عن معركة شعبها"<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - مقابلة صحفية الميدان مع عزمي بشارة. عدد يوم 1990/1/26. نقلاً عن: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 422



وما يمكن قوله، كنتيجة لهذا الخروج، هو أن إميل حبيبي قد بدا للباحث: لا مجرد متمرد على تصرفات لا ديموقراطية، في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بل مراجع شامل لمجمل المنظومة الفكرية، التي قامت عليها الأحزاب الاشتراكية والماركسية في العالم: أي أنه - بمفهوم أيديولوجي - لم يعد مؤمناً بالنظرية الماركسية، أو لم يعد شيوعياً البتة، رغم كل هذه المجادلات التي خاضها، من طرف واحد، على صفحات الصحف، ثم نشرها في كتابه الأخير (نحو عالم بلا أقصاف). وهذه بعض النماذج التي تدلل على ما ذهبنا إليه:

■ في مقالته التي نشرها في صحيفة العربي - التي أصدرها بعد خروجه من الحزب - تطرق إميل حبيبي إلى التغييرات، التي أحدثها الحزب الشيوعي الفلسطيني في دستوره، بعد انهيار الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي؛ وقارنها بالتغييرات التي استحدثها الحزب الشيوعي الإسرائيلي، في برنامجه، وإذ رأى أن تغييرات الحزب الإسرائيلي لا تمس الجوهر، فقد أخذ ينعي عليه ذلك، ويقول: "كنت في الخارج حين بلغتني، لأول مرة، أنباء التغييرات الجذرية - التي تتميز بالمسؤولية والإخلاص والشهامة - التي استحدثها الحزب الشيوعي الفلسطيني، في برنامجه السياسي، وفي نظامه الداخلي (دستوره). فأوهمت نفسي بأن (رفاقي) لا يمكن إلا وأن يستيقظوا"<sup>(1)</sup>. والمعلوم أن الحزب الشيوعي الفلسطيني، لم يعلن تخليه عن تبني النظرية الماركسية فحسب، بل أضاف إلى ذلك تغيير اسمه إلى (حزب الشعب).

■ بمناسبة الانقلاب الذي قاده الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي، ضد غورباتشوف، لإنقاذ التجربة الشيوعية؛ كتب إميل حبيبي مقالة بعنوان (عالم بلا أقصاف) انتهز فيها الفرصة للإعلان عن موقفه الجديد، من الحزب الشيوعي السوفيتي، الذي لطالما كان إيمانه به كحزب (قائد وملهم) هو الذي

---

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقصاف. ص 48

صنع حياته وحقق له الأمجاد، فإذا به يكتشف فجأة أنه كان كافرًا به منذ سنوات طويلة، أو هكذا يقول: "فمن زمان، علمنا أن أمواج تاريخ السنوات السبعين الأخيرة، ألفت بالحزب الشيوعي السوفيتي على صخور الشاطئ سمكة قرش ميتة. من زمان، كان على ميخائيل غورباتشوف وزملائه أن يقيموا حزباً جديداً، بدلاً من أن يحاولوا إحياء الموتى"<sup>(1)</sup>.

- أما موقفه من الانقلاب الشيوعي، بحد ذاته، فيعلمه بهذه الكلمات، التي لا لبس فيها: "الحقيقة هي أنني لم أشعر بأن (عالمي) قد تهدم فوق رأسي، إلا في يوم الإثنين 91/8/19، حين وقع الانقلاب العسكري في موسكو، ضد التغييرات الديمقراطية الإنسانية التي تحققت بقيادة ميخائيل غورباتشوف"<sup>(2)</sup>.
- وقد وصل كفر إميل بما كان عليه درجة إنكار واحدة من أبرز مقولات النظرية الماركسية: الحتمية التاريخية، حيث قال: "لقد أثبت العلم مؤخراً بطلان ما كنا نعتبره الحتمية التاريخية"<sup>(3)</sup>.

إذن، فلقد كانت هذه فرصته لإعلان خروجه النهائي، من الحزب الشيوعي الإسرائيلي، أو يأسه من العودة إليه، بعد سنتين من المراوحة والسعي إلى العودة<sup>(4)</sup>.

## 6-2: مشارف وأوسلو:

في أغسطس 1995، أصدر إميل حبيبي مجلته الأدبية (مشارف)، بعد أن حصل لها على دعم مزدوج، من كل من رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، ووزارة المعارف

---

1- إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقصاف. ص 104

2- إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقصاف. ص 104

3- إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقصاف. ص 107

4- انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقصاف. ص 106

الإسرائيلية، كما ذكرنا في الفصل الأول. وسنتوقف هنا عند أهم الفقرات، التي كتبها في افتتاحية العدد الأول، التي عنوانها بالعنوان: (في مجال التعريف: مشارف)، كونها تمثل آخر المحطات الفكرية، لدى الرجل الذي سوف يتوفى بعد ذلك بأقل من عام<sup>(1)</sup>.

بعد أن صال وجال في معاجم اللغة، كعادته، محاولاً تبرير تسمية المجلة بهذا الاسم، انتقل إميل حبيبي إلى القول التالي:

"ولعلكم تذكرون أنني لم أجد من موئل لسعيد أبي النحس المتشائل، في وطنه، سوى رأس خازوق. ولم يذُر في خلدي في ذلك الزمن السحيق، أن الخازوق هو مكان عالٍ يصلح منه للإشراف على آفاق قرن جديد، وألف جديدة من السنين. بل لم يذُر في خلدي أن لا يجد شعبي مكاناً في وطنه، بعد هذا العمر الطويل - أو الموت الطويل - سوى رأس خازوق"<sup>(2)</sup>.

إذن فإميل هنا يقرّ بأنه أراد المتشائل رمزاً لشعبه. وأن على هذا الشعب، إذا ما أراد البقاء في فلسطين، أن يقبل بأن يجلس على رأس خازوق!. ولا يعني هنا ما إذا كانت كل هذه الرموز قد دارت في خلد الكاتب، لحظة الكتابة، أو لم تدر؛ لأن الإبداع يخرج من مملكة اللاشعور، حيث تختبئ الرغبات خلف ستار كثيف من الكبت، ولا تجد لها من متنفس إلا هذا اللاشعور الدافق، الذي يخرج في لحظة إبداع، يقرّ إميل بأنها هي اللحظة الصادقة في التعبير<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup>- توفي في 1996/5/2، كما ذكر ذلك كاتبو سيرته في العدد التاسع من مشارف. ص30

<sup>2</sup>- إميل حبيبي. في مجال التعريف. مشارف. العدد الأول. ص6

<sup>3</sup>- قال: "والإبداع كما أراه هو اللحظة التي يقوى فيها المبدع على إطلاق عقله الباطني من عقال عقله الواعي، إطلاقاً صميماً لا يمكن أن يتسم إلا بالصدق المطلق الأشبه بصدق الأطفال". مشارف. العدد3. ص7

وليس من الغريب أن يواصل إميل حبيبي الاستشهاد بالمتشائل، بين كل موقف وآخر؛ لأن فعلة المتشائل لم تمت في أعماقه المظلمة، بل إنها لا تزال تراجع حتى يلقي حقه، كما قرر علم النفس التحليلي. يقول كارل يونج:

"إننا عندما نعتبر اللاوعي مجرد وعاء، نُلقَى فيه أشياء الظل الشريرة، من الطبيعة البشرية - بما في ذلك الرسوبات الطينية الأولى - فإننا لا نرى لماذا يجب علينا أن نظل نتسكع، على حافة هذا المستقع، الذي سقطنا فيه، في وقت من الأوقات!"<sup>(1)</sup>.

فالإشراف على آفاق المستقبل، لا يتأتى (لفلسطيني إميل حبيبي) إلا من فوق خازوق الخنوع والاستسلام، وربما التحالف مع العدو، لضمان البقاء. والسؤال الذي يطبل برأسه هاهنا هو: من الذي صاغ وعي الآخر: المتشائل سعيد أبو النحس، أم إميل شكري حبيبي؟! وهل صحيح ما ذهبت إليه مدارس النفس التحليلي، من أن النص الإبداعي يزيد نموه على مبدعه، كما يزيد نمو الابن على نمو أمه - كما يقول يونج - مرة أخرى؟!

"السياق المبدع له صفة أنثوية. والعمل المبدع ينشأ من أعماق اللاشعور، أو من مملكة الأمهات. بعبارة أخرى: كلما سادت القوة المبدعة تحكم اللاشعور بالحياة الإنسانية، وقولبها، من دون الإرادة الفاعلة؛ وعندئذ يلقي اللاشعور بالأنا الواعية إلى تيار الأعماق، بما هي ليست أكثر من مراقب للحوادث. والعمل - في السياق - يصبح قدر الشاعر، ويعين تطوره النفسي. ليس غوته هو الذي أبدع فاوست، إنما هو فاوست الذي أبدع غوته. وما فاوست إلا رمز، لا أكثر"<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - كارل. ج. يونج. علم النفس التحليلي. ص 103

<sup>2</sup> - كارل. ج. يونج. علم النفس التحليلي. ص 278

فهل كان المتشائل هو الأصل الذي صاغ إميل حبيبي المفكر والسياسي؟. إنه لسؤال كبير!.

ثم تطرق إميل حبيبي، في نفس المقالة، إلى عودة بعض كوادر منظمة التحرير، إلى الوطن، بعد أوصلو، غير متحرج من مزاوله مهنته القديمة، في لمز العروبة. وكأن العروبة كانت سترفض عودة الأبناء، في ظروف صحية!. قال:

"قد قيل إن (البعد جفا). أما في الحالة الفلسطينية، فكان الأمر أزدل؛ فقد أريد لهذا البعد أن يفرض علينا الترميز المتبادل: أي أن لا يرى الواحد منا الآخر إلا رمزاً، لا يحق له سوى الشهادة، وأن تعلق صورته ببرواز أسود على جدران العروبة. فلما بدأت أكبادنا تمشي على أرض الوطن، كما الناس، استقطعوا على ابن آدم الفلسطيني أن يرفض المصير الذي كُتب على كبش المحرقة!. فنحن - كما الناس - كنا ونبقى مجرد أبناء لسيدنا إبراهيم عليه السلام، لا أكثر، ولكن، لا أقل"<sup>(1)</sup>.

والملاحظ هنا أن غالب الذنب، في تشريد الشعب الفلسطيني - عند إميل حبيبي - يقع على عاتق العروبة، فهي التي ترفض عودة الأبناء إلى الأمهات، وهي التي لا ترى في الفلسطيني، ولا تريد منه، سوى أن يتحول إلى رمز على جدار متشح بالسواد، بينما حقيقة الأمر - كما يراها صاحب المتشائل - هي أننا كالناس الذين يستحقون العيش في الوطن، والتعايش مع أبناء عمومته، الذين هم بالصدفة الشعب الإسرائيلي البطل<sup>(2)</sup>. وكأن قيامة ابن آدم الفلسطيني لا تقوم إلا من خلال نار التخلي عن الأخوة القريبين، واللاحق بأبناء عمومة بعيدين وطامعين وسالبين!. وغير بعيد - في سياق كهذا - أن نرى الصهيوني

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. مشارف. العدد الأول. ص 7

<sup>2</sup> - ذكرنا في مكان سابق من هذا الفصل وصف إميل حبيبي للشعب اليهودي بالبطولة، في حوار مع المجلة العبرية (عينيم بتكوماه فيشوعل). عدد شهر يوليو 1997. ص 677

المبامي<sup>(1)</sup> أفضل من جمال عبد الناصر، فالأول فضح مذبحه كفر قاسم، ويُسلّك في طوائف (الإنسانيين)، أما الثاني فمجرد فارس عربي أسمر، يركب حصاناً أبيض، ثم لا يأتي البتة، ويستحق أن يدرجه إميل حبيبي، في قائمة واحدة، مع كل من الملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس<sup>(2)</sup>!.

ثم ينشر إميل تقاؤه - المبالغ فيه - على اللحظة الحاضرة، مستغلاً الفرصة للعودة إلى السخرية من المعارضين لأوسلو، الفلسطينيين والعرب، على اعتبار أن السلام قد حل، وأن الناس العاديين سيعودون الآن إلى لعب دور البطولة، على خشبة المسرح، بدلاً من كل هؤلاء (الأبطال)، الذين لم يعد أحد في حاجة إليهم. والخطاب موجه إلى المثقفين الفلسطينيين العائدين في مركب أوسلو:

"هل تذكرون رواية ديين سويفت<sup>(3)</sup> عن (بلاد ليليوت): بلاد الأقرام، حين مر بها إنسان عادي، في قامة الإنسان العادي، فأخذ إلى النوم، فاجتمع عليه الأقرام وكبلوه بالحبال، في كل جزء من جسمه؟! . إننا لا نريد لهذه المجلة - مشارف - أن تؤرق الإنسان العادي عن نومه العادي؛ فبدون الشتاء لا يأتي الربيع. ولكننا نريد أن نقول لأقرام الفكر، بإصدار مشارف، أن بلادنا كانت وستبقى - خصوصاً من الآن فصاعداً - وطن الناس العاديين، بقامات الناس العاديين. بل قد لا يصلح المشي في بلادنا إلا لمنتصبي القامة. ولأقرام الفكر بيننا نقول: (جاءك، يا بلوط، من يعرفك). وأما لأقرام الفكر بينكم، فنقول: (جاين تببعوا المية في حارة السقاين)؟!"<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup>- انظر: إميل حبيبي. لا حاجة بنا إلى الانتحار. مشارف. العدد 8. ص 8

<sup>2</sup>- انظر: المتشائل. ص 29

<sup>3</sup>- كذا في الأصل. مع أن الباحث يعرف أن اسم المؤلف المشار إليه هو جوناثان سويفت.

<sup>4</sup>- مشارف. العدد الأول. 1995. ص 8

إن فلسطين بالفعل هي وطن الناس العاديين. لكن هؤلاء الناس العاديين، فيهم من البطولة، ما يعرفه رب العالمين، حينما وصفهم بالجبارين؛ وفيهم من الصبر ما عرفه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من قبل أن يراهم، فدعاه إلى الشهادة لهم بطول الرباط ودوام المجادة، إلى يوم القيامة. والحديث أشهر من أن يشار إليه. ولعمري، إن شعباً ينال مثل هذه الشهادة، لحري به أن يحفظها في بؤبؤ عينيه.

ومثل هذا الكلام من إميل، كان من الممكن له - في غير هذا الموضع - أن يكون تعبيراً إنسانياً جميلاً، عن حب الفلسطينيين للحياة، مثل كل خلق الله. لكنه هنا في هذا السياق، لا يمكن اعتباره إلا تنكراً لبطولة شعبه<sup>(1)</sup>، وسخرية منها، في نفس الوقت الذي هو فيه تزيف لمعنى الإنسانية، واعتبارها لا تتحقق إلا من خلال القبول بالقهر، وإنتاج مشروعية خاصة لممارسة الخضوع.

أما التطبيع الذي يريده إميل حبيبي مع الصهاينة، فليس - في عرفه - تطبيعاً مجانياً، لأنه سيقوم على الحوار، الذي نحفظ فيه بحقنا في القول للمحتلين: عليكم أن تخرجوا، ويحتفظون بحقهم في قول لا. ثم يستمر الحوار بيننا، على اعتبار أن لكل وجهة نظره الخاصة!. وما ذلك إلا لأن الوقت الآن للسلام، والسلام فقط. بعد أن ذهب وقت الحرب، وحان وقت الفن والمعرفة. ونحن قادرون على خوض معمعة هذا السباق الحضاري!.  
يقول:

"ولا تطبيع في عرفنا وأخلاقنا - أي تطبيع على الإطلاق - إلا ذلك القائم على إلغاء الغبن التاريخي، الذي أنزل بشعبنا العربي الفلسطيني في وطنه. ولا حوار حضاري إنساني، إلا ذلك القائم على الإفصاح، في المجال، أمام التعبير عن الرأي الآخر... ومن حقنا، ونحن نخوض هذا المعمعان، القول: إننا قدها وقودود. فنحن أبناء هذه البلاد

---

<sup>1</sup> - فلقد سبق له - يا للمفارقة - أن احترم بطولة الشعب اليهودي، كما بينا في هذا الفصل.

وبناتها، مواطنو مهد الحضارة. وأجدادنا لم يفكوا عن محاولة أن ينطقوا (الكتيبة الخرساء)... فنزعم أننا، بإصدار مشارف، نسهم في الوصول إلى هذه الحالة التي نتمناها"<sup>(1)</sup>.

إذن فقد حل السلام أخيراً - في تصور إميل الشديد التفاوض - وصار على وسائل الاتصال أن تنتشر هذا الإنجاز، وتوصله إلى الذين لا يعلمون!. وما ذهل عنه إميل حبيبي، هو أن كل هذا الهيلمان، الذي تدعمه الحكومة الإسرائيلية، لا يمكن أن يوظف سدى؛ بل إن وسائل صناعة الواقع الإعلامية، تدرك ما هي فاعلة تماماً. وإذا كان السلام غير ناجز في الحقيقة، فإن بالإمكان إنجازه من خلال وسائل الاتصال، التي تعتبر مشارف إحدى أدواتها. وإن بإمكان الفلسطينيين أن يتلهاوا عن الأرض والمستوطنات واللاجئين، ببعض الاحتفالات، وبعض الاجتماعات تحت عين الكاميرا، وبعض الرحلات (التل أبيبية)، التي ينظمها المهتمون باليهود، لمتقنين فلسطينيين، ناموا على هديل الحمام، ذات ليلة، ثم عادوا في ليلة تالية إلى سكنى المخيم. وكما يقول راين وزملاؤه:

"فإن الإنجازات ليست إنجازات حتى تحملها وسائل الاتصال الجماهيرية: فوسائل الاتصال هذه لها القدرة على أن تصنع الأشياء - بما فيها الناس - وأن تجعلها أكثر واقعية: بمعنى أن تكون حاضرة لأعداد كبيرة من الجمهور، وذلك على نحو أكثر مما تحققه نظم صناعة الواقع القديمة. فلست بحاجة إلى أن تكون شهيراً، حتى تكون ذائع الصيت، بل إنك إذا بلغت هذه الدرجة [ذيع الصيت] فسوف تكون شهرتك حينئذ حقيقية"<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - مشارف. العدد الأول. ص 9

<sup>2</sup> - ألفين كرنان. موت الأدب. ص 189



وهكذا نرى كيف قلب إميل حبيبي الهرم على رأسه، وكيف حول الثقافة من حائط صدٍّ، إلى حصان طروادة، جرياً وراء وهم يقول - على طريقة سعيد أبي النحس المتشائل - بأن: "مليح أن صار هكذا، وما صار غير شكل"<sup>(1)</sup>. وما دام أن صار الأمر هكذا، فلنقبله، ولننتعاش معه، فلقد كان بالإمكان أن يصير الأمر أسوأ من ذلك، ونضطر للتعاش معه!.

أعتقد أن هذا المفهوم هو من أهم سمات فكر إميل حبيبي. بل إنه يكاد يكون البنية الأعمق لكل منظومة فكره في كل الأحوال.

## وأخيراً:

إذا كانت هذه هي أهم سمات فكر إميل حبيبي، المبدع والأديب، وإذا كانت هذه هي البنية الثقافية الأخطر، التي اضطررنا إلى التعامل معها في إبداعاته، واضطر الجمهور العربي إلى تلقيها، والتصفيق لها، غافلاً عما وراءها - مما كان سيعترض عليه بالضرورة، لو لم يُقدم له في هذا القلب الجمالي الباهر - أفلا يحيلنا كل ذلك، مرة أخرى، إلى السؤال القديم عن علاقة الأدب بالأخلاق، وعن حدود الفصل بين حرية المبدع أو الفنان، ومشاعر أفراد المجتمع، خصوصاً عندما يشعر هؤلاء الأفراد - أو مجموعهم - بأن هذه الحرية (الأبستيمية) تمس بمشاعرهم الشخصية، أو تهدد هويتهم الثقافية؟.

لقد طُرحت ذات يوم مثل هذه القضية، أمام القضاء البريطاني، في نقاش قضائي وأخلاقي مجتمعي صاخب، وذلك عندما اعترضت بعض المؤسسات المجتمعية المحافظة، على رواية (الليدي شاترلي) للكاتب المعروف: دي إتش لورنس.

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 66

وبعض النظر عن طبيعة الحكم الصادر في القضية، فإن كلمات القاضي في حيثيات الحكم، سوف تظل علامة مائزة في هذا الموضوع، لأنها تجمع بذكاء وواقعية، بين مناقشة السؤال بانفتاح ثقافي مقبول، ثم تقرر في نفس الوقت، ضرورة تبيان الحد الفاصل بين الأمرين: حرية الإبداع، وضوابط الأخلاق. يقول القاضي:

"إنني أقر بأن هناك حقاً للتعبير عن النفس، سواء في التصوير أو الأدب. والأفراد الذين يعتقدون آراءً سياسية، ومواقف شديدة [راديكالية] يكونون غالباً حريصين على أن يقولوا ما يرون، دون أي اعتبار لأي تحفظ، أو قيد. وكذلك الأمر مع الكاتب المبدع أو الفنان: فالمرء يستطيع أن يفهم أنه يريد الحرية الكاملة، للتعبير عن موهبته أو عبقريته. ولكنه مع ذلك هو عضو في المجتمع، مثله مثل أي عضو آخر، وعليه نفس المسؤوليات تجاه الأعضاء الآخرين في المجتمع - مثل أي فرد آخر - بأن لا يؤدي أحداً: عقلياً، أو جسدياً، أو روحياً. فإذا ما قام صراع بين الفنان أو الكاتب - في رغبته للتعبير عن نفسه - وبين معنى أن الأخلاق هي أمر جوهري لصالح المجتمع؛ فإذا ما قام مثل هذا الصراع، فإن الأخلاق يجب أن تكون لها الغلبة"<sup>(1)</sup>.

وبعد كل ما مضى، يبقى السؤال ملحاً: لماذا انبهرنا بالمتشائل، مع أننا نعلم منذ زمن بعيد بأن المتشائل هو إميل ذاته؟.

لقد تحاورنا مع العديد من المثقفين الفلسطينيين حول هذا الأمر. وكلهم لم يستطيع الإفصاح عن السبب. ولقد كان من اللافت أن الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور، كان يوافقنا بأن المتشائل هو إميل ذاته، ويحدثه بأحاديث عن وقائع مذهلة، باح بها إميل لأقرب مقربيه، في لحظة من لحظات انطلاق اللاشعور، ولا نستطيع نشرها في هذا البحث، نزولاً على رغبة المتحدث. ثم حدثنا باحث آخر، من القسم الفلسطيني المحتل

---

<sup>1</sup> - ألفين كرنان. موت الأدب. ص 69

عام 1948، عن سماع شاعر، من الذين كانوا مقربين من إميل، حديثاً مشابهاً. ثم زاد: بأن هذا الشاعر مستعد لتقديم شهادة خطية، مشفوعة بالقسم، على صدق كلامه الذي باح له به إميل، في لحظة من لحظات انفجار اللاشعور. وليت الظروف سمحت بمقابلته، والحصول على شهادته.

وإن ما دعانا إلى ذكر هاتين الحادثتين، هو ما لاحظناه من شديد التشابه بين محتوئهما، مع أن كلاً من المتحدثين لم يقابل الآخر، فضلاً عن أن يتفقا على قول محدد، على كل هذا القدر من الوضوح!.

وللإجابة على هذا السؤال، كان لابد من قراءة نقدية لأهم إبداعات إميل حبيبي (المتشائل، واخطية، وسرايا بنت الغول) باعتبار النص الأول العلامة الثقافية الأخطر، نظراً لانتشاره السريع، وإجماع المتلقين على أهميته؛ ثم باعتبار النصين الأخيرين آخر ما أنتج إميل حبيبي، بعد اشتهاره، وتحوله إلى قوة ثقافية مؤثرة.

يلبي كل ذلك مراجعة نماذج مما قاله عدد من المهتمين، بإبداع إميل حبيبي، من أهل الفكر والثقافة. باعتبارهم شريحة دالة، وباعتبار أقوالهم شهادات، قد تلقي مراجعتها هنا شيئاً من الضوء، على آليات التلقي لدى القارئ العربي، عندما يواجه مثل هذه النصوص، ويتفاعل معها. وذلك هو ما سوف نناقشه في الفصل القادم، إن شاء الله.



## الفصل الثالث

### الإنتاج الإبداعي من منظور ثقافي

أولاً: مناقشة النصوص:

أولاً -1: المتشائل: الوجه والقناع:

تمهيد:

أشرنا، في الفصل الأول، إلى أن إميل حبيبي قد تخلّق أيديولوجياً، وفق وعي زائف، يفضل الحزب على الوطن. وقد بيّنا، في حينه، تلك الظروف التي اكتفت هذا التخلّق الجديد، الذي لم يكن بعيداً عن نزعة السلطة وعلاقات القوة: حيث واطبت الأنا على محاولات تحقيقها، إلى أن اكتشفت سحر الشعار الأيديولوجي وسلطته، فالتقطته وتغنعت به طويلاً.

لكن هذا القناع له ثمن باهظ، ربما لم يدرك إميل حبيبي مدى خطورته، إلا بعد الخروج من الحزب، حيث سيكتشف، متأخراً، أنه بهذا قد أضع الحزب وأضع الوطن، كالمنافق الذي أرد إرضاء كل من الرحمن والشيطان، فأغضب الأول ولم يرض الثاني. وفي مثل هذا يقول جيمس سكوت، في كتابه (المقاومة بالحيلة):

"إن أولئك الذين تجبرهم السيطرة، على وضع قناع على وجوههم، سيكتشفون ذات يوم أن وجوههم قد نمت، بحيث صارت توائم القناع. في مثل هذه الحالة، تنتج ممارسة

الخشوع مشروعيتها الخاصة، بحيث يبدو الأمر شبيهاً بما يقول باسكال، حول أولئك الذين لا إيمان دينياً لهم، لكنهم مع هذا يرغبون أن يخروا على ركبهم، خمس مرات في اليوم الواحد، للصلاة"<sup>(1)</sup>.

فلكثر ما رأينا من تناقضات لديه، أصبح من الصعب التفريق بين الأصل والقناع، لدى إميل حبيبي، وصرنا لا نقدر على رسم الحدود الدقيقة، بين نزعاته الذاتية، وشعاراته الأيديولوجية. لقد ذاب الكل في الكل في لغة تتلفع بالبلاغة لتبرير فعل الأيديولوجيا.

"وقد برهنت حركة التحليل النفسي، منذ بداياتها، على أن الغوص في خبايا العصابي أسهل من رفض الأحكام المسبقة: المتفوقة على التقديرات العلمية، والانطباعات الصالونية. ذلك لأن رقابات الأيديولوجيا أكثر فعالية وعناء من الكبت الموجود داخل كل فرد... كل هذا نحن ضحاياه، ومستفيدون منه في الوقت نفسه. فنحن عميان لأننا مغمورون، وانتهازيون لأننا معميون. وكل هذا يسكن في دواخلنا: في فكرنا ولغتنا"<sup>(2)</sup>.

ولقد علمنا أن سلطة الشعار الأيديولوجي، ليست مقتصرة على الحقل السياسي وحده، بل إنها لتتعدى ذلك إلى مجالات الحياة الأخرى، خصوصاً مجال الإبداع الأدبي والفني بكافة فروعها. فهناك مقولات، في الفن والأدب، تتحول مع شيوعها إلى شعارات ذات سلطة، من نوع خاص، يتم الاحتكام إليها، والانصياع لهيمنتها. يدرك ذلك كل من له علاقة بحقل من حقول الإنتاج الثقافي، ولا يحتاج إلى تدليل عليه. وقلما يجرؤ متقف على مواجهة هذه السلطة القاهرة المهيمنة.

---

<sup>1</sup> - جيمس سكوت. المقاومة بالحيلة. ص 23 - 24

<sup>2</sup> - جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص 8

يدرك ذلك إميل حبيبي. كما يدرك حجم السلطة الممنوحة له، في الحقلين السياسي والإبداعي. ويكيف هذا الإدراك، أفضل تكييف ممكن، حين لا يكف عن تأليف حكايات مجزأة، عن حياته؛ يقدم من خلالها، كافة نصوصه الإبداعية، مطمئناً إلى أنه بالاستناد إلى المبادئ الجمالية - التي تفصل النص عن مؤلفه - يستطيع أن ينفي كل ما يقال عنه، مما لا يرضيه، كما فعل في رده على الدكتور فيصل دراج، إذ قال يومها: "إن فيصل دراج أثبت، في دراسته هذه، أنه ملم بحركاتي وبسكناتي، إماما يخول له، إن شاء، الحصول على لقب الدكتوراه في أعماله السياسية، لا في أعماله الأدبية"<sup>(1)</sup>.

لكن هذا النفي لن يفيد شيئاً، عند التعامل مع النصوص، من خلال منهج النقد الثقافي؛ لأن الكاتب قد أضحى الآن جزءاً من النص. يعرف ذلك إميل حبيبي بحسه النقدي المرهف، ويمارسه. ويمكن التمثيل على هذه الممارسة الحبيبية، باستشهاد إميل المتكرر، بما كان قد قاله سابقاً، في (المتشائل)، في معرض جداله الثقافي، خارج نصوص الإبداع، ليثبت وجهة نظر سياسية معينة، أو ليدعو إلى قيم أخلاقية خاصة، يريد لها أن تروج وتؤثر وتصنع رأياً سياسياً وثقافياً عاماً. ولنقرأه قائلاً: "لا تلوموا الضحية"<sup>(2)</sup>؛ ثم لنقرأه في، موضع آخر، يعرض لنا العميل سعيد المتشائل باعتباره ضحية؛ وفي موقف ثالث يعترف بأنه هو المتشائل شخصياً<sup>(3)</sup>.

أو لا نرى، في كل هذا، محاولة شفافاً لمنع المتلقي من توجيه أي لوم، من أي نوع كان، لشخصه، حتى ولو كان مختلفاً معه فيما يرى: سياسياً وأخلاقياً وثقافياً؟!.

---

<sup>1</sup>- أنظر: وثيقة رقم 11

<sup>2</sup>- لعم بن لعم. ص 505

<sup>3</sup>- انظر: إميل حبيبي. الحوار الأخير. مشارف. عدد 9. ص 19

إنه يستخدم النظرية الجمالية لفائدة المقال السياسي، ويجند مؤلفه الضمني لخدمة الأيديولوجيا. هذا ما نجادل به ونسعى إلى كشفه، في المبحث التالي.

## 1-1: المؤلف المدني والمؤلف الضمني:

الكاتب هو إميل حبيبي: الشخص المدني، الذي نعرفه، ونعرف آراءه السياسية والاجتماعية، لسبب بسيط هو كونها مبذولة معروفة، من خلال مقالاته السياسية، وتصريحاته البرلمانية، ومقابلاته مع وسائل الإعلام.

أما المؤلف الضمني: فهو صورة الكاتب التي تتكون في أذهاننا، ونستخلصها من ثنايا كتابه، الذي نقرؤه. وربما تتعدد صورته بتعدد كتبه، وتعدد قرائه، بل بتعدد مرات القراءة، في بعض الأحيان؛ وما ذلك إلا لأنه من استنتاج القارئ، بهذه الدرجة أو تلك<sup>(1)</sup>.

وفي كتابات إميل حبيبي، يصعب أن نستكشف أكثر من صورة واحدة للمؤلف الضمني؛ سواء تعددت القراءات أم تعدد القارئون، بل حتى إذا تعددت الكتب: فهو واحد في كل الحالات. أما الراوي فهو - كما هو معروف - تقنية من تقنيات القص، تمثل شخصيةً وهميةً يختلقها المؤلف، وتكون مهمتها إدارة العملية السردية، بكل مفاصلها: كما لو أن شخصاً يرى ما يحدث، ثم يقص على المتلقين ما يعلمه، وفق تدخلات تزيد أو تنقص، بحسب وجهة النظر التي يشاؤها له الكاتب.

وإذا كانت كل هذه الفروق معروفة، لدى دارسي السرديات، وغير محتاجة إلى إعادة بسطها، إلا أن ما بعض ما تفترضه هذه الدراسة - ويحتاج إلى بيان هنا - هو أن لا فرق بين المؤلف الضمني والراوي، في أغلب نصوص إميل حبيبي الإبداعية؛ حيث يتماهى

<sup>1</sup> - انظر: وين بوث. بلاغة الفن القصصي. ص 83 - 85



أحدهما في الآخر: فيتحدث الراوي كأنه المؤلف الضمني، ويتحدث المؤلف الضمني كأنه الراوي؛ حتى في رواية (المتشائل)، التي اعترف إميل حبيبي أخيراً، بأن شخصيتها الرئيسية هي شخصيته هو، بكل ما فيها من سلبيات سماها (عقلانية). وهذا الاعتراف المتأخر، ليس دليلاً على التوحد بين كل من إميل حبيبي وسعيد أبي النحس المتشائل، فحسب؛ بل هو - إضافة إلى ذلك - دليل على التوحد بين سعيد، كشخصية قصصية، والمؤلف الضمني، كحزمة من القيم: فرغم أن كلا منهما شخصية ورقية من إنتاج الخطاب السردي، إلا أن إميل حبيبي، بهذا التصريح، يمحو الفوارق النظرية بينهما.

وإذا كان أغلب الكتاب لا يفصلون بين شخصياتهم المدنية، ومؤلفيهم الضمنيين، فإن ذلك راجع إلى أن كل واحد منهم، يحرص - عندما يتصدى للتأليف - على إعطاء صورة جميلة عن نفسه، بغض النظر عن موافقة هذه الصورة للواقع، من عدمها. وكمن كاتب عاش في ظل السلطة، متمتعاً بحبوحه نعيمها، ثم ظهرت صورته، لدى المتلقي، كمعارض شديد العناد، معانٍ من قهر السلطة ودكتاتورية الحاكم.

إذن فالمؤلف الضمني هو المثال الأخلاقي، الذي يتمنى الكاتب أن يكونه، في نظر نفسه، وفي نظر الآخرين. وإن مواجهة الكاتب، من خلال نقض آراء مؤلفه الضمني، سوف تكون، في نهاية المطاف، مواجهةً مع آرائه السياسية والأخلاقية الحقيقية، خصوصاً إذا اتفقت مع تصرفات الشخص المدني، الذي نعرفه ونقرأ تصريحاته. فقد ولى الزمن الذي كان يتم فيه عزل حياة الكاتب عن نصه، كما سبق أن حددنا منهجنا في هذه الدراسة، منذ المقدمة، عندما اخترنا التعامل مع التاريخ باعتباره نصاً، والتعامل مع النص باعتباره منتجاً تاريخياً.

لكن كيف أمكن للمؤلف الضمني أن يكون هو الكاتب إميل حبيبي، وكيف أمكن للشخصيتين، المدنية والورقية، أن تتماهيا في نص إميل؟. سوف نمتحن هذه الفرضية.

"النصوص وقائع سلطة، لا وقائع تبادل ديموقراطي" (1).

هكذا يقول نيتشه، بمنتهى حدة الذهن؛ واضعاً يده على مفتاح السر، في آلية الهيمنة، التي تمارسها نصوص ثقافية ذات انتشار مؤثر. ونحن نرى أن هذا القول ينطبق، تماماً، على نص إميل حبيبي الكلي - الذي جاءت كل نصوصه السابقة، كأنها مجرد إجراء تمهيدي له، ثم جاءت كل نصوصه اللاحقة، كأنها وقائع تفسيرية له - أقصد نصه الأشهر: (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل). فإميل حبيبي يستغل مهارته السردية، لإدخال المتلقي في حبال النص، بطريقة يتعذر عليه، معها، كشف الكثير من مفاصل الخطاب الثقافي السلبي، التي تختفي تحت غطاء كثيف من السرد الجميل، فقد سوغت مهارة الحكيم، قبول قبح المحتوى؛ حيث الشخصية الرئيسية، في النص، هي (العميل)، الذي يخدم العدو، ضد مصلحة شعبه، ولمصلحته الذاتية الآتية، بمفهوم شديد الأنانية والضيق.

ولكن قبل التعمق في أي تحليل ثقافي للمتشائل، يجدر بنا الالتفات إلى أمر هام، وهو أننا عندما نقرأ أي نص سردي، فإننا نقرأ الكلمات التي على الصفحات، وهذه الكلمات ليست هي القصة أو الحكيم؛ فالقصة "ينشئها القارئ من الكلمات التي على الصفحة، بعملية استدلالية: وهي مهارة يمكن تطويرها. ودور القارئ فيها هو - بمعنى ما - إبداعي: إذ لا وجود للقصة بدونه. ولكنه [أي دور القارئ] أيضاً مشروط بقوانين الاستدلال، التي تضع حدوداً لشرعية إنشاء القارئ للقصة... في قراءة السرد إذن، نترجم النص إلى حكي، باتباع الشفرات التي كنا قد تمثلناها... إن الذاكرة لا تختزن كلمات النصوص، بل مفاهيمها: ليست الدوال بل المدلولات. وحين نقرأ نصاً سردياً، فنحن نعامله إذن كحكي.

---

<sup>1</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 45

ولو أعدنا رواية القصة فستكون بكلماتنا نحن... لأن جوهر القصص لا يكمن في لغته ، بل في بنيته الحكائية<sup>(1)</sup>.

إن أماننا احتمالات متعددة لقراءة (المتشائل). لكننا نختار أهم احتمالين؛ بصفتها يحيلان إلى اتجاهين رئيسيين في التحليل الأدبي:

الاتجاه الأول ينطلق من اعتبار النص مكتملاً، ولا يسمح لأي علاقة خارجية بالحضور، تحقيقاً لمقولة النقد الجمالي (لا شيء خارج النص).

والاتجاه الثاني ينطلق من اعتبار النص واقعة ثقافية، ومادة خاماً، ينبغي استخدامها - مع كل النصوص الأخرى ذات العلاقة - لاستكشاف الأبعاد الجمالية والثقافية، سعياً لإشراك المتلقي في إكمال تحقق النص، وذلك على اعتبار أن شعار (لا شيء خارج النص) إنما يتحقق، على أكمل وجه، من خلال إدخال كل ما هو خارج النص، وله علاقة به، داخله<sup>(2)</sup>، فيصبح جزءاً منه، سعياً نحو تحليل أكثر اكتمالاً.

ونحن سوف نجرب كلا هذين الاحتمالين، تمهيداً لاختيار الاحتمال الثاني، كما أوضحنا في المقدمة المنهجية لهذا البحث. ولكننا، قبل كل ذلك، نرى ضرورة تلخيص البنية الحكائية للقصة، تمهيداً للانطلاق نحو التحليل.

## 1-2: ملخص الرواية:

القصة عبارة عن مجموعة رسائل عجيبة، يتلقاها الراوي، من أحد نزلاء مستشفى الأمراض العقلية بعكا، ويقتصر دوره على قراءتها لنا كمتلقين، لتؤلف بمجموعها هذه

<sup>1</sup> - روبرت شولز. السيمياء والتأويل. ص 188 - 189

<sup>2</sup> - انظر كلاً من: ألثين كيرنان. موت الأدب. ص 203 و: عبدالله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 46 - 47

الرواية. إذن، فنحن أمام راويين اثنين: أحدهما الشخص الذي يتقمص شخصية المؤلف،  
وثانيهما كاتب الرسائل المريض النفسي، الذي يرسلها من مستشفى الأمراض العقلية.

باستثناء استهلاكات بسيطة، في كل رسالة يبدأ بها الراوي (الشخصية الأولى) موجهة  
إلى الراوي (المؤلف)؛ سوف نرى - على طول هذا النص - غياب الراوي (المؤلف)  
وحضور الراوي (الشخصية الأولى): حيث لا يتدخل الراوي (المؤلف)، بصورة مكشوفة،  
إلا في الحواشي الموظفة لمهمة ميثاسردية، مثل زيادة بيان، أو إشارة إلى تناص.

ونحن عندما نتحدث عن الراوي - طوال هذا المبحث - فإننا نقصد الراوي (الشخصية)  
لأنه هو الضمير القائم من وراء السرد، كونه الشخصية الأولى التي تقص ما جرى لها  
من أحداث عجيبة، في زمن سردي يقارب نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، من القرن  
العشرين، بعد إعلان قيام إسرائيل، على إثر هزيمة العرب في حرب 1948.

تتألف رواية (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) من ثلاثة كتب،  
هي على التوالي:

- الكتاب الأول بعنوان: يعاد. وصدر عام 1972.
- الكتاب الثاني بعنوان: باقية. وصدر في أواخر عام 1972.
- الكتاب الثالث بعنوان: يعاد الثانية. وصدر في أواسط عام 1974.

وهكذا نلاحظ أن هذه الكتب الثلاثة، كانت قد صدرت متفرقة تباعاً، قبل أن يتم  
جمعها في كتاب واحد، عام 1974، بهذا العنوان المعروف لنا الآن.

بطل الرواية - أو شخصيتها الأولى - هو سعيد أبو النحس المتشائل، العربي الفلسطيني المنهار، تحت وطأة هزيمة روحية، تجتاح كيانه وتدفعه نحو أحضان العدو الصهيوني: هزيمة روحية قادمة من اتجاهات ثلاث، كلها متضافر عليه:

- الاتجاه الأول: هو بيئته الاجتماعية؛ حيث ينحدر من سلالة أسرة عريقة في العمالة والتعاون مع العدو، كونه ابن رجل أعدمه الثوار من قبل، وأوصى ابنه، وهو على فراش الموت، بأن يلجأ إلى ضابط البوليس الصهيوني المتقاعد (الأدون سفشارشك)، ليشغله ويحميه، كما فعل مع أبيه من قبل.
- والاتجاه الثاني: أمّاؤه الذاتي وضعف شخصيته، أمام كل من هو أقوى منه.
- والاتجاه الثالث: هو العدو الصهيوني بقوته وجبروته.

لكن هذا الامحاء الكلي لشخصية سعيد، ترك وراءه جذوة من مقاومة، توشك أن تتوقد فتخبو، فتوجه نقيمتها نحو واقعها، توجهاً يمعن في تدمير الذات، من خلال السخرية منها ومن كل ما حولها، الأمر الذي كاد أن يحول الخطاب الكلي للرواية، إلى اعتذار بلاغي عن الخيانة، تستدعيه شفقة إنسانية على مثل هذا النوع من البشر المذبوحين.

يبدأ الكتاب الأول: (يعاد) برواية سعيد، عما وقع له من أمور عجيبة، أهمها اختفاؤه، مع مجموعة من المخلوقات الفضائية، التي نزلت على الأرض، وأخذته معها. لكنه يستطرد - بأسلوب استرجاع رشيق - ليروي لنا قصته؛ معلناً بأن حياته الماضية، في إسرائيل، كانت فضلة حمار: إذ كان حمار سائب هو الذي أنقذه من الرصاص المنطلق نحوه، حين صرع رجال المقاومة أباه، أمام ناظريه: فتلقي الحمار الرصاص بدلاً منه، وهرب هو ناجياً بجلده إلى عكا، ومنها إلى لبنان. لكن سعيداً سرعان ما يقرر العودة إلى

(إسرائيل)، بعد أن أنفق كل ما لديه. فعاد برفقة عشيق أخته، الدكتور العامل في جيش الإنقاذ العربي<sup>(1)</sup>، الذي لم يكن قد أتم انسحابه من فلسطين، على ما يبدو<sup>(2)</sup>.

يدخل سعيد (إسرائيل)، ويتوجه من فوره إلى مقر الحاكم العسكري الصهيوني، في كفر ياسيف، ليعرض نفسه كعميل، يريد تجديد ارتباطه مع (الخواجا سفشارشك). فينقله الحاكم العسكري إلى عكا، حيث يتذكر، في الطريق، حبه الأول يعاد: الفتاة الحيفاوية التي تعرف عليها خلال سني دراستهما، في المدرسة الثانوية بعكا، والتي تسبب أسناذه في إخراجها من المدرسة، حتى يفرق بينهما.

في عكا، يتقرر نقل سعيد إلى حيفا. لكن بسبب حلول الليل، يقرر له مشغله المبيت في جامع الجزائر، وسط جموع العرب المختبئين هناك، خشية الترحيل. فيلتقي أستاذه، الذي سرعان ما نكتشف أنه عميل مزروع، بين هؤلاء اللاتذنين بالمسجد، لتسهيل تسليم (المتسللين) منهم لشاحنات الترحيل، مرة أخرى.

وفي تلك الليلة، يشاهد سعيد الإشارة الأولى من الفضاء، فيخرج من المسجد، ويجوب طرقات عكا المظلمة، وهو يتطلع إلى فوق. حتى إذا انقضى الفجر الكاذب، واشتد سواد الليل، رأى ضوءاً في جهة البحر، فسار نحوه متيقناً أنه دعوة سماوية، ليكتشف أنه مجرد مخلوق فضائي، يوجه إليه نصائح أيديولوجية، تحيلنا إلى المؤلف الضمني. وعندما ينبجج الفجر الصادق، يجد سعيد نفسه في باحة مسجد الجزائر، يتمطى متثائباً<sup>(3)</sup>.

في الصباح، يتوجه سعيد إلى مركز شرطة عكا. فينقله الصهاينة - في ظهر سيارة عسكرية مكشوفة - إلى حيفا، ويسلمونه هناك إلى اللجنة العربية المؤقتة. وفي صباح اليوم

<sup>1</sup> - المعروف بجيش فوزي القاوقجي.

<sup>2</sup> - انظر: إميل حبيبي. المتشائل. ص 59 - 64

<sup>3</sup> - انظر: المتشائل. ص 65 - 90

الذي يليه، يتوجه إلى مكتب الأدون سفارشك، الذي يرحب به، ويعطيه مبلغاً من المال، قائلاً: "أبوك خدمنا. خذ هذا وكل"<sup>(1)</sup>.

ذهب سعيد، وسكن في أحد بيوت عرب حيفا النازحين. إلى أن جاء الجنود المسرحون وطرده، فاشتغل زعيم عمال في (اتحاد عمال فلسطين)<sup>(2)</sup>، وصار يدخل البيوت العربية، التي غاب عنها سكانها، ليجمع أثاث بيته، الذي لم نخبرنا الرواية كيف امتلكه. وحتى لا نظن أنه بيت سعيد، الذي ورثه عن أبيه، يسارع الراوي إلى إخبارنا، بأن بيت سعيد الموروث قد اغتصبته أسرة يهودية، ولا يجترئ سعيد على مجرد الاقتراب منه<sup>(3)</sup>.

تجتاح سعيداً رغبةً في تعلم اللغة العبرية، وإذ يكتشف أن كثيراً من اليهود لا يتحدثونها، يُلقى في روعه أن دولةً هذا حالها لن تعمّر طويلاً. لذا نجده يلجأ إلى الاحتياط للأمر بمحاولة تحسين العلاقات مع أحد دعاة القومية العبرية، لكنه يكتشف بأنه عميل مثله، وأن لا أحد أحسن من أحد. فيقرر الخروج مرة أخرى إلى دياميس عكا، ليلتقي صاحبه الفضائي، ويختار لهذا الغرض يوم العطلة الرسمية (السبت). وفي مساء يوم الجمعة، تجتاحه المفاجأة التي تزيده إمعاناً في العمالة، إذ تزوره حبيبته يعاد، وتطالبه بأن يتوسط لدى أسياده، لإخراج أبيها من السجن؛ معتقدة أنه هو الذي وشى به إلى الصهاينة. وعندما يحاول إقناعها بأنه ليس الفاعل، تقرر المبيت في بيته، باعتباره بيتاً آمناً من قوات الاحتلال، التي تعتبر قدوم أمثالها من الناصرة إلى حيفا، تسلاً ممنوعاً،

<sup>1</sup>. المتشائل. ص 93

<sup>2</sup>. تنظيم خاص بالعمال العرب، أسسته نقابة العمال العبريين "الهستروت" في عهد الانتداب البريطاني عام 1928، تحت قيادتها المباشرة، لأنها لم تكن رغبة في انضمام العمال العرب إليها، من جهة؛ ومن الجهة الأخرى، كانت تريد بذلك الالتفاف على أي محاولة لتشكيل اتحاد عمال عربي مناضل، يبرز الوجه العنصري للهستروت. انظر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 42. وانظر: حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي. ص 489

<sup>3</sup>. انظر: المتشائل. ص 93 - 96

رغم أن المدينتين تقعان تحت نفس الاحتلال. ولكن السلطات الصهيونية تتنبه لهذا الاختراق الأمني، فتهاجم البيت، وتعتقل يعاد، وتلقي بها وراء خطوط الهدنة، في جنين، بالضفة الغربية<sup>(1)</sup>.

صرخت يعاد وهم يحملونها في السيارة: "سعيد، يا سعيد، لا يهملك، فإنني عائدة". ثم بقي سعيد في انتظارها عشرين عاماً، بعد أن أرسلت له، من مهرجها، رسالة تخبره فيها بأنها اختارته زوجاً، وأن عليه أن يسعى لإنقاذ والدها السجين. لكن سعيداً لن يحدثنا بعد ذلك عن جهوده في إنقاذ والد زوجته، بل سيستعيض عن ذلك بمحاربة الوطنيين والشيوخ، والوشاية بنشاطاتهم، وحشد الأصوات الانتخابية لخصومهم الصهاينة. كل ذلك لكي يحقق له معلمه يعقوب (ربما هو الأدون سفارشك) أمنيته بجمع شمله على يعاد. لكن يعقوب، مثل أي عدو، يواصل مطالبة سعيد بالمزيد، ثم لا يفي له بوعد أبداً. وهنا ينتهي الكتاب الأول<sup>(2)</sup>.

يحيل التاريخ المرقوم - في بداية الكتاب الثاني: (باقية) - إلى أواخر عام 1972، مما يدل على وجود فترة انقطاع، تقدر بالشهور، وتفصل بين نشر الكتابين، الأول والثاني. ولأن المؤلف الضمني شعر بأنه ملزم بتبرير هذا الانقطاع، فقد لجأ إلى حيلة سردية، دفع من خلالها الراوي إلى الاستهلال، بتبرير مماثل عن صمته السابق، قبل الدخول في اللحظة السردية التالية، بهذا الشكل: "أما بعد. فأمسكت عن الكتابة إليك، زماناً شحيحاً، لأسباب أمنية: أمني هذه المرة؛ لا أمن الدولة. وأمن أخوتي الفضائيين، الذين أقيم في كنفهم، في دياميس عكا، آمناً غير مطمئن"<sup>(3)</sup>.

---

<sup>1</sup> - انظر: المتشائل. ص 98 - 109

<sup>2</sup> - انظر: المتشائل. ص 109 - 112

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 115



ثم يواصل الراوي سرده، بخروجه مع أخيه الفضائي، إلى البحر، لاصطياد السمك، في زمن سردي يتوافق هذه المرة مع زمن الكتابة. نعرف ذلك من إشاراتِهِ إلى حرب حزيران 1967، وعملية ميونيخ الفدائية، التي جرت في سبتمبر 1972، وقُتل فيها رياضيو الأولمبياد الإسرائيليين<sup>(1)</sup>.

وبعد استطرادات متعددة، ينتقل بنا الراوي إلى قصة حبه الثاني، للفتاة الطنطورية (باقية)، التي ظل يراقبها دون أن يجرؤ على محادثتها، حتى إذا أدرك أنها تحبه، أحبها! هكذا، في إشارة إلى سلبيته التامة، وضعف قدرته على المبادرة، ولولا توسط معلمه يعقوب، لدى أحوالها - الذين هم من صنف سعيد - لما تمكن الراوي من الزواج بها. فقد أدركنا بعد سطور قليلة، بأنها امرأة وطنية. وأدرك المتشائل هذه الحقيقة متأخراً، فندم<sup>(2)</sup>.

حاولت باقية أن تدفع بالمتشائل إلى العيش بكرامة. ولكي تغريه بالاستقالة من وظيفته الدنيئة، أخبرته بأن لديها صندوقاً حديدياً، مخفياً في خرائب قريتها (الطنطورة)، وممتلئاً بالذهب الذي خلقه لها والدها. وأن ما عليه سوى أن يتدبر أمر التسلل إلى الخرائب ليلاً، لاسترجاعه، والاعتناء به عما هو فيه. لكن المتشائل، لشدة خوفه، ظل يؤجل استخراج الكنز، حتى كبر ابنه (ولاء) واستولى عليه بمعرفة أمه، وبالاتفاق مع رفاق له، "فاشترؤوا سلاحاً وذخيرة ومتفجرات، وأقاموا مخزناً وموئلاً سرياً في خرائب الطنطورة. فأرسلوا أحدهم إلى لبنان حتى يقيم صلة بالفدائيين"<sup>(3)</sup>.

فلما اكتشف الصهاينة الأمر، حملوا الوالدين إلى الكهف، الذي كمن فيه الابن، ليقتلوا بالاستسلام. ودار حوار بين الأم والابن، حول ضرورة تسليم نفسه، لأنه محاصر. فسخر

<sup>1</sup> - انظر: المتشائل. ص 115 - 118

<sup>2</sup> - انظر: المتشائل. ص 124 - 132

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 132 - 147

ولاء من هذا الاقتراح، مصمماً على المقاومة حتى النهاية. فلما رأت أمه منه ذلك، قفزت إليه لتحميمه بالرشاش الآخر؛ الذي أدركنا الآن أنه موجود في الصندوق، وأن باقية كانت تقصد السلاح المخبوء، حين كانت تتحدث لزوجها عن الكنز، طوال السنوات الماضية<sup>(1)</sup>.

قفزت باقية إلى جانب ابنها المحاصر، ثم قفزاً سوياً إلى البحر، وهربا. ولم يتمكن الصهاينة من القبض على أي منهما. وعاش سعيد بعد ذلك شهوراً، ينتظر إشارة من الابن والزوجة، دون جدوى. وإلى هنا ينتهي الكتاب الثاني<sup>(2)</sup>.

يبتدئ الكتاب الثالث: (يعاد الثانية)، كسابقه، برسالة يرسلها المتشائل إلى المؤلف الضمني، بعد حوالي سنتين من صدور الكتاب الثاني: أي في أواسط العام 1974. وهذه الرسالة تتحدث عن النهاية التي يجد سعيد عليها نفسه، بعد كل ما حدث. حيث يصحو من النوم، فيجد نفسه فوق خازوق. فيحاول إقناع نفسه بأن الأمر لا يعدو أن يكون وهماً أو حلماً، لكن دون جدوى، فالأمر حقيقة لا ينفع معها التجاهل. ولشدة جنبه، يظل متردداً في القفز عن الخازوق<sup>(3)</sup>.

إذن، فالراوي يروي لنا هذا الجزء، وهو قاعد على خازوق، يتطلع إلى أخوته الفضائيين فوق، ويستعيد حياته الماضية، فيروي لنا حادثة لقائه مع يعاد الثانية، في السجن، الذي تسبب به لنفسه، بتصرف أحمق أغضب منه معلمه يعقوب، في ليلة من ليالي حرب 1967، التي سمع خلالها نداء الإذاعة الإسرائيلية، "وهو يدعو العرب المهزومين، إلى رفع أعلام بيضاء، فوق أسطح منازلهم"، فظن النداء موجهاً إلى عرب إسرائيل، فسارع إلى تلبيته، ورفع قماشة بيضاء على عصا مكنسة، وثبتها فوق سطح

---

<sup>1</sup> - انظر: المتشائل. ص 147 - 154

<sup>2</sup> - انظر: المتشائل. ص 154 - 156

<sup>3</sup> - انظر: المتشائل. ص 159 - 160

منزله "في شارع الجبل، في حيفا، ولاء الإفراط في الولاء للدولة"، غير مدرك أن النداء موجه "نحو عرب الضفة... استسلاماً أمام الاحتلال الإسرائيلي". فسارع أسياده إلى اقتياده إلى السجن، مفسرين فعله هذا كإعلان "لشق عصا الطاعة" واعتبار "حيفا التي هي في قلب الدولة" مدينةً محتلةً، يدعو المتشائل "إلى فصلها عن الدولة" الإسرائيلية التي لا يعترف بها<sup>(1)</sup>.

هناك - في سجن شطة الرهيب، الواقع في غور بيسان - يلتقي سعيد فدائياً أسيراً، يبث فيه شيئاً من روح الرجولة وقليلاً من الأمل، حيث يرى في عينيه ملاعب الصبا، ويسمع في صوته "صراخ يعاد القديمة، والعسكر يلقونها في سيارة الترحيل".

وحين ينتبه حراس السجن إلى خطئهم، ينقلون المتشائل إلى القاوش، مع باقي السجناء، حيث يعرف منهم أن اسم الفدائي هو سعيد. فيقرر التوبة، والبحث عن يعاد، فور خروجه من السجن. وينفذ المتشائل قراره هذا، رغم تهديدات يعقوب ومضايقات جهازه. ويتقبل الناس توبته، ويبدأون في تغيير طريقة التعامل معه. وعندما يصادف، في طريق خروجه من السجن، شخصاً من نابلس، يسأل عن الفدائي سعيد - بعد أن أنكر مدير السجن وجوده - يهتف المتشائل مذهولاً: أنا سعيد. فتلتفت نحوه فتاة من داخل السيارة "فتة زوبعية وهي تصيح: بل أخي سعيد". فيرى فيها المتشائل حبه الغائب يعاد، فينفجر بالبكاء، ويكتشف الجميع بأن هذه الفتاة هي ابنتها، من زواجها في المهجر، وقد سمتها باسمها، كما سمت أباها الفدائي السجين سعيداً، على اسم المتشائل، وأن يعاداً الثانية هذه قد جاءت من بيروت، في زيارة عبر الجسر، بحثاً عن أخيها. وهكذا تصبح عودة يعاد، إيذاناً بشفاء سعيد أبي النحس المتشائل، من مرض العمالة<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup>. انظر: المتشائل. ص 161 - 164

<sup>2</sup>. انظر: المتشائل. ص 171 - 185

ما إن حمل سعيد يعاداً الثانية إلى بيته في حيفا، حتى طوق العسكر بيته، بعد أن علمت الدولة بحقيقة ما حدث. وتقدم ضابط الشرطة من يعاد، وقرأ أوراقها بكل احترام، ثم اعتذر لها "عن الأمر الجديد الصادر بإلغاء الإذن بدخولها إلى إسرائيل، وعن إلزامها بالعودة معهم إلى نابلس حالياً. وقال إنه عليها أن تعود غداً من حيث أتت، أي عبر الجسر".

وبعد حوار لافقت بينها وبين الضابط، ودعت يعاد سعيداً ومضت<sup>(1)</sup>.

وتنتهي الرواية بعودة المتشائل، من كل هذه الاستطرادات الاسترجاعية، إلى اللحظة الراهنة - التي كان قد ابتدأ بها القصة من فوق الخازوق - يطلب المساعدة للنزول على الأرض، فلا تأتيه. وعندما يظهر له كل من يعاد وباقية وسعيد الفدائي، ويدعونه إلى الذهاب معهم، يأبى. إلى أن يحضر صديقه الفضائي، فيحمله على ظهره، ويحلقان سوياً في الفضاء<sup>(2)</sup>.

## 1- 2/أ: التحليل الأول:

من منظور بنيوي شكلائي، يمكن لنا قراءة هذه الرواية، بوصفها نصياً حاداً لنموذج فلاديمير بروب: فإذا كان البطل، في الحكايات الخرافية، يأتي لينقذ الأميرة الأسيرة من أيدي خاطفيها، مذللاً كل الصعوبات في الطريق، ومستفيداً من المساعدة الممنوحة له، بعد خروجه، ثم نجاحه في الاختبار؛ لينتهي به الأمر إلى هزيمة الأشرار، وإنقاذ الأميرة، ثم التمتع بالحب والزواج، والعيش في (النبات والنبات) وإنجاب الصبية والبنات... إذا كان مثل هذا هو الذي يحدث في الحكايات الخرافية، فإن الأمر على العكس من ذلك

---

<sup>1</sup>. انظر: المتشائل. ص 188 - 193

<sup>2</sup>. انظر: المتشائل. ص 193 - 196

تماماً في المتشائل: حيث يمكن للبطل أن يكون هو الجيوش العربية، القادمة لتحرير الفلسطينيين (أي الأميرة الأسيرة) من العصابات الصهيونية (وهم الأشرار). لكن المؤلف الضمني للمتشائل يرغب في قلب هذه المعادلة ، حيث يجعل الأميرة المأسورة (الفلسطينيين) ترفض القبول بمساعدة البطل (الجيوش العربية)، وتقلب عليه، بسبب تشككها في دوافعه، مفضلة البقاء في الأسر. بل إنها تذهب إلى حد التعاون مع سجانها ضد منقذها البطل. أما لماذا ذهبت الأميرة هذا المذهب - في نظر المؤلف الضمني - فراجع إلى ترجيحها بين احتمالين، كلاهما شر، فاخترت الأقل سوءاً من بينهما (الأسر) لعلها تجعل منه - مع الزمن - شيئاً قابلاً للتعايش معه.

وإذا كان فلاديمير بروب معارضاً شكلاً، لمنهج الواقعية الاشتراكية، الذي تبنته روسيا السوفيتية في حينه، فإن إميل حبيبي - على عكسه تماماً - مؤيد لهذا المنهج، خصوصاً في زمن كتابة هذا النص، الأمر الذي يدفع لاشعوره إلى إعادة إنتاج الحكاية، وفق هذا البناء المقلوب، لكي يقوم المتلقي بطرح السؤال الثقافي التالي: هل كان على الأميرة أن تتحاز، في الواقع الفلسطيني، إلى سجانها ضد البطل، ولماذا؟!.

لقد أراد المؤلف المدني إميل حبيبي - كما رأيناه في الفصل الأول - للعلاقة بين الفلسطينيين والجيوش العربية، أن تكون على الشكل التالي:

- المقدمة المنطقية = الجيوش العربية جاءت إلى فلسطين لهدف فاسد.
- الإجراء = يجب الوقوف ضد هذا الدخول بكل الوسائل المتاحة.
- النتيجة = هزيمة الجيوش العربية في حرب 1948.

وعندما تحقق له ذلك، ولم يتغير الواقع نحو الأفضل الذي توخاه، قلب العلاقة المنطقية السابقة على رأسها تماماً، كما فعل مؤلفه الضمني في بنية الحكاية. فصارت النتيجة مقدمة، وتحولت العلاقة إلى هذا الشكل:

- المقدمة المنطقية = هزيمة الجيوش العربية في حرب 1948.
- الإجراء = يجب استثمار هذه الهزيمة لصالح الفلسطينيين.
- النتيجة = لم يستفد الفلسطينيون شيئاً، لذا يمكن التعويض بكسب شخصي.

لقد وجدنا المؤلف المدني - في الحالتين - يحاول استباق النتيجة، بهدف تحقيق الفائدة. لكنه عندما وجد أن هدفه لم يتحقق بتحقيق النتيجة، في العلاقة الأولى، سارع إلى قلب العلاقة على رأسها، مخففاً عن ضميره عبء المشاركة في هزيمة لم تحقق فائدة، ومستعيضاً عن الهدف الوطني، بالفائدة الشخصية. بل إنه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما صار يتخذ من واقعة الهزيمة ذريعة، لإثبات عدم جدوى معاداة الدولة اليهودية. الأمر الذي أدى به في، نهاية المطاف، إلى ذلك التشكل المضاد، الذي أشرنا إليه في الفصل الأول.

## 1- 2/ب: التحليل الثاني:

إذا كانت رواية المتشائل نصاً غير مكتمل، وواقعة ثقافية، فإن علينا أن نحلها باعتبارها مادة خاماً يجري استخدامها، مع مواد أخرى ذات علاقة بالنص ومن خارجه. فالقصة في النص ما زالت بعيدة عن الاكتمال: بمعنى أن هناك فجوات في الحكي وتكتماً في النص، واستعمالاً متضارباً، إلى حد كبير، لسرد كل من المؤلف الضمني والراوي والمؤلف المدني. وسنلاحظ في هذا النص ملاحظات لافتة تتمثل في الآتي:

- التوق الشديد إلى استعادة نظافة الضمير.
- الغضب غير المحدود على واقع ظل مرفوضاً.
- الانتشار بين منظورين متغايرين للقضية الواحدة.

لكن هذا التوق الشديد إلى استعادة نظافة الضمير، بعد كل ما جرى، تقف دونه عوامل تاريخية متضافرة، من الأيديولوجيا، والمصالح الشخصية، ورهبة الاعتراف العلني. أما الغضب غير المحدود، فقد أنتج رغبة ملحة في الانتقام، ممن شاركوا في صناعة هذا الواقع، الذي كان إميل يريد له أن ينحو منحى آخر، أقل إضراراً بالفلسطينيين، الذين يتعامل معهم باعتبارهم سكاناً نُهبت أراضيهم وموارد رزقهم؛ بغض النظر عما أصابهم من صغار قومي، الأمر الذي نراه ماثلاً في هذه السخرية المريرة من العروبة والعرب. في حين أن تجربة إميل حبيبي المحتدمة سياسياً، في الحزب الشيوعي، وعضويته المبكرة بالبرلمان الإسرائيلي، قد جعلته يقف على حد السيف، بين المنظور العربي للقضايا المصرية، والمنظور الإسرائيلي. إنه يرى الوجهين - في الآن ذاته - وينشطر بينهما<sup>(1)</sup>.

وقد تمثل هذا الانشطار - في أوضح صوره - في إبداعه لشخصية المتشائل، من خلال كتابة سردية "تقيم ضفائر متشابكة بين الأنا والآخر، وتسمح باتساع درجة الوعي ليشمل ويحتضن المنظور المغاير"<sup>(2)</sup>.

إذن فنحن أمام كاتب منحاز إلى وجهات نظر مسبقة ومحددة؛ تتبدى من وراء الكلمات المطبوعة على الورق.

ويوصف هذه الرواية نصاً، فإنها سوف تحيلنا إلى نصوص أخرى، منها على سبيل المثال، حادثة هروب إميل حبيبي إلى لبنان، في نهايات عام 1947، بعد إحراق الجماهير لمقرات عصبة التحرر، على إثر إعلانها قبول قرار التقسيم. ثم عودته بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، بوساطة من الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ونحن نعرف أن هذا الهروب،

---

<sup>1</sup> - صلاح فضل. على حد السيف. مشارف. عدد9. ص97

<sup>2</sup> - صلاح فضل. على حد السيف. مشارف. عدد9. ص97

كان خشية الاغتيال، على أيدي رجال المقاومة الفلسطينية<sup>(1)</sup>. ثم إننا نعرف كذلك، أن هذه العودة لم تكن لتحدث، لو قُدِّر للعرب أن ينتصروا في حرب 1948؛ بل لأصبح إميل حبيبي عندئذ مطلوباً للدولة الفلسطينية، بتهمة الخيانة العظمى. لكن مسارات الحرب تغيرت، وهُزم العرب، وعاد إميل، ثم صُوِّرت هذه العودة - فيما بعد - على أنها انتصار!. ولننظر كيف تم قياس حدث، على هذا القدر من الأهمية، بنتائج حرب تكالبت فيها قوى الظلم على الحق، الذي صار عليه أن يصبح باطلاً، لمجرد أنه عجز عن دحر قوى أكبر منه، بما لا يُقاس!.

في معرض حديثه عن عميد الأدب العربي طه حسين، يقول الدكتور صلاح فضل، في وصف القراءة الكاشفة للنصوص، بأن هذا النوع من القراء، "يعيد النظر في كل شيء، يرفض المسلمات، حتى ينشئ مكانها منظومة أخرى من المبادئ، التي تحمل تناقضاتها في صلب كيائها، فيعود إلى إقرار بعض ما أنكر، وإنكار بعض ما قرأ، في حركة دائبة، هي الشاهد الوحيد على حيويته"<sup>(2)</sup>.

وجرياً على هذه الطريقة في القراءة، نود إعادة فحص المسلمات السابقة، عن إميل حبيبي، التي رسختها رواياته الشخصية للأحداث، ليقراها الآن قراءة جديدة، منطلقاً من حادثة هروب سعيد أبي النحس المتشائل، الشخصية الروائية، إلى لبنان، خلال حرب 1948، عن طريق إحالتها - تفسيرياً - إلى حادثة مماثلة في الواقع، هي حادثة هروب المؤلف المدني، إلى نفس البلد، في ظروف مشابهة، وأسباب قريبة<sup>(3)</sup>، مع فارق بسيط، يتمثل في ادعاء إميل بأنه قد عاد متسللاً، لا بوساطة الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

<sup>1</sup> - انظر: الوثيقتين 3 و 6

<sup>2</sup> - صلاح فضل. قراءة الصورة. ص 29

<sup>3</sup> - انظر: كريم مروة. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 133



وذلك تمشياً مع ما ظل يعلنه، إلى ما قبل مماته بقليل، من أن شخصية المتشائل هي نقيض شخصيته.

إذن، وإلى ما قبل اعتراف إميل بأنه هو المتشائل، فقد ظللنا متحيرين في هذا الخطاب، الذي يدعم - وعلى طول النص - هذه الشخصية المتعاونة مع الاحتلال. لقد لاحظنا ذلك من خلال اشتراك أسلوب المؤلف المدني، في الدعوة إلى نفس القيم التي يؤمن بها سعيد. بل إننا لاحظنا كذلك أن مقولات سعيد، هي نفس مقولات إميل حبيبي، السياسي والمفكر، وبالطبع هي مقولات المؤلف الضمني. غير أن سيطرة إميل على نصه، ونقضه المستمر - إلى عهد قريب - للاستنتاج العقلاني المحتوم القائل بأنه هو المتشائل شخصياً؛ استطاعا مجتمعين أن يحولا غضبنا المتوقع منه، باتجاه سعيد أبي النحس المتشائل، الشخصية الورقية الوهمية، من خلال نثرٍ جميلٍ، لفنٍ حاول ذات مرة أن يكون لا شخصياً، فلم ينجح.

إن هذه السيطرة الكبيرة على النص، هي التي حولت (المتشائل) من مجموعة اعترافات كندية، إلى أدب رفيع نال تغطية أيدى إعلامية مميزة، من فريقين متعاضدين في آن واحد، حيث استطاع كلاهما تفسير النص وفق وجهة نظره، وبما يخدم مشروعه السياسي.

لكن السيطرة التقنية على النص لا تكفي وحدها - كما يدرك ذلك رجل كإميل مؤمن بقوة علاقات الإنتاج - لذا فقد ظل، حتى مراحل عمرية متأخرة، ينقض كل تفسير يذهب إلى كونه سعيداً أبا النحس المتشائل، بضعفه وتهاويه وعمالته. ومنذ متى كان يُسمح، لمن كان هذا شأنه، أن يكتسب أصوات الناخبين العرب للحزب المناضل!.. ولقد علمنا، من فرويد، بأن النقض: "طريقة للتوكيد على الشيء المكبوت... بمعونة رمز النقض،

يحرر التفكير نفسه من قيد الكبت، ويُغني نفسه بتلك المادة التي لا غنى عنها لعمله المناسب<sup>(1)</sup>.

فبالنسبة لإميل كانت الكتابة، ونقضها، يخولانه فعل عدد من الأشياء، التي لولاها لكانت كتابة نص المتشائل عملية مستحيلة، من عضو برلمان (مناضل). ومن بين تلك الأشياء، استخدام خبرات شخصية، وإعادة تركيبها، على شكل روايات وقصص، يستطيع الادعاء فيما بعد، بأنها تخيلية بحتة. ولقد استمر هذا طوال مكوث إميل في الحزب الشيوعي. فلما أن أُجبر على الاستقالة من الكنيست، عام 1972، لصالح الرفيق اليهودي (أبراهام لفنبراون) ووجد لنفسه متسعاً للادعاء بأنه رغب في هذه الاستقالة، لأسباب صحية<sup>(2)</sup>، مستعيضاً عن ذلك برئاسة تحرير جريدة الاتحاد؛ ظل متشبثاً بالادعاء بأن شخصية المتشائل نقيض شخصيته. فلما أن أزيح من هذا المنصب الهام، في آذار/مارس عام 1989<sup>(3)</sup>، وشعر بأن الحزب فقد أهميته بالنسبة إليه، واستتفد أدوات دعمه له، استقال منه بعد أقل من شهرين<sup>(4)</sup>، مكتفياً بما حققه من مجد أدبي، ومدركاً في الوقت ذاته، أن أوام الاعتراف الكبير قد أزف، وأن الموانع الكبرى أمام هذا الاعتراف، قد زالت.

لكن السياسي البراغماتي إميل حبيبي، الذي ظل يؤجل لحظة الاعتراف، لم يتفرغ للأدب، بل إنه تفرغ للتطبيع، مدركاً أن لا أحد يستطيع أن يمحو، من تاريخ الأدب، ذلك المجد الذي توصل إليه سابقاً. ثم عندما حانت اللحظة، وأصبحت الحاجة ماسة، لخطوة من النوع الثقيل، تخدم توجهاته (السلامية الجديدة) قرر أن يعترف بأنه هو المتشائل

<sup>1</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص 123

<sup>2</sup> - لكن الصحافة الإسرائيلية أوضحت، بأن الحزب الشيوعي أراد، بهذا الإجراء، تعزيز تمثيله اليهودي في الكنيست، عشية الانتخابات القريبة. وقد تمت هذه الخطوة بالتنسيق مع موسكو. انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 455

<sup>3</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 11

<sup>4</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 317، ص 416 - 418

شخصياً<sup>(1)</sup>، حيث لم تعد هناك حاجة إلى الأفضة، خصوصاً بعد توحش مجموعات - تنتسب إلى السلطة الفلسطينية - في فرضها لأطروحات ما بعد أوصلو، وترتبط بإميل حبيبي برياط وثيق<sup>(2)</sup>.

ولئن كانت الخطوة السابقة قد تمت لإميل، بفعل مكانته في الحزب والكنيست، فحري به أن ينمي هذا الحضور الآن، بقوة أخرى، هي قوة (التحالف السلمي) المعقود بين بعض الكتاب من الجهتين، ظاناً أن هذا هو أوان السلام، كما ظن من قبل خمسين عاماً، أن ذلك هو زمن الدولة اليهودية، التي جمعت "زبدة الناس"<sup>(3)</sup>.

وهكذا نرى كيف يواصل إميل المحافظة على القوة بسلطة المعرفة. ثم كيف ينمي هذه المعرفة بسلطة هذه القوة - المتحصلة أصلاً من المعرفة - في جدلية تصاعدية، تستثمر أقل القليل من المتاح، لتتال أكثر الكثير من المعروض، كما أوضح ميشيل فوكو في مقولته المشهورة: "فالقوة تنتج نوعاً من المعرفة، وتؤدي إلى تراكم المعلومات والمعارف، واستخدام كل ذلك من أجل مزيد من ممارسة القوة. وبالمقابل فإن المعرفة - بحد ذاتها - قوة؛ حيث لا يمكن الفصل بين نشأة المعارف وبين ممارسة القوة"<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي: الحوار الأخير. مشارف. عدد9. ص19

<sup>2</sup> - من هذه المجموعات هناك جماعة (تحالف السلام) التي عقدت مع فريق إسرائيلي مماثل مؤتمراً في جنيف أواخر عام2003، ووافقت فيه على التنازل عن حق العودة. وعند عودتها تلقته الجماهير الفلسطينية، عند معبر رفح، بالحجارة وأشياء أخرى. وتصدر هذه الجماعة الآن مجلة باسم (الطريق) وتعلن في كل عدد منها عن أسماء مستشارين وهميين لها، من بعض الكتاب الوطنيين المصريين.

<sup>3</sup> - هذا هو رأي إميل حبيبي في الدولة اليهودية. انظر: أحمد عمر شاهين. تواصل مع أسلوب السرد العربي.

مشارف. عدد9. ص102

<sup>4</sup> - انظر: نائر ديب مترجم هومي. ك. بابا. موقع الثقافة. هامش صفحة78

استناداً إلى الميثولوجيا القديمة، لبعض الجماعات الإنسانية، اعتبر أرسطو أن من أهم وظائف الدراما، تطهير البطل، وتنقيته من أدرانه وضلاله، بغية دفعه إلى استعادة حالة التوازن المفقودة، نتيجة خبرة مؤلمة ماضية. ويتم طقس التطهير هذا، بإعادة تجسيد هذه الخبرة المؤلمة الماضية، عن طريق التمثيل؛ الذي يمكن له أن يحقق للبطل صفاء الذهن، ووضوح الفكر، والاسترخاء. ويؤكد العالم النفسي ت. ج. شيف، أن هذا النوع من الطقوس، يعتبر وسيلة لا مثيل لها، لإحداث التطهير الفردي والجماعي. ولقد أثبتت الأبحاث المعاصرة، أن هناك أوجه شبه متعددة، بين الطقوس الميثولوجية، والأدب السردى<sup>(1)</sup>.

نتذكر هذا الكلام، ونحن نتأمل اعترافات سعيد أبي النحس المتشائل. فمع أن هذا المتساقط يمارس خيانتته، إلا أنه - وعلى امتداد العملية السردية - يعترف بجريمته هذه، اعترافاً كنسياً، يبتغي تحقيق غايتين هما:

- "الانسحاب من الفعل الطقسي، ثم الانضمام إلى الحياة اليومية مرة أخرى، [لأن] معاودة الانضمام إلى البناء الاجتماعي، على هذا النحو، هي مرحلة الإحياء"<sup>(2)</sup>، تمهيداً للعودة إلى ممارسة ذات الخطيئة، في انتظار اعتراف تطهيري جديد.
- تبرير هذه الخيانة أمام النفس، وإقناعها بأنها مجرد فعل اضطرار، أملتته الظروف، ثم تبريرها مرة أخرى أمام الآخرين، باعتبارها وجهة نظر، قابلة للمناقشة والأخذ والرد.

---

<sup>1</sup> - انظر: عزيزة صالح حافظ. نحو منهج النقد الثقافي. دراسة من كتاب لعدة مؤلفين، بعنوان: النقد الثقافي والنقد النسوي. ص 29 - 31

<sup>2</sup> - عزيزة صالح حافظ. نحو منهج النقد الثقافي. ص 29

إننا نرى هنا مزجاً حاداً، بين فعل بدائي، ذي صبغة دينية من ناحية، وبين قوة فكر يحاول التعبير عن نفسه، في وجه علاقات مجتمعية رافضة، من ناحية أخرى. فماذا يفعل إميل حبيبي؟. وكيف يمكن له ممارسة الطقس الوثني، والتهرب من تبعاته في آن؟. لقد كان هذا هو السؤال الأعمق، الذي واجه إميل حبيبي، قبل أن يجد إجابته، آخر الأمر، في الفن؛ حيث يمكن له اللجوء إلى الفن، لتحقيق الغايتين اللتين تبدوان متناقضتين: التطهر، والهروب من دفع الثمن.

فالفن - كما يقول فرويد - "هو المجال الوحيد الذي تصان فيه كل قوة الأفكار، إلى يومنا هذا. ففي الفن - فقط - يمكن للإنسان، المعذب برغباته، أن يحقق شيئاً شبيهاً بالإشباع. وبفضل الوهم الفني، تولّد هذه اللعبة الأثّار الانفعالية نفسها، كأن الأمر يتعلق بشيء من الواقع. لقد صدق من تحدث عن سحر الفن، وقارن الفنان بالساحر"<sup>(1)</sup>.

لكن هذا المنطق التبريري - في المتشائل - سوف يتصاعد، مستنتجاً نتائج خُيل لسعيد أنها صحيحة، بعد أن قفز فوق المقدمات الأولى، التي كررها مراراً، حتى ظن أنها قد صارت متفقاً عليها. ولقد كانت أخطر هذه النتائج، لا مجرد الاعتراف بأن الخيانة هي وجهة نظر تستحق النقاش؛ بل تأكيده أنها - في قابليتها هذه للمناقشة - لا تقبل الدحض، أو إعادة الفحص. بل تشن هجومها على كل وجهات النظر الأخرى، التي تقول بضرورة المقاومة، وتصورها بطريقة هزلية، على أنها سبب النكبة: في صعود مباشر لوجهة نظر المؤلف الضمني، على سطح النص، بطريقة تسوّق للأيديولوجيا على حساب الفن. بالضبط، كما تسوّق للخيانة كوجهة نظر كلية وشاملة. ولننظر في هذا المقطع من المتشائل:

---

<sup>1</sup> - انظر: جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص23

"قلت: ما لي غير المحامي عصام الباذنجاني، صديق ابن العم الوزير الأردني، وأخيه الروح بالروح. وكان قد حول بيته الكبير في شارع عباس إلى صومعة، ينفث منها اللهب على دولة الأدون سفارشك، كلما زاره صحفي أجنبي. حتى الشيعيين، الذين اعتبرهم وزير الأقليات أخطر طابور خامس في عقر الدولة، اعتبرهم صديق ابن العم الوزير الأردني مارقين على العروبة وعلى دينها. وكان لا يعترف بهما - بالدولة وبصحفها - فيرفض أن يقابل من رجال الصحافة سوى الأجانب. فلا تظهر تصريحاته إلا في التايمزين: تايمز لندن، وتايمز نيويورك، وفي أمهات الصحف في بلاد العرب، من النيل إلى بدي. ونحن - زعماء العمال في اتحاد عمال فلسطين - أخرجنا صفير التعجب، من شفاها المزمومة، على وقاحته القومية، حين سمعنا أنه رفض تعليم ابنه في الجامعة العبرية في القدس، بل بعثه إلى كمبردج: إلى كمبردج!. وعدنا نزم شفاها في صفير الدهشة. فلما أرخى الليل سدوله، تسترت بها وطرقت بابه. فتوقفت قرعة أحجار النرد. وفتح لي وهو يخشخش بالزهر. فمسيّت عليه، فأدهشته الزيارة. فلما رأيت أحد زملائي، من زعماء اتحاد عمال فلسطين، عنده - وكان يلاعبه، وقد هم بالخروج حين دخلت - لم أخف دهشتي. فحياني وقال: جاري!. فتحنحت على سبيل الموافقة. وبقيت أتنح حتى خرج. ولما انتهيت من تعداد ما لابن العم الوزير الأردني من مناقب، ولما انتهى الباذنجاني من التحسّر على مصيري الأسود، ومن الوعد بالعمو عند المقدر، سردت على مسامعه ما وقع في مغامرتي، وما وقع في رأسي من نتائج. فباركني وقال: يفرجها!. ولكنه لم يفرجها. فما إن وطئت قدماي عتبة النادي، في صباح اليوم التالي، حتى استدعاني يعقوب إلى غرفته."<sup>(1)</sup>.

نحن نرى الآن، في هذا المقطع، كيف تحيل الشفرة الثقافية، إلى ضرورة الاعتراف بدولة إسرائيل، والتحدث بلغتها، باعتبار اللغة الملمح الأهم من ملامح الهوية. ويجري هذا

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 98 - 99

التفسير الثقافي بقوة صوت الراوي العميل: سعيد أبي النحس المتشائل، ساخراً من أحد دعاة القومية العربية المفترضين، حيث ينعى سعيد على الباذنجاني رفضه للاعتراف بإسرائيل (دولة الأدون سفارشك) ثم رفضه لتعليم ابنه في الجامعة العبرية، معتبراً كل ذلك مجرد (وقاحة قومية) من الباذنجاني. لكأن المطلوب هو أن يعترف كل العرب بإسرائيل، ويعلموا أبناءهم في الجامعة العبرية، حتى لا يتصفوا بالوقاحة القومية!. ولئن تبقى للدعوة القومية - في نظر القارئ - شيء من احترام، فإن على الراوي أن يمحوه تماماً، بتصوير كل هذه الدعوة غلاباً خارجياً مخادعاً، يخفي وراءه العمالة الأخطر للعدو: تلك العمالة التي يكتشفها سعيد متأخراً، بعد أن يلمح له سيده بأنه يعلم بما دار بينه وبين الباذنجاني.

ولكي لا يترك الراوي، لدى القارئ، أثارة من شك في عمالة هذا النوع من القوميين، فإنه يبادر إلى إخراج زميله، العميل الآخر، من بيت الباذنجاني، قبل أن يدور بينهما أي حديث. لنستنتج منطقياً أن من أبلغ الصهاينة بمحتوى ذلك الحديث، مع الراوي، هو الداعية القومي، ولا أحد غيره!!.

ثم ها نحن نرى، على طول النص، ومن خلال النصوص المكملّة الأخرى، أن الخطاب الكلي للرواية لا يفند هذا التفسير، بل يدعمه. ولقد كانت هناك خيارات أخرى أمام المؤلف الضمني، لتصوير فظاعة الخيانة الوطنية، لو أراد ذلك، دون حاجة إلى جعل هذا الخائن، ممن يتخفون تحت شعارات العروبة البراقة. لكأن من ورائه غاية أيديولوجية، يقف من ورائها الشخص المدني وعضو الكنيست إميل حبيبي، الزعيم الشيوعي الذي كانت (جماعة الأرض) تقض مضجع حزبه، في الوسط العربي، وتستقطب الجماهير العربية من حوله، في مرحلة صعود القومية العربية، التي يتناولها هذا النص - الذي نُشر أول مرة عام 1972 - متحدثاً عن زمن سردي يوافق بدايات النكبة، ويسحب المؤلف إلى ما بعد ذلك بقليل، وتحديداً نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، من

القرن المنصرم؛ ذلك الزمن الذي شهد صعود جماعة الأرض الناصرية، ثم خلافها الحاد مع الشيوعيين، بسبب النزاع الحادث بين الزعيم جمال عبد الناصر، وحاكم العراق عبد الكريم قاسم. وما تلا ذلك من حظر نشاط جماعة الأرض، بقرار حكومي إسرائيلي أثلج صدر الشيوعيين.

ولقد يمكن أن يقال بأن المؤلف حر في اختيار شخصياته الورقية. وهذا صحيح. لكننا كذلك أحرار في الحفر، وراء دوافع هذا الاختيار المحدد، في لاشعور المؤلف، الذي هو بالصدفة شخص يكره القومية العربية، وينشغل طوال عمره بمكافحتها، ملقياً عليها كل الصفات السلبية الممكنة، إلى درجة أننا صرنا نرى في هذه الرواية، مؤلفاً ضمناً يتعاطف مع العملاء، ويبرئ ساحتهم، ثم يشجب عميلاً محدداً من بينهم، لا لشيء إلا لأنه قومي، يرفض الاعتراف بإسرائيل، والحديث بلغتها!. أفلا يحق لنا - وفق هذا المنطق المضمّر - الاستنتاج بأن المؤلف الضمني كان سوف يتعاطف مع الباذنجاني، لو أنه اكتفى بالعمالة، ثم اعترف بإسرائيل وعلم ابنه في جامعاتها!؟.

ومن جهة أخرى، يمكن الاعتراض، على تحليلنا هذا، بأن ما نقلناه هو كلام الراوي: الشخصية الورقية. لولا أننا نلمس، في غالب الأحيان، هذا التوحد الكامل، بين الراوي والمؤلف المدني<sup>(1)</sup>. ويكفينا في التدليل على هذا الاستنتاج، أن نورد المقطع التالي من المتشائل، على لسان ضابط الارتباط، المكلف بتشغيل سعيد، واستقبال وشاياته:

"قال: هذا هو التبرير الإنساني الخالص لوجه وزارة الصحة، الذي أورده وزير الدفاع عمّا اضطررنا إليه من هدم بيوت قرى الجفتلك، في الغور، ورداً على الاتهامات التي

---

<sup>1</sup> لقد وقعنا على عدد ممن يقول معنا بهذا الرأي، ونذكر منهم: كريم مروة، وإلياس خوري، ومحمد دكروب. انظر: مجلة الطريق. العدد3. السنة55. الصفحات على الترتيب: 140، 155، 156، 163، 165



قذفها في وجوهنا، في الكنيسة، النائب الشيوعي اليهودي أجير ناصر والملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس"<sup>(1)</sup>.

بماذا يتعلق الأمر في هذا المقطع؟ إنه متعلق بدال، في معناه اللساني الحديث: "يقبل في شكله المضبوط، أو من خلال شكل تقريبي، مدلولاً [يعتبار هذا المدلول] قيمة تقريبية أو إيحائية أو تعيينية [و] يكون في لحظة معينة غير ممكن قبوله، من طرف الشعور، ويجد نفسه دفعة واحدة مكبوتاً، مع أن السياق - أو ما تبقى من الجملة - يدعوه إلى احتلال مكانه"<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الدال هنا هو العبارة، التي تجمع في سياق واحد، كلاً من عبد الناصر، والملوك الثلاثة المذكورين، فإن المدلول الإيحائي لهذا الاقتران المتعمد، هو المساواة والتشابه السلبي بينهم! لقد اختار الدال هنا مدلولاً إيحائياً، استجابة لوعي مكبوت في لاشعور المرسل، لا يستطيع الإفصاح عنه بصورة مباشرة، دون توقع الخسائر. وهذا الشعور مرتبط بالمواقف الأيديولوجية للمرسل: إميل حبيبي، الذي يخلق موقفاً سردياً لضابط صهيوني، يمرر - من خلال الاختلاف معه حيناً، والاتفاق معه حيناً آخر - مواقفه السياسية الخاصة. حيث يصف الضابط الصهيوني بعض المعارضين اليهود، من شعبه، بأنهم عملاء: تلك الكلمة الهجائية المرذولة، أخلاقياً، في العرف المعلن على الأقل، لدى كل من المرسل والمستقبل.

إن الهدف، من اختلاق هذا الموقف السردى، هو إتاحة الفرصة لسخرية المؤلف الضمني من هذا الخطاب، في مفاصل محددة، ثم تأييده ودعمه، في مفاصل أخرى. كل

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 29

<sup>2</sup> - جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص 29

ذلك لأسباب أيديولوجية، تدعم الشعارات المعلنة للحزب الشيوعي الإسرائيلي، في تلك المرحلة.

فسخرية المؤلف الضمني، من بعض مفاصل هذا الخطاب، التي تصف تصرفات السلطات الصهيونية الحاكمة (في إسرائيل)، تتبدى في قول الضابط، تعليلاً لهدم بيوت العرب: "لوجه وزارة الصحة". ونحن ندرك أن هذه هي وجهة نظر المؤلف الضمني: النسخة الورقية للكاتب الساخر إميل حبيبي، المعارض الشيوعي لهدم البيوت؛ لأنه لا يعقل أن تكون هذه هي وجهة نظر الضابط الصهيوني المعلنة. فلا يمكن للمرء أن يسخر من فعل ويقوم بتبريره، في ذات الوقت.

ودعم المؤلف الضمني لمفاصل أخرى، من هذا الخطاب، يتبدى في قول الضابط: "النائب الشيوعي اليهودي أجير ناصر والملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس". ونحن ندرك، هنا كذلك، أن هذه هي وجهة نظر المؤلف الضمني. ويعيد كل البعد، أن يلجأ ضابط يهودي إلى إبراز ديانة عضو كنيسة، خلال الخطاب، لأن يهودية العضو متوقعة بالضرورة. وحيثما يلجأ الخطاب إلى مثل هذه الإضاءة اللافتة، تكون هناك حاجة للتفسير أو للأيديولوجيا. ولنتذكر سوية أن خطباء المساجد - وهم نموذج صارخ هنا - عندما يوجهون نقداً لسلوك عضو في البرلمان، فإنهم لا يذكرون ديانته، إن كان مسلماً، فإذا ما ذكروا أنه مسيحي مثلاً، فإن المستمع سيتوقع الطعن في انتمائه الوطني، باعتباره مخالفاً في الديانة. وهكذا يمكن لنا استكشاف وجهة النظر الكامنة، وراء الخطاب، في ذلك المقطع المقتبس من المتشائل.

إذن، فقد تقرر لدينا أن المؤلف الضمني، هو الذي يقف خلف تلك العبارة بشقيها، ويدعمها، متسقاً في المنظور الأيديولوجي مع عضو الكنيسة الشيوعي، المناضل المطالب في سبيل الحقوق الإنسانية للسكان العرب، المتبقين في (إسرائيل) في آن، والكاره

للقومية العربية وزعيمها، في آن آخر، إلى درجة إقران عبد الناصر في سياق واحد، مع كل من الملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس!. وإذا ما تذكرنا طبيعة نظرة الشيوعيين العرب، في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، إلى كل من ملك الأردن وأمير الكويت وسُلطان عُمان، لأدركنا حجم الظلم الذي يوقعه إميل حبيبي، بتجربة رجل في مستوى جمال عبد الناصر.

لقد عادى إميل حبيبي القومية العربية، إلى حد الوقوف مع أعدائها، وتحريض السلطات الصهيونية عليها، وإمدادها بالوثائق اللازمة للبطش بنشاطها. ولنا أن نتذكر رسالته التحريضية، إلى زملائه الكتاب اليهود، المرفق بها المواد الثبوتية، المبرهنة على ضلوع الحركة التقدمية، في رفض وجود إسرائيل، وتفاخره، علي الكتاب اليهود، برفض الجلوس مع الوطنيين العرب<sup>(1)</sup>.

لقد كان كل هذا ناتجا فعليا، لتراكم سنوات من النضال، ضد العروبة وشعاراتها، التي كان إميل يحولها إلى مادة للسخرية، من مثل قلبه للشعار المعروف: "أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة" إلى: "جهل جهلجل واحدة، ذات رسالة خالدة"<sup>(2)</sup>. ولم لا تُحتقر العروبة، في منطق إميل، وهي جهل مقرون بالفاشية والاستعمار، و(بعض الصفات العنصرية في الصهيونية)؟!<sup>(3)</sup>.

وإذا كان الخطاب السردي، للراوي العميل، متطابقا تماما مع خطاب إميل حبيبي، القائد الشيوعي وعضو الكنيست، أليس في هذا ما يكفي لاعتبار المؤلف المدني متماهيا في الراوي، الذي هو في ذات الوقت الشخصية الرئيسية في الرواية، حتى قبل أن يعترف

<sup>1</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 300 - 301

<sup>2</sup> - إميل حبيبي. كع بن كع. ص 420

<sup>3</sup> - انظر: فيصل دراج. ذاكرة المغلوبين. ص 89

إميل حبيبي، بأنه هو المتشائل شخصياً<sup>(1)</sup>؟. يقول كلود ليفي شتراوس، موضحاً مثل هذه العلاقة، بين المؤلف والشخصية: "فالسير والحكايات هي أقل التواريخ تفسيراً، إلا أنها أغنى التواريخ من حيث المعلومات؛ كونها تقارب الأفراد، لاحظتاً خصائصهم، مفصلةً طباعهم، ومميزاتهم، وملابسات دوافعهم، ومراحل قراراتهم"<sup>(2)</sup>.

أما الثيمة الأساسية في هذه الرواية، فهي ضرورة إعطاء العميل فرصته؛ لا ليبرر فعل الخيانة فحسب، بل لكي يجعل هذا الفعل أمراً عقلياً، تقتضيه الظروف ويفترضه المنطق السليم. مؤكداً بأن لا حيلة للمهزوم سوى الإمعان في الهزيمة، والسخرية السوداء من النفس والهوية.

كأن المؤلف الضمني يريد منا أن نتسامح، مع هذا الشخص المنهال على نفسه بالتحطيم، فلا نزيد بؤسه بؤساً!. ولنتأمل المقاطع الدالة التالية، من سرد الراوي لعلاقته مع سيده الصهيوني:

- "قلت: إلى أين؟ قال: عكا وانكتم. فانكتمت"<sup>(3)</sup>.
- "وتبجحت فسألته: سيارتك هذه، من أي موديل؟. فقال: انكتم. فانكتمت"<sup>(4)</sup>.
- "فتحركت وأنا أحاول أن أتوسع في مقعدي. فزجرتي فانزجرت. فأوقف السيارة وطلب مني الانتقال إلى ظهرها المفتوح، قائلاً: كل واحد يقعد في مكانه. ولكنني لم أجد على ظهرها مقعداً، فوقفت في مكاني"<sup>(5)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: إميل حبيبي. الحوار الأخير. مشارف. عدد9. ص19

<sup>2</sup> - كلود ليفي شتراوس. الفكر البري. ص312

<sup>3</sup> - المتشائل. ص67

<sup>4</sup> - المتشائل. ص69

<sup>5</sup> - المتشائل. ص92

■ "وأقبلت عليه، وأخذت يده في يدي مسلماً، قبل أن يمدّها إليّ، حتى لا أخرجها في عماه. فزجرني يعقوب وصاح: تأدب! فوفقت متأدياً"<sup>(1)</sup>.

ها نحن نرى كيف يتصاغر العميل، لا أمام سيده فحسب، بل أمامنا نحن المروري لهم، الذين لا يجد في نفسه حاجة لأن يبزر لهم تصاغره هذا، كأن الإمعان في الهزيمة فعل لا غبار عليه!. إن المهزوم يتظاهر بالصغار خوفاً، أما أن يصبح هذا الصغار جزءاً من شخصيته، فإن ذلك يذكرنا، فعلاً، بوجاهة عبارة جيمس سكوت الماضية حول نمو الوجه لمواءمة القناع.

إن تبرير خيانة سعيد، لدى المؤلف الضمني، يسلك مسالك شديدة الوعورة، وتخطب مشاعر النفس الإنسانية، معتمدة أسلوباً جمالياً يسحر المتلقي، ويعميه عن رؤية المزالق الثقافية الخطرة في الطريق. ولنقرأ هذا المقطع، حيث يخاطب الراوي المؤلف الضمني، الذي يفترض أنه عضو عربي في الحزب الشيوعي الإسرائيلي:

"علّمني بحياتك: الإنسانُ الفدّ، من يكون؟. أهو الذي يختلف عن الآخرين، أم هو الواحد من هؤلاء الآخرين؟. قلت إنك لم تحس بي أبداً، ذلك أنك بليد الحس يا محترم. فكم من مرة التقيت اسمي في أمهات الصحف؟. ألم تقرأ عن المئات الذين حبستهم شرطة حيفا في ساحة الحناطير (باريس حالياً) يوم انفجار البطيخة؟. كل عربي ساب في حيفا السفلى على الأثر حبسوه، من راجل ومن راكب. وذكرت الصحف أسماء الوجهاء الذين حُبسوا سهواً، وآخرين. آخرون: هؤلاء أنا. الصحف لا تسهو عني. فكيف تزعم أنك لم تسمع بي؟. أنا إنسان فدّ. فلا تستطيع صحيفة ذات اطلاع، وذات مصادر، وذات

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 99

إعلانات، وذات ذوات، وذات قرون، أن تهملني. إن معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة. أنا الآخرون. أنا فذاً!<sup>(1)</sup>.

فالخطاب الجمالي الظاهر يؤدي رسالة تخديرية، تحدث لدى المتلقي نشوة، تغيب الوعي، في فعلٍ أقل ما يقال فيه، بأنه سيرورةً هيمنةً تُحسن استخدام أدواتها. الأمر الذي يعطي مقولات النقد الثقافي - في ضرورة مراجعة مفاهيمنا السابقة عن النشوة - وجاهةً من نوع خاص: حيث كثيراً ما تعني النشوة التماهي المطلق في اللحظة الراهنة، والنسيان الكلي للماضي والمستقبل، كما لو كان المنتشي خارج الحياة والزمن<sup>(2)</sup>. إن هذه اللغة الكلاسيكية العالية، تركز اهتمامها على الكلمة (الرمز)، لا على المعنى: أي، بالتعبير اللساني الحديث، على الدال، لا على المدلول. بهذا، فإن الكلمة لا تسبق المعنى وحسب؛ بل تتخطاه... هنا يغيب المعنى وراء فن البلاغة، ويصبح الأسلوب موضوع النص وهمّة<sup>(3)</sup>.

وبذلك يستغل النص الجمالي بلاغته، للهيمنة على المتلقي المنتشي، وتمير خطاب مضمّر أشد عمقاً، وأقوى تأثيراً، ينسخ كل أثر سلوكي لهذا الأسلوب الراقى، ويرسخ مفاهيم سلبية تتناقض، أخلاقياً وفلسفياً، مع كل ما نؤمن به. وفي ذلك يقول الدكتور عبد الله الغدّامي: "إن هذا يجري لنا في وقت واحد، حيث نستهلك خطابات الهيمنة ونتمثلها، في تناقض تام مع ما نؤمن به صراحة. وهذا هو فعل النسق... حيث ينطوي الخطاب على بعدين ينقض مضمُرهما منطوقَ صريحهما، دون وعي من مستهلك الخطاب ولا من مبدعه"<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 62

<sup>2</sup> - انظر: ميلان كونديرا . الوصايا المغدورة. ص 87، وانظر كذلك: عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 24

<sup>3</sup> - هشام شرابي. النقد الحضاري للمجتمع العربي. ص 27

<sup>4</sup> - عبد الله الغدّامي. النقد الثقافي. ص 248

لقد رأينا كيف فعلت الهيمنة فعلتها، فسيطرت من خلال الوجداني، على العقلي، لتمرر قيم المؤسسة الأدبية، في تمجيد اللاعقلاني واللاأخلاقي، وتمنحه الجوائز، وتعطيه الشرعية، ما دام يملك المواصفات الجمالية، التي سبق لها أن كرستها. ثم ها نحن نرى - كما هو الأمر في المقطع السابق - كيف تقوم الشفرة الثقافية للخطاب، بتبني سعيد أبي النحس المتشائل، وجعله مثلاً لرجل الشارع البسيط، من العرب المتبقيين على أرضهم؛ بحيث يساوي الراوي - المدعوم من المؤلف الضمني - بين العميل، والعرب البسطاء المبتوثين في فلسطين المحتلة. وإذا كان الضمير الثقافي العربي يفترض في نفسه، الاستدلال على الطهارة، بخيارات الأغلبية الصامتة، ويجادل دوماً بأنه يقوم على تمثّل هذه الخيارات، ويستجيب لها؛ فإن المؤلف الضمني يجعل المتشائل هو هؤلاء الصامتين، بل يجعله ناطقاً باسمهم، يتحدث نيابة عنهم، ويقول: "إن معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة. أنا الآخرون". كل ذلك في خطاب جمالي شديد الخصوبة، مترع بالتراث، والإحالات النصية، والسخرية السوداء.

لقد تمكن إميل حبيبي فعلاً - وبسبب عوامل عدة - لا من طرح وجهة نظر راويه هذه فحسب، بل جعلها الوجهة المقبولة، على مستوى مساحة غير صغيرة من الفكر الثقافي الفلسطيني: حيث تم الاعتراف أخيراً، بشخصية المتشائل، كرمز ثقافي لتلك الشريحة، من الشعب الفلسطيني، المتبقية في أرضها بعد نكبة 1948. كما تم الاعتراف بأن تلك الشخصية، تستحق التفهم والقبول والانتشار ونيل الجوائز، من طرفي الصراع: الفلسطيني والإسرائيلي، باسم الوطنية الفلسطينية مرة، ثم باسم ذوبان هذه الوطنية في المحتل مرة أخرى<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - نال إميل حبيبي وسام القدس للثقافة والفنون والآداب من منظمة التحرير الفلسطينية عام 1990. ثم نال جائزة الإبداع الإسرائيلية عام 1992.

ولنقرأ شيئاً مما ورد في قرار لجنة التحكيم، التي قررت منحه جائزة إسرائيل للإبداع، كما أورده المحكم العربي الوحيد في اللجنة اليهودية:

"إن أسلوب حبيبي يتميز بالجدة والحذاقة. وبفضل كتابات حبيبي، تحولت القصة العربية المحلية من نوع أدبي هامشي وثانوي، لتحتل الصدارة، وتتمتع بتقدير واحترام كبيرين. فبعد أن كانت تئن - هذه القصة - تحت أعباء التبعية والتقليد، صار طابعها الأصالة والتفرد. إن إنتاجه جزء لا يتجزأ من الأدب العربي الحديث. وفي نفس الوقت يعتبر في لغته الأصلية (العربية) وفي ترجمته العبرية، مساهمة حقيقية وأصيلة في الأدب الإسرائيلي"<sup>(1)</sup>.

ثم لنقارن هذا القرار الصهيوني، بما قاله إميل نفسه عنه، لنكتشف كم هو متوافق مع محتواه الثقافي، الذي تولى شامير نفسه تأكيد مدلوله عملياً، بتسليم الجائزة إلى (مستحقها) في خضم الاحتفالات الرسمية بـ(استقلال إسرائيل). ففي تصريحه لصحيفة الإندبندنت اللندنية، الصادرة يوم 1992/5/7، قال إميل حبيبي: "إن في الجائزة الإسرائيلية، الممنوحة لي، اعترافاً بالثقافة الفلسطينية، في إسرائيل، كجزء من تطور التراث الإسرائيلي"<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - محمود غنيم. إنهم لا يشبهونا: ذكرياتي عن إميل حبيبي. مشارف. عدد 16. ص 81

<sup>2</sup> - انظر: فيصل دراج. بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. ص 117. وراجع مقالة لنفس الكاتب، بعنوان: إميل حبيبي ومأساة الإنسان المنقسم. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 150 - 151



وهذا التراث (الإسرائيلي) هو الذي يصير إميل حبيبي على إثباته، والدفاع عن وجوده، في تاريخ الحركة القومية اليهودية، قديماً وحديثاً، إلى حد التعجب ممن يتجرأ على إنكاره، يستوي في ذلك رفاقه الشيوعيون العرب، وزملائه في مهنة الأدب<sup>(1)</sup>.

وبذا يتأكد التشابه بين التصريحين، كما سبق أن تأكد التوحد المفترض بين المصيرين، خلال الحرب الأمريكية على العراق<sup>(2)</sup>. ويصبح على الثقافة العربية الفلسطينية - في منطلق إميل المضمّر - أن تعرب عن سرورها باعتراف الجلاّد بها؛ مقرنة هذا الاعتراف (المتسيّد) باعترافٍ مقابلٍ منها، بقدرة الجلاّد على إعطاء الأحكام السليمة<sup>(3)</sup>. ثم إن لها بعد كل ذلك أن تفخر بهذا التبني (العبري) للتراث العربي الفلسطيني!. لكأن النصر العسكري الإسرائيلي، الذي حوّل فلسطيني 1948 إلى مواطنين إسرائيليين من الدرجة الثانية، قد انسحب على الثقافة العربية الفلسطينية، ليضمها، وليضعها في المكان اللائق بثقافة من الدرجة الثانية، منغرسية في أعماق الوعي العبري، من عصور ما قبل التطور، ويتم المحافظة عليها الآن، كجزء فسيفسائي من مكونات الخطاب الثقافي الصهيوني المعاصر!.

بعد كل هذا، وإذا ما عدنا إلى استنكار عبارة نيتشه السابقة - النصوص وقائع سلطة، لا وقائع تبادل ديموقراطي<sup>(4)</sup> - فسوف ندرك الآن بصورة أعمق، كيف حقق هذا النص سلطته المطلقة، في غياب الحوار. ومن منا يستطيع - على المستوى الفلسطيني - أن

---

<sup>1</sup> - لقد سبق أن أثبتنا وصفه للإسرائيليين بأنهم (زبدة الناس). راجع الفصل الأول. أما إصراره على إثبات ما يسمى بالتراث الشعبي للحركة الصهيونية على أرض فلسطين، في حواراته التطبيعية مع المثقفين العرب، فيمكن الرجوع فيه إلى مقالة كريم مروّة. الطريق. العدد3. السنة55. ص138

<sup>2</sup> - حداشوت (عبرية). يوم1991/10/20. انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص419

<sup>3</sup> - انظر: فيصل دراج. إميل حبيبي ومأساة الإنسان المنقسم. الطريق. العدد3. السنة55. ص150

<sup>4</sup> - انظر: إدوارد سعيد. العالم والنص والناقد. ص45

يعارض كل هذا الاحتفاء، الذي استُقبل به هذا النص، لافتاً الانتباه إلى ما فيه من مزلق ثقافية ووطنية، أقل ما يقال فيها إنها تتناقض مع كل شعارات حركة التحرر الوطني، الفلسطينية والعربية، اليوم، وغداً، وإلى يوم يُبعثون؟! . فلنتذكر الآن مرة أخرى، شيئاً مما ذكره فيصل حوراني وأوردناه في الفصل الأول، عن استقبال المنظمة لهذا النص. يقول:

"بُرّت دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية... الآخرين؛ فأعدت طبعه عدة مرات، ووزعته على أوسع نطاق، فصار (كتاباً مقدساً) يتخاطفه القراء... وفي سياق الاهتمام برواية المتشائل، والسعي لتعميم تأثيرها، برزت فكرة تحويلها إلى عمل سينمائي، أو تلفزيوني... وتبنت دائرة الثقافة، في م. ت. ف، اقتراحها بتحويل المتشائل إلى مسلسل تلفزيوني... مصطفى أبو علي، المخرج الفلسطيني الذي كان رئيساً لقسم السينما في الإعلام الموحد... وضع سيناريو سينمائياً، مستنداً إلى حكاية المتشائل، وطلب من م. ت. ف. أن تخصص خمسة ملايين دولار لتنفيذه"<sup>(1)</sup>.

أليست هذه هي إرادة القوة، التي عناها نيتشه؟!.

إن ثقة إميل حبيبي بقوة هذه السلطة (الثقافية)، التي حازها أخيراً، هي التي شجعتة على الاعتراف - في معرض الرد على الاستفسار، عما إذا كان هناك أصل واقعي لشخصية سعيد أبي النحس المتشائل - بقوله:

"كنت أكذب وأقول، في الماضي، إن شخصية سعيد أبي النحس هي عكس شخصيتي. ولكنني الآن في عمر لم أعد فيه بحاجة إلى الكذب. لقد كنت أتحدث في

---

<sup>1</sup> - فيصل حوراني. حبيبي الباقي في حيفا وفينا. مشارف. العدد 11. ص 82 - 83

المتشائل، إلى حد كبير، عن نفسي: أتحدث عن نفسي بمعنى العقلانية. وعقلانيته هي عقلانيتي إلى حد ما"<sup>(1)</sup>.

إن هذا الاعتراف المتأخر والخطير، يضع المتلقي الفلسطيني والعربي أمام أحد احتمالين: إما أن يسيء قراءة النص، بتقديم أضعف التأويلين، رافضاً التماهي بين إميل حبيبي وبطل روايته؛ وإما أن يوجه صفة إلى كل مفاهيم العروبة والوطنية، بقبول سعيد أبي النحس المتشائل عضواً، كامل العضوية، في أسرة الشعب الفلسطيني العربي. ثم يقبل بأن يكون شبيهه (إميل) رائداً للأدب الفلسطيني الجميل، كما حدث فعلاً.

### 1-3: البنية العميقة للسرد:

قلنا: إن هناك عوامل ثلاثة تحدد طبيعة السرد في رواية (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) يمكن اعتبارها الحوافز<sup>(2)</sup> وراء كل ما تقوم به الشخصية الرئيسية في النص. هي:

التوق الشديد إلى استعادة نظافة الضمير.  
والغضب غير المحدود على واقع مرفوض.  
والانشطار بين منظورين متغايرين للقضية الواحدة.

فلنتناول كل عامل منها على حدة.

---

<sup>1</sup>- إميل حبيبي. الحوار الأخير. مشارف. عدد9. ص19

<sup>2</sup>- إن استخدامنا لبعض المصطلحات المستمدة من البنيوية، لا يعني بالضرورة التزامه باستراتيجيات هذا المنهج في التحليل. فقد ذكرنا، في المقدمة النظرية، بعض وجوه الاختلاف بين النقد الثقافي، كمنهج تاريخي، والبنيوية كمنهج جمالي.

### 1- 3/أ: التوق الشديد لاستعادة نقاء الضمير:

يحمل المتشائل فوق ظهره سراً، ينوء به ما تبقى من ضميره، ويبحث عن يستطيع أن يصارحه به، لعل في ذلك اعترافاً يسبق التطهير. لكنه لا يعترف ولا يتطهر؛ بل يتحول - مجازياً - إلى هرة من كثرة ما يحاول أن يقول فيمتنع، ليخرج الكلام من تحت شاربه مواءً غير مفهوم. فأبي سر هذا الذي يحمله المتشائل، أعظم مما صارحنا به على طول الصفحات السابقة؛ إلا أن يكون ذهاباً إلى مسافاتٍ غير مسبقة في خيانة شعبه! مسافاتٍ مغرقة في البعد، ولا يتوقع منه أحد سماع مثلها، ولا يجروء هو سوى على المواء بها، في هذه السطور:

"وكم من مرة هتفت بمن حولي: يا قوم، إن فوق كتفي لسراً خطيراً أنوء بحمله، فأعينوني! فما خرج من تحت شاربي سوى مواء الهرة. حتى آمنت بحلول الأرواح...  
هكذا حالي: عشرين عاماً أهرّ وأموء، حتى أصبح هذا الحلول يقيناً في خاطري...  
فهتف صاحبي الفضائي، وقد انبسط صدره: على رسلك يا ابن النحس! أراك تأهلت للانتقال إلى المرتبة التاسعة من مراتب الدعوة.  
قال: كان أسلافنا من إخوان الصفاء وخلان الوفاء، شبهوا الخلق من أمثالك بالبهائم العجمية. فلجموا كما تلجم البهائم بلجم الحديد الثقال والأرسان، لنقاد حيثما قيدت، وتمتتع عن الكلام بما أردت. حتى يأذن ربها بانتباه نائمها...  
فهتفت به: فأنطقني!  
قال: عد إلى الكتابة إلى صاحبك.  
قلت: أخرجني إلى الناس وكأنتي خارج عن الناس.  
قال: وهل الذي استشعر منهم بمختلف كثيراً عنك، أما أنت فتقمصت هرة. وأما هو فتقمص شاعراً. وكلاكما يهرب حتى يتنفس...  
قلت: وسري الدفين؟

قال: فُجِدَ به.  
وها أنا فاعل<sup>(1)</sup>.

ولكن الذي قصّه علينا المتشائل، حتى آخر الكتاب الثاني، لم يكن سرّاً دفيناً لا يستطاع البوح به، فقصة الطنطورية باقية، وابنه منها الذي صار فدائياً، يعرفها سيده الضابط الصهيوني، ويعرفها المجتمع. إذن فالسر الحقيقي الذي يتوجه إليه النص، منغرس في اللاشعور هناك، في أعماق المتشائل الحقيقي، كاتب تلك الكلمات. يقول جان بيلمان نويل: "إن أكبر ابتكار في نظرية اللاشعور: إثباته أن الفصل بين مختلف أنشطة ومواقف الإنسان قد كان اصطناعياً... يوجد أسُّ مشترك... بين السلوكات الشاذة، والمألوفة، لمختلف أصناف الأفراد، ومراحل العمر"<sup>(2)</sup>.

وإذا ما استخدمنا أدوات التحليل السيميولوجي - وهي أثيرة لدى النقد الثقافي - لكان علينا أن ننظر إلى هذه القصة، بوصفها نصاً يقدم سرداً، على المتلقي أن يترجمه إلى حكي، باتباع الشفرات: لأن القصة في النص بعيدة عن الاكتمال، وتتخللها فجوات ينبغي ردمها، وفيها تكتم يحتاج إلى هتك<sup>(3)</sup>. إذن، فهناك نقص حاصل في النص، ويحتاج إلى إكمال من مصادر أخرى، تعود للكاتب المدني: إميل حبيبي.

لقد صرح المتشائل صاحبه الفضائي بأنه يحمل سرّاً، كما لو كان يستدعي السؤال عن طبيعة هذا السر. ولو سأله الفضائي عنه، لكان أمام أحد خيارين: إما أن يصرح به، وهو لا يستطيع هنا في النص كما رأينا. وإما أن يشير إليه إشارة الهارب من التصريح

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 122 - 124

<sup>2</sup> - جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص 14

<sup>3</sup> - يقول روبرت شولز: "وحيث أن السيمياء هي دراسة الشفرات والأوساط، فلا بد أن تهتم بالأيدولوجيا، وبالبنى الاجتماعية والاقتصادية، وبالتحليل النفسي، وبالشعرية، وبنظرية الخطاب". السيمياء والتأويل. ص 15. وانظر الصفحات: 188 - 190، 201 - 202

الكلي الفطيع، إلى الإشارة الجزئية المخففة. لعل في الإشارة ما يقوم مقام العبارة، في أن، ويستجيب لرغبة الاعتراف العميقة، في أن آخر. وقد اختار الراوي الخيار الآخر، مستعيناً على هذا التناقض المنطقي بسلاح التراث، وادعاء التماثل مع الفرقة الإسماعيلية، بما هو معروف عنها من تفضيل منطوق الإشارة، على مباشرة العبارة. ومع ذلك فلم يستطع المتشائل التصريح إلا بشيء ثالث، لا يمكن اعتباره سراً، عن زوجته باقية، وابنه منها الذي صار فدائياً، لأن الجميع يعرفون هذه القصة. فما هو السر الحقيقي الذي لم يُذكر هنا؟.

إننا لن نستطيع إدراك ذلك؛ فيما لو اعتبرنا النص مكتملاً، ورفضنا الاستشهاد عليه بشيء من خارجه؛ كما تريد المدارس الجمالية. فالسر ليس سر المتشائل: الشخصية الورقية؛ بل هو سر خالقه الأول ومنشئه لحاجة في نفس يعقوب، علينا أن نقضيها له، حتى يكتمل الحكى ويتحقق النص: إنه سر إميل حبيبي الدفين، وإنها رغبة إميل حبيبي الملحة، في الاعتراف المتعذر، والتطهر المستحيل. ولتعدّ النظر فيما تحته خط من المقطع السابق، لنرى ما يلي:

- المتشائل يطلب من قوة خارجية التدخل بمساعدته للإفشاء بسره؛ كما لو أن لسانه غير قادر على الكلام، لوجود عوائق فيزيائية، تحتاج إلى إزالة. "فهمت به: فأنطقني!".
- وإذ تعرف القوة الخارجية أن المطلوب منها متوفر، لدى طالب المساعدة، فإنها تبين له طريق الخلاص، المتمثل في اتخاذ الكتابة وسيلة بوح وآلية اعتراف، تؤمن التطهر المطلوب. "عد إلى الكتابة إلى صاحبك".
- لكن المتشائل متردد في سلوك هذا الطريق، لأنه مفروش بالصعوبات المتوقعة، المعروفة لديه، نتيجة خبرة سابقة. "أخرجني إلى الناس، كأني خارج عن الناس".

- وعندئذ تقوم القوة الخارجية بتخفيف الأمر، وإقناع المتشائل بأن الطريق ليست مستحيلة السلوك، وأن ما يخشاه غير موجود في الواقع، لأن سره سوف يجد لدى صاحبه تفهماً؛ كون هذا الصاحب ليس أفضل منه. "وهل الذي استشعر منهم بمختلف كثيراً عنك!".
- ثم تعود القوة الخارجية، بعد هذا التخفيف، إلى إقناع المتشائل بالبوح. "فجُدْ به".

والآن لدينا احتمالان، لمعرفة هوية الشاكي في المقطع السابق: الاحتمال الأول أن يكون المتشائل - الراوي الشخصية الورقية - هو الذي يشكو، من صاحبٍ أظهره، في عيون الناس، بصورة الشخص الخارج عن أعراف المجتمع. لكن هذا الاحتمال تقف دونه عقبة كأداء، تتمثل في لامنتقية الشكوى! فكيف يشكو عميل - يعترف بعمالته علناً، وعلى طول النص - من شخص يتهمه بما سبق أن أقرّ به عن نفسه؟. إذن فلننحصر احتمالاً آخر، بكون الشاكي هو الشخص المدني إميل حبيبي، الذي يستعيض عن صورته بنسخة عنها، تحيل إلى المؤلف الضمني، الذي يتمظهر - قيمياً وأخلاقياً - من وراء خطاب الفضائي، المقتنع بأن ذاك الصاحب ليس أفضل حالاً من الراوي. يقول سيجموند فرويد:

"يقوم منهجنا على الملاحظة الواعية للعمليات النفسية، غير السوية، لدى إنسان آخر، ليتمكن لنا أن نحرز قوانينها وأن نصوغها. أما الروائي، فهو يسلك غير مسلكتنا: إنه يركز انتباهه على لاشعوره نفسه بالذات، ويصيخ السمع لكل قواه المضمره، ويمنحها التعبير الفني، بدل أن يكتبها بالنقد الواعي. فهو يعلم من داخل نفسه - ما نعلمه من الآخرين - ما القوانين التي تحكم حياة اللاشعور. لكنه لا يحتاج بتاتاً إلى إدراكها بوضوح: فبفضل قوة احتمال ذكائه تأتي هذه القوانين مندمجة في إبداعاته"<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ص 103

فهذا الاحتمال المنطقي، يقرر بأن إميل حبيبي، هو صاحب الشكوى الحقيقي: هو الذي يشكو، وهو الذي يركز انتباهه على لاشعوره، ويمنحه التعبير الفني اللازم. ولأنه لا يجرؤ على كتابة شكواه بالنقد الواعي، فهو يدير لنا هذا العرض، كأحد أشكال الطقوس التمثيلية، لفعل سبق أن حدث في الحياة الواقعية، تمهيداً للتطهر، كما كانت تفعل الدراما اليونانية القديمة. تقول عزيزة صالح حافظ:

"تعنى الدراما الطقسية - كما في التراجيديا اليونانية - بالمحن والمآسي التي تصدق على جميع البشر: الموت والظلم والخيانة والنفي. وأي وسيلة تمكن الناس من أن يكونوا مشاركين، في محنتهم الخاصة، وأن يكونوا مشاهدين لها؛ هي وسيلة تقي بالعنصر الثاني في هذا التصور للطقوس: أي الحفاظ على مسافة فاصلة. ويؤكد شيف (T. J. Scheff) أن الطقوس، في صورتها التقليدية، وفي صورها الحديثة [كما في الدراما والأفلام والقصص] ... وسيلة لا مثيل لها في قدرتها على الوفاء بكل من الحاجات الفردية والحاجات الجماعية. فهي تسمح للأفراد بتفريغ الألم والأسى المتراكم داخل النفس"<sup>(1)</sup>.

لكنه ثمن باهظ، هذا الذي على إميل حبيبي - عضو الكنيست، والكاتب (المناضل) - أن يدفعه، لقاء استعادة نقاء الضمير. لذا نراه يلجأ إلى هذا الاعتراف المبتور: حيث يريد أن يصرح فيموء. وإذ كان القارئ النبيه مدركاً<sup>(2)</sup> - منذ قراءة هذه الرواية - أن إميل حبيبي يموء في النص بأنه هو المتشائل، رغم إنكاره المستمر خارجه؛ لقد جاء اعترافه الأخير بذلك، غير مضيف لهذه المعرفة المسبقة سوى تأكدها.

<sup>1</sup> - عزيزة صالح حافظ. نحو منهج للنقد الثقافي. ص 31 - 32

<sup>2</sup> - يقول كريم مروء: "وهو حين يعترف بأنه هو المتشائل لا يضيف إلى تقدير القارئ النبيه شيئاً". الطريق. العدد 3.



تبقى بعد ذلك حاجتنا إلى الإجابة على سؤالين: من هو هذا الصاحب، الذي صار شاعراً، وتوفرت لديه القدرة على إخراج إميل حبيبي إلى الناس، على هذه الصورة السلبية؟. وما هو هذا السر، الذي ظل دفيناً في صدر إميل حبيبي حتى مات، وهمس به هذا الصاحب، وأعلن به آخرون؟. هل الصاحب هو محمود درويش، وهل السر هو صفقة الأسلحة التشيكية؟.

إن الدكتور عادل الأسطة من جامعة النجاح - وهو خبير بمعالجة هذه الحقبة - يميل إلى الاعتقاد بأن محمود درويش هو فعلاً ذلك الصاحب. يقول:

"وكان إميل يقصد حين قال: (ومنهم من هرب من موقفه بتغيير موقعه) محمود درويش، الذي ترك حيفا، وغادر إلى القاهرة، فيروت، وتغيرت، إثر ذلك، مواقفه السياسية. وقد اختلف موقف الشيوعيين منه، وغيروا آراءهم فيه، واعتبروه برجوازيًا صغيراً، ولم يعودوا، لفترة طويلة، ينشرون نصوصه على صفحات صحفهم ومجلاتهم، أي في جريدة الاتحاد، ومجلتي: الجديد، والغد"<sup>(1)</sup>.

أما الشاعر سميح القاسم - رفيق درب إميل في الحزب الشيوعي الإسرائيلي - فيؤكد أن السر هو صفقة الأسلحة المشؤومة، التي ما فتئ الرفاق الشيوعيون يذكرون إميلاً بها، كلما اختلفوا معه. منهم صدر الكلام. ومنهم تسرب إلى صحيفة الصنارة. يقول سميح القاسم:

---

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 11

"ألم يقرأ إميل مذكرات معلمه الشيوعي الصهيوني العريق: شموئيل ميكونس، بشأن رحلتها التاريخية إلى براغ؟! وماذا بشأن صفقة السلاح التشيكي، الأولى من نوعها في تاريخ إسرائيل، والتي تم تزويد الشاويش في الجيش الإسرائيلي بها؟"<sup>(1)</sup>.

وعندما يفشل الاعتراف المبتور في إحداث التطهير العادي، يلجأ المتشائل إلى إحداث تطهير راديكالي، يتمثل في جعل ابنه فدائياً - ونحن لا ننسى هنا أن المتشائل هو الراوي كذلك - تتم محاصرته، فيهرب مع أمه باقية، ويغيب الاثنان، ويخسر الأب في الظاهر، لكنه يربح في الواقع، استعادة نقاء الضمير. وما خسارة كل من الابن والزوجة بهذه الطريقة، إلا فعل تضحية حقيقي ينتج الحادثة فعلاً، ولا يعيد تمثيلها. كل ذلك لكي يتحقق "الانسحاب من الفعل الطقسي، ثم الانضمام إلى الحياة اليومية مرة أخرى. [لأن] معاودة الانضمام إلى البناء الاجتماعي، على هذا النحو، هي مرحلة الإحياء"<sup>(2)</sup>.

لكن استعادة نقاء الضمير سوف تحدث تدريجياً، لدواع سرديّة هذه المرة. حيث صار العمل السابق، ينتظر إشارة القبول. وفي ذلك يقول المتشائل:

"ولقد عشت فيما بعد شهوراً، وأنا موقن بأن إشارة ستأتيني منهما. فلا يطرق طارق بابي، حتى أقوم ملهوفاً: لعله منهما. ولما سمعت أن من بين كتائب الفدائيين، كتيبة باسم الطنطورة، أخذت أقفل النوافذ، وأستلقي على فراشي، وأنا أحتضن الترانزيستور"<sup>(3)</sup>.

أما العودة إلى المجتمع بصورة تامة، واستعادة نقاء الضمير، فتتحقق أخيراً، بعد الانفصال الشعوري، الذي كان لا بد من حدوثه، بين المتشائل وقائل شعبه. يحدث هذا الانفصال بعد أن يسجنه سيده، ويلتقي فدائياً آخر في السجن، ويكتشف أن اسمه سعيد،

<sup>1</sup> - انظر: وثيقة رقم 11

<sup>2</sup> - عزيزة صالح حافظ. نحو منهج للنقد الثقافي. ص 29

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 156

وأنه يحقق له العودة إلى الحياة الطبيعية، بمناداته له بيا أخي تارة، وبيا أبي أخرى. فلننظر كيف تم ذلك في وعي المتشائل:

"دوسي أيتها الأحذية الضخمة على صدري، اخنقي أنفاسي أيتها الغرفة السوداء، أطبقي على جسدي العاجز، فلولاكم لما اجتمعنا من جديد. الحرس الغلاظ، لو كانوا يعلمون، هم حرس الشرف، في بلاط هذا الملك. والغرفة السوداء الضيقة، هي البهو المفضي إلى قاعة العرش!. أصبحت أخاه. أصبحت والده. فأعيدوا ابتساماتكم إلى قوالبها أيها العسكر. وهزني اعتزاز لم يهزني منذ هتاف: هذا زوجي. أنا والدك أيها الملك. فلي ولد مثلك، إلا أن عباءته من مرجان البحر"<sup>(1)</sup>.

لقد أقام الكاتب المدني إميل حبيبي طقس التطهير هذا، ليتخفف من الإثم. لكن الذي تطهر، في الواقع، لم يكن إلا المتشائل، الشخصية الورقية، بينما ظل الشخص المدني غير قادر على الشعور براحة مماثلة. فلماذا ناب المتشائل عنه في هذه المهمة المستحيلة؟.

يمكن القول بأن عملية الاعتراف، برمتها، لم تصدر إلا عن لاشعور الكاتب المدني، المعاني من كبت أفكار غائية، على درجة كبيرة من السوء، من منظور الشعور الواعي، المحكوم بالمواضع المجتمعية، والعلاقات المنطقية. ولا ريب أن الرغبة المكبوتة، بالاعتراف، كانت أحد هذه الأفكار الغائية التي "إذا نُحيت جانباً، تولت أفكار غائية مستترة توجيه مجرى الخواطر. وإن المستدعيات السطحية ليست إلا بدائل حلت، بوساطة

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 172 - 173

اللاشعور، محل أخرى مكبوتة، أعمق غوراً. بل الحق أن هاتين القضيتين قد صارتا ركنين أساسيين في فن التحليل النفسي"<sup>(1)</sup>.

إذن فقد اعترف سعيد أبو النحس المتشائل، نيابة عن إميل حبيبي!. وإن الأسلوب الفني الرائع، لرواية المتشائل، يكمن - في أحد وجوهه - في تلك الطريقة، التي يركب فيها إميل حبيبي عناصر الحياة المتباينة، ويمزجها، بطريقة المونتاج: بحيث يتكون، من جراء هذا المونتاج، عالم ذو بنية مزدوجة، كل بنية تحيل إلى عالم قائم بذاته، ومرتبطة بالآخر، في آن؛ كأنهما عالمان توأمان: واحد أصيل يمكن اعتباره (الصوت)، وآخر بالنيابة يمكن اعتباره (الصدى). وذلك لأن كلاً من إميل حبيبي وشخصيته الرئيسية (سعيد أبي النحس المتشائل) يتقن فنون الاستبدال والتغلب والمحاكاة، طوال عملية السرد. والقارئ البسيط لا يعلم أين هو إميل حبيبي من سعيد، وأين هو سعيد من إميل حبيبي، وما هي الفواصل بين شخصيتي الكاتب السياسي والبطل السلبي، ومتى يكون الراوي هو المؤلف نفسه، ومتى يكون مجرد تقنية سردية تتقن الاحتيال علينا جميعاً، لأن كل واحد منهما يسند الآخر حيناً، ويتغلب عليه حيناً آخر، ويحاكيه في أغلب الأحيان.

وعندما نحاول الفصل ما بين الصوت والصدى: بين موقفي إميل وسعيد؛ نلاحظ أن موقف المؤلف الضمني يدعم منطق المقاومة، والانفصال الشعوري عن الاحتلال، بخلاف موقف الشخص المدني المعلن - إميل حبيبي - الذي كان قد صرح، في تاريخ مقارب، تصريحات مخالفة لمنطق كل من المؤلف الضمني، والموقف الجديد للراوي، بل وموقف (ولاء) الذي اختار طريق الكفاح المسلح. فمن منهما الصوت، ومن منهما الصدى؟.

---

<sup>1</sup> - سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ص 524

لا شك أن الشخص المدني هو الصوت الأصيل - الموافق للواقع - فيما يمكن اعتباره المؤلف الضمني هو الصدى. ولنتفحص تاريخ كتابة هذا الجزء من المتشائل، قبل كل شيء.

لقد نشر إميل حبيبي الكتاب الثالث من المتشائل، في أواسط عام 1974. وكان قد نشر الكتاب الثاني - الذي يذكر فيه تمرد ابن المتشائل على منطق أبيه، واختياره طريق الكفاح المسلح - في أواخر عام 1972. وفي هذه الفترة، تقريباً، حدثت في حيفا الحادثة التالية:

"في نهاية عام 1972، كشفت السلطة الصهيونية ما أسمته (شبكة التجسس) العربية اليهودية، التي يقودها المناضل داود تركي<sup>(1)</sup>... ولم يتردد الحزب في المشاركة، في حملة التحريض الإعلامية الصهيونية ضد داود تركي، بشكل خاص. وقد كتب إميل حبيبي في صحيفة الاتحاد - على إثر اعتقال المجموعة - بأن أولئك المساكين لم ينجحوا في شيء، سوى تمكين السلطة من ضرب حركة الشعب الثورية، وبأن الشيوعيين أثبتوا أنهم يعرفون كيف يتحملون المسؤولية"<sup>(2)</sup>.

لقد وصف الشخص المدني، إميل حبيبي، هؤلاء المناضلين بالمساكين، الذين قد يستحقون الشفقة لأنهم يائسون، أما التأييد والدعم، فلا. ورغم أن المؤلف الضمني، في المقطعين السابقين، من المتشائل، يدعم منطق المقاومة إجمالاً، إلا أننا نستكشف نسخة أخرى له، منسجمة مع منطق الشخص المدني والقائد الشيوعي الإسرائيلي: حيث يقف

---

<sup>1</sup> - عضو سابق في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ترك الحزب عام 1964، كنتيجة لتعارض قناعاته القومية العربية الثورية مع أطروحات الحزب الهادفة إلى دمج العرب في إطار الدولة اليهودية. وانضم إلى حركة الأرض بقيادة المناضل القومي حبيب قهوجي، حيث شكل خلية كفاح مسلح مكونة من عرب ويهود. انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة ص 198

<sup>2</sup> - جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة ص 198

المؤلف الضمني من وراء باقية، حين تقابل ابنها المحاصر، فنقول رداً على ثورته: "الدنيا فتية وفتيات لم يخنعوا. فاحذُ حذوهم! تحملوا أطول ليل، فحملوا الشمس فوق جباههم. ما استطاعوا إخراجهم من أرض إلا إلى زنزانة. وما هدموا عليهم بيتاً إلا بعد أن هدموا عليهم أسطورة.. إنك يائس يا ولدي"<sup>(1)</sup>.

إن إميل حبيبي يصارع ضميره بالأيدولوجيا، وبصراع الأيدولوجيا التي أوصلته إلى السلطة بضميره المثخن، ومن ثم فهو يريد الجمع بين المتناقضات في آن واحد: السلطة، والثورة، والأيدولوجيا، والضمير الذي ما زال ينبض ببقية حياة. ومن هنا جاءت كل هذه الصور المتعددة للشخص الواحد، والمتناقضة في النص الواحد.

### 1- 3/ب: الغضب غير المحدود على واقع مرفوض:

ينبع الغضب، لدى إميل حبيبي، من حقيقة كونه متشائلاً حقيقياً، قبل أن يؤلف روايته، وقبل أن ينحت هذه اللفظة الموفقة، التي لولا صدقه في الإحساس بتفاعلاتها، داخل لاشعوره، لما فُيِّض لها القبول والانتشار: فهو يبدأ في عصبية التحرر مناضلاً وطنياً، على أساس قومي معادٍ للكولونيالية وإفرازاتها. وعندما يكتشف - بعد قليل انهيار - الأظروحات الوطنية المنتمية إلى العروبة، تحت مطارق الكولونيالية الصهيونية، يقرر واعياً أن ينظر إلى الجزء الممتلئ من الكأس. فماذا يرى؟. يرى أنه باق في بلده رغم كل شيء، وهذا بحد ذاته عنصر إيجابي، يمكن استثماره على المدى البعيد، ويكتشف مثل أم سعيد أنه: "مليح أن صار هكذا، وما صار غير شكل"<sup>(2)</sup>. فيحمل كل بقايا عصبية التحرر الوطني، إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي ساهم في صناعة النكبة، مجبراً وعيه على الإيمان بأن هذا الحزب، هو بقية من الجزء الممتلئ من الكأس. لكن الغضب

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 152

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 66

يجتاحه، عندما يرى أن موقفه هذا لا يعجب رفاق الأمس، الذين لم يتمكنوا من اكتشاف فضيلة التنازل الحبيبية؛ فيهوي عليهم بمطارق غضبه، ويقذف بهم إلى معسكر الأعداء، ويشن عليهم الحملات الشرسة، متهماً إياهم بأفطع الاتهامات، كما فعل مع قيادة الحاج أمين الحسيني، التي كان متحالفاً معها قبل حدوث الهزيمة<sup>(1)</sup>. لم يحدث هذا في الواقع فقط، بل كذلك في الرواية، لأنها بشكل ما تكاد تكون سيرة ذاتية له. وهذه بعض الأمثلة:

■ يعنون إميل حبيبي أحد فصول روايته بالعنوان الدال التالي: "كيف سبقت العروبة الأصيلة، بالتشمير، عصر التشمير"<sup>(2)</sup>. ثم يضمن الفصل بعد العنوان هجاء مقذعاً للعروبة، من خلال إضفاء الطابع السلبي على كل من يريد له الراوي أن يرفع شعار العروبة - وهو بالمناسبة لا يختار لهذا الدور إلا عميلاً أو حاكماً مهزوماً - ثم يرسم صورة كاريكاتورية جماعية لهم، محملاً إياهم وزر الاختلاف معه حول قرار التقسيم، الذي استمات في قبوله، إلى حد فبركة الاجتماعات وإصدار القرارات المطعون في قانونيتها<sup>(3)</sup>، ومهاجمة الجيوش الشقيقة خلال الحرب<sup>(4)</sup>.

■ وهذا كاريكاتور جماعي للعرب، أريد به السخرية من العروبة، التي لا ينفك يذكرها كمصطلح ساخر، في المقطع التالي، من نفس الفصل:

"جيمس يعقوب دي روتشيلد، الذي أقام بجلالة مستوطنة زخرون يعقوب - لذكرى يعقوب - في أواخر القرن التاسع عشر. فانصرف أهلوها، القادمون من أوروبا، إلى

<sup>1</sup> - انظر وثيقة رقم 7

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 124

<sup>3</sup> - انظر ما قاله بولس فرح حول اجتماع عصبة التحرر الذي أصدر قراره بقبول التقسيم. من العثمانية إلى الدولة العبرية. ص 42 - 43

<sup>4</sup> - انظر: وثيقة رقم 7

صناعة النبيذ الجيد، فتضعه مصاييف العروبية، وقد تعددت أسماؤه، على موائد أمراء الجزيرة، من الربع الخالي، عبر الجسور المفتوحة<sup>(1)</sup>، فيستدقونه، فينشد منشدهم:

يا بشر ما لي للسيف والحرب وإن نجمي للهو والطرب  
لو كان قصفٌ وشرب صافيةٍ مع كل خودٍ تختال في السلبِ  
والنوم عند الفتاة أرشفها وجدتني ثم فارس العربِ

ثم ينتشي منتشيهم صائحاً، يتهم كل مطالب بتنفيذ قرارات مجلس الأمن<sup>(2)</sup> بأنه خائن العروبية!<sup>(3)</sup>.

■ وهذا كاريكاتير آخر، من نفس الفصل:

"لا فضل لعربي على أعجمي إلا بملوكهم، ويتقبع الكوفية، رمز العروبية، حتى إذا فارت دماؤها في عروقهم أقعوا يرغون ويزيدون..."<sup>(4)</sup>.

■ ويسخر من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية السابق، الأستاذ أحمد الشقيري،

لأنه لم يذكر العرب المتبقين، في فلسطين المحتلة، قبل 1967، فيقول:

"من شيد المباني وشق الطرق وحرث الأرض وزرعها، في إسرائيل، غير العرب الباقية في إسرائيل، فالعرب الباقية، صبراً، فيما احتلته دولتنا من أرض لم يجد لها أحمد الشقيري متسعاً في ملفات خطبه الرنانة؟"<sup>(5)</sup>.

وإن هذه السخرية، من المؤلف الضمني، لتخفي وراءها فخراً بنقيضها: حيث يفخر (عربيٌ إميل حبيبي) بما أنجزه لدولته الجديدة!. الأمر الذي يستدعي إلى الذاكرة، إنجازات

<sup>1</sup> - إشارة إلى سياسة إسرائيلية معلنة، بعد احتلال الضفة والقطاع، بفتح الجسور للسكان العرب، ليزوروا إخوانهم في الدول العربية، والعكس. وإشارة لها بعد واقعي، يتمثل في وجود جسرين، على نهر الأردن، استخدم لهذا الغرض.

<sup>2</sup> - المقصود قرار التقسيم. ونحن نرى هنا كيف يماثل المؤلف الضمني، مماثلة ذات مدلول أيديولوجي، بين زعامة فلسطين الوطنية في حرب 1948 وحكام دول الخليج.

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 125

<sup>4</sup> - المتشائل. ص 126

<sup>5</sup> - المتشائل. ص 126



المؤلف المدني، عام 1949، في مجال قطف الزيتون، من أراضي النازحين الفلسطينيين، لصالح الصندوق القومي اليهودي<sup>(1)</sup>. فهل كان على رئيس منظمة التحرير، أن يفتخر بهذا الإنجاز، للحزب الشيوعي الإسرائيلي (طبعة ميكونس)؟! وهل يستحق أول رئيس لمنظمة التحرير، ومؤسس أول جيش فلسطيني في المتبقي من فلسطين - غزة في ذلك الوقت - السخرية، لمجرد أنه غير مؤمن، بأن المتبقيين من شعبه في فلسطين المحتلة، هم جزء من الشعب الإسرائيلي!<sup>(2)</sup>. وهل كان على أحمد الشقيري أن يقبل بدولة إسرائيل، مفترضاً أنها ستنتصر في الحرب القادمة، ويمارس تشاؤماً كتشاؤل عضو الكنيست الإسرائيلي المفتخر بدولته، لكي لا يتعرض لسخريته!. أم كان عليه أن يذكر، فعلاً، العرب الباقية في فلسطين المحتلة قبل 1948، بدعوتهم إلى الثورة، وقتال سالب حقولهم التي يحرقونها بالنيابة!. يقيناً أنه لو فعل الأمر الأخير، لنال، إلى جانب السخرية، تشهيراً، سوف تنال مثله حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، بعد انطلاقها<sup>(3)</sup>.

إن المؤلف الضمني، الذي يكيل كل هذه السخرية للعروبة، من وراء الراوي العميل، هو الذي يعود ليختار للفلسطينيين، كيف يبقون في وطنهم، في المقطع التالي:

"ولقد رأيتم في ساحة العجمي بيافا، شاباً في عمر التمر، من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حانون ودير البلح وخان يونس ورفح، يتمايلون على سيارة المقاول، كتمايل

---

<sup>1</sup> - جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر. ص 196

<sup>2</sup> - قال إميل حبيبي من على منصة مؤتمر السلام في فيينا في إحدى سنوات الخمسينيات من القرن العشرين: "لا يوجد في إسرائيل قوميتان، وإنما يوجد شعب إسرائيلي واحد". انظر وثيقة 3

<sup>3</sup> - في عام 1967، ومن على منصة الكنيست، استنكر إميل حبيبي "بشدة كل أعمال التخريب التي تقوم بها المنظمة التي تدعى فتح". انظر: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 108

شواهد القبور فوق أخوتهم الشهداء في مقابر غزة. فأمنت بأن الأحياء يستطيعون، هم أيضاً، أن يبقوا في وطنهم<sup>(1)</sup>.

فها نحن نعلم الآن الطريقة التي يريد لنا بها المؤلف الضمني - الممثل الأمين هذه المرة للشخص المدني - أن نبقى ونحيا، بعد أن شجب لنا كل الطرق الأخرى: لنعيش خادمين وعمالاً ومتكسبين من الأعمال السوداء، لدى محتلي أرضنا من اليهود.

### 1- 3/ج: الانشطار بين منظورين متغايرين للقضية الواحدة:

في المتشائل ينشطر الراوي - الشخصية الرئيسية - على نفسه بين منظورين مختلفين للقضية الواحدة، كأن كل منظور منهما صادر عن شخص مختلف: منظور العميل المتداعي، الذي يشي بمناضلي شعبه، منحازاً إلى وجهة النظر الصهيونية. ومنظور الفلسطيني المقهور، بفعل الاحتلال، الذي ينفس عن قهره، بالإعجاب المبطن بالمناضلين. وكلا هذين المنظورين، يريد لهما المؤلف الضمني أن يتوحدا، في منظور واحد، يحيل إلى الفلسطيني العادي.

ونحن نقرر - ابتداءً - حقيقة معروفة للتاريخ، تقول: إن فلسطيني 1948 لم يكونوا عملاء أبداً. وبغض النظر عن وجود فلسطيني، هنا أو هناك، متنازل عن حق الممارسة السياسية، أو النضال الوطني، فإن أغلب الفلسطينيين - سواء في أرض 1948، أو أرض 1967 - يرفضون قيام إسرائيل، على أي جزء من أرض فلسطين التاريخية، لأنهم يعتبرون ذلك سلباً لهويتهم الوطنية، التي قلنا سابقاً بأنها مرتبطة بالأرض. ولقد عبر شاعرهم الوطني عن هذا المفهوم، أفضل تعبير، أولاً وثانياً وأخيراً. وهذا من أواخر ما قاله محمود درويش، بعد الإعلان عن مؤتمر مدريد عام 1992:

---

<sup>1</sup> المتشائل. ص 126 - 127

"هنا كان شعبي. هنا مات شعبي. هنا شجر الكستناء  
يخبئ أرواح شعبي. سيرجع شعبي هواءً وضوءاً وماءً  
خذوا أرض أمي بالسيف، لكنني لن أوقع باسمي  
معاهدة الصلح بين القتل وقاتله، لن أوقع باسمي  
على بيع شبرٍ من الشوك حول حقول الذرة"<sup>(1)</sup>.

أما العميل، فلا نظن فلسطينياً واحداً يقبل بأن يعتبره من شعبه، حتى لو انحدر من  
أبوين فلسطينيين. ودليل ذلك، ما نراه اليوم من إجماع فلسطيني 1948، على رفض  
إسكان العملاء في قراهم ومحيطات تجمعاتهم المحلية، رغم كل الضغوط الصهيونية  
المفروضة عليهم، حتى أدى الأمر بالحكومة الإسرائيلية، إلى استياعهم في شقق خاصة،  
بين التجمعات اليهودية، أو إهمالهم في أكثر الأحيان، ليعيشوا على هامش الحياة  
متشردين، مثلما فعلوا مع كمال حماد - المشهور بتسهيل اغتيال القائد المناضل يحيى  
عياش - وكما فعلوا كذلك مع عملاء ما يسمى بجيش لبنان الجنوبي، المعروف بقوات  
لحد؛ حتى لقد اضطر بعضهم إلى رفع دعاوى قضائية ضد الحكومة الإسرائيلية، مطالبين  
بنوع من التعويضات!. وعلى العموم، فإن عدد هؤلاء العملاء نادر وغير دال إحصائياً.  
خلافاً لما قيل عن عملاء ثورات سابقة في العالم (فرنسا خلال الاحتلال النازي، مثلاً).

باختصار، يمكن القول، بأن المتشائل منقسم على نفسه قسمين:

- أ: قسم اختار درب التعامل مع الصهاينة، وهو الجزء الظاهر.
- ب: وقسم آخر ساكن في أعماق لاشعوره، مازال يحن إلى نظافة الضمير،  
ويكنّ إعجاباً متناقضاً بالعمل المسلح، الذي يقوم به مناضلون من أبناء

---

<sup>1</sup> - من قصيدة بعنوان: خطبة الهندي الأحمر ما قبل الأخيرة أمام الرجل الأبيض. ديوان: أحد عشر كوكباً. ص 47

شعبه. لكن هذا الإعجاب يتوارى، في أكثر الأحيان، تحت عباءة كثيفة من الأيديولوجيا.

إذن، فالجزء الثاني النظيف من ضمير المتشائل، منقسم على نفسه كذلك، وفق منظورين:

- ب-1: منظور تأييد العمل المسلح، خصوصاً بعد أن اتضح له أنه موقف ابنه وزوجته.
- ب-2: منظور النضال السلمي المطلبي، المكتفي باستخلاص حقوق إنسانية للسكان الفلسطينيين، في دولة اليهود.

والمؤلف الضمني - الذي يرفض القسم الداعم للعمالة (أ) رغم أنه يتفهمه - يدعم القسم الثاني النظيف (ب)، لأنه الصورة المثالية التي يحب أن يظهر عليها، لدى القارئ.

ثم يراوح هذا المؤلف الضمني بين المنظورين (ب-1) و(ب-2) ويختار في النهاية، الانحياز إلى المنظور (ب-2) بتأثير الأيديولوجيا.

إذن، فلدينا الآن ثلاثة أشكال، لمواقف المؤلف الضمني في المتشائل:

- الأول: شجبه موقف سعيد أبي النحس المتشائل، في شقه المتعامل مع العدو.
- والثاني: تأييده المتردد، لتأييد سعيد أبي النحس المتشائل المتردد، للكفاح المسلح.
- والثالث: تفضيل النضال المطلبي. هكذا مباشرة، ودون حاجة إلى التستر وراء شخصية سعيد أبي النحس المتشائل. وهذا ناتج عن تأثير الأيديولوجيا، التي تحكم رؤية المؤلف المدني إميل حبيبي.

ونحن الآن بحاجة إلى فحص هذه الفرضيات الثلاث، في الرواية.

## الفرضية الأولى: رفض المؤلف الضمني خيار العمالة:

إن إميل حبيبي يحرص في الرواية - قدر إمكانه - على رفض منطق العمالة، من منطلق قيمي أخلاقي، وإن كان يتفهمه على طول العملية السردية. لكن هذا التفهم يفشل كثيراً، في المحافظة على مسافة بينه وبين القبول والدعم؛ خصوصاً بعد تصريحات إميل حبيبي الأخيرة، بأنه هو المتشائل شخصياً. ولئن كنا قد أشرنا، في سطور سابقة، إلى هذا النوع من التماهي، بين شخصيتي سعيد العميل وإميل حبيبي عضو الكنيست، لقد تبقى علينا الآن رصد مواقف الشجب المعلن، التي يتخذها المؤلف الضمني، ضد منطق العمالة.

فعندما يتناول السياق شخصية المتشائل، تبرز في كثير من الأحيان أحكام قيمية أخلاقية، من بين عبارات السخرية السوداء، التي يستخدمها المتشائل في اعترافاته، على لسانه وعلى السنة الآخرين.

هذه الأحكام يمكن إرجاعها إلى المؤلف الضمني بسهولة، كونها تعبر عن الأيديولوجيا المعلنة، التي يتبناها المؤلف المدني إميل حبيبي. وهذه بعض الأمثلة:

- أ: يقول المتشائل عن نفسه: "إنني أدرك حطّتي... أنا هو الندل"<sup>(1)</sup>. فالمعنى المعجمي لمفردة (الحطة) هو انحدار القيمة. ورغم أن المتشائل يستخدمها كمقابل لما يتمتع به الزعماء، إلا أن توظيفها في هذا السياق عند الحديث باسم عميل، يشبه توظيف مفردة (الندل)، التي يلجأ المؤلف المدني إلى تفسيرها في الهامش بمعنى الساقى. فنحن لا نستطيع أن نصرّف، عن أذهاننا، ما تستدعيه

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 59

هذه المفردة المهجورة، من قريبتها في النطق (النذل) خصوصاً وأن السياق يقتضيها، في تلاعب جمالي عالي المستوى.

■ ب: يعنون المؤلف فصلاً بعنوان لافت يقول: "سعيد يعلن أن حياته في إسرائيل كانت فضلة حمار"<sup>(1)</sup>. ثم يجعل المتشائل يقول عن موت الحمار " فنفق عوضاً عني"، في مساواة بين موت الحمار وموت العميل.

■ ج: ويجعل المؤلف المتشائل منفصلاً عن شعبه، لا يصيبه ما يصيبهم، بفضل عمالته. ولا شك أن هذا من أكثر الأحكام القيمية سلبية. فحين يخرج الفلسطينيون المختبئون في المسجد مع الصباح، هارين من ملاحقة قوات الاحتلال، التي تبغي تهجيرهم، يظل المتشائل جالساً، مطمئناً إلى ارتباطه بحاميه الصهيوني أدون سفارشك. يقول: "وانسل آخرون من الباب الجنوبي، ليضيعوا في أزقة عكا القديمة. فسألت: لماذا؟. فقالوا: ما عندنا أدون سفارشك. والذي هدم قرانا لا يعيدها إلينا"<sup>(2)</sup>.

■ د: السخرية السوداء من الانحناء المتوارث لدى عائلة المتشائل، كما في هذه العبارة: "وثق يا محترم، بأنه ما من عجز في طول البلاد وعرضها، يسبق رأسها بقية جسمها إلى القبر، وتدب مقوسة مثل رقم 8، إلا ولها صلة قري بنا"<sup>(3)</sup>.

■ ثم يفرض المؤلفُ على المتشائل أن يشتغل زعيماً، في منظمة نقابية معروفة بارتباطها المبكر بالاحتلال. حيث يقول الراوي: "فاشتعلت زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين"<sup>(4)</sup>.

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 61

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 78

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 79

<sup>4</sup> - المتشائل. ص 93

- ويجلده بسياط العار تكويه، ويجلله في مواجهة المتلقي، بشعور غامر من الخزي من طبيعة عمله الدنيء، حتى بعد أن ينجح في إقناع محبوبته الأولى، يعاد، بأنه لم يكن الرأس المغطى بالخيش، الذي وشى بوالدها. معقّباً على ذلك بقوله: "لقد أقنعت يعاد وأختها بأنني لم أكن رأس الخيش. ولكنني أصبحت منذ تلك الليلة خرقة الخيش"<sup>(1)</sup>.
- هـ: ويجعل محبوبته الثانية، باقية، ترفض عمله مع الأعداء وتقول له: "أريدك يا ابن عمي أن تتدبر أمرنا حتى نعود إلى شاطئ الطنطورة، خلسة، أو تعود وحدك، فتننتشل الصندوق من مخبئه، فيغنيينا ما فيه عما أنت فيه. وأنا لا أريد لأولادي أن يولدوا محدوديين. لقد تعودت ألا أتفلس إلا بحرية يا ابن عمي"<sup>(2)</sup>.

### الفرضية الثانية: تأييد المؤلف الضمني المتردد للكفاح المسلح:

عند تناول الراوي لمشهد المواجهة، بين باقية وابنها ولاء، لحظة انكشاف أمره، ومحاصرة العدو له، نلاحظ إعجاباً مكبوتاً بالكفاح المسلح لدى المؤلف الضمني، من خلال هذا التصوير الجميل، الذي يبرز انخراط باقية نحو ابنها، بعد فشلها في إقناعه بتسليم نفسه. وهذا هو المقطع الحوارية:

"- أي سلاح في يدك الآن يا ولاء؟"

- رشاش قديم من الصندوق.

فرأيتها راكضة نحو القبو المهجور، ويدها ممدودتان على جانبيها، كجناحي طير يسرع إلى عشه ليحمي جوازله، حتى كادت تغيب في فتحته المعتمة. وإذا به يصيح فيجمدها في مكانها:

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 105

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 133

- إنهم قادمون ورائك يا أماء. فهل تحمينهم بحبي؟.  
- لا يا ولاء، يا ولدي، بل آتية أنا إليك. ففي الصندوق رشاش آخر. وسأحميك بحبي<sup>(1)</sup>.

والباحث يعتقد بأن وعي المؤلف المدني، إميل حبيبي، كان قد تداعى عند كتابة هذا المشهد التراجيدي المشرق، مفسحاً الطريق أمام طوفان مندفع من اللاشعور، ذلك اللاشعور الذي يختزن كثيراً من المشاعر، التي سبق لشعوره الظاهر أن قذفها إلى تلك المنطقة المهجورة المظلمة، منذ أن قرر صياغة وعيه صياغة جديدة، تتوافق مع متطلبات الاندماج في المجتمع الإسرائيلي (الديموقراطي) الجديد، بعد عودته (الميمونة) من لبنان، فور إعلان دولة إسرائيل<sup>(2)</sup>.

لقد انطلق اللاشعور دفعة واحدة، وماج ثائراً بهذه الأحاسيس، التي لولا صدقها لما أمكن لنا أن نجتمع، كمتلقين، على أنها من أعظم المشاهد الحوارية، في كل ما كتب إميل حبيبي. وإن هذا الاستنتاج هو الذي يدفعنا إلى القول، بأن المؤلف الضمني هنا يقول ما لا يؤمن به المؤلف المدني، الذي ذهب، في كبت نوازعه الأولى، إلى درجة إنكار أي استنتاج منطقي، يرتب على هذا المشهد جماليات، تميل إلى القول بأنه خارج من القلب، وليس من الوعي؛ وهي منطقة نطن أنها أقرب إلى اللاشعور، منها إلى الشعور الظاهر، أو الوعي المرتبط بالتفكير العقلي والمواضعات الاجتماعية. نقول هذا ليس فقط من استقراء كلمات هذا النص، بل عن طريق ربطه بحادثة أخرى أضاعته، وأثبتت أغلب استنتاجاتنا السابقة.

يقول الناقد نبيه القاسم، عن إحدى مواجهاته مع إميل حبيبي، ما يلي:

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 153 - 154

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 3



"كانت المواجهة الأولى مع إميل حبيبي، عندما توقفت، في حديثي عن المتشائل، عند مشهد الحوار الحميمي بين ولاء وأمه، بينما الدورية الإسرائيلية تحيط بهما، بقولي: إن أجمل ما يتركه لنا الكاتب هو هذه الكلمات، التي يخرجها في ساعات يتعطل فيها العقل عن التأثير، فتكون خارجة من القلب إلى القلب. يومها سألني إميل حبيبي بغضب أبوي: هل تقصد بقولك هذا أنني قومي؟! وهل أنا بلا إحساس؟!"<sup>(1)</sup>.

لقد فهم إميل حبيبي من هذا المديح، ما يحيل إليه من هجاء - حسب مفهوم المخالفة عند المنطقة العرب - وذلك على اعتبار أن هذا المقطوعة الفريدة، هي ما يستحق أن يُسجل ويُحفظ، أما ما سواها، فلا. ومن هنا رفض المؤلف المدني إميل حبيبي أن يوصف بأنه قومي؛ لأن هذا المشهد، بكل ما فيه من روعة، يحيل إلى منطلق الهوية القومية، التي يحرص القائد الحزبي والسياسي الإسرائيلي داخله على نفيها<sup>(2)</sup>، واعتبارها مساوية للفاشية، ويصم المؤمنين بها بالوصف الهجائي (قومي)؛ محاولاً بذلك رد نزعة قذفها لاشعوره إلى سطح وعيه الظاهر، فصارت في حسابات وعيه تهمة. ولا جرم؛ فلا يمكن - بالفعل - أن تتوافق لواعج الشعور القومي، مع وعي محكوم بشعارات التطبيع، ونبذ الإرهاب، والدعوة إلى التعايش بين الشعبين، على أرض أحدهما، التي سلبها الآخر بالقوة.

وبعد أن رد إميل حبيبي تهمة القومية عن لاشعوره - كأنه يملكه - تنبه إلى أن الناقد يدمغه بتهمتين، لا واحدة: الأولى القومية، والثانية: ضعف الأحاسيس العاطفية، وسيطرة المنطق العقلي الجاف، على أطروحته الواعية. فقال مستكراً: وهل أنا بلا أحاسيس؟!.

<sup>1</sup> - نبيه القاسم. مرادة النص. ص 98

<sup>2</sup> - انظر: صحيفة يديعوت أحرונوت العبرية يوم 1966/11/25. وجهها لوجه مع عضو الكنيست إميل حبيبي. نقلاً عن: جورج كرزيم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 172

إن صراع اللاشعور مع الوعي، هو السمة البارزة في هذا المشهد، بل في أغلب محاور هذا النص - المتشائل - الذي يخرج لنا مؤلفاً ضمناً يتنكر له خالقه، عند اللزوم.

وفي لقائه مع الفدائي سعيد بن يعاد في السجن، يكتشف المتشائل عظمة الكفاح المسلح، ويجعل المؤلفُ الضمني هذا الشعور يعيد إلى المتشائل نقاء ضميره، ليستعيد من خلاله كينونته الضائعة. ولنتأمل المقطع التالي:

"ولولا عينان اثنتان صويتا نحوي، بلا حراك، ابتسامة تشجيع سرية، ولولا يد تشد على يدي: أن اشتد؛ لحسبت أن الجسم الممدد إلى يساري جثة بلا حياة. قلت: أهلاً، فخرجت: آها!. فسمعت صاخب الجسم الملتف بعباءة الملوك الأرجوانية يهمس: ما شأنك يا أخي؟.

قلت: هل هذه هي الزنزانة؟.

فسأل: أول مرة؟.

قلت: هناك غرفة بلا نوافذ..

قال: وهناك أمل بلا جدران.

قلت: وأنت؟.

قال: فدائي ولاجئ. وأنت؟.

فتخيرت في هويتي كيف أنتسب أمام هذا الجمال المسجى الذي حين يتكلم لا يئن، ويتكلم حتى لا يئن. هل أقول له إنني كبش ومقيم؟. أم أقول له: دخلت إلى بلاطكم زحفاً؟. فسترت عورتي بأئين طويل"<sup>(1)</sup>.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد، لأمكن اعتبار المؤلف الضمني مؤيداً قوياً للكفاح المسلح. لكن الذي يبرز هذا التردد، آخر الأمر، وينزاح به نحو تخوم الرفض، هو جعل

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 171 - 172

المؤلف الضمني هذا الكفاح غير مجدٍ، ولا يحقق تحرير الوطن؛ فهو تعب لا طائل من ورائه.

وهنا بالذات نرى رأس المؤلف المدني يطل علينا من بين السطور، لنقرأ ما يقوله إميل حبيبي الزعيم السياسي، الذي اقتحم السرد فجأة، وبرزت آراؤه السياسية التي لا يستطيع إلا الانتصار لها. فلنقرأ هذا المقطع من المتشائل:

"ولقد عشت فيما بعد شهوراً، وأنا موقن بأن إشارة ستأتيني منهما. فلا يطرق طارق بابي، حتى أقوم ملهوفاً: لعله منهما. ولما سمعت أن من بين كتائب الفدائيين، كتيبة باسم الطنطورة، أخذت أقفل النوافذ، وأستلقي على فراشي، وأنا أحتضن الترانزيستور"<sup>(1)</sup>.

ولكنهما لم يعودا أبداً. بل إن عودة يعاد الثانية كانت عن طريق الزيارة، وبتصريح من الاحتلال. أي أن هزيمة المقاومة كانت محققة في لاشعور المؤلف الضمني، وأن البديل هو التعايش والاكتماء بالنضال المطلبي، كما يفعل الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

### الفرضية الثالثة: تفضيل المؤلف الضمني للنضال المطلبي:

وهذه هي الصورة الأشد وضوحاً، في رواية المتشائل، للمؤلف الضمني، كما يحرص إميل حبيبي أن نراه في النص: حيث نرى الراوي يكن إعجاباً عارماً بالشيوعيين، رغم ملاحظته لهم لحساب السلطة الإسرائيلية. والمؤلف الضمني يدعم هذا الإعجاب المكبوت، ويسلط عليه الضوء بين الفينة والأخرى.

إذن فالمؤلف الضمني هنا، كمثل الشخص المدني إميل حبيبي هناك؛ بل هو النسخة المعلنة من هذا القيادي الشيوعي والعضو في البرلمان الإسرائيلي.

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص156

ولنقرأ بعض المقاطع على لسان الراوي:

- "وصار الشيعيون يسمون الحارس على الأملاك المتروكة، بالحارس على الأملاك المنهوية. فأخذنا نلعنهم علانية ونردد أقوالهم في سرائرنا"<sup>(1)</sup>.
- "حتى الشيعيون، الذين اعتبرهم وزير الأقليات أخطر طابور خامس في عقر الدولة، اعتبرهم صديق ابن العم الوزير مارقين على العروبة وعلى دينها"<sup>(2)</sup>.
- "وقالت يعاد، متباهية، أنها هي التي ذكرت الشيعيين ببيت الشعر، الذي جعلوه عنوان نشرتهم، والتي وزعوها في أثناء التطويق:  
كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول  
فاستدعاهم الحاكم العسكري..."<sup>(3)</sup>.
- "فكنت لا أنام ولا أهدأ وأنا ألاحق الشيعيين، وأعرض عليهم، وأنظم الاعتداء عليهم، وأشهد ضدهم، وأندس في صفوف تظاهراتهم، فأقلب صناديق القمامة في طريق التظاهرة، وأهتف بسقوط الدولة لتبرير اعتداء الشرطة عليهم..."<sup>(4)</sup>.
- "وأبو محمود قال: أما الشيعيون فيجرؤ نوابهم على اختراق الطوق. فيدخلون معنا فيه مؤاسين ومشجعين: أن اصمدوا. ويجمعون الحقائق. ويصيحون في الكنيسة، وهو مثل البرلمان عندكم (فضحكت في سري ثم قلت: يا حي الله!) ويضطرون الوزير إلى الرد. فتخترق مصيبتنا جدار الصمت الرسمي..."<sup>(5)</sup>.

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 94

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 98

<sup>3</sup> - المتشائل. ص 104

<sup>4</sup> - المتشائل. ص 111

<sup>5</sup> - المتشائل. ص 181

## أولاً- 2: اخطيئة: مديح العقل الخالص:

### تمهيد:

قيل عن اخطيئة بأنها رواية. والحقيقة أن ثمة صعوبة كبرى تعترض هذا التصنيف. بل إن هذه الصعوبة نفسها، سوف تواجه كل من يتوخى تجنيس هذا النص، وإدراجه ضمن أي جنس أدبي معروف<sup>(1)</sup>. ولو أن كاتباً آخر، غير إميل حبيبي، كتب، هذا النص، إذن لتردد الكثيرون في نعتة بالرواية: ذلك أن إميل كان قد كرس نفسه - أو كرسه الثقافة السائدة - روائياً كبيراً، على إثر ظهور روايته الرائعة بحق (المتشائل). وهي تلك، لا غيرها، ما يمكن إطلاق وصف رواية عليها.

إن الباحث لا يلجأ هنا إلى إصدار حكم قيمة على هذا النص - اخطيئة - بل يحاول، فقط، الإشارة إلى أن التراث الأدبي الرسمي، الذي احتقل بالمتشائل، هو نفسه الذي يعتبر الرواية كجنس أدبي - في العصور الأخيرة - حاملاً بذاته لحكم قيمة، أتاح لها أن تحتل مكانة الشعر السابقة، أو تكاد. ولا يظن الباحث أن هذا الاستنتاج يحتاج إلى استدلال من هنا أو هناك، رغم كثرة ما يمكن الاستدلال به على ذلك.

حسناً. لقد قيل إنها رواية، وكفى. ومع كل هذا، فإن الباحث لم يقرأ لأحد، ولم يعلم أن أحداً، تجرأ على إعطائها بعض ما للمتشائل من حكم قيمة. لكن الأمر ليس دائماً بهذه السهولة. ذلك لأنه؛ "يكفي أن ينتج الأديب عملاً واحداً قيماً - بمعايير هذا التراث [الأدبي الرسمي] - ليصبح كل إنتاجه جزءاً منه، مهما تفاوتت قيمته الفنية... ومعنى هذا أن التراث الأدبي الرسمي يمتص، في كل مرحلة من مراحلها، عدداً هائلاً من الأعمال

<sup>1</sup> - انظر: فيصل دراج. إميل حبيبي ومأساة الإنسان المنقسم. الطريق. العدد3. السنة55. ص148

التأفة: وأعني التأفة بمعايير التراث الأدبي [الرسمي] نفسه؛ ناهيك عن أية معايير أخرى" (1).

وقد طُبع هذا النص ووزع في كل الأقطار العربية، برعاية الجهاز الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتمت ترجمته إلى العبرية والفرنسية والألمانية<sup>(2)</sup>، وروّج له كثيراً، رغم أنه لا يعدو مجرد ذكريات تائهة، يستجمعها الراوي - الذي هو الكاتب المدني نفسه - ليخدم هدفاً أيديولوجياً وسياسياً، بأسلوب ساخر، ولغة تمّت إلى زمن مضى<sup>(3)</sup>. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا كان يمكن أن يطلق النقاد على مثل هذا النص، لو أنه لم يكن لإميل حبيبي (القائد المناضل في الأرض المحتلة) وصاحب المتشائل؟. لقد أشك أنه كان سيتم الاحتفاء به، على هذا المستوى الذي نالته هذه المذكرات السياسية.

مثل أي تداعيات نوستالجية، لا تحتوي أخطيئة على شخصيات، ولا ينتظمها زمن، وإن كان المكان حاضراً مثلما يكون حاضراً في أي حديث يومي، حتى ولو كان مؤسباً. فالشخصية الوحيدة هي الراوي نفسه. والأحداث كلها تدور حوله، أو يديرها هو وفق رؤيته الكلية: تقنياً ومعرفياً، وكلها أحداث ماضية، وشخصها - باستثنائه - لا يتمتعون بأي صفات تحيل أياً منهم إلى بنیان ثقافي مستقل<sup>(4)</sup>؛ بل هم مجرد رموز، حتى ولو حملت أسماءً، ووجودهم مرتبط بأسلوب سردي يسعى إلى تدعيم الراوي - الذي يقف المؤلف

---

<sup>1</sup> - تيري إيجلتون. مشكلة القيمة الفنية. مادة في كتاب بعنوان: التفسير والتفكيك والأيدولوجيا. بيتر بروك وآخرون. ص14

<sup>2</sup> - إضافة إلى هذه الطبعة، التي نعتمد عليها في هذا البحث، ووردت ضمن مجلد كبير يحوي أعماله الأدبية الكاملة، التي نشرها ابنه سلام، بعد وفاته، بدعم من السلطة الفلسطينية. انظر: إميل حبيبي. الأعمال الأدبية الكاملة. وكل استشهد يأتي بعد ذلك من أخطيئة فقد رجعنا فيه إلى هذا المصدر.

<sup>3</sup> - وصف الدكتور صلاح فضل لغة إميل حبيبي بأنها (كولاج تراثي). انظر: أساليب السرد في الرواية العربية. ص167

<sup>4</sup> - انظر: سعيد بنكراد. شخصيات النص السردية. ص7 - 8

الضماني من ورائه بطريقة شفافة - وتزكية تلك الصورة التي نحتها لنفسه، بنرجسية عالية، تدعي البراءة من العيوب، وامتلاك الحكمة الخالصة، فيما يمكن تسميته: مديح العقل الخالص.

فالراوي، منذ البداية، يسترجع ذكرياته مع الوالد، الذي ألقى على أبنائه لغزاً عجزوا عن حله، باستثناء الراوي، الذي حاول صياغة هذه الحادثة بأسلوب سردي، غيّر فيه الضمائر، وأحل للحظة قصيرة ضمير الغائب - بما يحمله من مدلولات متسامية - مكان ضمير المتكلم، في حديثه عن نفسه، وفق هذه الصياغة: "فاعترهم الوجوم برهة. وظلوا صامتين متحيرين في أمرهم، فيما كانت الدقائق تمر سراعاً. حتى إذا مضت ساعة من الزمن وهم حيارى، لا ينبسون ببنت شفة، فطن أصغرهم إلى سبب هذه الحيرة، فصاح: فوق جبيني ورقة حمراء"<sup>(1)</sup>.

لكن الراوي يدرك، بعد لحظة، أن هذا التسامي قد يحيل المتلقي إلى حيرة، تمنعه من معرفة هذا المخلوق الحكيم، الذي حل اللغز، دون باقي الإخوة. لذا نراه يلجأ، مرة أخرى، إلى الإفصاح عن عبقريته الشخصية، متنازلاً عن ضمير الغائب المتعالي، بقوله: "وكنت منذ الصغر - بشهادة الوالد رحمه الله - فطيناً"<sup>(2)</sup>.

والحكمة الكلية تدور في ركابه، وبه تصير، لا العكس: فهو القادر وحده على هجاء الصهيونية الآن - في العام 1985 - وفي هذا النص<sup>(3)</sup>؛ ثم هو وحده القادر على مديحها،

1- اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 568 - 569

2- اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 569

3- انظر: اخطية. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 591

ونزع الصفة العنصرية عنها، في مكان آخر، بعد أربعة أعوام<sup>(1)</sup>. وحكيم الدهور مدرك أن لا أحد سينتقده.

## 1- السرد كإرادة للقوة:

وهذا الولد الفطين، الذي أصبح الآن شيخاً حكيماً، مقتنع تماماً بأنه محور الأحداث في هذا العالم، لا تقوم الدنيا مقامها الصحيح بدونه، حتى داخل الحزب الشيوعي الإسرائيلي وجريدة الاتحاد، التي يتحدث عنها الآن - في عام البيروسترويك والglasnost - حديثاً من نوع آخر، في السطور التالية من النص:

"كنا في الجريدة، في بداية عملية التحديث، أو العصرنة كما سمينا الأمر في هيئة التحرير. وكنا أنجزنا في (العصرنة) تقدماً عينياً محموداً، من حيث ساعات العمل اليومي في الجريدة، وأن لا نكتفي بالعمل حتى الظهر، بل انتقلنا إلى العمل حتى ساعات العصر. فمن العصر تبدأ العصرنة. ومن الإكثار في الحديث في الاجتماعات الكثيرة، يبدأ التحديث - وأمرهم شورى بينهم - فضاعت الطاسة بأسلوب ديمقراطي، ساوينا فيه بين المسؤول وبين المرؤوس، حتى أصبح المرؤوس مسؤولاً عن أخطاء المسؤول. فأمعن المسؤول في الشورى بينهم"<sup>(2)</sup>.

فالحكماء لا يحبون الديمقراطية، لأنها تساويهم بباقي عباد الله، من المواطنين العاديين، وتساؤلهم عن تصرفاتهم، في كثير من الأحيان. وحقاً إنهم ينادون بها، لكن يُعرف فضلهم، وليستحقوا الشكر على المنح الملكية، التي يمنحونها لعامة الناس، لا ليتساووا مع الباقين، أمام القانون، حتى ولو كان الحكماء هم واضعوه.

<sup>1</sup> - فيصل دراج. ذاكرة المغلوبين. ص 85

<sup>2</sup> - الخُطبة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 598 - 599



ولقد تدلنا الفقرة السابقة من النص، على أن ما كان يحدث في جريدة الاتحاد، في تلك الفترة المبكرة من انطلاقة البيروسترويكيا في الدولة الأم<sup>(1)</sup>، لم يكن يعجب رئيس التحرير إميل حبيبي؛ الذي حان الآن دور توفيق طوبي لينغص عليه حياته، بعد أن صبر على تفرده بإدارة جريدة الحزب، المسجلة باسمه هو - توفيق طوبي - لا باسم الحزب، ويتصرف فيها الرفيق حبيبي كمزرعة خاصة. والحق أن توفيق طوبي كان قد صبر في السابق، على مضض، لأنه كان محتاجاً لدعم إميل في حربه على الرفيق صليبا خميس وأعوانه. أما الآن، وقد تم التخلص من المشاغبين<sup>(2)</sup>، فقد حان الوقت لتصفية الحساب مع رئيس التحرير. وهكذا تم إبعاد سلام إميل حبيبي عن المطبعة، أخيراً، وتعيين شقيق توفيق طوبي (شقيق)، خوفاً مما يمكن أن يفعله إميل، عندما يتم تحجيم مكانته في الصحيفة والحزب، في وقت لاحق<sup>(3)</sup>.

في مثل هذه الأجواء كتب رئيس التحرير نصه هذا، ساخراً من الطريقة الجديدة التي أوجدت له شركاء في إدارة الاتحاد، منذرعة بالبيروسترويكيا - التي سبق إميل باقي الرفاق إلى تأييدها، منذ أن نطق بها غورباتشوف - فهل بدأ منطق التفسير الأيديولوجي في الوصول إلى حدوده القصوى، تمهيداً لانتهائه، وفق ما يقوله جاك ديريدا<sup>(4)</sup>.

تشكل هذه السخرية دالاً بحد ذاته، لا مجرد شفرة رمزية، تحيل إلى مضمير خطابي يختفي وراء الكلمات الظاهرة. يقول هذا المضمير: إن كل ما لا يعجب منشئ الخطاب،

---

<sup>1</sup> - بدأت البيروسترويكيا مع تولي ميخائيل غورباتشوف زعامة الاتحاد السوفيتي في مارس عام 1985. ووصلت إلى إسرائيل في نفس العام. وهو الزمن المحكي في النص.

<sup>2</sup> - تم إخراج صليبا خميس من المكتب السياسي عام 1972، ثم تم إخراجها من اللجنة المركزية في هذا الزمن المحكي عام 1985، ثم طرد نهائياً مع أنصاره عام 1987. انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 413 - 418

<sup>3</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 418

<sup>4</sup> - انظر: كريستوفر بتلر. من كتاب: التفسير والتفكيك والأيديولوجية ودراسات أخرى. ص 103

يستحق الهجاء، كونه غير متوافق مع الواقع، الذي يريد من المتلقي استنتاجه: واقع أن الراوي وحده هو الذي يمتلك الحقيقة، من خلال امتلاكه وسيلة الإعلام. وتلك أداة لا يمكن أن تتخلف عن خدمة صاحبها، الذي يمتلك أسلوباً أدبياً يمكن تطويره، كأداة استدلال تستخدم السخرية، لإحداث النشوة التي تخدر العقل وتغيّب المنطق، وسط ثقافة مجتمعية: الأسلوب فيها هو موضوع النص وهمه، كما يقول الدكتور شرابي<sup>(1)</sup>.

فالبيروسترويكا سوف تكون صالحة، وموافقة لمنطق العدالة، إذا ما تفرّد الراوي بتفسيرها. أما إذا تدخل الآخرون - خصوصاً من هم في مرتبة إدارية أدنى - في عملية التفسير، فإن تفسيرهم لها سوف يكون غير ذي صلة!

ها نحن الآن أمام راوٍ يمسك، بكتنا يديه، سلطة السرد وسلطة التفسير. وإن سرداً محملاً بكل هذه الرؤية التفسيرية الطاغية على الوقائع، ليؤكد على هويته التي تحدد موقعه؛ باعتباره "إرادة للقوة: إرادة للحقيقة والتأويل؛ لا شرطاً موضوعياً للتاريخ... إن الأسلوب في حالة كهذه... شكل من أشكال الإزاحة والاحتواء"<sup>(2)</sup>.

أفلا يحيل كل هذا إلى استنكار ما يملكه إميل حبيبي من سلطة الأيديولوجيا في الحزب، وسلطة المعرفة في الجريدة؟.

## 2- اللغة: التمثيل والحقيقة:

في الدفتر الأول - الذي يحمل العنوان (شخص) - يستذكر الراوي رموزاً باهتة، لأشخاص كلهم بعيد عن معرفة الحقيقة: فهم تائهون، يبحثون عما لا يدركون من الأشياء. وحتى عندما يبحث واحد منهم عن مرابع الحنين، في ماضٍ سابق في فلسطين

<sup>1</sup> - انظر: هشام شرابي. النقد الحضاري للمجتمع العربي. ص 27

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. الاستشراق. ص 247... 250

ما قبل عام 1948، فإنه لا يستطيع أن يفهم دوافعه، ليقوم الراوي الحكيم بتفسير هذه الدوافع، من منظور أيديولوجي، يخدم هدفه السياسي في تدعيم خطاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وتأكيد أنه المدافع الوحيد عن حقوق (السكان الفلسطينيين) في الدولة اليهودية. ولسوف يمتد هذا النص الاستيهامي طوال الدفتر الأول، دون أن نرى ملمحاً لأية شخصية أخرى، فالراوي مشغول باستطراداته المحشوة، واقتباساته المطولة، من بطون كتب التراث، في تصرف يثقل النص، ويمنع من سيرورة الحدث وامتداده.

يقف الراوي عند الجلطة المرورية، التي أغلقت شوارع حيفا، ليستنبط منها شعاراته، التي تتمحور حول لازمتين، ظل يكررها طوال حياته الحزبية: أولاهما وأخطرها السخرية من العروبة، وثانيتهما المجادلة الدائمة بأن الحزب الشيوعي الإسرائيلي هو وحده الذي (يعلم). والخطاب المضمر، في كل هذا الجدل المكرور، يحيل إلى علاقة سببية منغوسة - تصويرياً - في لاوعي الشخص المدني، الذي أناب عنه الراوي في حمل أفكاره، بأسلوب شديد الشفافية والوضوح. وهذه العلاقة السببية، سوف يظل الراوي حريصاً على تأكيد وجودها، بين كلا اللازمتين، بحيث لا تتحقق ثانيتهما إلا بحدوث الأولى: أي أنه لا يتم إثبات علمية الحزب الشيوعي الإسرائيلي، إلا بالسخرية من العروبة ورموزها.

والسخرية في جوهرها مدح وذم: حيث يستدعي النقيض نقيضه، بحسب منطق التضاد: فإذا كانت الشيوعية الممدوحة علماً خالصاً، فإن العروبة جهل خالص. كذلك هي العلاقة بين العروبة ونقيضها الدولة اليهودية: فإذا كانت العروبة جهلاً خالصاً، فإن الدولة اليهودية علم خالص، وقوة تستحق الإعجاب المضمر، الذي يسبغه عليها المؤلف الضمني - الذي سقط الكاتب المدني في برائته - في هذا المقطع الدال:

"وجاعني، بعد حرب 1976، نسيب من الضفة الغربية، وقال: إنهم، أي الإسرائيليين، يتغلبون علينا، أي على العرب، بالطائرات والدبابات. ولكنهم لا يقدرّون علينا (بالمواشي).

فما هي المواشي؟. فحرك السبابة والوسطى جارياً بهما على الأرض، حتى فهمت أنها المشاة. وأعتقد أننا نتغلب عليهم بالسيف والترس وبالقصف الإذاعي<sup>(1)</sup>.

هكذا هم العرب، في منطوق الخطاب: مخلوقات تستحق أقسى أساليب الازدراء والسخرية، يسبغها مواطن دولة منتصرة، على مواطني دول مهزومة. وهكذا هي الدولة اليهودية، في مضمرة الخطاب: دولة تستحق التفاخر بالانتساب إليها، وحمل جنسيتها!. ومعلوم أن مضمرة الخطاب الأدبي<sup>(2)</sup> أقوى في التأثير من ظاهره، فما بالك إذا كان المضمونان متحدين؟. وما بالك إذا كان هذا المبدع، منظوراً إليه - من هؤلاء المسخور منهم - كرمز ثقافي، يُقنقى أثره، وتسيغ عليه جوائزهم!. وهل هناك أقسى من هذا؟! أم أن الأمر برمته هو على ما يراه كارل يونج، عندما يقول:

"قلما نجد استثناءً من قاعدة وجوب أن يدفع المرء ثمناً غالياً لقاء ما وهبه الله من نار مبدعة... تقوم القوة المبدعة بانتزاح الدوافع الإنسانية إلى درجة لا يمكن معها للأنا الشخصية إلا أن تنمي جميع أنواع الصفات الخبيثة، كالقسوة أو انعدام الرحمة والأناية والغرور... في سبيل الاحتفاظ بشرارة الحياة ووقاية نفسها من الاستلاب الكلي... المقدرة الخاصة معناها نقطة باهظة من الطاقة في اتجاه خاص، ينتج عنها نزح من جانب آخر من الحياة"<sup>(3)</sup>!.

ولئن كان هذا حقاً، فلقد يصبح ملحاً أكثر، أن نراجع الكثير مما أنتج لدينا، تحت مسمى الإبداع، وأن نعرضه على منهج النقد الثقافي، لغربلته، وإعادة قراءته، وتفحص

1- اخطية. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 613

2- انظر: عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 248

3- كارل. ج. يونج. علم النفس التحليلي. ص 277 - 278

محتواه. وأهم من كل ذلك، أن نحاول معرفة الإجابة على هذا السؤال الجديد: كيف حدث لنا أن جلدنا أنفسنا بكل هذه القسوة؟.

وعندما يتبين للراوي، بعد لأي، أن سبب الجلطة المرورية، ما ادعته أجهزة الأمن الإسرائيلية، من ظهور مسلح فلسطيني وسط الطريق، في عز الظهيرة، ينبري قائلاً: "ولم يقلل من نجاح محاولاتهم هذه [أي: محاولات أجهزة الأمن التهوين من شأن العرب] قيام ثلاث منظمات فلسطينية، على الأقل، بنسبة عملية الصحن الطائر، وذي العباءة، أو الدشداشة، إليها"<sup>(1)</sup>.

وتمتد سخرية الراوي من العروبة، إلى سخرية أشد من شعارات الثورة الفلسطينية، وقادتها، حين يقول: "ويحسبوننا لا ننام مع نساننا إلا بقرار يأتي من أبو عمار، هذا إذا كان النائم منا مرموقاً، وإلا فعلى الأقل من أبو جهاد. وإنها في الحالين لثورة حتى النصر"<sup>(2)</sup>.

أما خطاب الراوي الداعم للأيديولوجيا الحزبية، فيمتد على طول النص، بدفاتره الثلاثة. وهذه بعض الأمثلة:

■ بعد أن تعرّض شيوعيو النص إلى حملة إعلامية، من الصحافة اليهودية، للفس عليهم بأنهم كانوا يدعمون العمليات العسكرية الفلسطينية، ضد دولة إسرائيل، علق الراوي بقوله: "ولما كانت قيادتنا قيادة رصينة، أي غير متسرعة، أثر الشيوعيون الصمت على هذا الدس"<sup>(3)</sup>.

1- اخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 577

2- اخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 585 - 586

3- اخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 627

يقول الدكتور صلاح فضل بأن القيمة لا تتفصل عن التأويل<sup>(1)</sup>. ورغم حرصنا على عدم التورط بإصدار حكم قيمة على هذا النص، إلا أن مقولة أستاذنا سريعاً ما حضرتني، عندما قرأت هذه الفقرة، واهتمت بتحليل علاقاتها. فكثيراً ما يفرض التقييم نفسه جهاراً، عند قراءة نص - أو قطعة من نص - يظهر مدى تطرفه منذ الوهلة الأولى: إيجاباً أو سلباً. وهذه القطعة من النص، سريعاً ما استدعت قول الباحث، بأنه لا يعرف أسمع من هذه الزيادة الشعراوية، في شرح معنى مفردة (رصينة)، في نص أدبي. بل إن الفقرة كلها مقحمة وشاذة، حتى في خطبة سياسية. ولم يكن مثل ذلك ليحدث لدى كاتب حاذق، لولا رغبة إميل حبيبي الجامعة في احتكار التفسير، انطلاقاً من لاشعور يدفعه إلى استحضار الضد، كلما خطر في شعوره الضد النقيض: فقيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي رصينة، كما رأينا، أما قيادة الثورة الفلسطينية، فمتسربة، فمتسربة، متفجئة، مدعية، تهجم على الحوادث اليومية، فتتسبها إلى (فعلها الثوري)، كما ذكر الراوي قبل صفحتين تماماً. وهذا هو النص: "وهناك في الثورة من يجزم بأنها هي التي دبرت جلطة المواصلات في حيفا تدبيراً"<sup>(2)</sup>.

وهكذا يتبدى لنا الراوي، مواطناً للدولة القوية، وقائداً للحزب العلمي. فحق له إذن أن يتمتع بالحكمة الكلية، ويتصور أن الآخرين عاجزون عن الوصول إلى بعض منها، دون تدخل ميثاسردي منه.

■ يحاول الراوي الإيحاء بأن السلطة الإسرائيلية تخشى، دائماً، من الحزب الشيوعي. وهذا الإيحاء يستثير الكثير من تعاطف الجماهير العربية، المحتاجة إلى أبطال يعيدون إليها شيئاً من توازنها المفقود، بعد سلسلة من الهزائم. لكن الراوي يتناسى أن زعيم هذا الحزب هو يهودي صهيوني، تشرف بدعم عصابات

<sup>1</sup> - انظر: صلاح فضل. إنتاج الدلالة الأدبية. ص 211

<sup>2</sup> - اخطية. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 625

الهاجاناه، في حرب 1948 - ووقع نيابة عن حزبه على (وثيقة الاستقلال)، ولا تزال تربطه روابط وثيقة برئيس الموساد (أيسر هرتيل) الذي يجتمع معه مطولاً، ولا يعلم عربيّ من أعضاء اللجنة المركزية للحزب، بما يدور بينهما<sup>(1)</sup> - ليقول: "قصدت الصحف المسائية [العبرية] بأخبار نارياً عن إلقاء القبض على شيوعي كبير، مشتبه بأنه هو الملمث الفلسطيني المسلح، وأنه يرفض التعاون مع المحققين رفضاً باتاً"<sup>(2)</sup>.

ومن الواضح أن المؤلف المدني، الواقف من وراء هذا الخطاب، مدرك فعل اللغة، باعتبارها تمثيلاً للحقيقة؛ لا الحقيقة نفسها. وهذا التمثيل هو عين مادة الثقافة وعصرها، رغم أنه لا يوضع في سياقه السياسي التام - كما يقول إدوارد سعيد - وهدف هذا التمثيل هو إحداث تزيف جذري، يتأسس ويترسخ في هذا الفصل والعزل المتعمد، ما بين التمثيل والحقيقة<sup>(3)</sup>: فاللغة تصور الحزب الشيوعي الإسرائيلي قوة عادلة ملاحقة، تستحق التعاطف من المواطن العربي. ومنتشئ الخطاب يغض النظر، عامداً، عن اختلاف هذه الصورة، التمثيلية، عن الحقيقة الموضوعية.

■ بعد أن سخر الراوي، في السطور السابقة، من عملية التحديث والعصرنة، التي أتاحت لأحد أعضاء حزبه، من الشباب، المشاركة في الاعتراض على بعض الأمور الإدارية، نراه يفرد صفحات مطولة، للسخرية من هذا الشاب، واتهامه بالزج بحزبه في أمور هو في غنى عنها - كونه بادر بالبحث عن سبق صحفي،

<sup>1</sup> - في مقابلة مع صحيفة (كول بو) العبرية بتاريخ 1987/9/23، على إثر فصله من الحزب، صرح صليبيا خميس بوجود "علاقة غريبة بين رئيس الموساد وبين قيادة الحزب الشيوعي" منوهاً بأن مثير قلنر "لم يقدم تقريراً عن علاقته مع هرتيل، أو التقارير التي قدمها له بخصوص أعضاء الحزب". انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 417

<sup>2</sup> - اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 682

<sup>3</sup> - انظر: إدوارد سعيد. الثقافة والإمبريالية. ص 123 - 124

فانتهى إلى السجن - منتهزاً الفرصة، مرة أخرى للدعاية الحزبية، قائلاً: "ولم يخلوا سبيله، إلا بعد أن أقام توفيق طوبي القيامة، في الكنيسة، على وزير الشرطة"<sup>(1)</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا يتبرع الراوي بزج اسم توفيق طوبي في هذا السياق، مع أن المنطق الظاهر يستدعي تغييبه؛ كونه الخصم الذي يمارس على المؤلف المدني كل تلك الضغوط التي أشرنا إليها؟! نحن نعلم أن الراوي في هذه الفقرة هو المؤلف المدني نفسه، من هذه الإشارات الصريحة التي تربط الوقائع الدنيوية بوقائع النص - فكل من الراوي والمؤلف المدني يرأس تحرير الجريدة - فهل هو منطوق الاستخفاء، ذلك الذي يحكم إدراكات المؤلف المدني، ويجبره على تحميل الشخصية الورقية همومه اليومية؟. ولم لا يكون ذلك كذلك، وقد أضاء التحليل النفسي العوامل الكامنة وراء هذا الاستخفاء، النابع في الغالب من منطقة اللاشعور؟. يقول فرويد:

"ونحن في الحياة الاجتماعية - تلك الحياة التي تزودنا بتشبيها المألوف لرقابة اللحم - نلجأ كذلك إلى قمع حالاتنا الوجدانية، كما نلجأ إلى قلبها، مستهدفين في ذلك الاستخفاء أولاً: فإذا كنت أحدث شخصاً تحملني الضرورة على مداراته، بينما رغبتني هي أن أرميه بكلمة عداء؛ فإن إخفاء كل تعبير عن حالتي الوجدانية، أمر يفوق في أهميته، وفي لزومه، تخفيف العبارة اللغوية عن أفكارى... وعلى ذلك، كانت الرقابة تأمرني أن أقمع حالاتي الوجدانية، قبل كل شيء. فإن كنت معلماً في فن الاستخفاء، تلبست بالحالة المضادة: أبسم وأنا غاضب، وأظهر الود ورغبتني في الدمار"<sup>(2)</sup>.

1. اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 6

2. سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ص 469



فالخطاب المضمّر هنا مكبوت ومستخفٍ، وراء خطاب ظاهر، يحيل إلى إحدى محاولات إميل حبيبي لتخفيف حدة التوتر، بينه وبين خصمه، خصوصاً وهو يرى ما آلت إليه موازين القوى في الجريدة، التي رغم أنه ما زال يرأس تحريرها، إلا أن هذه الرئاسة قد باتت الآن مهددة، بفعل تدخلات خصمه القوي.

لكن الحفر من تحت قشرة هذا الخطاب الظاهر، لمحاولة فك شفراته الكامنة في علاقات النص الخارجية، سوف تحيلنا إلى فرويد، مرة أخرى، لتقول لنا: إن توفيق طوبي حاضر بالفعل؛ بل إن هذا الحضور ليفرض نفسه، هنا على النص، بصورة أوتوماتيكية، كون لاشعور الراوي يستدعيه، وفق منطق الأضداد. وإذا كان الراوي منشغلاً بنرجسيته المفعمة بعشق الذات، على النحو الذي أشرنا إليه قبل سطور، فإن من طبيعة ذلك (الكمال) أن يستدعي الضد فوراً، كأن هذا الكمال لا يتبدى، كامل البهاء، إلا باستدعاء النقصان. ومعلوم أن جلاء النهار لا يتبدى، على أتم وجه، إلا عند مقارنته بظلام الليل. ف"الأضداد يقوم بينها وبين بعض صلات قوية في الذهن. وإنها وثيقة الارتباط بعضها ببعض من الناحية النفسية"<sup>(1)</sup>.

### 3- تناقضات النص:

فقط، مع بداية الدفتر الثاني - المعنون بنفس العنوان الكلي (أخطيئة) - وبعد أكثر من سبع وسبعين صفحة، يعثر إميل حبيبي على حكاية يتكئ عليها، في هذا النص، الذي من المفروض أنه نص سردي، بالدرجة الأولى. لكن المتلقي سوف يكتشف بعد قليل، أن حكايته عن عبد الكريم هذا ظلت، مثل ما سبقها، مجرد ذكريات استيهامية عن أيام مضت، تقطعها الاستطرادات المملة، التي يتوخى المؤلف من ورائها إطالة النص، ليقنعنا بأنه يكتب رواية.

<sup>1</sup> - سيجموند فرويد. محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي. ص 530 - 531

ورغم ذلك، فالحدث لا يتحرك هنا لأكثر من صفحة ونصف الصفحة، حين يسرد الراوي، بضمير الغائب (هو)، ما حدث لعبد الكريم، قبل ثلاثين سنة، ثم يقفز به - في مفارقة سردية - إلى اللحظة الحاضرة، كأن المؤلف لا يحسن غير أسلوب الاستذكار!. ورغم أن هذا الأسلوب مبرر فنياً، إلا أننا ندرك أن فنيته تتبع من قدرة صاحبه على المزج بينه وبين أساليب أخرى، أما الاقتصار عليه في كل النصوص، التي يكتبها مؤلف ما، فإنه يدل على سكنى الماضي، وعدم القدرة على تجاوزه، نحو اللحظة الحاضرة. ولعل لجوء إميل حبيبي إلى كتابة الرواية، في أواخر عمره، هو الذي جعله رهين هذا الأسلوب، المأسور لأمجاد ماضية، يحاول استعادتها، بعد أن رآها تتلصص من بين أصابعه. ولا جرم، فلقد خرج من الكنيست قبل ثلاثة عشر عاماً، ثم ها هو على وشك الخروج من جريدة الاتحاد، صرح مجده المشارف على المغيب<sup>(1)</sup>. فنحن نرى بواكير هذا الخروج، منذ هذا النص، المنكر لعصرنة الجريدة، ومشاركة طاقم من الشباب في إدارتها، إمعاناً في الشورى - حسب أسلوب إميل - كما رأينا منذ قليل.

نعود إلى حكاية عبد الكريم، كما يسردها الراوي. يقول:

"كان بيت والدي عبد الكريم [أي أبوي عبد الكريم] أول بيت شُيد في جوار حدائق البهائيين، على سفح الكرمل الشمالي... وكان البها عباس بعدُ حياً يرزق. وكان ذا بهاء، لا يخرج من داره إلا في ساعة ثابتة، يوماً يوماً<sup>(2)</sup>، من ساعات العصر، فيما كان حواريوه يسرون وراءه، على بعد خطوتين منه، صفاً واحداً، وقد عقد الواحد منهم ما بين كفيه، من أمامه، وطأطأ الرأس هيبية من هذا البهاء. فإذا توقف البها عباس عن المسير، توقفوا. ويكون ذلك إيذاناً منه بأنه سوف يتكلم. ولا يتكلم إلا وهو واقف. ولا يحول وجهه نحوهم،

<sup>1</sup> - سيتم عزله من رئاسة التحرير بعد أربعة أعوام. أي في العام 1989

<sup>2</sup> - يلاحظ تأثر الراوي بأسلوب التعبير العبري "يوم يوم" المرادف للتعبير العربي "يوماً".

حين يكلمهم، ولا يجيبونه إذا حُقّ الجواب عليهم، أو على واحد منهم، إلا إيجازاً، وبما يشبه الهمس، وهم مطأطئو الرؤوس<sup>(1)</sup>.

وبعد هذا التوقف الزمني، في وعي الراوي، يقفز إلى لحظته الحاضرة، حيث جلطة المرور التي تسبب بها عبد الكريم، بعد أن عاد من أمريكا إلى حيفا، إثر غياب ثلاثين عاماً. ويظل الراوي يراوح مع ذكريات عبد الكريم - التي يمكن اعتبارها ذكريات المؤلف الخاصة، إلى حد كبير - إلى أن يصل إلى لحظة انخطافه من السيارة، ليركض وراء فتاة، لم تكن إلا وليدة هذه الاستيهامات المتكاثرة، وهو يظن أنها أخطيئة، التي كان يحبها أيام طفولته، وماتت إثر انزلاق قدمها عن الدرج الحجري، أمام منزلهم<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الراوي قد ابتدأ بذكر عبد الكريم، منذ الصفحة الأولى من هذا الدفتر (أخطيئة)، فلسوف يظل يقود المتلقي، وسط دروب من ذكرياته الشخصية، إلى أن يتذكر، بعد أكثر من ثلاثين صفحة، أن عليه أن يتحرك بالحدث قليلاً - فهو يكتب رواية - فينعم علينا بذكر أخطيئة، التي نعرف الآن فقط، أنها هي الفتاة التي قفز وراءها عبد الكريم، في بداية الدفتر، بهذه الصورة:

"فمن منا لا يتذكر أخطيئة ولم يعشقها حتى التلف؟. كان بيت أخطيئة مشرفاً على الدرجات الصخرية التي كنا ننزل فيها لنسرق اللوز، من أرض والد فريد، أو لننزل إلى البحر قبل طلوع الفجر. كانت أخطيئة في العاشرة من عمرها، حين قفزت من شرفة بيتها، أو وقعت من الشرفة، فوق صخرة من صخور الدرجات الصخرية. أخبرتنا بأنك كنت ماراً من هناك، في تلك اللحظة. قلت: قدرتي. حملتها إلى باب دارها بين يديك، وهي تتوجع ولا

1. أخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 640

2. انظر: أخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 672

تشكو. ففتحوا الباب، وأخذوها منك في جفوة، كما لو أنك المسؤول عن وقوعها على الصخرة، فيما كان عليك أن تسبق الوقعة، وأن تمد يدك، فتقع بين يديك سالمة"<sup>(1)</sup>.

ثم يعود بعد ذلك إلى استيهاماته، التي ما فتئ يلاحق المتلقين بها، منذ أكثر من مائة صفحة، ابتدأت مع بداية الدفتر الأول. ثم لا ينسى أن يخلق مؤلفاً ضمناً، يحمله منظومة القيم التي يريد لنا أن نتصوره مؤمناً بها، من مثل تعاطفه مع غربة عبد الكريم - الذي سوف نكتشف أنه (عبيدو)، وأن عبد الكريم هو اسم العائلة - الناتجة عن زواجه من أمريكية، لا تعرف عن فلسطين شيئاً. لكأني بالمؤلف المدني وقد ظن المتلقي جاهلاً، بافتخاره الدائم بجنسيته الإسرائيلية، بالطريقة التي أوضحناها في الفصل الأول!.

يقول الراوي عن زوجة عبد الكريم: "وأصرت على أن أصله من (ازرايل) لا من (بالستين). فهرب منهما [الزوجة والابنة] والتجأ إلى مدينة ديترويت، حيث يكثر العرب والزنج ويتكاثرون"<sup>(2)</sup>.

ولا ريب أن هذا النص، في ظاهره، منحاز إلى رؤية أيديولوجية معينة، يحملها المؤلف الضمني؛ الأمر الذي يكشف بالضرورة،

"عن قدر من التوتر والتردد والإغفال المتعمد والتناقض في النص. والأصح هنا أن نقول: إن المفسر - لا النص - هو الذي سيكشف هذه التناقضات، لأن النص نفسه لا يستطيع أن يتحدث مباشرة عن دلالاته. وهذه التوترات والتناقضات تظهر عادة في النصوص التي تتوخى الصدق التاريخي"<sup>(3)</sup>.

1- اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 672

2- اخطئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 640

3- كريستوفر بتلر. من كتاب: التفسير والتفكيك والأيديولوجية ودراسات أخرى. ص 105

ولسنا في حاجة إلى جهد كبير، لتأكيد أن هذا النوع من الكتابة السيرية يتوخى - في الظاهر على الأقل - الصدق التاريخي. إذن فلنبحث عن بعض هذه التناقضات.

ولئن كانت الأمريكية - التي ينكر عليها المؤلف الضمني موقفها من هوية زوجها القومية - لا تعرف فلسطين إلا باسم إسرائيل، فلقد سبق أن قال الشخص المدني، وعضو الكنيست الإسرائيلي: إميل حبيبي، بأنه "لا يوجد في إسرائيل قوميتان، وإنما يوجد شعب إسرائيلي فقط"<sup>(1)</sup>. الأمر الذي يبين لنا إلى أي حد بلغ التباعد، بين شخصية المؤلف المدني الحقيقية، المنكرة للهوية القومية للشعب العربي الفلسطيني، في الأرض المحتلة منذ عام 1948، وبين شخصيته الضمنية، التي يريد للمتلقي أن يستكشفها، في لعبة خداع تساندها أعراف المؤسستين: الجمالية والأيديولوجية. لكأن الرجل يبيع للمؤسسة الإسرائيلية بضاعة، غير التي يحاول تسويقها للعرب.

لقد قام التناقض بالفعل بين رؤيتين: رؤية المؤلف المدني، ورؤية المؤلف الضمني. أو قل: بين الرؤية السياسية والرؤية الأخلاقية: حيث تحيل الأولى إلى المؤلف المدني، بينما تحيل الثانية إلى المؤلف الضمني. ومن هنا يحدث الصراع في العادة داخل الكاتب، وهذا الصراع هو الأصل في الحالة الصحية، وهو الذي يقف - كما يقول جان پول سارتر - وراء "تقلبات الكاتب وشقاء ضميره"<sup>(2)</sup>.

لكن شقاء الضمير هذا لا يستمر طويلاً - أو لا يظل تاماً - عند الكتاب الذين يقررون أن يتصالحو مع حاجاتهم وطموحاتهم الشخصية، خصوصاً عندما يشعرون بانعدام الجمهور الإمكاناني، الذي يعتمدون عليه في معيشتهم؛ كما هو الحال في الواقع المجتمعي العربي. وعندئذ يهبط لديهم منسوب هذا الشقاء الصحي،

<sup>1</sup> - وثيقة رقم 3

<sup>2</sup> - جان پول سارتر. ما الأدب. ص 79

"إلى أدنى درجات وجوده... ويصبح الكاتب في عداد الطبقة ذات الامتيازات، بدلاً من أن يكون على هامشها. وفي هذه الحالة يتوحد الأدب مع أحلام الحاكمين، وتجري وساطة الكاتب في صميم تلك الطبقة، ويكون موضوع الجدل هو التفاصيل، إذ يُمارَس باسم المبادئ التي لا جدال فيها"<sup>(1)</sup>.

وقد رصدنا بعضاً من آثار هذا الشقاء - أو شيئاً من بقاياها - في تحليلنا السابق للمتنازل.

#### 4- الأيديولوجيا واستظهار التعاليم:

وقبل نهاية الدفتر الثاني، وبعد موت أخطيئة، يبتدع الراوي شخصية نسائية أخرى، كمعادل موضوعي لها: تلكم هي شخصية (سروة) أخت عبد الكريم، التي تكرر شقاوات أخطيئة وموتها، فيما يمكن الإلماع إليه بأنه بداية لنصه القادم، الذي سوف يكتبه بعد ست سنوات باسم (سرايا بنت الغول): فسروة هي الفتاة التي يحبها الجميع، وتمثل بؤرة اهتمام الراوي، وجماعته من الصبية، الذين يحاول إعادة إنشائهم، في هذا النص والذي يليه، محملاً إياها قسطاً من تعاليمه الأيديولوجية، بمثل هذه الطريقة:

"وكانت سروة تحدثنا، عن رحلاتها هذه، أحاديث كانت تملأ قلوبنا شوقاً إلى ما هو أت من أمور مدهشة. وكانت ترسم على عتبة الدار، بقلم رصاص أو بحجر مدبب، منجلاً ومطرقة متعاشقين، ثم تمحو الرسم بريقها في سرعة البرق... كانت تسترق السمع إلى ما كان يدور من همس بين أخيها ومعاونه (العطشلي) ... وكانوا - قالت - يتحدثون عن ثورة اندلعت نيرانها في مكان بعيد. ولكنهم قالوا: ستبلغنا لا محالة. وكانت تكفر أحياناً... كانت سروة ثورة من نار ملتهبة. كانت تتحدانا وترتقي شجرة السرو العالية، علو

---

<sup>1</sup> - جان بول سارتر. ما الأدب. ص 79

ثمانية أمتار، في فناء بيتها، حتى تبلغ أعلاها. فكانت تميل بها كما تشاء وتهوى. وكانت تصرخ بنا: هل تسمعونني؟. نسمعك. فتهمس بكلام. ثم تعود تصرخ: هل تسمعون ما قلت؟. لا نسمعك. إحقوني إذن فتسمعوا. فلا نجرؤ على ذلك. فتنزل وهي تضحك وتقول: يا جناء. لقد خلوت بالله أسأله عن الجنة.

- فماذا أخبرك؟.

- أنا الجنة، وأنا النار.

وتشرد فنجري وراءها ونحن نردد:

أنا الجنة، وأنا النار.

... ولم نكن نفهم.

... حتى كانت تلك الشطحة. دارت الأرض في رؤوسنا، ونحن نراها تصعد وتصعد دون أن نتوقف أو تبلغ رأس الشجرة. ولم نشأ أن نصرخ خوفاً من أن نثير قلق والديها عليها.

- إلى أين يا سرورة؟.

- علواً علواً، حتى أبلغ قصر الغول وأحرر أخطيئة من سجنها.

- أخطيئة.

- إحقوني.

...

لم نجرؤ على اللحاق بها.

- إحقوني.

وقعت سرورة من أعلى الشجرة. وقعت على الصخرة الملساء التي غسلها ماء الشلال، منذ بدء الخليقة<sup>(1)</sup>.

---

1. أخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 685 - 689

ورغم هذا الثوب السردي. إلا أن المتلقي سوف يفهم أن المحبوبة، لكي تكون على هذا القدر من السحر، يجب أن ترسم منجلاً ومطرقة، وتكفر، ولا تعترف بالجنة والنار، إلا باعتبارهما نتاجاً تاريخياً لعلاقات الإنتاج، لا حقائق يؤكدتها الإيمان الديني بكل ألوانه!. ولن يصعب عليه أن يكتشف بأنها شيوعية، بمقاس المرحلة الستالينية، التي سوف يكرس المؤلف المدني نفسه لمحاربتها، فيما بعد، وتحديداً بعد أن ينفصل عن الحزب، الذي يروج لشعاراته في هذا النص؟.

وبعد، أفلا نرى هنا كيف يستظهر الأيديولوجي: إميل حبيبي، تعاليم شبيهة بتلك الشعارات التي وقفت من وراء ترويح رواية مكسيم جوركي (الأم)، في تلك الحقبة من الواقعية الاشتراكية؟.

في الدفتر الثالث (عبر) نكتشف أن أخطيئة لم تمت، ولم تقع فوق الدرجات الصخرية، ولم تنجب سفاهاً، ولم يرها عبد الكريم وسط الشارع لحظة الجلطة المرورية، لأن استيهاماته هي التي خيلت له هذه الرؤية، ولأنها ولدت كسيحة خرساء، ولأن اخته سرورة هي التي كانت تحمل رسائلها إلى الصبية، ولأن أخاه عبد الرحمن كان قد تزوج منها، وتعيش معه إلى الآن على كرسي ذي عجلتين، إلى أن نصل إلى اكتشاف الراوي لكل ذلك خلال زيارته لعبد الرحمن، فيما كان عبد الكريم - أو عبيدو - قد تم ترحيله عن البلاد دون أن يكتشف اللغز، الذي حلّه الراوي حلال الألبان وصاحب الرؤية الكلية، منهيماً هذا النص بهذه العبارة: "أخطيئة الكسيح لولا سرورة. أخطيئة الخرساء لولا عبد الرحمن"<sup>(1)</sup>.

فالراوي التقدمي، لا يتعاطف إلا مع النسوة المحافظات، اللاتي لا ينجبن سفاهاً.

---

<sup>1</sup> أخطيئة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 705



## أولاً- 3: خُرَافِيَّةُ سرايا بنت الغول: سيرة الندامة والحسرة:

### تمهيد:

سئل إميل حبيبي، ذات يوم، عما إذا كان كتاب سرايا بنت الغول يتناول حياته الشخصية، فقال: "بالطبع. لقد استخدمت مذكراتي الشخصية، ولكنني نقيتها. هناك في الكتاب كذلك الكثير من الفانتازيا... انتقلت من هنا إلى هناك، بطريقة لم أعرف معها إلى أين كنت ذاهباً. لقد أحببت دوماً العودة إلى ذكريات الطفولة"<sup>(1)</sup>.

ولئن كانت (أخْطِيَّة) مديح العقل الخالص، فلقد جاءت (خُرَافِيَّةُ سرايا بنت الغول) أنين ألم ممتد، وحسرة مؤسسية، وندامة بامتياز. ولا جرم؛ فقد كتب إميل حبيبي هذا النص بعد خروجه من الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وانتزاع رئاسة تحرير جريدة الاتحاد من بين مخالفه، التي طالما استخدمتها سلاحاً ضد الخصوم، كما بينت لنا شهادة لافته للناقد نبيه القاسم، يقول فيها: "كان إميل حبيبي، في لحظات تجليه، يقول مازحاً، عن محمود درويش وسميح القاسم: أستطيع أن أمحو اسميهما بمقالة صغيرة أكتبها"<sup>(2)</sup>.

ثم ها هو، آخر الأمر، لا يجد على صفحاتها متسعاً لنشر مقالاته السياسية، كما يقول<sup>(3)</sup>.

## 1- سجن الماضي:

إن أول سؤال سوف يبادر ذهن المتلقي لهذا النص هو: لماذا هذا الإلحاح القوي على الماضي؛ بله المراوحة عنده، من كاتب كان قد قرر منذ أعوام طويلة تجاوزه؟. لقد كان

<sup>1</sup> - حوار مع مجلة عيتون 77 (عبرية). مارس 1991. ص 24. أجرى اللقاء: شمعون بلاس، ويعقوب بسار.

<sup>2</sup> - نبيه القاسم. مرادة النص. ص 99

<sup>3</sup> - انظر: إميل حبيبي. نحو عالم بلا أفاص. ص 4

الماضي فلسطين، ثم صار الحاضر إسرائيل. ولم يكتف المؤلف، عند حدوث هذا التحول، بالقبول بهذا الحاضر اضطراراً، بل إنه أمضى عمره معلناً إيمانه به، كحقيقة من الحقائق الموضوعية، وراهن على استمراره وتطوره، داعياً الآخرين إلى القبول به، ثم محض كل من سعى إلى تغييره عداءً عنيفاً، وسخرية مرة. ولو قدر لنا أن نتجرأ أكثر لقلنا: إنه راضٍ وعيه على حب ما كان فأحبه<sup>(1)</sup>؛ على طريقة المتشائل عندما قال: "مليح أن صار هكذا، وما صار غير شكل"<sup>(2)</sup>.

وإذا أردنا المجازفة بتحليل (خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول)، باعتبارها نصاً سردياً، فلسوف تهولنا تلك الثغرة الهائلة في هذا النص: ثغرة لا بد من محاولة ردمها، أو تضيق فوهتها الواسعة، لكي نستطيع تخطيها، وصولاً إلى إنتاج الدلالة. وتلك الثغرة سرٌّ مظلمٌ أسودٌ مدلهمٌ يعاود الراوي، خلال كل مفاصل السرد. إذ تُعتبر كل محاولات التخفف، من هذا السر، هي البنية العميقة لهذا النص. فكيف يتخفف منه الراوي، دون إسقاطه على موضوعات تجريدية، تحمل عنه عبء الاعتراف، على ورق يحمل نصاً، يقول عنه إنه سردي؛ وبذا يمكن له أن يحمل تأويلات بعيدة تنقذه من هول الجزاء!<sup>(3)</sup>.

إنه يحاول الشيء ثم لا يتمه، ويبدأ بأولى مراحل التطهير، ثم يقرنها بما يعوقها، عالماً ومتعمداً: فالسياسي المخضرم فيه، متسلح مسبقاً لمواجهة أي محاولة نقد كاشف،

---

<sup>1</sup> - نستذكر هنا ما قاله إميل حبيبي، لصحيفة حداثوت العبرية، في تاريخ مقارب (1991/10/20): "بأن الحرب قد خلقت وحدة المصير بين عرب دولة إسرائيل واليهود. وبأنه مع إزالة التهديد الوجودي للعراق، سيعم الفرع العظيم، الذي سينغرس في أعماق وعي اليهود والعرب، في إسرائيل؛ بحيث لا يمكن نسيانه إلى الأبد". انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 419

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 66

<sup>3</sup> - رغم أن إميل حبيبي زعم هنا أنه يكتب مجرد خُرَافِيَّة إلا أنه عاد في المقدمة - خطبة المؤلف - إلى وصفها بالرواية. انظر: خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ط 1. حيفا. دار عريسك. 1991. ص 5. وكل إحالة بعد ذلك سوف تكون إلى هذه الطبعة.

بالمراجعة النقدية الأشهر: المقررة بأن الراوي، في النص السردى، مجرد تقنية، أو شخصية تخيلية، لا تحيل بالضرورة إلى المؤلف. وهذه الذريعة - الجاهزة مسبقاً - هي التي تساعد المؤلف في التمتع على تجنيس هذا النص، كسيرة ذاتية.

لكن طقس التطهير لا يتم إلا بالاعتراف الكامل، الذي يؤدي - بما فيه من ألم - إلى إعادة تجسيد تلك الخبرة المؤلمة الماضية، عن طريق التمثيل أو السرد؛ وعندئذ فقط يتحقق صفاء الذهن، ووضوح الفكر، والاسترخاء، كما يؤكد علم النفس الحديث<sup>(1)</sup>.

إنه اعتراف مبتسر إذن. ولو كان من راحة، من ورائه، إذن لتمتع بها بعد صدور المتشائل.

الراوي إذن هو الكاتب المدني نفسه: إميل حبيبي<sup>(2)</sup>. لكنه إذ يرغب عن تسمية هذا الشكل من الكتابة سيرة ذاتية - للأسباب السابقة - ثم يشعر، من تجاربه القرائية، بأنه لا يمكن أن يكون رواية، بالمعنى المعروف؛ يلجأ إلى تسميتها خُرَافِيَّة: أي حكاية شعبية، تتخللها أحداث عجيبة. موهماً نفسه بأن هذا الشكل من الكتابة لم يتعرض له أحد بالتصنيف. لكنه يذهل عن أمرين؛ أولهما: أنه هو نفسه سيقول، بعد سطور، إنها رواية. وثانيهما: حقيقة أن الخُرَافِيَّة قوامها الحكى، وفق نمط معروف، ليس لقلاديمير بروب وحده، بل لكل الجدات اللاتي ابتدعن هذا الشكل الحكائي الجميل، منذ القدم.

<sup>1</sup> - انظر: عزيزة صالح حافظ. نحو منهج للنقد الثقافي. ص 29 - 31

<sup>2</sup> - لقد ذهب إلى مثل هذا الرأي كثير من الدارسين الفلسطينيين، منهم: "الدكتور إحسان عباس، والروائي أحمد رفيق عوض، والناقد صبحي شحروري، والدكتور عيسى أبو شمسية، والدكتور محمود العطشان، والدكتور عادل الأسطة. انظر: عادل الأسطة. إشكالية الراوي والمؤلف والشخصية، في نص "خرافية سرايا بنت الغول" وموقف الدارسين

منها. مشارف. العدد 16. ص 161 - 163

إن مراوحة إميل حبيبي بين هذين الخيارين، في تجنيس هذا النص، راجع إلى اقتناعه بسطوة المسكوت عنه، في المؤسسة الأدبية، التي سوف تفرز، آخر الأمر، من الدارسين، من سيقوم بإجلاء هذا التناقض، اعتماداً على إثارة من هيبة الموقع الأدبي، للكاتب الذي أبدع المتشائل، ذات يوم. مما يحيلنا مرة أخرى إلى مقولة تيري إجلتون؛ حول اكتفاء المؤسسة الأدبية بإنتاج الكاتب لنص قيم واحد، لتعتبر كل إنتاجه جزءاً من تراثها، مهما تفاوتت قيمته الفنية<sup>(1)</sup>.

إن تسمية هذا النص بالخرافية، يقفز فوق حقيقة افتقاره إلى كل الوحدات الوظيفية، في القصة العجيب، ثم إلى حقيقة كونه لا يحتوي على أحداث، ولا يخلق شخصيات تخيلية، كما هو المعهود في الشكل الروائي، دع عنك خلوه من تقنيات القصة الحديثة، حيث لا يتشظى الزمن، ليعيد المتلقي ترتيبه، ولا يمتد أفقياً، لينام على إيقاعه الرتيب في انتظار النهاية.

## 2- تهشيم البنية وعبثية المعنى:

نلاحظ وضوح دال متميز في هذا النص، أكثر من غيره: غياب البنية السردية، غياباً لافتاً. وإنه لمن الدال كذلك، أن إهمال بنية الرواية، كحكاية خطية، لدى إميل حبيبي، قد برز بعد رواية المتشائل، ومواكباً لبدايات تباعده عن الحزب، الذي أقام على أكتافه سلطته المطلقة، الأمر الذي يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان هذا الشكل، من الكتابة الحبيبية، معادلاً موضوعياً لحياته التي غدت - بعد خروجه من الحزب - خالية من المعنى؟.

---

<sup>1</sup> - انظر: تيري إجلتون. مشكلة القيمة الفنية. ص 14

لقد برز هذا الشكل، من الكتابة، في الغرب، "متوكباً مع نقد رؤية الحياة كوجودٍ مزوّدٍ بمعنى: أي بدلالة واتجاه"<sup>(1)</sup>. فهل يشير هذا الشكل من الكتابة لدى حبيبي إلى هذه القطيعة مع الحياة، كما عهدتها في السابق؟. الراجح أن الرد سيكون بالإيجاب: فعند التناول النقدي، لخرافية سرايا بنت الغول - وفق أدوات تحليل الحكاية الخُرافيّة - سوف تبدهنا الملاحظة البارزة التالية: إنها تبدأ نفس بدايات القصص العجيب، ولكنها لا تتجاوز هذه البداية أبداً، على هذا النحو:

"كانوا في صيف العام 1983. وكان صدى الحرب السادسة يتردد بعدُ في آذانهم، تردّد آهاتِ الحنين، في صدورهم، إلى صخرة على الشاطئ ابتلعها البحر، أو إلى عين ماء على الكرم نشّفها القهر.

من حرب إلى حرب، أُرهِفت حاسة السمع في آذانهم، حتى أتقنوا التمييز بين طنين حربٍ وطنين حربٍ أخرى: أَسْمِعْهُمْ ضجّةً - أزيلاً أو قصفاً، عويلاً أو نشيداً، أو (مارشاً) موسيقياً - فيعينوا لك حربها، وعام وقوعها المضبوط"<sup>(2)</sup>

كأن الحياة، في نظر الكاتب، أقلّ شأنًا من أن يتساءل المرء عن بداياتها ونهاياتها ومعناها!. فما نحن نسمع الراوي يقول لنا: (كان يا ما كان في سالف العصر والأوان). ثم ماذا!؟. لا شيء بعد لماذا هذه، لأنه لا جواب، ولا زمن، ولا تاريخ، ولا أبطال: فلا بطل يخرج، ولا عقد يتم، ولا اختبار يقع، ثم لا انفصال عن المجتمع، يؤدي إلى وقوع أحداثٍ تنتهي بالفوز أو بالخسران<sup>(3)</sup>. بالمختصر يمكن القول: بأن لا صراع، سوى صراع الراوي مع استرجاعاته، التي "لا تكاد تتدرج في سلكٍ مستقيم، ولا تتسج حدثاً طويلاً نامياً، في

1- بيير بورديو. أسباب عملية. ص 97

2- خُرافيّة سرايا بنت الغول. ص 10

3- انظر: نبيلة إبراهيم. نقد الرواية. ص 76

مراحل متتابعة"<sup>(1)</sup>، ولا تحرك مسار الحكى، نحو صعود درامي ينتهي بنهاية، من أي نوع.

والحق أنه - إلى جانب كل ما سبق - لم يتبق لدى الأديب إميل حبيبي ما يضيفه، في مجال الرواية، منذ زمن طويل: وتحديداً من بعد أن أتم رائعته المتشائل، التي استنفدت كل مخزونه الحكائي، لأنه في الواقع "كاتب قصة قصيرة في الدرجة الأولى"<sup>(2)</sup>، أغراه نجاح قصصه القصيرة الأولى، بخوض معترك الرواية. ولقد نلاحظ أن هذا النجاح، هو الذي دلّى له بحبال الإغواء؛ من رؤيتنا له يوقع مجموعته الأولى - سداسية الأيام الستة - باسم أبي سلام، كأنه كان متخوفاً من فتورٍ محتملٍ في استقبال الأوساط الأدبية لها. ولم يلجأ إلى مهرها باسمه الصريح، إلا بعد أن أشاد بها المرحوم غسان كنفاني<sup>(3)</sup>.

فلما نجح إميل حبيبي في المتشائل، اعتقد أن الأمر ميسر أمامه، خصوصاً بعد هذا الاستقبال الحافل، الذي استقبلت به، لأسباب أغلبها سياسي أو حزبي.

وإذ اختلف الأمر الآن، بعد خروجه من الحزب الذي وفر له - في السابق - كل ذلك الانتشار، وكل تلك المهابة، فقد

"أخذت أفلام النقاد تتناوشه، على غير تهيب، أو بعيداً عن ذلك الشعور الذي رافقهم سنوات السبعين - بالاحتراس والتقدير؛ باقتربهم من العتبات المقدسة للقضية الفلسطينية - فانكفاً على ذاته يرثيها، ويبيكي الفرص، الكبيرة والعديدة، التي خسرتها إياها انشغالاته الحياتية بالسياسة... ولكنه، وقد استفاق إلى الحقيقة متأخراً، كان قد فاته قطار الإبداع

<sup>1</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 171

<sup>2</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 180

<sup>3</sup> - غسان كنفاني. الآثار الكاملة. المجلد 4. هامش ص 267

الخلّاق... واكتشف أن مخزونه من الاقتباسات، التي جمعها طوال عمره، وحذق في التلاعب بها وإبهار القارئ، قد استُنفدت كلها<sup>(1)</sup>.

### 3. الحب المحرم وتزوير الوقائع:

يجلس الراوي على شاطئ البحر، فوق صخرات مشرفة من علوّ، ليصطاد. فيظهر له شبح جنّية البحر، يناديه بصوت (سرايا)، ثم لا يلبث أن يختفي. فيعود خالي الوفاض من السمك. ويحاول الصعود إلى طريق العودة، في الظلام، بعد أن خذله مصباحه الكهربائي، وغشّي عينيه سيف الضوء. المنبعث من كشاف التكنة العسكرية القريبة. فتزل قدمه، ويسقط من علوّ، نحو قاع الوادي، حيث البحر ورمل الشاطئ. وهنا تمد سرايا يدها لتسحبه وراءها، إلى طريق العودة، وهي تتأديه، بين الفينة والأخرى، بيا (يابا)<sup>(2)</sup>. ثم تختفي<sup>(3)</sup>.

سرايا بنت من بنات النّور (العجر)، كانت قبل نصف قرن تصاحب الراوي، وتأخذ بيده، وترتقي به إلى وادي العشاق، في أحراش الكرم<sup>(4)</sup>.

ونحن لا نستبعد أن تكون سرايا هذه معادلاً موضوعياً لماضيه المؤرق، لا ماضيه الجميل، كما يحاول أن يقول لنا ظاهر الخطاب: فالماضي الجميل لا يُحبس ولا يختفي مكرهاً. أما سرايا فلم ينفك الراوي يبحث عنها، في الطيات المجهولة من ضميره، وينتظرها كما ينتظر الموت، ويرى في عيني هذا الماضي لوماً، على هذه الشاكلة:

<sup>1</sup> - نبيه القاسم. مرادة النص. ص 97

<sup>2</sup> - هذا التعبير في هذا السياق لا يفيد وجود عاطفة أبوة بين المخاطب والمخاطب، بل هو تعبير فلسطيني دارج لا يفيد هنا معناه القاموسي، بل هو على شاكلة مناداة المرأة المصرية زوجها بمفرده: (ياخويه).

<sup>3</sup> - انظر: حُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 10 - 36

<sup>4</sup> - انظر: حُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 36، 55

- "أبوك يا سرايا لم ينفك يبحث عنك، في الطيات المجهولة من ضميره، الذي حبسه في قصر، شيده فوق قمة يخفيها الضباب الأبدي، من قمم الكرمل. ينتظرك انتظاراً مريعاً، أشد إيلاماً من يقين المؤمن بأن الموت حق. فهل أرى في عينيك لوماً، أغمضتُ عيني ضميري عنه، طول هذا العمر، خوفاً من ضياع ذلك اليقين" (1).
- " - سرايا!. ها أنا أهتف باسمها الآن، وأنا أفشي لك بسري الحي، هتافاً باطنياً أشبه بالاحتراق الداخلي، الذي غير وجه العالم - في محرك سيارة، أو طائرة، أو حاصدة، أو صاروخٍ عابر إلى المريخ - لعله يغير عالمي، الذي عدت إليه حين لم يبق لي من العوالم سواه. ها أنا أفهقه قهقهة باطنية، أشبه بانفجارات العطل في ذلك المحرك" (2).
- "ومضيّنا في تبادل التمثال بالتمثال، حتى اختلط ما لها وما لي، من تماثيل، ومن هدايا عمي، ومن هداياها. وهو ما ألف وأدور، ولا أجرؤ على البوح به، حتى كتابة هذه السطور" (3).

إن سرايا هي سره الذي يكتمه ويخشاه، يؤمن به ويخشى عقابيله، يتقبله وعيه وينكره لاشعوره. إنها الحب المحرم المؤرق لصاحبه: فرغم أنه لا ينفك يمارسه، إلا أنه يحذر كل الحذر أن يطّلع عليه أحدٌ سواه. فهي واقعه المحبوب المفرّج، الذي يضحي به في لحظة أنانية، لا تزال تقض لاشعوره، المعاني من كبت سلوك، لا يسمح له وعيه بالإعلان عنه. لكأن الرجل يقف الآن مع ضميره، الذي لا يني يقرعه باللوم، وتزداد وتيرته الآن، وهو يرى نفسه وحيداً معزولاً، من الحزب، الذي أُنفع نفسه بأنه فعل كل ما فعل لأجله. الأمر

1- خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص36

2- خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص56

3- خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص107



الذي يضيء لنا حرص الراوي، المتكرر، على الاستشهاد بعبارة ابن الأثير: " فيا ليت أُمي لم تلدني. ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً"<sup>(1)</sup>.

إنه العذاب الذي لا يستطيع التحرر منه، إلا في الأيام الأخيرة من عمره، حين يقرر الاعتراف والتطهر، بإعلان أنه هو المتشائل<sup>(2)</sup>، الذي عاش على حساب وطنه!. وإنه لأمر مفزع أن تعيش، وأن يموت الجبل"<sup>(3)</sup>.

إن هذا التكرار المولء، لهذه الحسرة الأبدية، نابع من واقع نفسي ممضّ، يشدّ عليه في أواخر حياته، وهو يرى جنى غرسه، ينتفع به سواه، بعد أن يصب على الغارس اللعنات: "إنه واقع نفسي حقيقي [هذا]، وهو في طبيعته الباطنة، مجهول منا: نجهله قدر جهلنا بحقيقة العالم الخارجي. كما أنه لا يمثل لنا - بوساطة معطيات اللاشعور - إلا مُثولاً ناقصاً، على نحو ما يمثل العالم الخارجي بوساطة أعضاءنا الحسيّة"<sup>(4)</sup>.

وهذا الحضور الناقص، في محتوى النص، هو الذي يحاول التحليل النقدي إكماله، عن طريق ردم هذه الثغرات التي تتخلل مفاصله.

إن الراوي يحب سراياه هذه، ولكنه لا يتزوجها. ومنذ متى كان يُسمح لقروي فلسطيني بالزواج من عجربة تقرأ الطالع!. لقد صار الراوي قائداً تقدماً يدعي الإلحاد، لكنه لم ينس أن يوصي، عند وفاته، بأن يُدفن حسب الشريعة المسيحية، بعد الصلاة عليه في الكنيسة. واعتبر حرب 1948، حرباً تحريرية، أتاحت قيام دولة إسرائيل:

---

<sup>1</sup> - انظر على سبيل المثال: ص 76، 77

<sup>2</sup> - أنظر: إميل حبيبي. الحوار الأخير. مشارف. عدد 9. ص 19

<sup>3</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 88

<sup>4</sup> - سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ص 595

"هذه الدولة التي هي تجسيم لحق الشعب الإسرائيلي في تقرير المصير... وأما المتطرفون في الأقطار العربية، فيستنتجون من الوضع القائم، أن السلام مع إسرائيل غير ممكن، وأنه لا حل سوى (تحرير)<sup>(1)</sup> فلسطين. وهم لا يعترفون بحقوق شعب إسرائيل"<sup>(2)</sup>.

ثم اعتبر هذه الحرب ذاتها، في هذه الخُرَافِيَّةِ، "حرب تحرير البلاد من أهلها"<sup>(3)</sup>.

ووافق قيادة حزبه، في تقسيم تبعه قيام حرب يونيو (حزيران) 1967، مناصفة بين العرب والصهاينة، كما أوضحنا في الفصل الثاني. ثم جاء في هذا النص - الخُرَافِيَّةِ - ليعتبرها "العدوان الحزيراني"<sup>(4)</sup>!!.. هكذا، ومرة واحدة!. وأحب بطش أمريكا بالعراق، في حرب الخليج الأولى، وصار ملكياً أكثر من الملك ذاته، عندما صرح لصحيفة حداثوت العبرية: "بأنه، مع إزالة التهديد الوجودي للعراق، سيعم الفرح العظيم، الذي سينغرس في أعماق وعي اليهود والعرب، في إسرائيل؛ بحيث لا يمكن نسيانه إلى الأبد"<sup>(5)</sup>.

ثم اعتبر هذه الحرب، في هذا النص - الخُرَافِيَّةِ - يومَ حشرِ فلسطينياً!.

فأيهما كان إميل: وعيه الملحد، أم لاشعوره المؤمن؟!.. اعتبره حرب 1948 حرباً تحريرية يهودية، حقق بواسطتها الشعب اليهودي مصيره على أرضه، أم اعتبره إياها نكبة حررت البلاد من أهلها؟!.. وصفه لحرب 1967 كعدوان عربي على الدولة اليهودية، أم وصفه لها كعدوان إسرائيلي على العرب؟!.. حبه للحرب الأمريكية على العراق، أم كرهه

---

<sup>1</sup> - الأوقاس كما هي في نص إميل الأصلي.

<sup>2</sup> - إميل حبيبي. كتاب المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي. ص 240

<sup>3</sup> - خُرَافِيَّةِ سرايا بنت الغول. ص 102

<sup>4</sup> - خُرَافِيَّةِ سرايا بنت الغول. ص 112

<sup>5</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 419

لها واعتباره إياها "يوم الحشر الفلسطيني: يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ولا هم مبصرون" (1)؟!.

إن هاتين اللغتين، التي يتحدث بهما نفس الشخص، لتعززان فعلاً صحة الاستنتاج العلمي، الذي توصل إليه الدكتور صلاح فضل، والقاضي بانشطار الرجل بين منظورين مختلفين، للقضية الواحدة، وانشطاره الشقي بينهما (2).

فلنرَ في هذا المقطع، كيف يحب الراوي هذا الحب، الذي يربطه بسرايا، ثم كيف يتكرر له ويخفيه، في آن واحد. يقول: "و قليلاً ما جرّوت الصبيّة النُورِيّة، بائعة الزعرور والعباب، على اللحاق بي إلى (غرفة البير). فأغلق بابها الخشبي علينا. فإذا هممتُ بالخروج، وجدتها مثلكنة. فأغلق الباب دونها، أو أتلكأ معها. أو أسمع صوت الوالدة تتاديني" (3).

وإذ يبحث الراوي لنفسه عن ذريعة، يقنع بها لاشعوره المتمرد، بأن تنكره لسرايا - المعادل الموضوعي لماضيه الممضّ - مبرر منطقياً؛ فلقد يجد هذه الذريعة: تارة في منطق الأخلاق، و تارة أخرى في منطق الإنسانية.

فهو، في منطق الأخلاق، لا يمكن أن يرتبط بسرايا، لأنها أصبحت محرمة عليه، كما يقول هذا المقطع:

"وما كان عمي إبراهيم يطرق بابنا، بعصاه (المنذورة) أو (المستورة)، إلا في العشية. وفي العشية كانت سرايا تنفلت من بين يديّ، عائدة إلى عشيرتها، خوفاً من أن يأكلها الذيب. وحين مضت العشية وحل الليل، ولم تنفلت من بين يديّ، أكلها عمي إبراهيم. ولا

1- خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 100

2- انظر: صلاح فضل. على حد السيف. مشارف. عدد 9. ص 97

3- خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 66

أعود إلى ذكر سرايا والبحث عنها، وراء كل سور وكل حائط بيت وكل قرية معتمدة، إلا في هذه العشية! فماذا عدا مما بدا؟....

فسألني: هل كان عمي إبراهيم هو الذي (أكلها)؟.

فكيف انتقلت عصاه (المستورة) إلى يد أخي جواد وقد تجردت؟.

قلت: ما هي الحقيقة؟.

وإلى متى توهم نفسك بأنك، بهذا اللف والدوران، تسلم ونسلم من هذه الحقيقة؟<sup>(1)</sup>.

لقد سأله الصحفي الإسرائيلي، عما إذا كان يتكلم في هذا الكتاب بصورة مباشرة، أو ما إذا كان لا يحاول التستر على حقيقة أنه يتناول سيرته الذاتية؟. فرد قائلاً:

"لقد اتفقت معك على أنها سيرة ذاتية، لكنني حين شعرت بأنني لا أملك الحق في التحدث عن أبناء عائلتي، بهذه الصورة، عدت إلى تغيير الأسماء: اسم الأب، أسماء الإخوة. لقد بحثت عن أسماء قريبة من الأسماء الحقيقية. بصورة عامة، يمكن القول بأنني حاولت تبييد أي تشابه مع نفسي الواقعية. ولكنني كنت أتحدث عن أشياء حقيقية"<sup>(2)</sup>.

لقد (أكل) عم الراوي تلك الثمرة، وصارت عليه محرمة. وما عاد له من خيار في الارتباط بسرايا، وقد أصبحت بشكل من الأشكال (زوجة عمه). والعم صنو الأب. وزوجة العم، في العرف الواعي، هي بمثابة أم ثانية.

إن حب المحارم من الممكن له أن يستمر، ولكنه سيظل مكبوتاً في اللاشعور، أو يتحقق سرّاً، ويورث العقد النفسية، كما دلت على ذلك بحوث علم النفس التحليلي. يقول فرويد: "ليس بين مكتشفات التحليل النفسي ما لقي من النفاض الممرور، ومن المدافعة

<sup>1</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 150 - 151

<sup>2</sup> - مجلة عيتون 77 (عبرية). مارس 1991. ص 24

المستميّنة، ومن الحذقة النقدية الطريفة كذلك، ما لقيته هذه الإشارة إلى النزوع الطفلي - الذي يظل متبقياً في اللاشعور - إلى الزنا بالمحارم"<sup>(1)</sup>.

ويظهر أن هذه العلاقة المحرمة قد تحققت، بين الراوي وسرايا، بعد أن أكل عمه من الثمرة، كما نرى في هذين المقطعين:

- "قلما مسكني مع سرايا، في مساء ذلك اليوم، غاب غيبته الأخيرة التي لم يعد منها، حتى يومي هذا. ولم يجد من يورثه عصاه (المستورة) إلا أخي جواد"<sup>(2)</sup>.
- "وتملكني منذ ذلك الزمان [الذي كان فيه الراوي يعمل في معمل تكرير البترول] ألفة خاصة إلى رائحة النفط الخام، صحبتني حتى هذا اليوم، وشبهتها بالألفة الخاصة إلى رائحة الطابون، التي يحملها نازح فلسطيني معه، إلى حيث ألفت الزلازل رحله. وأعزو هذه الألفة إلى رائحة أشد إغلالاً في الزمن، من رائحة النفط الخام، الذي ألفته خياشيمي منذ أن دخلت في تلك البوابة. وأخالني ولدت مع هذه الألفة: وهي رائحة عمي إبراهيم وثيابه وجرابه. وكنت شممتها عطرًا يفوح به صدر سرايا"<sup>(3)</sup>.

من الواضح، إذن، أن هناك علاقة جنسية كانت قائمة بين الإسماعيلي المنتصر: إبراهيم (عم الراوي)، وبين سرايا. كما أن من الواضح كذلك أن الراوي وسرايا كانا، في نفس الوقت، يقيمان علاقة مماثلة. فهل رمزت سرايا إلى عقدة أوديب؟. وهل ظل لاشعور الراوي منطوياً على الإحساس بقتل الأب - الذي هو العم - الذي يشعر الراوي بأنه هو الذي تسبب له بالغياب (وهو قرين الموت) الذي لا رجعة منه، فعاقب نفسه بالتخلي عن

<sup>1</sup> - سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. هامش ص 279

<sup>2</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 156

<sup>3</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 157 - 158

سرايا - فزوجة العم بمثابة الأم - كما تخلى أوديب عن أمه التي هي، في نفس الوقت، زوجته؟. إن سرايا هذه لسرّ عظيم، يكتمه وعيُّ صاحبه، ويتخلى عنه، قاذفاً به إلى المنطقة المظلمة من أعماقه: اللاشعور!. ألم نقل بأن سرايا هي ماضيه الممض، الذي يحرص على ألا يعلم به أحد؟.

أما في منطق الإنسانية، فقد أقنع الراوي وعيه بأن الضعف، المؤدي به إلى أفحش الهوان أمام العدو - كالعمالة مثلاً - فعل مبرر، ويمكن للإنسان أن يمارسه، ويظل برغم ذلك، شخصاً سوياً، يستحق التقهّم والقبول والمساعدة. ثم لا يكتفي بذلك، بل يقرن مرافعته البليغة هذه بحيلة صحفية، تبلغ حد التزوير، ينقل بواسطتها أقوالاً للنين - في ضرورة التعالي على دعوات المتساقطين - ليصب جام غضبه على محتواها، متوجّهاً باللعنة لا على كاتبها، بل على خليفته ستالين!. (كأن تقارب مخارج الاسمين يبرر هذه التعمية المتعمدة!)، فيبدأ بنقل كلمات لنين بالصورة التالية:

"ها نحن سائرون، في جماعات متراسة، عبر ممر وعر وشديد الارتفاع. ويأخذ الواحد منا بيد الآخر أخذاً ثابتاً. محاصرون نحن بالأعداء، من كل جانب. وعلينا التقدم إلى أمام، على الرغم من قصف نيرانهم غير المتوقف تقريباً. كنا اجتمعنا باختيارنا الحر، وراء هدف النضال ضد العدو، لا وراء التراجع عائدين إلى المستنقع تحتنا، الذي لم ينفك سكانه عن تقرّيعنا، منذ اللحظة الأولى، على انفصالنا (عنهم) في جماعة متميزة، وعلى اختيارنا طريق الكفاح عوضاً عن طريق التراضي. وفي لحظة من اللحظات، يأخذ أفراد من بيننا بالصراخ: دعونا نعود إلى المستنقع!. فنعيب عليهم هذا الوهن. فيردون علينا معاتبين: ما أشد جهلكم!. ألا تخجلون من إنكاركم حريتنا في ندائنا إليكم؛ أن تسلكوا طريقاً أهون وأسلم!. بلى أيها السادة، فإنكم أحرار لا في توجيه هذا النداء إلينا فقط، بل في أن تذهبوا أنتم أنفسكم إلى المستنقع. وصراحة نعتقد أن المستنقع هو المكان الجدير بكم. ونحن مستعدون لأن نقدم لكم كل عون في تحقيق مبتغاكم هذا. ولكن، فكوا أيديكم

من أدينا. ولا تتشبثوا بنا. ولا تلوثوا كلمة الحرية السامية. فإننا نحن أيضاً أحرار في النضال ضد المستنقع، وليس ضده فقط، بل أيضاً ضد أولئك الذين يعودون إلى المستنقع"<sup>(1)</sup>.

ويعد هذا النقل عن لينين، يستطرد الراوي كعادته، في مواضيع غير ذوات صلة، ثم يلتفت معلقاً: فلماذا لم نرفق بأنفسنا؟. ألم يكفنا عنت الكفاح ضد (المستنقع) فضمامنا إليه من ترفق بنفسه وبعياله؟. كيف يكون حالنا اليوم لو تعاملنا معهم تعاملي مع المتشائل؟"<sup>(2)</sup>.

وبمقارنة بسيطة، بين ما جاء فيما وضعنا تحته خطأً، من كلام لينين، وبين عبارة إميل حبيبي، في المقطع السابق؛ ندرك حجم التعارض، وشدة التناقض، بين المنطقيين. لكن هذا التعارض في أسلوب إميل حبيبي، حتى الآن، لا يعدو التساؤل الاستنكاري، ربما لأن عبارة لينين لم تزل قريبة وعالقة بذهن المتلقي، ولا يستطيع إميل حبيبي، بتكوينه التاريخي، ومهما بلغ من التمرد، أن يواجه منطقتها، بقوة، أو سخرية، كما هو معهود منه، في مناسبات أخرى. حسناً إذن، فليمارس نوعاً من التمويه الاستراتيجي.

تبدأ أولى مراحل هذا التمويه باستطراد مطول، يشبه الانسحاب التكتيكي في العلوم العسكرية، يقوم الراوي، خلاله، بإلهاء المتلقي، عن هوية قائل العبارة السابقة. ويعد أن يطمئن على انشغاله، بتتبع الحدث الحكائي المتوهم، يلتفت الراوي مرة أخرى، ليشن هجومه المباغت، تمهيداً لكسب الجولة: كسباً يتيح له الإحساس بأن معارضة محتوى عبارة لينين، بهذه الطريقة الكاسحة، سوف تعطي انطباعاً إنسانياً كبيراً، بالتعاطف مع الضعفاء، الذين هم المتساقطون، في منطق المؤلف الضمني.

<sup>1</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 152 - 153

<sup>2</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 153

ولكن هذا الهجوم المبالغت، لا يشنه الراوي على لينين، فقد قلنا بأن المؤلف المدني، الواقف من وراء الراوي، أضعف من ذلك، ولا يحلم به. إذن فليبحث له عن مصب اللعنات، التي تتوقف الآن على طرف لسانه مهددة بالانفجار. ومن من زعماء الشيوعية أولى بهذا من ستالين، الضعيف، المنسي، المعرض للانتقادات الدائمة!. إذن فليكن هو، ولتصب صواعق لعنات إميل حبيبي على رأس ستالين، بدلاً من سلفه المهيب، على شرط إيهام المتلقي بأن ستالين هو صاحب العبارة السابقة، لا لينين. وهذه هي الطريقة:

"ومن تعثر منا تباطأنا حتى يقوم من عثاره. ومن تردد منا أخذنا بيده حتى يكف عن ترده. ومن سقط إعياءً دعونا إلى الاتكاء علينا حتى يستعيد عافيته. فلا يسقط من صفوفنا إلا من أسقطه العدو برصاصه. لعنة الله على ستالين وعلى خلفائه أجمعين. ما ولدنا إلا أحراراً، لا قلعة محاصرة لا ينالها العدو إلا من الداخل. وما نالنا إلا بهذه البدعة غير البشرية"<sup>(1)</sup>.

لينين قال. وستالين هو الذي يستحق اللعنة!. فهل يعتقد إميل حبيبي أن تزوير الحقيقة، بخطاب بلاغي يعيد تمثيل الواقع، هو أمر من الممكن له أن يمر على المتلقي بكل هذه السهولة؟. أم أنه يركن فعلاً إلى ما اشتهر عن العربي؛ من أنه كائن شعري، تطربه الكلمة، فيذهل عن المعنى؟. وهل هو مصدق فعلاً لما يفترضه بدهاءة المستشرق مورو بيرغر، من أن: "العرب عاجزون عن التفكير الحقيقي، إذ إن اللغة العربية ميالة بطبعها إلى الخطابة"<sup>(2)؟!</sup>.

<sup>1</sup> - خُرَافِيَّة سَرايا بنت الغول. ص 155

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد. الاستشراق. ص 308



لكن الأيام القادمة سوف تثبت، أن الذي سوف ينسى ما قاله هنا، ويذهل عن معنى كان قد حشد له كل هذه القذائف اللفظية، هو إميل نفسه، وتحديداً بعد سبع سنوات، حين سيكتب في افتتاحية مشارف ما يلي:

"وفي روايتي الأخيرة (سرايا بنت الغول) اكتشفت كهفاً فلسفياً آخر، بالإضافة إلى كهف أفلاطون، في مسيرة المعرفة الإنسانية، وأسميته (كهف لينين)، إشارة إلى الصورة التي صور بها هؤلاء (الانتهازيين) و(المتخاذلين) في مؤلفه: (ما العمل)، وذلك في حديثه عن المستنقع"<sup>(1)</sup>.

وإنه لحريّ بتقادم الزمن أن يفسر كثيراً من الحقائق، ويجلو كثيراً مما أخفاه أصحابه، بعد أن يطمئنوا لما كان، ويعتقدوا بأن ما جرى قد جرى، وانتهى الأمر، خصوصاً إذا كانوا يتمتعون بقوة السلطة. وقديماً قالت عجائز فلسطين: "الطولة كشاف" أي: الزمن كفيل بإضاءة ما يخفى في هذه اللحظة. أفلا يذكرنا كل هذا بقول حكماننا العرب: "إذا كنت كذوباً، فكن ذكوراً؟".

إن منطق الراوي في خرافية سرايا بنت الغول:، في توجيه اللوم للطرف البريء، لمجرد أنه الأضعف، ليدكرنا بمنطق مشابه، يستخدمه الصهاينة اليوم، في تبرير السطو على فلسطين، باضطهاد النازية لهم!.

إذن، فتخلي الراوي عن إعلان ارتباطه بسرايا - المعادل الموضوعي لماضيه الممض - مبرر إنسانياً بضعفه. وعلينا أن نقبل هذا التبرير، وإلا وقعنا تحت نقمة لعنات تجزينا بما لم نقترف. ولو كنا أكثر إنسانية - كما الراوي - لتعامينا عن هذا التصحيف الشائن، ولتقبلنا كل ما ارتكبه المتشائل من جنایات وطنية، ولتقبلنا كل ما يقال عن خالقه على شاكلته -

---

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. سراج الغولة، أو: لا تطفنوا هذه الشمعة. مشارف. العدد 16. ص 27

إميل حبيبي - كل ما يطالبنا به؛ من التطبيع مع العدو، والفرح بتدمير العراق، والقبول بدولة اليهود على أرضنا، باعتبارهم يمارسون حق تقرير مصيرهم عليها، ولأنكرنا على فلسطيني 1948 هويتهم الوطنية، ولاعتبرنا السلام جاهزاً ممدوداً على الطاولة، لا يمنعنا من تناوله إلا المتطرفون من أبنائنا، والمتطرفون من أبناء اليهود، ولتسامحنا مع ما يقال عنه بخصوص جلبه السلاح لإسرائيل، عام 1948، لتقصف الجيوش العربية، وتهدم البيوت على المدنيين الفلسطينيين، قبل أن تطردهم، ولشتمنا عبد الناصر والشقيري والمفتي، ولسخرنا من العروبة، ولاعتبرناها دعوة شوفينية، ولاعتبرنا الصهيونية غير عنصرية، ثم لآمنا، معه، بأن اليهود هم زبدة الناس<sup>(1)</sup>.

#### 4- درب الآلام:

لقد قلنا سابقاً بأن هناك ثغرة هائلة في هذا النص، تمثل سرا أسود يعاود الراوي خلال كل مفاصل السرد، وأن مهمة التحليل اكتشافه. وقد حاولنا إلقاء الضوء على محاولات الراوي للتخفف من هذا السر، بالاعتراف المبتسر، لأن الاعتراف التام، الذي يحدث التطهير، متعذر على المؤلف المدني، بسبب المواضع الاجتماعية المختلفة.

لقد سبق لشموئيل ميكونس أن اعترف بمشاركة المؤلف المدني إميل حبيبي له في عقد صفقة السلاح المشؤومة عام 1948، في مذكراته التي نشرها، ولم يعترض على مضمونها إميل حبيبي<sup>(2)</sup>. لكن هذا الصمت، من جانبه، لم يكن يشكل اعترافاً صريحاً يكفي لراحة نفسه. ولئن كانت مكانته الحزبية بين رفاق عرب مناضلين حقيقيين، قادرة على حمايته من مغبة ذلك الاعتراف، في حينه، فلقد فقد هذه الحماية الآن، "حيث تناول عليه (الصغار)، وانفض عنه الأصحاب، واتهمه رفاق الدرب، فسقط الصولجان من يده،

<sup>1</sup> - كل ما قدمناه هنا استشهدنا عليه في الصفحات السابقة من هذا البحث.

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 11

ولم يعد إلا القليل ممن يسمع كلمته، أو يقبل بحكمه، حتى بدا للبعض أنه (حالة) تجب السرعة في معالجتها"<sup>(1)</sup>.

ويمكننا التمثيل، على هذا التحول، بالصاعقة التي أنزلها على رأسه مقال تلميذه السابق، الشاعر سميح القاسم، بجريدة كل العرب: (في التعريف بما هو معروف)، مذكراً إياه بدوره في "صفقة السلاح التشيكي، الأولى من نوعها في تاريخ إسرائيل"<sup>(2)</sup>. كما يمكن التمثيل على مثل هذا التحول، بمقالة أخرى كتبها صديقه البعيد الشاعر أحمد دحبور - مدير دائرة الثقافة بمنظمة التحرير - الذي كان وراء منحه جائزة القدس، من يد ياسر عرفات عام 1990؛ تلك المقالة التي ما كان لأحمد دحبور أن يكتبها، إلا بعد أن طعن إميل جائزة فلسطين، بخنجر جائزة إسرائيل

"وكسب خمسين ثانية تلفزيونية عالمية، ظهر خلالها يصافح هرتسوغ وشامير. وكان على جمهور الخمسين ثانية أن ينسى، إذا تمكن، دقائق متلفزة لبطل المشهد ذاته، إنما قبل سنتين، وفي مكان آخر: عندما تسلم، في القاهرة، وسام القدس للثقافة والفنون والآداب، من يد رئيس دولة فلسطين"<sup>(3)</sup>.

وقد تساءل أحمد دحبور، خلال هذه المقالة، عن هوية مستلم الجائزة الإسرائيلية ومن يمثله:

"هل يمثّل المثقف السياسي الفلسطيني بوصفه ابن شفاعمرو وريبب حيفا، أم سيمثّل المثقف الإسرائيلي بوصفه ملتزماً بالجنسية؟. ألهذا هو سعيد وأبو النحس في وقت واحد؟. ألهذا هو منحوت من المتفائل والمتشائم معاً؟. وهل هذا المأزق النظري هو الذي أوصله

<sup>1</sup> - نبيه القاسم. مرادة النص. ص 84

<sup>2</sup> - وثيقة رقم 11

<sup>3</sup> - أحمد دحبور. أن تعيش وأن يموت الجيل. بيادر. السنة 3. العدد 9. ص 7

إلى الخطيئة؟... هل مات الكرمل عنده حقيقة لا مجازاً؟... لقد قرر الأستاذ إميل أن يتبرع بالجائزة إلى مؤسسة خيرية فلسطينية. وتطارف متناقف متعاطف معه، فقال: إنه أول تبرع إسرائيلي للانتفاضة. ولكن ورطتنا مع الأستاذ إميل حبيبي أنه يحب التراث العربي. ونحن أبناء هذا التراث، ونحفظ منه بيتاً من الشعر يناسب مقتضى الحال، ولا شك في أن الأستاذ إميل يحفظه، مثلنا:

أطعمة الأيتام من كدّ (حمها) حنانيك. لا تزني، ولا تتصدقي<sup>(1)</sup>.

لهذا فليس من المستغرب رؤية إميل حبيبي يشكو، بين الفينة والأخرى، من مشيه في درب الآلام وحيداً<sup>(2)</sup>، ومن خيانة رفاق الدرب، ممن علمهم الرماية ثم رموه، بمجرد اشتداد ساعد الواحد منهم<sup>(3)</sup>، مستذكراً دوره في رعايتهم، ومتناسياً دورهم في تنصيبه أستاذاً مسموع الكلمة، وملكاً ذا صولجان، مع أن كل هذا لم يكن ليكون، لولا المؤسسة الحزبية التي ترعى الفريقين، ويوفران لها القدرة على الادعاء، بأنها ممثلة الجماهير العربية. وصحيح أن كل واحد من طرفي الفريق حملته موهبته، بالدرجة الأولى، لكن الصحيح كذلك أن هذه المواهب تتفاوت، والتخلي عن الحماية الحزبية، هو وحده الذي يتيح لها أن تبرز مدى تفوقها الذاتي. وما نحن نرى كم ارتفع نجم محمود درويش، وكم هوى نجم إميل حبيبي.

إن الباحث يعترف بأن من المتعذر قياس قيمة أي موهبة، بعيداً عن العوامل التاريخية المحيطة بها. كما يعترف بأن كلاً من محمود درويش وإميل حبيبي، قد حظي برعاية خارج الحزب، حتى بعد خروجه منه. لكن هذه الرعاية المتأخرة كانت من نفس الطرف:

<sup>1</sup> - أحمد دحبور. أن تعيش وأن يموت الجبل. بيادر. السنة 3. العدد 9. ص 8... ص 10... ص 11

<sup>2</sup> - أكثر إميل من هذا التعبير على طول هذا النص. انظر على سبيل المثال الصفحات: 58، 59، 62، 105،

108، 111، 139، 153

<sup>3</sup> - انظر: حُرَافِيَّةُ سرايا بنت الغول. ص 116

منظمة التحرير الفلسطينية، في مرحلتي الكفاح المسلح، والحلول السياسية. ومع ذلك فإن تفوق التلميذ على الأستاذ لا يحتاج إلى براهين.

لقد كانت سرايا هي درب آلامه، الذي يعلن عن وجوده، ثم يحرص على كبت تجلياته الواعية. ولو فعل، فلربما كسب راحة النفس. ولكنه بالتأكيد كان سيهدم كل ما بنى. إنها لاشعوره، الذي يحاول الطفو، فوق هذه البركة من القاذورات<sup>(1)</sup>، فلا يستطيع، بسبب مراقبة الوعي الحارس للأنا؛ ومع ذلك فلا يزال وعيه يتسكع حولها، كما يتسكع القاتل حول موقع الجريمة، حتى إذا ما ضبطه رجل البوليس، قدم تفسيرات متسرعة وغير مقنعة. وفي مثل هذا يقول علم التحليل النفسي:

"ولنا أن نتصور الأمور تجري، بالفعل، على هذا النحو: يحدث النائم نفسه قائلاً: ها هو ذا سيدنا مقبل: ها هو ذا الشعورُ المستيقظُ، الذي يعلق كل هذه الأهمية الغالبة، على العقل والمنطق وما إليهما. أُسرِعْ. اجمع الأمور ونظمها؛ وأي نظام يكفي، قبل أن يدخل هو لكي يضع يده. ولقد أكد (دولاكروا) العينية بين هذا المنهج في العمل، وبين منهج التفكير المستيقظ، توكيداً فريداً في وضوحه، فقال: هذه الوظيفة المفسرة ليست بالخاصة القاصرة على الحلم، فهي لا تختلف عن عمل الربط المنطقي الذي نجريه على إحساساتنا ونحن أيقاظ. ويرى جيمس سوللي هذا الرأي أيضاً، وكذلك توبوفولسكا"<sup>(2)</sup>.

لقد حاول إميل حبيبي، على طول هذا النص - بل كذلك في نص أخطيئة - قتل سراياه، إما بالموت بعد الوقوع عن صخرة نحو الهاوية<sup>(3)</sup>، وإما بالوقوع من الشرفة على درجة

<sup>1</sup> - التعبير لكارل يونج في وصف اللاشعور. انظر: علم النفس التحليلي. ص 103

<sup>2</sup> - سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ص 497

<sup>3</sup> - انظر: حُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 160

صخرية<sup>(1)</sup>، أو من فوق شجرة<sup>(2)</sup>، وإما بالتغيب الواعي، عن طريق جعل الجنود الصهاينة يقبضون عليها، تمهيداً للترحيل<sup>(3)</sup>.

لكن لاشعوره لم يتمكن من ذلك، فكان يعيدها في كل مرة: طيفاً أو حقيقة أو ذكرى.

لقد نسيها، ولكنها لم تنسه. وإذا كانت الكلمة معقد أفكار كثيرة - كما يحلو لفرويد أن يقول - فإن الأفكار القهرية سوف تنتهز هذه الميزة التكتيفية فيها، لتتقنع وتبجح، معبرة عما يدور في اللاشعور، بأمان<sup>(4)</sup>.

لذا فليس من المستغرب أن نرى سرايا إميل حبيبي تعاوده، في هذه الأسماء المتعددة، التي تحيل كلها إلى ارتكاب الإثم ثم كتمانها: فسرايا وسرورة تشير كل منهما إلى السر والبعد والعلو. والسر بعيد منطمس. والسرورة شجرة عالية، الظهورُ عليها بعيد المنال. أما اسم اُخْطِيَّة فواضح ارتباطه بالخطيئة، أو الجريمة. ومنذ متى كانت الجريمة تفارق صاحبها!.

## ثانياً: التلقي النقدي:

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا أحببنا المتشائل بعد كل ما علمناه عنه؟. لقد قرأنا الرواية وتعاطفنا مع البطل المهشم ومنحنا لإميل حبيبي جوائزنا وإعجابنا. فلماذا الآن نقول فيه ما نقول؟. هذا هو السؤال المركزي لهذا المبحث. وهذا ما يحاول الإجابة عليه.

1- انظر: اُخْطِيَّة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 672

2- انظر: اُخْطِيَّة. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 689

3- انظر: خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 178

4- انظر: تفسير الأحلام. ص 349

## 1- إلياس خوري والوقوع في حبال الصنعة:

وإذ نختار الاستهلال بشهادة إلياس خوري - اللبناني الجنسية، الفلسطيني الهوى - فما ذلك إلا لأنها شديدة القرب من كل هذه التساؤلات: حيث تعيد طرحها، بأسلوب يقرر، أكثر مما يتساءل. يقول:

"أذكر انبهاري بالمتشائل. أذكر أن كل الناس انبهرت بتلك الرواية... ولكن هل الإجماع على كتاب علامة إيجابية، أم على العكس... هل كان الإجماع شكلاً لتلافي النقاش، والانصراف إلى ما يوحد، في التجربة الفلسطينية، التي يتعايش في داخلها كل ما يجب أن يُفرز ويفرق ويفتح الجدل؟. هل هذا هو سبب الحملة الحبيبية التي لم تتوقف على كنفاني<sup>(1)</sup>... والمفارقة أننا أحببنا المتشائل في الكتاب. وحين بدأ حبيبي يتساءل أمامنا ويقلد بطله، كرهناه... أذكر أنني رأيت المتشائل ممسحة مع محمد بكري، وأني كرهت المسرحية. يومها اعتقدت أن هناك مشكلة فنية، وأن بكري - وهو واحد من أفضل الممثلين العرب - فشل في نقل روح النص. ولكنني بعد أن رأيت حبيبي يتساءل في تونس، وقرأت تساؤله مع الجائزة الإسرائيلية، فهمت أن المشكلة لم تكن في بكري، بل في المتشائل"<sup>(2)</sup>.

إذن، فلقد غدا من الواضح هنا، أن السؤال المركزي، في نص إلياس خوري هذا، يتمثل في اكتشاف تلك المفارقة: لماذا أحببنا المتشائل، ثم لماذا كرهنا إميلاً حين كشف لنا عن أنه هو المتشائل؟. ولنقم بصياغة السؤال بطريقة أخرى، تقول: لماذا أحببنا المتشائل شخصية ورقية، ثم كرهناه مواطناً مدنياً؟!.

<sup>1</sup> - كان إميل حبيبي يتحامل على غسان كنفاني تحاملاً شديداً. انظر: إلياس خوري. الأخطاء والأضداد. الطريق.

العدد 3. السنة 55. ص 152

<sup>2</sup> - إلياس خوري. الأخطاء والأضداد. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 155 - 156

إن الباحث يعتقد بأنه بإعادته صياغة السؤال، بهذه الطريقة، يقدم جزءاً كبيراً من الجواب: لقد أحببنا الصنعة. ولكننا لم نحب المصنوع. وعندما التبس الأمر على الصانع، وتماهي في المصنوع، كرهناه. لقد أحببنا الجمال في لوحة ترسم كيف يسيطر القبح على أرواح بعض الناس، ويحولهم إلى أعداء لأنفسهم؛ ولم نحب أبداً هؤلاء البعض، ولم نتمن أن نكون مثلهم، مهما تقلبت بنا الأيام.

ولكن الأمر ليس دائماً بهذه السهولة، بدليل ما حدث لإميل، وبدليل استمرار تعاطفنا معه، رغم كل ما فعله على الصعيدين السياسي والثقافي، ثم بدليل تعامينا - العنيد والمتعمد - عن كشف قبح المحتوى الأخلاقي والفكري لكتاباته الإبداعية. فلماذا كان ذلك كذلك!؟.

لعل الإجابة، على هذا السؤال، تكمن في فعل النسق المتجذر في تاريخ التلقي العربي للأدب. ذلك النسق الذي ظل محكوماً بالنزعة الجمالية، التي صرفته عن قراءة الأدب، باعتباره درساً إنسانياً عظيماً. وذلك الفعل النسقي هو الذي حاول باحث عربي - ربما لأول مرة - هتك أستاره، وفضح تأثيراته السلبية، على مجمل الوعي العربي، منذ عصر الجاهلية. حتى قاد إلى ما يسميه الدكتور الغدامي بـ(شعرنة العقل العربي): حيث تكرر الفصل المبكر، بين المحتوى الفلسفي الأخلاقي للشعر والأدب، وبين البلاغة اللغوية، التي سُمح لها - في حماية المؤسسة - بأن تقول ما تشاء، ما دام محروساً بالجمال التصويري، حتى ولو خالف كل قواعد المنطق والأخلاق!. الأمر الذي وجد أفضل تعبير له، في المقولة النقدية الأشهر: (أعذب الشعر أكذبه). وبذا اكتسب الخطاب الشعري خصوصاً، والأدبي على وجه العموم، حصانة وقداسة، جعلت نقده ضرباً من المحرمات الثقافية، بحجة تفرد الشعرية، وخصوصيتها، وتعاليتها على الخضوع لعوامل التاريخ!. وارتضت العلوم النقدية الخضوع (للسيد الشعر)، والالتحاق الذيلي به، مفرغة كل طاقتها



في نقد الجمالي فيه، ومتعافلة - في نفس الوقت - عن كل السقطات الأخلاقية والمنطقية والفلسفية، بل حتى الدينية العقيدية<sup>(1)</sup>.

"وكلما رأينا منتوجاً ثقافياً، أو نصاً، يحظى بقبول جماهيري عريض وواسع، فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمّر، الذي لا بد من كشفه، والتحرك نحو البحث عنه: فالاستجابة السريعة تتبئ عن محرك مضمّر يشبك الأطراف، ويؤسس للحبكة النسقية"<sup>(2)</sup>.

ولئن أردنا التمثيل، لهذه اللحظة ولذاك الخضوع، في العصر الحاضر - ومع إميل حبيبي على وجه الخصوص - ليروعنا هذا الكم الهائل من النفاق النقدي، الذي استقبلته به الساحة الأدبية الفلسطينية، حتى من دارسين مختلفين معه في الرؤية السياسية، كما سنرى في السطور اللاحقة.

## 2- أحمد دحبور وحكومة البلاغة:

إذا أردنا التمثيل على سطوة النزعة الجمالية، على حركة النقد، فربما لا نجد مثلاً أقرب من الشاعر أحمد دحبور. بل إنه لمن الممكن لنا اعتباره النموذج الذهبي، أو الضحية المثالية، لأفاعيل هذه السطوة، وقدرتها على سلب إرادة التفكير، لدى المتلقين، المذهولين بقدرة الخطاب الجمالي على قول الشيء وتقيضه، في آن.

أحمد دحبور شاعر فلسطيني، من المشتغلين بالشأن الثقافي، في منظمة التحرير، ثم في السلطة الفلسطينية: إذ عمل في السابق مديراً لدائرة الثقافة، في المنظمة، ثم وكيلاً لوزارة الثقافة الفلسطينية، بعد أوسلو؛ حيث سكن غزة - بما لذلك من دلالات - وظل يقدم

<sup>1</sup> - انظر: عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 89

<sup>2</sup> - عبد الله الغدامي. النقد الثقافي. ص 79 - 80

نفسه، كأحد معارضي أوصلو الأشداء، ثم كمكافح عنيد لأحد منتجاته، المتمثل في محاولات التطبيع الثقافي، التي أخذ يروج لها بعض زملاء الإنتلجنسيا الثقافية، في رام الله. وقد وفق الرجل في ذلك، إلى حد أن صار من الأمور المشهورة عنه، دأبه الشديد على استخدام مصطلح خاص، يعبر به عن حقيقة نظريته الأيديولوجية، إلى الأراضي التي قامت عليها السلطة الفلسطينية، بفعل أوصلو. وكان هذا المصطلح: (المتاح من الوطن).

في عام 1990، كان أحمد دحبور النجم اللامع لحفل القاهرة، الذي أقامته دائرة الثقافة، برعاية السيد ياسر عرفات، وقلد فيه رئيس المنظمة، عدداً من المثقفين الفلسطينيين، وسام القدس. ولقد كان من الطبيعي أن نعلم، بأن الذي قام بترشيح تلك الأسماء، في حينه، كان هو أحمد دحبور. ولا جرم، فالرجل - بطبيعة منصبه الرسمي، وبحجمه الثقافي، وقربه من رئيس الدائرة السيد عبد الله الحوراني - هو المؤهل لذلك، والقادر عليه.

أمر بسيط آخر، تجدر الإشارة إليه هنا، وهو أن من بين المكرمين، في حفل القاهرة، كان عضواً للجنة المركزية للدودان، لعصبة التحرر السابقة: إميل حبيبي، وبولس فرح. وإذا كنا قد عرفنا شيئاً من حقيقة مواقف إميل، في سطور البحث السابقة، فلقد يجدر بنا الإشارة، هنا، إلى أن بولس فرح - المواطن العربي في نفس الدولة - ظل من الكوادر الوطنية العنيدة، في مكافحتها لكل ما دأب إميل حبيبي على تمثيله هناك.

ولقد سبق أن نقلنا، عن فيصل حوراني، أن دائرة الثقافة هذه كانت قد برزت الآخرين، في الاحتفال بالمتشائل، و"أعادت طبعه عدة مرات، ووزعته على أوسع نطاق، فصار (كتاباً مقدساً) يتخاطفه القراء، ويحثون معارفهم على قراءته"<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - حبيبي الباقي في حيفا وفينا. مشارف. العدد 11. ص 82

لهذا فقد كان من الطبيعي لمدير هذه الدائرة - أحمد دحبور - أن يثور، في وجه إميل حبيبي، ويرغي ويزيد، لقبوله تسلم جائزة شامير عام 1992، معتبراً أن فعلته هذه هي خطيئة<sup>(1)</sup>، ومتسائلاً في ذات الوقت عن أسبابها، ثم

"عن وضع صاحب المتشائل، في هذه المعادلة: هل يمثل المثقف السياسي الفلسطيني؛ بوصفه ابن شفاعمرو وريبب حيفا؟. أم سيمثل المثقف الإسرائيلي؛ بوصفه ملتزماً بالجنسية؟. ألهذا هو سعيد وأبو النحس في وقت واحد؟. ألهذا هو منحوت من المتفائل والمتشائم معاً؟. وهل هذا المأزق النظري هو الذي أوصله إلى الخطيئة؟"<sup>(2)</sup>.

ويعد أن شن هجومه على ما يعدّ له نفسه إميل حبيبي، في المرحلة القادمة، من السعي نحو التطبيع الثقافي، تساءل أحمد دحبور، في لحظة تائرة من لحظات مقاله، عما إذا كان جبل الكرمل<sup>(3)</sup> قد مات حقيقة، لدى إميل حبيبي؟. بل لقد وصل الأمر به إلى حد التعريض بخيانتة، حين شبهه بيهودا الإسخريوطي<sup>(4)</sup>، فقال: "(إنه لأمر مفرع أن تعيش، وأن يموت الجبل)<sup>(5)</sup>.. أنت قلت، يا أستاذ إميل. وتذكر جيداً من هو الشخص الذي قال له يسوع في العشاء الأخير: أنت قلت"<sup>(6)</sup>.

---

1- انظر: أحمد دحبور. أن تعيش وأن يموت الجبل. ببادر. العدد 9. السنة 3. ص 8

2- أحمد دحبور. أن تعيش وأن يموت الجبل. ببادر. العدد 9. السنة 3. ص 8

3- مما يعطي دلالة أوضح للموقف، معرفتنا بأن أحمد دحبور هو لاجئ من حيفا.

4- بحسب الأناجيل التي بين أيدينا، جلس يهوذا الإسخريوطي ليشارك المسيح، عليه السلام، عشاء الأخير، الذي سيسلمه فيه لأعدائه، وهجس له بخيانة أحد الحواريين. وكان السيد المسيح يعلم بحقيقة الخيانة وصاحبها، فرد عليه بهذه العبارة.

5- العبارة بين القوسين هي لإميل حبيبي من خرافية سرايا بنت الغول. ص 88

6- أن تعيش وأن يموت الجبل. ببادر. العدد 9. السنة 3. ص 8

حسناً. لقد حدث الأمر هكذا، وكما شرحنا، بالضبط، في ذلك الوقت. ولكن أوسلو سوف يأتي بعد عامين. وسوف يحمل معه أحمد دحبور إلى حيفا، حيث يقيم إميل، وسوف يحمل معه إميل حبيبي إلى غزة، حيث يقيم أحمد. وسوف يصلح ما انكسر من علاقة إميل بياسر عرفات، بعد ابتعاد الحوراني عن وزارة الثقافة، لصالح تيار أكثر انفتاحاً على متطلبات المرحلة القادمة، وتقبلاً لها.

ولم يطل الأمر بإميل حبيبي حتى مات، بعد أن نجح في لملمة بعض مثقفي منظمة التحرير حوله، وحول التطبيع، الذي لا يجرؤ أحد على ذكر اسمه، مع أنه حاضر برسمه وممارساته. ولم يعرف هؤلاء المثقفون حيفا والناصره فحسب، بل كانوا حريصين، خلال رحلاتهم إلى (أهلهم) هناك، على التعرّيج المطول على (أبناء عمومته) من مثقفي (الطرف الآخر) في تل أبيب، والقدس الجديدة، وبتانيا، ونهاريا، وجفعات حبيبية<sup>(1)</sup>، إلى الحد الذي منع (بسطوته) اتحاد الكتاب الفلسطينيين، في الضفة والقطاع، من إصدار بيان حول رفض التطبيع الثقافي، أو تعريفه، حتى اللحظة الراهنة.

ومع أن أحمد دحبور ظل بعيداً عن هذا الجو، ومبعداً عنه، ومقتصرة رحلاته على الأهل في حيفا، إلا أن (المعاصرة حجاب) كما يقول علماء الجرح والتعديل، في ثقافتنا العربية<sup>(2)</sup>، خصوصاً عندما يتعلق الحال بأمرين، كلاهما لم يتعود فيه الناس على حكم المنطق: الموت والأدب.

مات إميل حبيبي. واستكثبت سهام داود - رئيس تحرير مشارف من بعده - كل من تستطيع الوصول إليه، من كبار المثقفين، شهادته، في معلمها الذي تركت الحزب تعاطفاً

<sup>1</sup> - مدن خالصة لليهود. وتعتبر الأخيرة منها مركزاً إقليمياً لنشر (ثقافة السلام) بين أبناء إبراهيم.

<sup>2</sup> - عبارة مشهورة في كتب علم الجرح والتعديل، تشير إلى رفض قبول شهادة العالم بأحوال رواة الحديث النبوي، سلباً أو إيجاباً، في رآو له به علاقة شخصية.

معه، ومؤسس مشارف الذي جعلها مديرة للتحريير. وقرأنا تلك الشهادات، من أناس ربما لا يبتعد بعضهم في موقعه عن إميل. لكن شهادة أحمد دحبور كانت لافتة في غرابتها، بل صادمة في ابتعادها عن كل ما هو متوقع. ولنقرأ مقطعاً منها، في ضوء ما قدمنا آنفاً. يقول:

"... ولم تكن حبيبي فقط، بل حبيبنا، على مختلف الأجيال جميعاً. وها أنت تمد لسانك لي ساخراً وتقول: لقد نجوت. وحقيقةً، أعترف بأنني نجوت؛ فقد تمكنت من مصالحتك قبل فترة كافية، وقبل أن أعرف - شهد الله - بالمرض الذي لا يسمى...

أي رمز، أي صدى، أي لوعة تحمل هذا النداء: أين أنت يا.. أمّا أنا، يا أبا سلام، فلن أصرخ: أين أنت يا إميل حبيبنا، لأنه لا يوجد دهان في العالم، يستطيع أن يحو اسمك؛ فقد هوجمت وأوذيت - بحق حيناً، وبغير حق أحياناً كثيرة - فلم تتسحب من الميدان. وفي مرحلة ما تألب عليك نويقد وصحفي ومهرج، فلم تهن، ولم يشغلك شعار (جهل جهل واحد ذات رسالة خالدة)، حسب تعبيرك؛ بل قاتلت وناجرت، وظل لك أن محبيك ومريديك أكثر بما لا يقاس من خصومك...

أيها الباقي في حيفا، لقد خفت أن تعيش وأن يموت الحبل، فإذا بالجبل يعيش، لأنك تعيش. لعل شوبنهاور كان يقصدك عندما قال: كل شيء يموت في الموت إلا ذاتي. تختفي الأشياء ولكنني أظل حياً، لأن وجودي الحقيقي لا يطوله الموت.

نعم، إن حبيبنا لا يطوله الموت. إنه، كالكرمل ووادي النسناس، يمد يديه لنا. فمرحباً يا أبا سلام<sup>(1)</sup>.

---

<sup>1</sup> - أحمد دحبور. إميل حبيبنا. مشارف. العدد9. ص94 - 96

وهكذا ينسخ أحمد دحبور كل ما قاله، في لحظة سابقة، عن الجائزة، والخيانة، وموت الجبل!. بل هكذا يعيدنا أحمد دحبور، من جديد، إلى التمتع في وصفه لإميل - في عز غضبه في مقالة بيادر السابقة - بالأستاذ!. وليت شعري، كيف يستقيم نعت شخص ما بالخيانة والأستاذية في سياق واحد، إلا أن يقال بأن المقالة القادحة، كانت تحمل نقيضها في ذاتها، منذ لحظة الإنشاء الأولى، أو أن يضاف إلى ذلك، أن تغلغل فعل النسق في ثقافتنا، بلغ مبلغ إغواء المفكرين عن عقولهم، ومرآوتهم عن ثوابتهم!.

ولكن هذا ليس وحده الخبر العجيب؛ بل إن ما هو أعجب منه، هو هذا الانجرار الفكري، وراء حكومة البلاغة. بحيث يمكن القول بأن الكلمات، هنا، قامت بقيادة الرجل، نحو تخوم لا يتصور نفسه مقترباً منها، في لحظات وعيه الأيديولوجي الظاهر. وإلا فمن هو القادر على تصور الشاعر القومي العربي، الناصري الهوى، أحمد دحبور، المعجب بميشيل عفلق<sup>(1)</sup>، وحزب البعث، والمعارض لأوسلو - من منطلق قومي - مردداً عبارة إميل الساخرة، من شعار البعث، ومستشهداً بها على صحة مواقف إميل، في سخريته هذه من شعار: (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)؟!.

ثم هب أن أحمد دحبور كان يود بكلماته هذه الإعلان عن موقف جديد - وهو ما نعلم أنه لم يفعله - فمن هو القادر على تصور شاعر، كأحمد دحبور، قاصداً حقيقة ما يقول هنا، من وصف نفسه - بصفته ممن هاجموا إميلاً - كنوبق، أو صحفي، أو مهرج؟!.

لكن الأمر ليس كذلك. بل هو فعل البلاغة ولا ريب، أو هو فعل النسق كما يحلو للدكتور الغدامي أن يقول.

---

<sup>1</sup> - كتب أحمد دحبور أكثر من مرة عن ميشيل عفلق في الصحف السيارة بصيغة المعجب والمحب.

ومن منا لا يرى هنا كيف تنتسخ حكومة البلاغة كل ثوابت الفكر والمنطق، وتجري على كل جمالياتها الموضوعية، بمحاة من القبح الفلسفي، المتلفع بعباءة مزركشة من الكلمات؟!.

### 3- فاروق وادي وتوجيه إميل للذاكرة الفلسطينية:

في سلسلة نشاطاتها، الهادفة إلى الاحتفال بالمتشائل وصاحبه، أصدرت دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، عام 1991، كتاب فاروق وادي: (ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية: غسان كنفاني، إميل حبيبي، جبرا إبراهيم جبرا) الذي تطرق فيه صاحبه إلى مواطن الإبداع في كتابات إميل، خصوصاً في المتشائل، متوصلاً إلى النتيجة التالية التي صاغها في هيئة تساؤل يقول:

"هل يتكرس الكاتب كاتباً برواية أو روايتين؟. القاعدة تنفي، لكن الاستثناء يبقى قائماً. ولعل إميل حبيبي يمثل هذا الاستثناء، في الرواية الفلسطينية والرواية العربية على السواء... فهو كاتب لا يطرح حضوره، من خلال تراكم الصفحات، فعيب الإقلال في عطاء الكتابة، يتضاعل أمام زخم وكثافة العطاء القليل نفسه، ونفاذ الرؤية في داخله.

فأية رؤية تلك، أي توقع ذلك، هو الذي جعل المرأة النورية، زنوبا الحسنة، تعود إلى الحي ... كانت القصة توقعا، فأصبحت واقعا... وعندما تحقق الكلمات ذلك، فإن الكتابة لا تذهب هباءً"<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أننا لا نجادل هنا في جماليات الشكل، في أدب إميل حبيبي. ولكننا نناقش فيما يقال من جماليات المحتوى، كما تحاول كلمات فاروق وادي أن تقول.

---

<sup>1</sup>. فاروق وادي. ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية. ص 138 - 140

ونحن إذ لا ننكر أن من أهم ما ميز رواية المتشائل، طبيعة الرؤية، فإننا نود التذكير بأن تلك الرؤية الحبيبية - كما ألمعنا في الفصل الثالث - لم تكن في حقيقتها إلا إرادة للقوة: إرادة للحقيقة كما يراها إميل، وإرادة للتأويل كما يحدده هو، ووفق شروطه هو؛ وليست مجرد شرط موضوعي للتاريخ - كما يقول إدوارد سعيد - حيث يصبح الأسلوب، في حالة إميل هذه، شكلاً من أشكال الإزاحة والاحتواء<sup>(1)</sup>، لا شكلاً من أشكال الحوار والإقناع، ومقارعة الحجة بالحجة. وما ذلك إلا بسبب من طبيعة السرد الروائي الحبيبي - بل ربما كل أشكال السرد - لأن السرد، بطبيعته، قول يصدر من الراوي المتعالي، باتجاه القارئ المستقبل، الذي لا يعدو كونه متلقياً، بالرغم من كل ما حاولت الرواية الجديدة قوله، خلافاً لذلك.

والآن لنتفحص كيف رأى فاروق وادي رؤية إميل حبيبي، ثم كيف رآها الباحث.

لقد رأى فاروق وادي، أن رؤية إميل حبيبي تنطلق من وعد راقص، كرقص النورية الحسنا. وذلك الوعد "ما زال قائماً للغد الآتي، تستشرف أفعه الكلمات، وهي تستعيد الماضي وتعيد صياغة الحاضر، من أجل أن تحتفظ الذاكرة بثروة التجربة، ولا تعود لعذريتها، لتبدأ التجربة من جديد"<sup>(2)</sup>.

ولقد يرى الباحث بأن فاروق وادي وضع يده على حجر الأساس للبناء الحبيبي، الذي ينتظم بنيته الكلية، ويقود كذلك إلى تفكيكها، مثل حجر قلعة سنمار، ألا وهو: توجيه الذاكرة الفلسطينية نحو قراءة حبيبية للماضي، تعيد صياغة الحاضر، وفق ما ترى أيديولوجيا إميل حبيبي. فماذا ترى أيديولوجيا إميل حبيبي؟.

<sup>1</sup> - انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق. ص 247، 250

<sup>2</sup> - فاروق وادي. ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية. ص 139



إنها ترى ما يأتي:

- البقاء في الوطن تحت الاحتلال، حتى لو كان الثمن هو التماهي والاندماج، والتخلي عن الهوية.
- وإذا كان لا بد من دفع ثمن باهظ، لهذا البقاء، كالخيانة والتعامل مع المخابرات الصهيونية، فإن ذلك أمر مبرر، ويستحق التعاطف، إلى درجة اعتراف المؤلف بأنه هو ذلك الشخص المتشائل (الواقعي)، ولا شيء آخر البتة.
- ومع أن هذا البقاء، بهذا الثمن، هو مجرد خازوق، إلا أن إميل حبيبي يفضل هذا الخازوق، على كل أنواع اللجوء.
- ومن هنا يتحول اللجوء - في نظر إميل حبيبي - إلى منقصة وعار، يحسن التبرؤ منهما، ولو بقوة الخيانة.
- لأن القومية العربية وبلدائها ورموزها - باعتبارهم مجرد ديماغوجيا خطابية - لا يحررون وطناً، ولا ينبغي احترامهم أصلاً، بصفتهم بقية من بقايا الفاشية والشوفينية.

ولقد رأينا كل ذلك في رواية (المتشائل)، وفي ما قدمناه في الفصول السابقة، ودلنا على كل جزئية من جزئياته، في حينه، بما نراه يغينا عن إعادة التوثيق هنا.

#### 4- فيصل حوراني وشهادة الشخص لنفسه:

لعلها طريقة لافتة، تلك التي قدم بها فيصل حوراني نفسه، من خلال شهادته على إميل حبيبي، في مجلته بعد موته. إذ قال:

"إميل حبيبي هو الذي عرفني على شيوعيين إسرائيليين كثيرين. وها أنا لا أنسى كيف قدمني إلى صديقه ورفيقه في الحزب والجريدة، إميل توما: (هذا واحد منهم. لكنه غير

شكل). وقدمه إليّ: (هذا واحد منا، يشبه أصحابك. إلا أننا عالجناه وشفيناه). بهذا كان حبيبي يشير إلى أمرين: إلى ما يعدّه تميّزي عن يساريّ م. ت. ف، بالميل إلى صوت العقل؛ وإلى خلافات في الرأي في حزبه، ووقوف د. إميل توما مع أصحاب الرأي الذي لا يقرّه هو<sup>(1)</sup>.

وقبل البدء في مناقشة هذه الشهادة، نود إلقاء الضوء على ما اكتنف مقولة فيصل حوراني، من نصوص غائبة في منطق العبارة؛ لكنها حاضرة وفق منطق الإشارة. وتلك النصوص هي حوادث تاريخية لا تزال تؤكّد حضورها، بعد كل هذه السنوات الطويلة. وهي:

- رفض إميل توما الموافقة على قرار التقسيم عام 1947، عند طرحه للنقاش في اجتماع عصبة التحرر.
- اضطراره، بعد ذلك، إلى التراجع عن هذا الرفض، وإنشأؤه نقداً ذاتياً يقر فيه بـ(خطيئته) السابقة تلك، بعد عودته إلى حزب ميكونس.
- إنشأؤه عدداً من الكتابات السياسية، المكرسة لإثبات النظرية الصهيونية في (تطور الشعب اليهودي على أرضه)، وحقه من ثم بإقامة دولته عليها<sup>(2)</sup>.
- اعتباره سعيداً أبا النحس المتشائل - منذ لحظة نشر الرواية - شخصاً "يرمز إلى نموذج عرفته جماهيرنا العربية بشكل بارز بعد قيام الدولة [اليهودية] يمثل الاستسلام والهزيمة؛ وفي أحسن الحالات: الاتكالية والتمسك بالأحلام الغيبية. إنه النموذج الذي ينبذه الشعب ويتركه لمصيره، أو لشتائمهم"<sup>(3)</sup>.

<sup>1</sup> - حبيبي الباقي في حيفا وفيينا. مشارف. العدد 11. ص 87

<sup>2</sup> - انظر: جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة. ص 304

<sup>3</sup> - انظر: محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع. ص 143

ومن المعلوم أن هذا الرأي، من الممكن له أن يكون - في نظر إميل حبيبي - تعريضاً به؛ كون كلا عضوي اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني، السابقة، يعرف من هو المقصود الحقيقي، من مثل هذا الكلام، الذي وإن بدا في الظاهر موافقاً لرأي إميل حبيبي المعلن، في سعيد<sup>(1)</sup>، إلا أنه يخالف ما يعرف الاثنان أنه هو رأيه الحقيقي فيه، وسيبوح به في لحظات الاعتراف الأخيرة، قبيل الموت، كما بينا في سطور سابقة من هذا البحث.

ولئن كان إميل توما - مثل باقي اليساريين الفلسطينيين - رافضاً للتسليم بقيام إسرائيل - قبل أن (يعالجه) إميل حبيبي، ويعيده إلى جادة الدولة اليهودية - فلقد ظل فيه جانب لم تتم معالجته بعد، ويستحق بسببه هذه السخرية، ألا وهو مواظبته - ولو بشكل ضمني - على اعتبار المعالج عميلاً!.

يقول فيصل حوراني:

"سمعت باسمه في أواخر الخمسينات. بقي هو في البلاد التي أخرجت أنا منها. وصار علماً بين أعلام الذين حملني وعيي لحال الفلسطينيين على أن أغبطهم، بسبب بقائهم فيها. ثم تسنى لي قراءة ما يكتبه، منذ أباح لي موقعي، في الصحافة السورية، أن أحصل على جريدة (الاتحاد) الحيفاوية بانتظام. تابعت مواد الجريدة، الباقية هي الأخرى في البلاد، بعد نكبة أهلها، بنهم التائق إلى معرفة التفاصيل، عن أهله الباقين، وأحوالهم، ومعاناتهم... إنني أتحدث عن إميل حبيبي، هذا الذي فارقنا، ففارقنتي، بموته، قطعة من كبدي.

عندما نشر إميل حبيبي خالده الأولى (سداسية الأيام الستة) قرأتها فور تلقي لها. فعلت ما فعله عيري من المعجبين بكتاباته، وأعدت القراءة مرة وثانية دون أن تطفئ

---

<sup>1</sup> - كان رأي إميل حبيبي في شخصية سعيد أبي النحس المتشائل، هو ما قاله بالنص: "إنه شخص هزلي، أبرزت فيه المميزات السيئة، من أجل محاربتها". انظر: محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع. ص 111

الإعادة توقي إلى المزيد... في وقتها كنت محرراً نافذاً في أسبوعية تصدرها منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق... استثمرت نفوذي في المجلة، ونشرت (السداسية) فيها. خصصت لـ(السداسية) ملزمة يميزها ورقها الفاخر، ولونه الخاص الأخضر... وطبعت من عدد المجلة خمسة وعشرين ألف نسخة... فنفدت جميعها، في سوريا وحدها، في غضون أسبوع...

بعد (السداسية) توالى إبداعات إميل حبيبي الأخرى، فانتشرت كما لم يتسن لإبداعات أي قاص عربي غيره أن تنتشر، إذا استثنينا بالطبع نجيب محفوظ... ولما وصلت المتشائل، أو كما هو العنوان الكامل لخالدة إميل حبيبي الثانية: (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل)، تلقيتها بإعجاب زاد عن إعجابي بـ(السداسية) ، حتى لقد تصورت أن الرجل لم يكتب ما كتبه من قبل، إلا ليطور أدواته، فيتمكن من إبداع جديدته هذه، على أتم ما يكون عليه الإبداع الأدبي...

... لم يعرف الأدب العربي قبله كاتباً مثله، استحوذ على عصارة التراث وعصارة الحداثة وعصارة خبرة متفهمة لأحوال الناس... وصب ذلك صباً في عبارات محكمة الصياغة، مزج فيهما السخرية والحكمة والجمال، فحملت كل واحدة من عباراته عالماً واسع الأمدية، عميق الأغوار، دون أن تحمل أيّ منها كلمة زائدة عن اللزوم. وفي السياسة، كان حبيبي رائداً أيضاً، شارك جيل رواد العمل الوطني والفكر السياسي في جهودهم المتصل لإعلاء صوت العقل، واستنباط سبل رفع المعاناة عن الشعب الفلسطيني. وتميز عن كثيرين منهم بدعوته المثابرة، إلى أن يأخذ هذا الشعب واقع الطرف الآخر وحاجاته بعين الاعتبار؛ ليس فقط لأن الحل لا يتحقق إلا بالمواصلة بين واقع الطرفين وحاجتهما، بل لأن أية سياسة، لا تأخذ هذا بعين الاعتبار، سيكون من نتائجها زيادة المعاناة باستمرار<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - فيصل حوراني. حبيبي الباقي في حيفا وفينا. مشارف. العدد 11. ص 80 - 82، ص 88 - 89

وعند قراءة هذه (المقطوعة) بامعان، فسوف تتبين لنا بعض الجوانب التفسيرية الكاشفة، لما ناله إميل حبيبي الأديب من ترحيب واسع. إن هذا النص من فيصل حوراني، هو نص كاشف بامتياز، كونه يسبب أسباباً، ظلت طويلاً بعيدة عن طرحها بصراحة. إذ لا يمكن لنا هنا إغماض العين عن فعل كل من الأيديولوجيا والتاريخ، في هذه القراءة الحورانية.

هي ذي شهادة نقول بصراحة: إن الحكم على نص أدبي، كثيراً ما ينبع من خارجه. ولئن لم يكن ذلك مستغرباً، من كاتب ماركسي كفيصل حوراني، يؤمن بفعل التاريخ في النص، فلقد يكون المستغرب شيئاً آخر، هو ذلك الفصل الانتقائي بين النزعتين - الجمالية والتاريخية - الذي نراه لدى النقاد المتعاطفين مع نصوص إميل حبيبي الإبداعية؛ فصلاً تعسفياً، يستخدم سلاح النقد الجمالي، لنفي الجوانب الأخلاقية السلبية، في القراءة التاريخية. ويستطيع الباحث هنا أن يقرر باطمئنان، بأن فيصل حوراني سوف يكون مستعداً لاستخدام هذه الآلية - النزعة الجمالية - بطريقة تنقلب على منهجه التاريخي، المستخدم في هذه (المقطوعة)، فيما لو تعرضت نصوص إميل حبيبي لقراءة كهذه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلقد أمكن لإميل حبيبي، وللمتعاطفين معه أيديولوجياً، اللجوء إلى هذا الفصل، كلما دعت إلى ذلك الضرورة، حتى في ردودهم على النقد الماركسيين المتخصصين، وذلك بغية منع أية قراءة تستلهم حكم الأخلاق، عند مناقشة نص إميل حبيبي، مع أنهم هم أنفسهم كثيراً ما ناقشوا الجوانب التاريخية، في نصوص غيرهم، عندما شعروا بأن ذلك يخدم أهدافهم. ولقد رأينا كيف نعى إميل حبيبي على غسان كنفاني، ما اعتبره خطأ جغرافياً، في وصف اتجاهات الطرق في حيفا، في رواية (عائد إلى حيفا)<sup>(1)</sup>، ثم عاد وانقلب على هذا المنهج، عندما استخدمه ناقد أكاديمي متخصص، كالدكتور

---

<sup>1</sup> - انظر: إلياس خوري. الأخطاء والأضداد. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 152

فيصل دراج، لأنه كشف التنوّات الأخلاقية في نصوص حبيبي، فقال: "إن فيصل دراج أثبت في (دراسته) هذه أنه ملم بحركاتي وبسكناتي، إماما يخول له، إن شاء، الحصول على لقب (الدكتوراه) في أعماله السياسية، لا في أعماله الأدبية"<sup>(1)</sup>.

إن هذه الشهادة، من فيصل حوراني، يمكن اعتبارها بمثابة شهادة النفس لذاتها، أو شهادة الأيديولوجيا لنفسها، أو شهادة الناشط السياسي لرفاقه المعينين له على وعشاء الطريق، وكأبة المنظر، وسوء المنقلب: سياسياً وأيديولوجياً. وإلا فكيف يمكن فهم كل هذه الزواج اللغوية، بعيداً عن سلطة وسائل الإعلام، في (عصر الميديا) بطنينه الباهر وصوره المنتقاة، الهادفة إلى التعمية على الحقيقة!. كيف يمكن لنا فهم استغلال فيصل حوراني لمنصبه، بغية إقناعنا بأن كل نسخ مطبوعته عن إميل حبيبي قد نفذت كلها، مع علم القاضي والداني أن هذه المطبوعة - ككل المطبوعات الصحفية للمنظمة - توزع مجاناً في الحقيقة، حتى ولو كان غلافها يحمل سعراً مالياً!. ولعمري إن توزيعاً كهذا لا يمكن اعتباره دالاً إلا على قوة الميديا، وسلطة استغلال المنصب - السياسي في جوهره - لخدمة الأيديولوجيا، وتسخير كل ذلك لتخدير أي إرادة لسؤال فاحص، من قارئ مختلف. ولقد تنبه النقد الثقافي إلى خطورة هذه الأفاعيل اللغوية، وسلط أدواته لكشف التأثيرات الأخلاقية السلبية لعصر الميديا، على الإنسان الحديث؛

"كونها تجعله خاملاً وغير يقظ، ومتراخياً بشكل متزايد. إن بعض من يمثلون هذا العصر، يميلون إلى أن يصوروه مزحة كبيرة ينسبونهم إلى أنفسهم، إلى من يتكسبون من هذا من ورائهم. لكن هذه المزحة [أي استخدام الميديا بعيداً عن الأخلاق] قد أصبحت -

---

<sup>1</sup> - وثيقة رقم 11

من قبل ذلك بكثير - دموية، وأصبح عليها أن تسدد فواتيرها؛ فهي بدلاً من أن تكون تنويراً، قد انحدرت إلى مجرد شيء من الترفيه<sup>(1)</sup>.

ثم إن الباحث لا يعرف كيف أمكن لكاتب مترن، كفيصل حوراني، أن يقول عن أديب ما، بأن تاريخ الأدب العربي لم يعرف "قبله كاتباً مثله، استحوذ على عصارة التراث، وعصارة الحداثة وعصارة خبرة متفهمة لأحوال الناس"؟! كيف أمكن لذلك أن يكون كذلك؟! وأين ذهبت (لامية العرب)، وأين ذهب كل من المتبني، وأبي العلاء، ومحمود درويش، وغسان كنفاني، وإدوارد سعيد، وتوفيق الحكيم، ويوسف القعيد، والطيب صالح...؟! بل أين ذهبت (الزيني بركات)، وثلاثية خيرى شلبي، و(خالتي صفية والدير) و(ليون الإفريقي) و(مدن الملح)... ولا أدري إن كانت (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) و(شكاوى المصري الفصيح)، و(جلجامش)، تتدرج ضمن هذا التعميم، أم أن فيصل حوراني تتاساها؟! وحسناً فعل فيصل حوراني، إذ أخرج انتشار نجيب محفوظ من هذا التعميم المطلق، وإن لم يخرج من كلية هذا الحكم (الجمالي) الكاسح!.

ثم منذ متى كانت كتابات إميل حبيبي حداثية، مع كل هذه الاستطرادات، والإحالات، والهوامش، والشروح، فضلاً عن هذه اللغة المنتمية إلى عالم مضى؟!.

ولكن فيصل حوراني لا يلبث أن يحل لنا هذا اللغز - على طريقة إميل حبيبي في طرح الألغاز والافتراء بلها - إذ يحيلنا إلى سبب هذا الإعجاب اللامتناهي، مبيناً أنه التعلق بالشخصية السياسية (للمناضل المفكر) إميل حبيبي، ذلك (المفكر) الذي سبق جميع نشاط العمل الوطني، وكل المفكرين السياسيين. ومن هذا السبق، ولا شك، دعوته المطلقة لفلسطينيي الدولة اليهودية، إلى الاندماج (المطلق) في المجتمع الإسرائيلي، ولو

---

<sup>1</sup> - هلموت أرنستن. نقد وسائل الإعلام وأخلاقيات نقد اللغة. مادة في كتاب لمجموعة من المؤلفين بعنوان: الخطاب والرغبة. ص 83.

اقتضاهم الأمر التشبه بالموريسكيين، الذين تخلوا عن دينهم، لينالوا نعمة العيش في إسبانيا، بعد سقوط الحكم العربي فيها<sup>(1)</sup>. ولئن أمكن لفیصل حوراني أن یتناسى ما ألم بهؤلاء، فلا يمكن أن يكون إمیل حبيبي قد غفل عن مصيرهم، الذي آل إلى ضیاع هويتهم، وتماهيهم في الهوية الإسبانية، بحيث لم يعودوا اليوم إلا أحاديث، نعيذ الشعب الفلسطيني أن يتحول إليها، كما يريده صاحب المتشائل. ولا نعلم إن كان إعجاب فیصل حوراني، بالطروحات الحبيبية، يصل إلى هذا الحد، أم أنها مجرد فورة الأسى على رجل مات، ورآه حوراني مستحقاً بعض الرثاء، ولو كان مبالغاً فيه!.

يقول باحث مغربي، عن مثل هذا النوع من العلاقة: "إن المثقف ذاته، حين يريد أن يتخذ من المثقفين موضوعاً للتفكير، فإنه كثيراً ما يتخذ من هذا الموضوع، فرصة لشن الحرب ضد البعض، أو تشييد أسوار المناعة على مواقع البعض الآخر. إن هذه الفرصة، عند المثقف، تشكل لحظة نادرة للاعتراف، وفضح الواقع العلائقي الحقيقي، الذي يميز المثقفين فيما بينهم؛ لذلك يطغى الجانب القيمي في خطاب المثقف عن المثقفين"<sup>(2)</sup>.

## 5- صلاح فضل وهتك المسكوت عنه:

خلافاً لكل السابقين، تناول الدكتور صلاح فضل، كتاب إمیل حبيبي (خرافية سرايا بنت الغول)، بتعمق كاشف عن أهم ما يميز كتابات إمیل الإبداعية، واضعاً بذلك يده على مكن السر، في العلاقات القائمة وراء هذا النوع من الإبداع: شكلاً ومحتوى، فقال:

<sup>1</sup>. كنا قد اطلعنا على هذا المقال الحبيبي، في بعض الصحف في حينه. وإذ لم نجده الآن، فقد اكتفينا بإشارة الدكتور

صلاح فضل إليه. انظر: أساليب السرد في الرواية العربية. ص 184

<sup>2</sup>. محمد نور الدين أفاية. الهوية والاختلاف. ص 66



"إميل حبيبي كاتب مشكل، لا يقتفي أثر الآخرين. يبدع في تجربته السردية عالمه الخاص المثير. ومثلما كان طريقه في الحياة صعباً وشائكاً، فإن طريقه في الفن وأسلوبه في الكتابة خصب وشائق معاً... إنه يطالعنا، مثلاً، في هذه الرواية، بلون من الإدراك الباهر لأحد جذور التناقض لديه؛ إذ يقول في مقدمة المؤلف، أو خطبته، على حد تعبيره: (ذهلت من الحقيقة التي تكشفت أمامي. ولكني لم أسمح لنفسي بإخفائها، مع أنها جاءت مناقضة للنهج الذي اخترته لحياتي، من حيث اعتقادي بأنه من الممكن، ومن المفيد، حمل بطيختين بيد واحدة: الانشغال بالسياسة والانشغال بالأدب). فهل يقتصر التناقض عنده على بطيخ السياسة والأدب. أم يمتد إلى خطاب الكاتب بأكمله ونهجه في الحياة؛ إذ يرى فكراً قضاياه بمنظور، ثم لا يلبث أن يكتشف خطورة هذا المنظور، وعجزه عن التصريح به، عندما يخلص لتقديم رؤية عميقة منتزعة من أحداث الحياة - كما يعانيتها في لحمه وواقعه المهول - مهما حاول تغليفها بإطار أسطوري، لا يخفي عظمها التاريخي، بقدر ما يشفّ عنه ويشي به؟"<sup>(1)</sup>.

وهذا التناقض بين الرؤيتين، الذي يدركه بكل أسى إميل حبيبي ذاته، ويشير إليه أستاذنا، هو نابع من طبيعة نظرة الكاتب السياسي، (الواقعية) التحليلية، لمسألة وجوده كفلسطيني، يعيش في دولة يهودية، قامت مكان دولته الدارسة، بقوة العنف المسلح. حيث ينظر الكاتب من جانب إلى الدولة (الفتية)، ويرغب في الاندماج فيها، ودمج شعبه معه، لكنه من جانب آخر، يظل - لشدة ضياعه - مدركاً لاستحالة تسويق هذه الرؤية، إبداعياً، على كافة الصعد: المحلية الفلسطينية، والقومية العربية.

وإذ يكتشف الدكتور فضل أن هوية إميل حبيبي، مرتبطة لديه بالمكان الجغرافي، أكثر من أي شيء، فلقد نراه يقول، فيما لا يخفى ما وراء هذه العبارات من دلالات:

---

<sup>1</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 163 - 164

"ويمتلك إميل حبيبي عين رحالة لا يبرح مكانه، فهو دائم التحديق في تقلبات المكان، يستنفد وعيه الزمني في ذلك. من هنا فإن البنية الخالصة، في الرواية، منتشرة مشتتة. لا تكاد تندرج في سلك مستقيم، ولا تتسج حدثاً طويلاً نامياً... ويبدو أن همه الأساسي هو إقامة نصب تذكارية لمعالم المكان حوله... ولأن السيادة، في هذا اللون من السرد، تتعقد للمكان ومشاهده الحميمة، فإن الخواطر المنهمرة كرزاذ المطر عليه، لا تبرحه إلا إلى ماضيه الغارق في النسيان. وبالتالي فهي لا تبغي أن تصنع منه قصة... بل تصيخ السمع إلى نبض الأرض، دون أن ترفع رأسها قيد شعرة عنها"<sup>(1)</sup>.

وإذا كان لنا أن نتتبع منطق علماء أصول الفقه، في تراثنا الغني، فإننا سنلاحظ ما وراء منطوق العبارة هنا من دلالات، يحيل إليها (مفهوم المخالفة): بحيث تصبح عبارات أستاذنا دالةً، بـ(المفهوم) على أن عكس ما قاله، بـ(المنطوق)، سوف يحمل الحكم المخالف له تماماً<sup>(2)</sup>.

أي أن الأمر سيكون - لدى إميل حبيبي - على هذه الشاكلة: إذا ضاع المكان، ضاعت الهوية وامّحت، وأصبحت الذات الفلسطينية - في عرف حبيبي - زائلة وغير متحققة.

<sup>1</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 171 - 172

<sup>2</sup> - قال شيخنا عبد الوهاب خلاف: "وأما ما اتفقوا على الاحتجاج بمفهوم المخالفة فيه، فهو مفهوم الوصف، أو الشروط، أو العدد، أو الغاية، في غير النصوص الشرعية: أي في عقود المتعاقدين وتصرفاتهم، وأقوال الناس، وعبارات المؤلفين، ومصطلحات الفقهاء. فقول الواقف: جعلت ريع وقفي من بعدي لأقاربي الفقراء؛ منطوقه ثبوت الاستحقاق لأقاربه الفقراء. ومفهوم المخالفة له: نفي استحقاق أقاربه غير الفقراء. ونصه حجة على الحكمين. وقول الواقف: جعلت ثمن ريع وقفي من بعدي لأرملتي إذا لم تتزوج؛ منطوقه ثبوت الاستحقاق لأرملته إذا لم تتزوج. ومفهوم المخالفة له: نفي استحقاقها إذا تزوجت. ونصه حجة على الحكمين. وهكذا كل عبارة من أي عاقد أو متصرف أو مؤلف أو أي قائل؛ إذا قُيدت بوصف أو شرط، أو حُددت بعدد أو غاية، تكون حجة على ثبوت الحكم الوارد بها: حيث يوجد ما قُيدت به، وعلى نفيه حيث ينتقي، لأن عرف الناس واصطلاحهم في الفهم والتعبير على هذا. ولو لم يُفهم النفي والإثبات، كان التقييد في عرفهم عبثاً". علم أصول الفقه. ص 156

ومن هنا كان اكتشاف الباحث - بفضل هذه الإشارة - أن إميل حبيبي كان قد أُنقِع نفسه، أخيراً، بأن هويته باقية، طالما بقي في حيفا. ومن هنا نبعت لديه كذلك فكرة عبارته المكتوبة على شاهد القبر: (باق في حيفا).

ولا شك أن هذا العشق للمكان، كوطن، سوف يحملنا على الشعور بالامتنان، نحو هذا الفلسطيني المتشبه بأرضه. لكن دلالات الأمر ليست هكذا على إطلاقها. فعشق الأرض لا ينبغي له أن يحولها إلى مجرد تميمة، يتبرك بها إميل حبيبي، ثم تنسيه ما وراءها من علاقات أكبر، هي التي دعت في الأصل إلى تعليقها على صدره. وإلا فلقد يمكن القول حينئذ - ووفق هذا المنطق الحبيبي - بأن الفلسطيني اللاجئ، الذي فقد مثل هذه التميمة، غير قادر على عشق الوطن، أو غير متحققة له هوية ذات طابع محدد، مع أن الواقع المشاهد يقول عكس ذلك على طول الخط.

واستدعاءً لما كنا قد أثبتناه في الفصل الأول، من ارتباط هوية الفلسطيني اللاجئ بالكفاح المسلح - كتعبير عن الهوية، في غياب الأرض المسلوقة<sup>(1)</sup> - كان هذا الافتراق الحاد، في مجال الوعي بالهوية، بين إميل حبيبي الباقي بثمرن القبول، وبين اللاجئين المنفيين عن الأرض والمتشبهين بالبندقية.

ومن هنا كذلك، يمكننا تفسير إصرار إميل حبيبي على رفض أسلوب الكفاح المسلح، لدى أبناء شعبه؛ كون ذلك الكفاح دالاً - لا يقبل النقض - على طبيعة التناقض التناحري بين الرؤيتين، ومما يقود إلى نزع صفة (النضال) المحببة، عن الرؤية الحبيبية، الساعية دوماً إلى تعميم نموذجها، بقوة الكتابة، وبقوة الحزب، ثم بقوة الفرقة العربية، المتيحة لإميل جمال الظهور بمظهر العقلاني الوحيد، بين شعب كامل من السذج المتسرعين، المراهنين

---

<sup>1</sup> انظر: عاصم خليل. على ضوء الواقع الفلسطيني. رؤية. السنة 3. العدد 28. ص 36

على ما لن يأتي. وكأن الرجل هو ذلك النمط نفسه، الذي وضع يده عليه، في لحظة رائعة، الفيلسوف البريطاني تيري إيجلتون، عندما قال:

"إن الفرد المثقف - أي الفرد المصقول المهذب - يكاد يشبه الفرد الليبرالي المحافظ. ويخيل إلى أن مذياعي الأخبار، بهيئة الإذاعة البريطانية، قد فصلوا هذا النموذج السياسي للبشر جميعاً: هذا الفرد المتحضر لا يوحي بالتأكيد بأنه ثوري سياسي؛ وإن كانت الثورة من مفردات الحضارة أيضاً. إن كلمة (عقلانية)، التي ذكرناها آنفاً، تعني - بشكل أو بآخر - قابلية الاقتناع، أو الرغبة في عمل تسوية؛ كما لو كانت الفناعات الحماسية كلها غير عقلانية على نحو مسلّم به"<sup>(1)</sup>.

ومن الواضح أن كلمة (الثورة) لا ترد في قاموس إميل حبيبي أبداً. أما كلمة (النضال) فإنها ترد بمعنى: الدأب على المطالبة السلمية، مع الاستعداد الدائم لدفع ثمن (البضاعة)، الذي قد يكون فرض التجنيد الإجباري، على فلسطينيي الدولة اليهودية<sup>(2)</sup>، ليشاركوا في (الكفاح) ضد إخوانهم الفدائيين الفلسطينيين، المحاربين دوماً، وضد الجيوش العربية التي خاضت أربعة حروب، منيت في أولها بشجب إميل وتخليه، وانحيازه العملي إلى أعدائها، ومنيت في باقيها بسخريته وشماتته<sup>(3)</sup>.

إن هذه العقلانية الفادحة، التي تشبه عقلانية مذياعي الـ(B.B.C)، هي التي وصلت بإميل حبيبي إلى ضياع سرايا كوطن، كما أوضح ذلك الدكتور صلاح فضل في قوله:

"ومعنى هذا أن مفتاح المعرفة الذي يبشر به إميل حبيبي في هذه الخرافية الواقعية هو ضياع سرايا إلى الأبد. وأنه، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة الفاجعة، لا يهمه ماذا سيقول عنه

<sup>1</sup> - تيري إيجلتون. صور الثقافة. فصول. عدد 63. ص 33

<sup>2</sup> - انظر: وثيقة رقم 9

<sup>3</sup> - تم توثيق كل ذلك في الفصل الأول.

من لم يتحرر من قيود العادة في كهف أفلاطون، ومن يبقى في صفوف المكافحين عند  
حكمة مستنقع لينين<sup>(1)</sup>.

وهكذا تقود علاقة إميل حبيبي المريضة بوطن ذاهب، إلى تقبل ضياعه، في آخر  
الأمر، بله اعتبار هذا الضياع أدياً. مما يبرر له - أمام ضميره - البحث عن انتماء بديل،  
يسلكه في زمرة (زبدة الناس)<sup>(2)</sup>. بل هكذا تجني السياسة على الإنسان، وهكذا يجني  
التعقل الزائد على علاقات القلوب، ثم هكذا يجني تبرير منطق الآخر ورؤيته على منطق  
الذات وموقعها<sup>(3)</sup>؛ لأن الله العليم المتعالي لم يجعل "الرجل من قلبين في جوفه"<sup>(4)</sup>. "وما  
جعل أدياءكم أبناءكم"<sup>(5)</sup>. وإذا كان سعيد أبو النحس المتشائل يصلح أن يكون بطلاً في  
الرواية، فإنه لا يصلح أبداً أن يكون بطلاً في الحياة.

---

<sup>1</sup> - صلاح فضل. أساليب السرد في الرواية العربية. ص 184

<sup>2</sup> - هذا هو رأي إميل حبيبي في الدولة اليهودية. انظر: أحمد عمر شاهين. تواصل مع أسلوب السرد العربي.

مشارف. عدد 9. ص 102

<sup>3</sup> - انظر: صلاح فضل. على حد السيف. مشارف. عدد 9. ص 97

<sup>4</sup> - سورة الأحزاب. الآية 4

<sup>5</sup> - سورة الأحزاب. الآية 4



## نتائج البحث

لم يستطع إميل حبيبي - باعتباره شيوعياً، تربي في حزب أقامه المستوطنون الصهاينة - أن يتمرد على واقعه التاريخي، القاضي بقبول التعايش مع الغاصب، على أرض المغصوب. كما لم يستطع التتكر لكونه عضواً مركزياً، في حزب قيادته صهيونية، تمارس أهم فعاليات الصهيونية: الهجرة والاستيطان، وتستورد السلاح، للكيان الصهيوني الناشئ بفعل العنف.

ورغم أن ما قيل عن اشتراكه في جلب السلاح لإسرائيل، خلال (حرب 1948)، لا يمكن إثباته، إلا بمقال هنا أو حديث هناك؛ إلا أن اعتقاده بأن الممارسة الحزبية، من داخل المؤسسة الصهيونية، قمينة بتخفيف معاناة الممارسين - دون أن يهتم بالنظر إلى حجم الثمن المدفوع - قد عزز من هذه الأحاديث، خصوصاً عندما رأيناه يذهب، في هذا الطريق، إلى مناطق غير مسلوكة، من قبل أي وطني، على طول التاريخ، ويواظب على دعوة مواطنيه، إلى تقبل التماهي في الكيان الجديد، بصفتهم مواطني دولة، عليهم أن يحضوها الولاء، ولا يرفعوا في وجهها السلاح، وأن يكتفوا بما يكتفي به أي (مواطن صالح)، من معارضة يتيحها القانون، الذي وضعه الغاصب.

ورغم عشق إميل حبيبي الشديد للأرض، وظهر ذلك جلياً في إبداعه الأدبي عالي المستوى؛ إلا أن هذا العشق - يا للعجب - كانت له نتائج سلبية، على مفهومه للهوية الوطنية، إذا اعتقد أن البقاء على الأرض، هو وحده الذي يحفظ الهوية. فكانت النتيجة

أن نسي أنه منتِم إلى ثقافة مخالفة، عندما قبل جائزة الدولة اليهودية، معللاً هذا القبول بتعليل أشد قبحاً من القبول ذاته، وذلك عندما اعتبر الجائزة دليلاً على تماهي الثقافة الفلسطينية، في ثقافة الغاصب، ودخولها في نسيجها الكبير.

ورغم كل ما سبق، فقد استطاع هذا النموذج من (النضال) - بالتحالف مع بعض (اليهود الطيبين) - أن يقدم بعض الإنجازات للمواطنين الفلسطينيين، في الدولة اليهودية، على الصعيد الحياتي، وأن يخفف - إلى حد ما - من معاناتهم، ويكشف كثيراً من ممارسات القهر، التي تقوم بها الدولة ضدهم، كما حدث في كشف إميل وحزبه لمذبحة كفر قاسم.

لكن السؤال الذي طرح نفسه بإلحاح كان دائماً: لماذا أحببنا المتشائل بعد كل ما علمناه عنه؟. لقد قرأنا الرواية وتعاطفنا مع البطل المهشم ومنحنا لإميل حبيبي جوائزنا وإعجابنا. فلماذا الآن نقول فيه ما نقول؟. وقد أجاب البحث على هذا السؤال الأهم، بأننا أحببنا الصنعة. ولكننا لم نحب المصنوع. وعندما التبس الأمر على الصانع، وتماهي في المصنوع، كرهناه. لقد أحببنا الجمال في لوحة ترسم كيف يسيطر القبح على أرواح بعض الناس، ويحولهم إلى أعداء لأنفسهم؛ ولم نحب أبداً هؤلاء البعض، ولم نتمن أن نكون مثلهم، مهما تقلبت بنا الأيام. وقد أرجعنا سبب ذلك إلى فعل النسق المتجذر في تاريخ التلقي العربي للأدب. ذلك النسق الذي ظل محكوماً بالنزعة الجمالية، التي صرفته عن قراءة الأدب، باعتباره درساً إنسانياً عظيماً. وألهته من ثم عن فضح تأثيراته السلبية، على مجمل الوعي العربي، حيث تكرر الفصل المبكر، بين المحتوى الفلسفي الأخلاقي للشعر والأدب، وبين البلاغة اللغوية، التي سُمح لها بأن تقول ما تشاء، ما دام قولها محروساً بالجمال التصويري، حتى ولو خالف كل قواعد المنطق والأخلاق!.



لقد لاحظنا أن الماضي في كتابات إميل حبيبي قد تحول - وفق هذه النظرة التقليدية - إلى مستودع أمثلة، تسمح بإلقاء الضوء على الحاضر، ونقل أفعاله، كحكم كلية قادرة على الحضور والتأثير، وإعطاء النموذج المثال. وبذا فقد حل التاريخ عند إميل حبيبي، محل الأسطورة عند الغربيين، أو محل النص الديني عند الشرقيين.

وعلى هذا، فقد سعى إميل حبيبي، الروائي والقاص، إلى إعادة تحديث الأشكال السردية، بغية إحداث نتيجتين، أحدهما مرتبطة بالأخرى: استعادة الذاكرة الثقافية، وإعادة إدراج الجماعة في صلة مع قص مشترك، يعيد بناء الحاضر وفق صياغة أيديولوجية، تتكئ على الماضي. والنتيجة لن تكون - وفق هذه المقدمات - إلا إعادة استساخ القهر العام بذريعة الأصالة، وإلحاق الهوية الوطنية بالآخر بذريعة الممكن. حيث لا يجد الفلسطيني المتبقي في أرضه من وسيلة لحفظ ذاته إلا بنفي الهوية والسقوط في برائن العمالة. وبهذا تتفي النتيجة العملية مقدماتها الأيديولوجية، وتبين زيفها.

أما البنية الثقافية في كتابات إميل حبيبي، فقد بدت للباحث محكومة بأنساق ثقافية خاصة، ميزت محتوى إنتاجه الإبداعي والفكري، باعتبارها البنية الأعمق للنص الحبيبي. وقد جاءت على هذا النحو:

## 1- نسق الحكمة الكلية:

إذ حاول إميل حبيبي، تقمص شخصية الشيخ الحكيم، المالك للحقيقة، والقادر على إنتاجها وتفسيرها، وتقديمها في قالب مقبول. ولعل هذا كان ناتجاً عن عدة اعتبارات، أملت الظروف الموضوعية والذاتية؛ منها:

- مكانته المتقدمة، في حزب يقدم نفسه، للجماهير ولحركات التحرر العربية، بصورة المقاتل الوحيد في الخندق الأمامي، ضد الصهيونية في فلسطين.

- شهرته الأدبية، التي حققها بعد نشر رائعته المتشائل.
- عضويته في الكنيست، التي أتاحت له الظهور بمظهر المكافح في سبيل نيل (الجماهير العربية في إسرائيل) لشيء من حقوقها، علي الصعيد الحياتي.
- علاقته المتأخرة مع منظمة التحرير الفلسطينية، بعد جنوحها للحوار مع إسرائيل، بما تمثله هذه المنظمة، في الوجدان العربي والفلسطيني، ونواله جائزتها.
- شخصيته الكاريزمية، وأسلوبه الساخر، بما يوحيه كل ذلك من القوة، التي تعود الجمهور العربي على الخضوع لسيطرتها الجمالية. ولقد يكفي، في هذا المجال، استذكار ما قاله يوماً لنبيه القاسم، للتدليل على استشعاره هذه القوة وتأثيراتها، من أنه يستطيع أن يمحو اسمي محمود درويش وسميح القاسم، بمقالة صغيرة يكتبها.

ولقد تعزز هذا الشعور بالقوة، لدى إميل حبيبي، بعد حصوله على جائزة الإبداع الإسرائيلية، التي أتاحت له الاعتقاد بالقدرة على الجمع بين المتناقضين. حيث لا يجمع بين المتناقضين إلا مخادع أو حكيم. وهيهات لمن كان مثل إميل حبيبي، أن يستشعر في نفسه معنى سلبياً.

إن شعور إميل حبيبي المبكر، بأنه يمتلك الخبر اليقين - منذ أن سمى ابنته الأولى باسم جهينة تناصاً مع المثل المعروف - هو الذي أتاح له افتراض نفسه المعلم الأول، حتى وهو يعترف مضطراً بخطاياها، في آخر العمر. ولنتأمل كيف يمرر هذا الاعتراف، في ثنايا عالم متسع من الحكمة الكلية. يقول: "لقد علمتني تجربة حياتي - وهي تجربة ليست بالقليلة - أن مصيبتنا الكبرى هي في اضطرارنا إلى التخلي عن المهمة التي خُلقنا من أجلها: مهمة الحفاظ على نقاوة الضمير الشخصي والقومي"<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - إميل حبيبي. عالم بلا أقصاف. ص 134

لكأن هذا النهر، من الحكمة، يستطيع أن يجرف في تياره (خطأ صغيراً) من مقاس (التخلي عن نقاوة الضمير)، ما دام قد حدث ضمن سياق تجربة كبيرة، لها الكثير من الإيجابيات. كما لو كنا بصدد طقس من طقوس التطهير!.

وفي نصوص إميل حبيبي الإبداعية، نلاحظ هذه الحكمة الكلية، في إكثار المؤلف من التعابير الدالة على طول التجربة، وصعوبتها، ومن النصائح المباشرة التي يوجهها للمتلقي، ومن شعوره المتزايد بتضخم الأنا، ومن صيغ الحكمة، التي يواصل تسريدها، لتأكيد هذا الشعور.

ولقد يرغب الباحث، في تأكيد إحساس إميل بهذا التميز، بعد صدور المتشائل، باقتباس هذه الأمثلة، من نصه الأدبي الأخير، خرافية سرايا بنت الغول - أي بعد أن توفرت له شروط الانتشار والقبول، من طرفي النزاع - وكلها يحيل إليه: راوياً، ومؤلفاً ضمناً، وشخصاً مدنياً:

- في خرافية سرايا بنت الغول، يستخدم إميل حبيبي التعبير المؤسي: (مشيت في درب الآلام)، أكثر من ثلاث عشرة مرة، موزعة على طول الصفحات: 58، 59، 62، 88، 89، 105، 108، 111، 139، 153. بل إنه ليكرر هذا التعبير أربع مرات في الصفحة الواحدة.
- ويميل الباحث إلى الظن، بأن هذا الاستخدام، بهذه الطريقة المكثفة، يشير إلى رغبة المؤلف، في الظهور بمظهر الشخص الذي تخطى كل الصعوبات، في سبيل شعبه، كما فعل السيد المسيح - عليه السلام - الذي يتناص هذا التركيب الأسلوبي مع تجربته، كما وردت في العهد الجديد. وإذا كان هذا شأنه، فلم لا يأخذ عنه أبناء شعبه مضمون تجربته هذه، ويتعايشوا مع واقعهم؟!.

- ويتعزز الإيحاء بهذا الحس، الاستشهادي المتأخر، لدى المؤلف الضمني، بالحسرة التي يبديها، على أنه لم يحاول منع هجرة شعبه من فلسطين - حتى لو كان الثمن موته - من مثل قوله، قبيل آخر الكتاب: "كيف تركت أناسي يخرجون من الجنة، ولم أمت دون هذا الخروج؟!"<sup>(1)</sup>.
- وإذ فاته هذا الشرف، فإنه لا يني يتحسر على أنه قد ولد أصلاً، فيردد مقولة ابن الأثير: "فيا ليت أُمِّي لم تلدني وكنت نسياً منسياً"<sup>(2)</sup>، بعد أن رأى شعبه يواجه هذا المصير، الذي حاول دفعه عنه، فلم يفلح، بسبب تلك (الخصلة الرديئة) في شعبه، الذي لا يتقبل النصائح من الحكماء.
- ومع ذلك، فلم يذهب عمره سدى، لأنه أنفقه في بناء رجال ارتفع شأنهم، رغم أنهم الآن يهاجمونه. ولكن لا بأس، فهذا حال الحكماء مع الناس. يقول: "كنت أحث الركب، وأنفخ في نار القرى، وأشد في ساعد الولد وولد الولد، فلما اشتد ساعده رماني"<sup>(3)</sup>.
- والحكمة الكلية هي ضالة الكاتب: عاش حياته لأجلها، ثم ها هو الآن على مشارف النهاية، لما يزل يهجس بها، ويحث شعبه على أخذها عنه، خالصة مخلصة. ثم لا يني يعيب عليهم ترددهم في ذلك، وهو الذي يشبه حكيم أفلاطون، الذي خرج من الكهف، فلما رأى العالم من حوله، بعد سجن طويل، أراد لشعبه أن يحذو حذوه، ويعرف الحقيقة، فأنكره وقتله. وهذا هو مصير كل من "حاول فك قيودهم، ودفعهم نحو الأعلى"<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 169

<sup>2</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 76، ص 77

<sup>3</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 116

<sup>4</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 149

- ولا عجب. فهذا الحكيم الممتلئ علماً، "كان في زمانه خطيباً كليماً"، لو ألقى على مسامع الطير خطاباً، لجمعها من حوله!<sup>(1)</sup>.
- لهذا نراه يستخلص الحكمة ويتشربها، داعياً شعبه أن يأخذها عنه. وها هو يقول بمرارة: "وكم من إنسان عاش ومات، دون أن يتعلم الرؤية بعيني رأسه!. وكم من إنسان عاش ومات على النطع، لأنه جرؤ على هذه الرؤية!. فإما أن يعيش غيباً، وإما أن يموت نبياً"<sup>(2)</sup>.
- لكل ما مضى، نرى إميلاً يخاطب أبناء شعبه، بصورة مباشرة، كون هذه الحكمة أكبر من أن تنتظر من يفك شفراتها، من ثنايا نص أدبي، لذا فهو يختصر الطريق، ويقدمها لهم بصيغة النصيحة المباشرة، التي تنتظر منهم من يسجلها، ويتحملها: علماً أزلياً، غير قابل للنقض أو الحوار؛ فيقول تارة: "حلمكم عليّ يا صبية شعبي، ويا صبايا شعبي، فإني ناقل إليكم هذه الحكمة"<sup>(3)</sup>. ويقول أخرى: "إياكم، يا أحبتي الغائبين، أن ترتضوا من الوطن بجنيّة تأوون بها إلى سرائركم، وتحسبوا أن الواحد منكم مخير في تكوينها، كما يشاء"<sup>(4)</sup>. ويقول ثالثة: "وأنا الآن لا أسترجع الحقيقة، بل أحفر عميقاً في جبل النسيان، بحثاً عن هذه الحقيقة. وهي جوهرة مكنونة أعلى عليّ من كل ما حُفرت عنه الأرض والعقول من جواهر. ولكنني وجدتها جوهرة عصيّة لا تُسْتَرَجَع، مهما تُؤغَل في الحفر"<sup>(5)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: خرافية سرايا بنت الغول. ص 25

<sup>2</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 86

<sup>3</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 60

<sup>4</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 65

<sup>5</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 173

- ولهذا وجد إميل حبيبي نفسه مسوقاً إلى تعزيز هذا الاستشعار العظيم بالحكمة، عن طريق تذكير الناس بنواله جائزة وسام فلسطين، الذي أكرمه به أبو عمار، في احتفال بهيج بالقاهرة عام 1990<sup>(1)</sup>.

## 2- نسق التأثير لا نسق الإقناع:

ونسق التأثير هذا يعتمد على استثارة العواطف وتخدير العقول. وإميل حبيبي مدرك أن المتلقي العربي والفلسطيني سيتقبله ويتمثله، دون اعتراض. ولقد رأينا المكانة الرمزية التي وصل إليها إميل بين الجماهير - في لحظة من لحظات الفعل النسقي، الذي نتراجع فيه القيم الأخلاقية، أمام الجماليات البلاغية - لينشئ خطاباً ينسخ مضمرة القبيح، ظاهره الجميل. ولنتأمل المثالين التاليين من المتشائل:

- "كانت يعاد جاءت من الناصرة إلى حيفا، دون إذن من السلطة، فهي متسللة. وكانوا يدخلون البيوت من أبوابها، في كل لحظة، بحثاً عن هؤلاء المتسللين. فإذا وجدوهم، نقلوهم في ظلام الليل إلى مشارف جنين، في السهل الواقع بينها وبين قرية المقيبلة، الذي كان الجيش البريطاني معسكراً فيه. فلما انجلى عنه، خَلَف لنا فيه ألغاماً كثيرة، أضاف إليها عساكرُ العرب وعساكرُ اليهود ألغاماً أخرى... فلما وضعت الحرب أوزارها، على صدورنا، انفجر أحدها تحت أقدام أولاد صندلة وهم عائدون إلى أمهاتهم من المدرسة"<sup>(2)</sup>.
- "أما برطعة فاقتسموها وظلت سليمة. فلما سطا لصوص على قطيع بقر أردني، تعداده عشرة رؤوس، فمر الأثر بقرية برطعة، حملت الحكومة الأردنية على القرية حملة محمولة على ظهور الخيل. فجمع الفرسان الأهالي، وطرحوهم

<sup>1</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 80

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 105

أرضاً، وأشبعوهم ضرباً ورفساً، حتى قام الأهالي وأشبعوا الفرسان، كل فارس دجاجتين، والخيل، كل فرس علفها. وبرطعوا في برطعة. فسُميت برطعة. فلما عادوا أدراجهم، حمل جندُ بنغلوس [اليهود] على القرية...<sup>(1)</sup>.

لقد تعمدنا اختيار المثالين السابقين من المتشائل، لما هو معروف من شهرة هذه الرواية، ومكانتها المتميزة، بين مجمل نصوص إميل حبيبي الأدبية، الأمر الذي يضمن توفر شرط الجمالية فيهما. ثم لنرى كم جنت هذه الجمالية البلاغية على المحتوى الأخلاقي: فظاهر الخطاب، دفاع عن المدنيين الفلسطينيين، الذين قسمت خطوط الهدنة أراضيهم، بين الجيش الإسرائيلي والجيش الأردني، لكن مضمرة يحيل المتلقي إلى المساواة بين القوات اليهودية والأردنية، وإلقاء اللوم، فيما حل بالفلسطينيين، على كليهما بالتساوي. حيث تختصر هذه المساواة مفاهيم مضمرة متعددة، ليس أخطرَها دعوة الفلسطينيين إلى البحث لهم عن حل يريحهم، بعيداً عن هذا الصراع، الذي لا نصير لهم فيه. كما يفسر هذا المفهوم كثيراً من تصريحات إميل حبيبي، حول التعايش في إسرائيل، بين (الطائفتين) اليهودية والعربية؟.

لقد اشتهرت مفردة المتشائل ومشتقاتها، في الاستعمال الأدبي الفلسطيني، مما يشير إلى فعل النسق في تخدير الوعي، وتمرير مفاهيم ما كان له أن يتقبلها، دون هذا الغطاء الجمالي الباهر، خصوصاً عندما يترافق، هذا الغطاء، مع تغطية أيديوية إعلامية، تقف من ورائها أجهزة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، والمؤسسة الثقافية الفلسطينية.

وإذا أخذنا بمفهوم دي سوسير - حول كون اللغة نسقاً من الاختلافات - فسنرى أن وعي المتلقي يقوم، فور حضور هذه اللفظة غير المعهودة لديه، بتحليل علاقات الاختلاف، التي تحيل إليها، فيستحضر، بطريقة أوتوماتيكية، لفظتين مختلفتين

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 121

ومعهودتين لديه - المتفائل والمتشائم - اللتين نُحِتت منهما هذه اللفظة الجديدة. وسوف تقوده هذه المقارنة إلى اكتشاف أن الشخص المتشائم، مثلاً، هو غير المتشائم؛ كما أنه غير المتفائل: فهو لا يحمل المعنى السلبي للأول، بنفس القدر الذي لا يحمل فيه المعنى الإيجابي للثاني. ومن ثم يخرج هذا المتلقي بنتيجة مفادها: أن المتشائم رغم أنه لا يستحق المديح والتبرئة تماماً، إلا أنه - وبنفس القدر - لا يستحق الهجاء والإدانة، على طول الخط. والنتيجة المنطقية، لهذا التعارض بين التبرئة والإدانة، هي تأجيل الحكم، أو اللجوء إلى الحوار مع هذا المفهوم الجديد.

ولا شك أن هذا الحوار، في الحالة الفلسطينية، هو حوار تحت النار المنصبة من العدو، الذي يقف المتشائم في صفه موضوعياً. إن تأجيل الحكم هنا، لا يعني إلا إتاحة الفرصة لظهور عملاء آخرين، يعلمون مسبقاً أن الحوار هو الذي في انتظارهم؛ لا النار، ولا الإدانة، ولا لعنة التاريخ.

### 3- نسق استخدام التراث كمجرد خيار أسلوبى:

لقد تحول التراث، لدى إميل حبيبي، إلى خيار أسلوبى، طبع شخصيته الإبداعية، سواء في نصوصه المصنفة كأدب، أو في كتاباته السياسية. فالبارز من هذا التراث في كتاباته، ليس هو هذه الاستطرادات والاستشهادات، المتفاوتة في مناسبتها لمقام القول؛ بل توظيفه للتعبيرات التراثية بأسلوب جميل، من مثل إكثاره من عبارات الاحترام المأثورة، على شاكلة: (يا ذا المهابة - المرحوم - رحمه الله - يا محترم)، أو عبارات الاستهلال والختام، من مثل: (أما بعد - خطبة المؤلف - مسك الختام)، و (أسلوب الفنقلة: قال. قلت)، وإحياء التعبيرات الدارسة والألفاظ المهجورة، من مثل: (لا هم - مهلاً مهلاً - وحقك - الرغيف ابن أبي عمرة - كما نقول أصحابك - عارفو فضلي - يا قوم - فاقتعدنا)، والتأثر بأسلوب النقل الشفاهي، على طريقة علماء الحديث، من مثل: (أبلغ عني)... إلخ.



ولقد نراه في كثير من الأحيان يستتطق من هذا التراث أعذب ما لديه، أو ينقل لنا لوحات لغوية كلاسيكية، من أجمل ما أبدعه ماضي هذه الأمة، لغرض أسلوبى حيناً، ولأغراض ثقافية معاكسة لهويتها في أغلب الأحيان. يقول الراوي في المتشائل، على لسان الرجل الفضائي الذي قابل سعيداً في دياميس عكا:

"إن أول إنسان صفق كفاً بكفٍ، استحساناً، نقشنا اسمه على لوحة الخالدين، من قبل سلامة وبتهوفن وسيد درويش، ونراه نبيكم. وبخجلنا أن أكثركم ما زال يبخل على فنان، أو على حادي ركب، بهذا الثمن. اثنان أهل الأرض صدّرتنا بهما لوحتنا: أول من أشعل ناراً، وأول من صافح أخاه"<sup>(1)</sup>.

وإذ يحيل هذا الخطاب الظاهر إلى دلالة إيجابية مباشرة، قوامها تمجيد التراث، ومديح نبي هذه الأمة: محمد صلى الله عليه وسلم. فلقد تعلمنا مسبقاً، في درس النقد الثقافي، ضرورة الحفر تحت هذه الدلالات الظاهرة، وصولاً إلى الدلالات الإيحائية، لأنها في الخطاب الأدبي، هي المرادة لذاتها، لا الدلالات الظاهرة المباشرة. والدلالة الإيحائية لمثل هذا الخطاب، من رجل يدعو إلى التعايش، بين الدولة اليهودية والشعوب العربية، تقول: إن (أبا سلام) يريد في الحقيقة أن يقول: إن المصالحة بين الفريقين المتصارعين، على أرض فلسطين، هي المقصودة بالمديح هنا. بل إنه ليتوخى الذهاب إلى أكثر من ذلك؛ فيضيف: إن هذه المصالحة هي من صلب دعوة نبي الأمة. وليبق اليهود في (وطنهم) فلسطين. وليرض الشعب الفلسطيني المشرد بواقعه. ولتحل بركة السلام على الأرض، لأن نبي الأمة هو الذي يقول هذا، في منطق إميل حبيبي.

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 88

#### 4. النسق الشرقي في تناول قضايا المرأة:

يظهر لنا المؤلف الضمني، في أغلب نصوص إميل حبيبي، مناصراً لقضايا المرأة، ومدافعاً عن حقها في الانحياز إلى خياراتها، ويواجه بالتعريفة والنقد، كل محاولات الافتئات على هذا الحق. ويبرز نضالاتها السياسية، ويتغنى بها. وقد رأيناه، في المتشائل، يقدم نماذج رائدة للمرأة، في ميدان الكفاح الوطني: فهي هو سعيد العميل يتساقط، في دلالة لافتة "أمام قدمي يعاد بعد طول الغيبة"<sup>(1)</sup>. ويعاد هذه، يجعل منها المؤلف الضمني محبوباً سعيد، ورمزاً لحنينه إلى الطهارة. وهي إذ تأتيه، فإنها لا تفعل ذلك إلا رغبة في مطالبته بالسعي، لدى مشغليه الصهاينة، للإفراج عن أبيها، المسجون في انتظار الترحيل، لتضمن له البقاء في الوطن، وتبقى معه. وعندما يقبض عليها الجنود، ويحملونها في سيارة الترحيل، تصرخ به: "سعيد. يا سعيد. لا يهملك. إني عائدة"<sup>(2)</sup>. وبالفعل تعود، ولكن في شخص ابنتها يعاد الثانية.

وبصرف النظر عن الموقف الثقافي للمؤلف المدني - الذي يحمله للمؤلف الضمني - القاضي بأن البقاء في الوطن خير من الرحيل، حتى لو كان ثمنه الجلوس على الخازوق، أو العمالة للعدو؛ إلا أننا يمكن أن نستشف من وراء هذا الموقف السلبي، جانباً إيجابياً في هذا الترميز الثقافي، يقول: إن المرأة قادرة على التضحية بنفسها، والعيش مع العميل، تحت سقف واحد، في سبيل البقاء، ولكن دون أن تفقر معه في بركة الوحل.

وإذا كان سعيد متطوعاً لخدمة أعداء شعبه، خوفاً من الترحيل، وطاعة لميراث مسموم أورثه إياه أبوه، فإن يعاداً تحرص على البقاء، دون دفع هذا الثمن المستحيل، وتتحدى جلادي شعبها، بتصميمها المعلن على العودة.

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 103

<sup>2</sup> - المتشائل. ص 109

وكالعادة، يمكن هنا ملاحظة وجود نسقين متعارضين: نسق الرضا بالعمالة والركون إليها، كأمر واقع لا يملك المهّد بالطرد له رفضاً. ونسق التثبيت العنيد بالحق، مع رفض تقديم تنازلات جوهرية، تمس منظومة القيم الثقافية الأساسية. ومن الجميل أن كانت المرأة، في المتشائل، رمزاً للخيار الثاني، ومؤثراً ثقافياً في هذا الاتجاه.

أما في تقديمه لشخصية الفتاة الطنطورية باقية، فإن خطاب النص - في المتشائل - يبيث في المتلقي قيمة ثقافية جريئة، تقرر حق الفتاة في المبادأة بالإعلان عن عاطفتها، لمن تحب، شأنها في ذلك شأن الرجل. فباقية أشجع من سعيد، في الإعلان عن عاطفتها: إذ تبدو بالمصارحة بالحب، لعلمها بضعف قدرته على المبادرة. وقد تحسّر سعيد، بعد ذلك، على تأخره في تقدير خطورة هذه الشجاعة<sup>(1)</sup>.

ورغم أن أحوال باقية، الذين تعيش في كنفهم، هم من جماعة العملاء، إلا أنها تصر على البقاء على الضد من توجهاتهم، على طول الخط. وقد حرصت، فور زفافها إلى سعيد، على توضيح ذلك له، مغرية إياه بالاعتناء عن العمالة، بصندوق حديدي، في خرائب قريتها الطنطورية، يحتوي على مصوغات ذهبية، خلفها وراءهم أهلها المطرودون<sup>(2)</sup>. ولكنها، إذ تقفل في تطهير العميل من مرضه، تورث هذه العزة لابنها ولاء، فتسر إليه بنبأ الصندوق، فيتخذة معيناً لإنشاء خلية فدائية مسلحة<sup>(3)</sup>.

قيمة ثقافية جميلة أخرى يعززها خطاب النص، في المتشائل، تلك هي قدرة المرأة على خوض الكفاح المسلح، مثلها مثل الرجل تماماً، الأمر الذي يعزز دعوات المساواة: فعندما

---

<sup>1</sup> - المتشائل. ص 130

<sup>2</sup> - انظر: المتشائل. ص 132 - 133

<sup>3</sup> - انظر: المتشائل. ص 146 - 147

يتم كشف أمر ولاء، ويحاصره الجيش الصهيوني، تقفز باقية أمام ابنها، لتحميه بصدرها، فتحمل رشاشاً من الصندوق، مدافعة عن حلمها الذي أورثته إياه<sup>(1)</sup>.

ولقد يعز علي الكاتب المدني والسياسي الحزبي، إميل حبيبي، أن يترك شخصية باقية تنمو، وفق واقعها التاريخي، الذي خلقه لها؛ فنراه يجنحها في لحظة حساسة، لتتطرق بأرائه السياسية، وتجاوز ابنها الفدائي، المؤمن بالكفاح المسلح، بمنطق الحزب الشيوعي الإسرائيلي، النابذ لهذا الخيار<sup>(2)</sup>. لكن المؤلف الضمني يترك لباقية مواصلة الانحياز لخيارها الأساس: خيار الوطنية الفلسطينية، الذي لا يحب أن يكون بعيداً عنه، في كل المحاور النصية. مما يحيلنا إلى هذا التناقض المتكرر بين منظورين سياسيين وأخلاقيين، لذات الشخص. وربما حدث هذا التناقض، نتيجة لرغبة السياسي إميل حبيبي، في عدم قطع العلاقات مع عدد لا يستهان به من الناخبين الفلسطينيين، في الدولة اليهودية.

لقد أدرك السياسي، إميل حبيبي، أن هذا الموقف هو المعبر عن وعي الجماهير العربية، في فلسطين المحتلة، فرسم لنفسه صورة المؤمن بما تؤمن به باقية. لكننا ندرك الآن، أن هذه الصورة هي صورة المؤلف الضمني، الواقف من وراء منظومة القيم، لا الكاتب المدني، الذي ما إن تتم مواجهته بهذه الصورة - التي سبق أن رسمها لنفسه - حتى يستكرها، باعتبارها تحيل إلى موقف (قومجي) مرفوض لديه<sup>(3)</sup>.

ولكن الشخص المدني، إميل حبيبي، لا ينشطر بين المنظورين وحده؛ بل يشطر باقية معه، في لحظة من اللحظات. ولئن كان الموقع السياسي هو الذي جعله يحدد خياره النهائي، وفق المنظور الأول - منظور العدو - فإنه يريد أن يشير، إلى أن تركه باقية،

---

<sup>1</sup> - انظر: المتشائل. ص 154

<sup>2</sup> - انظر: المتشائل. ص 148 - 154

<sup>3</sup> - انظر: نبيه القاسم. مروادة النص. ص 98

تختار المنظور المخالف، ناجم عن كونه يجب أن يكون هو كذلك، لولا الوقر السياسي الثقيل. وإن لنا أن نصدق في هذا الادعاء، ثم إن لنا أن نكذبه. فلقد صارحناء، في آخر عمره، بأنه كان يكذب علينا طوال الوقت<sup>(1)</sup>.

يعاد الثانية، شخصية نسوية أخرى، تمثل المرأة الفلسطينية، كما يراها المؤلف الضمني للمتشائل. والحق إنها لرؤية منصفة، تلك التي تبرز دور المرأة في النضال الوطني، الذي حُرِم منه العميل سعيد. لقد جاءت يعاد الثانية تبحث عن أخيها، سعيد الفدائي الفلسطيني الأسير في سجن شطة. وبعد أن تعذر عليها ذلك، التقت سعيداً المتشائل، في بداية رحلته نحو التطهير. ليكتشف الاثنان حقيقتهما: فهي ابنة يعاد الأولى، التي سمت ابنها باسم حبيبها القديم. وبذا يكون الترميز الثقافي، في هذه الحكاية الأخيرة، دالاً على أن بمقدور المرأة، وحدها، فعل ما يعجز عنه الرجال: انتشال المتساقطين من بركة القاذورات<sup>(2)</sup>.

ليس الرجال وحدهم من يتميزون بالصلابة، بل النساء أيضاً. هذا ما يريد المؤلف الضمني للمتشائل أن يقوله، من خلال شخصية يعاد الثانية. وهذه قيمة ثقافية جميلة، في تعزيز المساواة بين الجنسين، يمكن لنص المتشائل أن يعتز بترويجها، مستعيناً بهذا الخطاب البلاغي الجميل، الذي يلقيه على لسان يعاد الثانية، وقد أحاط بها الجنود لترحيلها، فور علمهم بحقيقتها، فنقول: "هذا بلدي. داري. وهذا عمي"<sup>(3)</sup>.

وفي اخطية، كذلك، يدعم الخطاب السردي حق المرأة، في التعبير عن إرادتها، وممارسة حريتها، على طول مفاصل النص. فكل من اخطية وسرورة تتبادلان الأدوار

<sup>1</sup>- انظر: الحوار الأخير. مشارف. عدد9. ص19

<sup>2</sup>- انظر: المتشائل. ص176 - 180

<sup>3</sup>- المتشائل. ص193

والترميز. وإذا كانت اخطية الفتاة المحبوبة من الجميع قد أنجبت سفاحاً، واتخذ منها الراوي موقفاً متعاطفاً، انطلاقاً من أطروحات المؤلف المدني الأيديولوجية، إلا أننا نكتشف أن المؤلف الضمني يعز عليه أن ينهي الحكاية، واخطية تحمل ابنها من السفاح، وتدور هائمة. لذا نجد، قبل آخر النص، يختلق لها واقعاً جديداً، يتوافق مع مواضع المجتمع وتقاليد. ولقد كان بإمكان الباحث أن يظل معتقداً بأن هذا مجرد موقف سردي، من مؤلف يحاول خلق عالم مواز ومقبول لعالم حيفا، قبل سنة 1948، لولا أنه سيكتشف، متأخراً، أن اخطية التي يتعاطف معها المؤلف الضمني، هي اخطية أخرى غير المنجبة سفاحاً<sup>(1)</sup>.

وإذا كان الراوي، كما الشخصيات، لا يتعاطف إلا مع النسوة المحافظات. فقد كان على اخطية أن تكون إحداهن، وتتسخ كل الدعاوى الأيديولوجية السابقة، عن حرية المرأة، التي ظل المؤلف الضمني متلفعاً بها.

وفي خرافية سرايا بنت الغول، يعاود الراوي معالجة حق المرأة في التصرف بجسدها، من خلال استشهاده مدى القسوة، التي تسم عمليات قتل الفتيات، على خلفية الشرف. حيث يقول:

"حاولت أن أنتزع، من صدري، وخزة ضمير طعننتي عميقاً في باطني، كأنني قاتل أخته، التي جاءت تستجير به من مغبة سفاح، فأهدر دمها.  
- بيدك يا خيا؟! "<sup>(2)</sup>.

---

<sup>1</sup> - انظر: اخطية. الأعمال الأدبية الكاملة. ص 696...697

<sup>2</sup> - خرافية سرايا بنت الغول. ص 31

فمن الواضح هنا، أن المؤلف الضمني يدعم حق مثل هذه الفتاة في الحياة، و(معالجة المسألة)، رغم أنه لا يدعم حقها في التصرف بجسدها. نستشف ذلك من جعله الفتاة قادمة لأخيها، تستعينه على هول (خطيئة) وقعت فيها. إذن فالمؤلف الضمني يوافق على أن مقياس هذه الحرية الجسدية، كبير على المرأة العربية، وإن مناداته بحريتها، لا يصل به حتى تلك التخوم.

وعندما تقرر إيناس، ابنة خالة الراوي، أن تقص شعرها (شليشاً)، نرى المؤلف الضمني يقف منها موقف التعاطف، حيث يُبرز الراوي فشل العائلة في مواجهة هذا التحدي بخرق التقاليد، لتتنصر إيناس في تحديها، آخر الأمر<sup>(1)</sup>.

ومع كل ما سبق، فإن المتعمق في مضمون خطاب إميل حبيبي، حول قضايا المرأة، في مختلف نصوصه، سوف يلاحظ وجود صراع خفي بين وجهتي نظر أيديولوجيتين: تحيل أولاهما - وهي المستنقاة من ظاهر الخطاب - إلى تأييد مطلق، وغير محدود، لحرية المرأة ومساواتها بالرجل. وهذا المنظور محكوم بالخطاب العام لكل الأحزاب اليسارية، ومن ضمنها، بالطبع، الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي قضى المؤلف المدني أغلب سني عمره مدافعاً عن مقولاته.

أما وجهة النظر المناقضة - وهي الأقوى؛ كونها مضمرة، ومن إنتاج خطاب التلقي - فتحيل إلى المؤلف الضمني، الذي نستشف له صورة الشخص المحافظ، الذي يناصر قضايا تحرير المرأة، لسانياً، كأى مثقف عربي، لكنه يتوقف عند خطوته الأولى، فور أن يصطدم بتبعات الحرية، شأن أي رجل محافظ في المجتمع الشرقي: فلا مانع لديه من قص إيناس لشعرها على هيئة (شليش)، ولكن هناك العائلة المحافظة المتماسكة - التي

---

<sup>1</sup> - انظر: خرافية سرايا بنت الغول. ص 118 - 120

يعتز الراوي، خلال كل مفاصل السرد، بالانتماء إليها - وهذه العائلة، لا بد من اجتماعها، وتقبلها الأمر، ولو مرغمة عند هذا الحد.

والسؤال هو: ماذا لو قررت إيناس أن تحضر صديقها الـ (Boy friend) إلى البيت؟ بل ماذا لو كان لها (Boy friend) من أصله؟. إن هذا التحدي الحقيقي، الذي يطرحه كل من منطق التعايش - الذي يدعو إليه إميل حبيبي مع المجتمع اليهودي - ومنطق حرية المرأة، وفق المفهوم الذي تروجه الأحزاب الشيوعية عموماً، لم يطرحه المؤلف المدني إميل حبيبي، ولم يطرحه أي كاتب عربي، على حد علمنا، ولم نر أياً منهم يتحدث عن خروج اخته، مثلاً، عن منظومة القيم السائدة، إلى درجة امتحانه بإحضارها صديقها إلى البيت!. وهذا راجع إلى الحراسة المشددة، التي يمارسها (حارس القيم)، داخلهم<sup>(1)</sup>. ولولا أن المؤلف الضمني عند إميل حبيبي، متوافق مع حارس القيم هذا، لما كان لنا أن نُبرز هذا التناقض الجذري بين خطابين.

والنتيجة تقول: لم تخرج امرأة واحدة، من نساء إميل حبيبي، عن العرف العام، ولم يلجأ إلى إخراجها، حتى لا يواجه هذا التحدي الصعب.

## 5- نسق التهوين المستمر من أمر العمالة للعدو:

في مفاصل متعددة من خطاب المؤلف الضمني، يلجأ مضمير الخطاب إلى التهوين من أمر العمالة للعدو. وقد أشار الباحث مطولاً إلى هذا المحتوى الثقافي الخاص، عند تحليله لرواية المتشائل. بل لقد وصل الأمر بإميل إلى حد الدفاع عن الانتماء للعدو،

---

<sup>1</sup> - لا يعبر هذا الكلام عن موقف أخلاقي محدد للباحث في هذه القضية. ولكنه يحاول فقط مناقشة المواقع الأيديولوجية للمؤلف، ومدى موافقتها لما يطرحه في تنظيراته المباشرة، في الحياة العامة، بعيداً عن مجال الكتابة الإبداعية، التي يعتقد الباحث أنها الأقدر على سير غور المواقف الحقيقية.



كخيار إنساني يستحق التعاطف. ولقد يذكرنا هذا بموقفه من (خلدون) الرضيع الفلسطيني، الذي يذهل عنه والده ساعة الرحيل، في رواية غسان كنفاني (عائد إلى حيفا)؛ فيكبر في أحضان العدو، ويتحول إلى (دوف)، ويدخل الجيش الإسرائيلي ليحارب أخاه خالداً الفدائي، ويدافع عنه إميل حبيبي بشراسة، تصل به إلى حد السخرية من غسان كنفاني، المؤلف. لكأنه أراد من غسان، المناضل، أن يلبس بزة غير بزة الفدائي، التي ولد بها، وأبدع فيها، ومات بداخلها<sup>(1)</sup>!.

وقد واصل المؤلف الضمني مسعاه هذا، في كل نصوص إميل حبيبي: فهو لا يمل ولا يبأس من الدعوة إلى اقتفاء أثره، في التعاطف مع المتعاملين مع العدو بل مع مبدأ العمالة ذاته. ومن الواضح تماماً أنه لم يلق استجابة، لدى رفاقه العرب، لدعوته هذه، إلى حين كتابته تلك السطور، في خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. لذا نراه يلقي باللوم عليهم، وعلى كل من يتوقع منه رفض مسعاه هذا، إلى حد صب اللعنات!. وإذا لا يستطيع اتهام مخالفيه بالخيانة، على طريقة السياسيين. إذن فليصب عليهم اللعنات، على طريقة المتدينين. كما نراها في قوله: "كيف يكون حالنا اليوم لو تعاملنا معهم تعاملي مع المتشائل؟... لعنة الله على ستالين وعلى خلفائه أجمعين"<sup>(2)</sup>.

كل هذا كجزء من سعي المؤلف المدني، غير المسبوق، لدمج فلسطينيي 1948 في المجتمع الإسرائيلي، إلى حد إنكار هويتهم القومية المستقلة، واعتبار المجتمع الإسرائيلي مكوناً من شعب واحد، ولا بأس بوجود (مجموعات عربية) فيه، كفسيفساء تلوينية<sup>(3)</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: إلياس خوري. الأخطاء والأضداد. الطريق. العدد 3. السنة 55. ص 152

<sup>2</sup> - خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ص 153... ص 155

<sup>3</sup> - انظر: وثيقة رقم 3



## الملاحق

### وثيقة رقم 1

#### بيان الحزب الشيوعي الأرض إسرائيلي إلى اليبشوف

لتشكل حالاً الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية:

إلى جمهور العمال، إلى جماهير اليبشوف: أصبح التخريب الأمريكي على قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بإقامة الدولة اليهودية خيانة مكشوفة. إن اقتراح أمريكا فرض نظام وصاية على أرض إسرائيل، يعني استمرار القمع البريطاني القديم باشتراك المستعبد الأمريكي. لقد كان غروميكو - مندوب الاتحاد السوفيتي - هو الوحيد الذي رفع صونه ضد المؤامرة الأمريكية، وطلب بشدة اتخاذ خطوات عاجلة لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة.

أيها العمال، أيها الشباب، يا أبناء اليبشوف: إن استقلال اليبشوف اليهودي لا يعتمد على الاعتبارات والمؤامرات الإمبريالية لمستعبدي الشعوب ومثيري الحروب في واشنطن ولندن. إن حريتنا تعتمد علينا نحن اليبشوف اليهودي. نستطيع الحصول على استقلالنا القومي فقط من خلال الحرب. إننا لسنا معزولين. لنا حلفاء عظام: الاتحاد السوفيتي

وبلدان الديمقراطية الشعبية في شرق أوروبا. كل الشعب اليهودي وكل القوى التقدمية في العالم تقف إلى جانبنا.

لنحارب ضد كل محاولة للاستسلام.  
لنجدد كل اليبشوف في معسكر مقاتل لإقامة دولتنا.  
لنقاوم كل عمل عدائي من جانب الإمبرياليين الغرباء وعصاباتهم العربية المأجورة.  
لنحارب من أجل الجلاء الكامل للجيش البريطاني، وضد التسلل الأمريكي.  
لنقاوم الوصاية الأنجلوأمريكية: الغطاء الجديد للاستعباد الأجنبي.  
فلتسقط الإمبريالية الأنجلوأمريكية.  
لتشكل حالاً الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية.

المصدر: كول هعام. يوم 1948/3/22. نقلا عن: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية. ص 223 - 224

## وثيقة رقم 2

### مقاطع من شهادة شموئيل ميكونس كشاهد دفاع في القضية التي رفعها بن غوريون ضد صحيفة كول هعام بسبب اتهامها له بالخيانة

س: في أية لجنة من لجان مجلس الدولة [المؤقت] كنت عضواً؟.

ج: كنت عضواً في لجنة الخارجية.

س: ما هو مركزك في الحزب الشيوعي؟.

ج: السكرتير العام للحزب الشيوعي.

س: هل جريدة (كول هعام) وأعضاء الكنيست الشيوعيون هم من المعارضة؟.

ج: لقد كنا في المعارضة في فترة ما قبل اكتوبر 1949 وبعد هذا التاريخ.

س: ما موقف الحزب الشيوعي من الدولة؟.

(هنا يتدخل النائب العام ويعارض في توجيه هذا السؤال. ولكن القاضي يسمح به).

ج: موقف الحزب من الدولة هو موقف إيجابي. وليس إيجابياً فحسب، لأن الحزب ناضل من أجل استقلال إسرائيل، واشترك بكل قواه في جيش الدفاع الإسرائيلي، من أجل إقامة الدولة.

س: أنت، كمثل للحزب الشيوعي، ماذا كان دورك في الفترة الواقعة ما بين ديسمبر 1947 والرابع عشر من مايو 1948 [يوم إعلان الدولة]؟

ج: أريد أن أصرح بأنني لم أكن، في أي وقت من الأوقات، أمثل نفسي، بل كنت دائماً أمثل الحزب الشيوعي الإسرائيلي. كانت الغاية من رحلتي الأولى إلى خارج البلاد - حتى 12 مايو 1948- تتعلق بطلب المساعدة السياسية والمعنوية، وطلب الأسلحة والمتطوعين من المحاربين لصالح الهاجاناه، وبعد ذلك لصالح جيش الدفاع الإسرائيلي. هذه كانت الغاية من رحلتي إلى بلاد الديمقراطيات الشعبية، مثل: تشيكوسلوفاكيا، بلغاريا، بولونيا، رومانيا، يوغوسلافيا. باشرت بطلب المساعدة من هذه الدول قبل قيام الدولة، لأنني كنت أرى وأعرف أنه كانت تتقصنا وسائل الدفاع الأولية. وقد اتضح فيما بعد أنه لم يكن في أيدي قوات الهاجاناه سوى 1300 بندقية. وقد أمضيت عدة أشهر - قبل قيام الدولة - في بلاد الديمقراطيات الشعبية، أطلب بالمساعدة للدفاع عن سكان فلسطين اليهود (البيشووف) في نضالنا ضد الاستعمار الإنجليزي. وقد وجدت آذاناً صاغية في الحركة الشيوعية في تلك البلاد.

س: متى عدت إلى البلاد بعد تلك الزيارة؟

ج: عدت في 12/5/1948.

س: هل اشتركت في مجلس الدولة المؤقت الذي أعلن إقامة دولة إسرائيل؟

ج: نعم.

س: ماذا قلت في النقاش حول إعلان إقامة الدولة؟

ج: قال مندوب الحزب الشيوعي في هذا النقاش (وهنا يقتبس ميكونس من بروتوكول مجلس الدولة يوم 14/5/1948 ما قاله مندوب الحزب الشيوعي: مثير قنر) كلنا

موجودون في إجلال واحترام، في هذا اليوم العظيم للييشوف وللشعب اليهودي، يوم إلغاء الانتداب وإعلان الدولة اليهودية المستقلة. والحزب الشيوعي يؤيد القرار المقترح بخصوص إقامة الدولة اليهودية، مع بعض التحفظات، ويقترح تعديلات وزيادات عليه.

س: هل تقابلت مع رئيس الحكومة المؤقتة. وما هو الموضوع الذي بحثته معه؟.

ج: لقد قابلته مباشرة بعد تأسيس الدولة وبدء الغزو [دخول الجيوش العربية]. كنت مضطرباً من إلقاء الغزاة قنابلهم الإرهابية، ولم يكن باستطاعة جيش الدفاع الإسرائيلي أن يرد عليها. لم نر طائرات إسرائيلية، أو مدافع مضادة للطائرات في المدن. وقد طلبت مقابلة مستعجلة مع رئيس الحكومة المؤقتة. وفي 20 - 21 مايو تمت المقابلة، وكان الهدف من طلبي هو الاستفهام عن الوسائل الدفاعية.

س: ماذا قلت لرئيس الحكومة؟.

ج: سألته عن الأسباب لعدم وجود وسائل الدفاع الجوي، في المدن، أمام الجيوش الغازية الإرهابية. وكان جواب رئيس الحكومة: أنه ينقصنا السلاح والجنود المدربين لكي نقاوم غارات العدو، كما أنه ينقصنا السلاح والأعتدة لمجابهة جيوش الغزاة. وقد اقترحت عليه أن ينظم لي، بشكل مستعجل، تأشيرة خروج إلى بلاد الديمقراطيات الشعبية، كي أعمل من أجل الإسراع لإرسال المساعدة إلى جيش الدفاع الإسرائيلي، ولكي أقوم بتجنيد المحاربين المتطوعين من أجل حرب الاستقلال بأقصى سرعة.

س: هل جابهت صعوبات عندما طلبت المساعدات؟.

ج: لم أجابه أية صعوبات في بلاد الديمقراطيات الشعبية، سوى يوغوسلافيا، حيث أظهرت حكومتها موقفاً عدائياً لقضية تجنيد المحاربين المتطوعين، والمساعدة العسكرية لجيش الدفاع الإسرائيلي.

س: ممن أخذت مساعدة في رحلتك الثانية، وما هو نوع المساعدة؟.

ج: أخذت المساعدة من تشيكوسلوفاكيا، وبولونيا، ورومانيا، ومن الأحزاب الشيوعية في تلك البلاد.

س: ما هو نوع هذه المساعدة؟.

ج: كانت المساعدة عبارة عن تسهيل الإمكانات لي لجمع السلاح، وتجنيد المتطوعين المحاربين، وأشياء كثيرة على غاية من الأهمية، أسفرت عن نجاح نضالنا ضد الغزاة. ولا أريد أن أصرح عن هذه الأشياء

س: ماذا كان نوع السلاح: رصاص أم طائرات؟.

ج: جميع أنواع الأسلحة، وبضمنها الطائرات. وقد وصل هذا السلاح في وقته. وكان كل جندي من جنود جيش الدفاع الإسرائيلي يعرف مصدر هذا السلاح.

س: هل قابلت في رحلتك الثانية مندوب جيش الدفاع الإسرائيلي، أو منظمة الهاجاناه؟.

ج: في تلك الفترة، كان هناك ممثلون رسميون لإسرائيل، وقابلتهم عدة مرات.

س: ماذا تعرف عن تراجع جيش الدفاع الإسرائيلي عن صحراء سيناء؟.

ج: هذه المعلومات معروفة لديّ من تصريحات وزير الخارجية ووزير الأمن، في مجلس الأمة.

(وقد اتهم ميكونس، أثناء المحاكمة، بن غوريون بأنه تراجع عن مناطق: رفح - أبو عجيلة - العريش، بأوامر القنصل الأمريكي في تل أبيب).

س: ماذا تعرف، ومن أين تعرف، عن منع جيش الدفاع الإسرائيلي من تحرير مدينة القدس القديمة، من الملك عبد الله؟.

ج: هذه الأمور معروفة لديّ؛ لكوني كنت عضواً في مجلس الدولة المؤقت، وكنت على صلة بهذا الأمر.

س: هل كنت من الذين قرروا تحرير القدس القديمة؟.



ج: إن وزير الدفاع بن غوريون قرر أن لا يحرر المدينة القديمة. أنا أصرح أن بن غوريون لم يعمل على تحرير البلدة القديمة، مع أنه كانت هناك كل الإمكانيات معدة لتحريرها.

س: من أين تعرف أن عدم تحرير البلدة القديمة كان نتيجة ضغط من جانب دولة أجنبية؟.

ج: كان عدم تحرير البلدة القديمة، من الجيش الأردني البريطاني، نتيجة لاستسلام الحكومة المؤقتة للضغط البريطاني.

س: من أين تعرف السبب في عدم تحرير قطاع غزة ورفح؟.

ج: عرفت هذا من تصريح وزير الخارجية ، ومن كتاب بن غوريون (نضال إسرائيل)، وما سمعته من مجلس الدولة المؤقت: أي من ثلاثة مصادر رسمية. إنني أعرف أن قطاع غزة ورفح لم يُحررا بسبب استسلام الحكومة المؤقتة للبلاغ النهائي، الذي قدمه قنصل الولايات المتحدة في تل أبيب.

( وعندما سأل القاضي محامي الدفاع عن السبب في إبرازه قضية عدم تحرير القدس القديمة؛ أجاب بأنه يريد أن يثبت بأن بن غوريون خائن).

المصدر: بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. الصوت. الناصرة. 1985

ص 237 - 242. نقله عن محكمة كول هعام/ بن غوريون

(كراس طبعة عبرية) إصدار الحزب الشيوعي الإسرائيلي

يونيو سنة 1951

## وثيقة رقم 3

### مقالة راشد حسين

### حين يجوع التاريخ

التاريخ كالذئبة يأكل إذا جاع أبناءه. وتاريخ الحزب الشيوعي يتمطى اليوم غولاً ليأكل هذا الحزب، فهو يأكله في كل بلد عربي، وهو يأكله أيضاً في إسرائيل. والتاريخ لا يخطئ. والتاريخ لا يجرم، وإنما يخطئ أحياناً صانعوه ويجرمون في حق أنفسهم. لا لوم إذن على التاريخ إن هو تمطى اليوم، ليأكل الحزب الشيوعي لحمًا ودمًا وعظاماً. ولا لوم على المرء - أي كان - إن هو حمل قلمًا ليسجل هذا التاريخ. واسمعوا القصة كلها!.

### الزر الخطر والتلون:

إن مصيبة الحزب الشيوعي في كل بلد تكمن في تقلبه. وتقلب الحزب الشيوعي مرتبط بسياسة موسكو. وسياسة موسكو مرتبطة بمصالح الاتحاد السوفيتي. ومصالح الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن تعبر عن مصالح كل بلد يوجد فيه حزب شيوعي. فمصالح الاتحاد السوفيتي تختلف عن مصالح الجمهورية العربية المتحدة مثلاً. وحين يعمل الشيوعيون في

المتحدة لصالح السوفييت، يصطدمون بالعناصر الوطنية، ويعملون ضد مصلحة وطنهم. هذه هي الدوامة التي يغرق الشيوعيون فيها أنفسهم دائماً!. إنهم لا يستطيعون الحراك دون أن يلائموا بين حراكهم ومصالح موسكو. وكأن في روسيا زراً خاصاً، تضغط عليه يد خفية، فيضيء في مكاتب الأحزاب الشيوعية كلها. بسبب هذا الزر كان ميكونس مرة صهيونياً، ومرة مهاجماً للصهيونية. وبسبب هذا أيضاً كان إميل حبيبي مرة قومياً، ومرة أخرى يعمل ضد قوميته. وبسبب هذا أيضاً يجري الآن ما يجري في العراق. فحينما جاء ميكونس إلى إسرائيل كان صهيونياً، بل هو جاء ليحقق حلم الصهيونية بإنشاء دولة.

وفي سنة 1936 أعلن ميكونس عن تأييده لمهاجمة العرب لليهود، فكان بذلك يعمل ضد شعبه. وبعد ذلك في سنة 1948 ذهب وأحضر السلاح للهاجاناه، وبهذا عاد صهيونياً مرة أخرى. واليوم يعود ميكونس ويدعي العداة للصهيونية، كما يدعيه أعوانه العرب. وفي نفس الوقت يتشدق الشيوعيون في الشارع اليهودي، بأن الشيوعيين هم الذين أحضروا السلاح لقوات الهاجاناه لتحارب به العرب. ويفخرون بشيوعي اسمه جوجنسكي، سقطت به الطائرة وهو ذاهب ليحضر السلاح من دولة شيوعية لإسرائيل. فلماذا لا يفخر إميل حبيبي بين العرب بهذا الجوجنسكي!؟.

كل هذا التقلب يجري لأن الزر الخطر ينذر الشيوعيين دوماً بواجب التقلب. وما أكثر التقلب في الحزب الشيوعي الإسرائيلي! ما أكثر ما غير لون وجهه!. لقد ظل هذا الحزب، طوال تاريخه، في "عيد مسأخر" متواصل. له كل سهرة وجه جديد. وفي كل صالة رقصٍ رقصةً جديدة. وهاكم براهين أخرى:

في سنة 1949 طالب الشيوعيون أن تعلن إسرائيل سيادتها على القدس!. وعندما أيد الاتحاد السوفييتي التدويل، عادوا يطالبون بتدويل القدس، ويكتبون المقالات الطوال في

أفضلية التدويل. ثم غير الاتحاد السوفيتي سياسته وأصبح ضد التدويل، فغيروا سياستهم وأصبحوا ضد التدويل.

وحتى سنة 1947 كان الشيوعيون يقولون بأنه لا يوجد شعب يهودي!. وظلوا هكذا حتى وقف غروميكو يؤكد وجود شعب يهودي. فغيروا موقفهم!. هذه هي مصيبة الحزب الشيوعي الإسرائيلي!. هذا هو سبب كره الجماهير اليهودية له.

وهذا هو السبب أيضاً في كره الجماهير العربية في إسرائيل له، حينما غير موقفه من الجمهورية المتحدة، وأيد ما يجري اليوم في العراق!.

### دورهم في المأساة:

ولنرجع إلى التاريخ القديم لهذا الحزب، وخاصة تاريخ العرب الذين ينتمون إليه، ودورهم في مأساة فلسطين:

حينما أعلنت الهيئة العربية العليا معارضتها لقرار التقسيم، أصدرت عصبة التحرر الوطني - وهي الجناح العربي في الحزب الشيوعي - أصدرت بياناً تمتدح فيه المفتي، وتسمي قراره بمحاربة التقسيم بأنه انتفاضة قومية رائعة. وصفق الناس يومها للشيوعيين.

ولكن الشيوعيين العرب كانوا غافلين. ففجأة تغير موقف الاتحاد السوفيتي، وأعلن موافقته على التقسيم. وإذا الشيوعيون العرب - الذين كانوا ينادون بوحدة فلسطين واستقلالها - ينادون بتقسيمها. وإذا الحزب الشيوعي ينشق على نفسه. وإذا "إميل توما" و"بولس فرح" يعارضان التقسيم، بينما "فؤاد نصار" و"طوبي" و"حبيبي" يؤيدونه. ويركض فؤاد نصار - قائد الشيوعيين - إلى "أبراهام بن صور" المبامي الصهيوني، ويحاول إقناعه بأن التقسيم أفضل من الدولة الثنائية الموحدة، التي كان ينادي بها "المبام". هكذا مسح

العبارة العرب الشيوعيون ما قالوه بالأمس!. فسبحان مبدل الأحوال!. لا.. أستغفر الحزب الشيوعي، فقد أردت أن أقول: "سبحان اليد الخفية التي ضغطت على الزر الأحمر!".

### الفرار:

أصبح الشيوعيون في نظر العرب - بعد موافقتهم على التقسيم - خونة. فاضطر قسم منهم إلى الاختفاء. واضطر "إميل حبيبي"، مع بعض الرفاق، أن يفر إلى لبنان. وكان الرصاص يومها ينز في فلسطين، والأمهات يبكين، والأطفال يفقدون آباءهم، والعمال والفلاحون - الذين يدعي الحزب الشيوعي أنه قائدهم - يسقطون صرعى، بعد أن أدخلهم الشيوعيون وسواهم إلى نار المعركة، ثم تركوهم وسط النار. هرب "القادة البروليتاريون"، وتركوا البروليتاريا لتموت. ذهب "الضباط" إلى مقاهي لبنان، وذهب "الجنود" إلى مقابر فلسطين. مع السلامة يا ضباط وقادة العمال. هنيئاً لكم في لبنان. وليرحم الله الشهداء والكادحين!.

### تذكير:

ولنرجع إلى التاريخ مرة أخرى:

السنة 1948. الشهر آذار. المكان حيفا.

الشيوعي "إميل توما" عضو في اللجنة القومية في حيفا. إميل يجتمع سراً مع قادة صهيونيين!. وقد يدعي إميل أنه كان يريد إحلال هدنة في حيفا.

ولكن الناس - سامحهم الله - يسيئون الظن دائماً، وهم يقولون إن إميل كان يسلم أسرار العرب للصهيونيين الذين يجتمع بهم!.

مهما سمى الشيوعيون هذا العمل، فإن العرب كانوا يسمونه خيانة وجاسوسية، لو عرفوا به.

### وليتذكر الشيوعيون أيضاً:

في شباط سنة 1948 تسلل يهودي صهيوني اسمه "يوسف واشظ" إلى مكتب "عصام العباسي" - الشيوعي أيضاً - وكان مراسلاً لجريدة فلسطين في حيفا، وشكا عصام إلى واشظ تحريف جريدة فلسطين للأخبار، التي يرسلها إليها، عن حوادث حيفا، وقال: أنا أكتب الحقيقة ولا أضع الذنب كله على الهاجاناه، ولكنهم يحزفونها. وأنا لا أدري هل كانت الجريدة تحزف حقاً، أم أن عصام أراد استرضاء واشظ، الذي لم يكن مسروراً بما تنشر "فلسطين" عن حيفا، منسوباً إلى عصام. ثم من يدري، لعل عصاماً هو الآخر أدلى بمعلومات عن العرب لواشظ!.

واضحكوا ما شتتم وأنتم تقرؤون هذا الخبر: في يافا كان "سليم القاسم" الشيوعي من المسؤولين عن الاستخبارات، يعاونه شيوعي آخر اسمه "رفيق الأصفر" .. يا سلام!! وقد ألقى القبض على "جورج نصار"، الذي كان من أعضاء (بوعالي تسيون)، وحقق معه الاثنان بتهمة التجسس لصالح "الهاجاناه".

فليحمد إميل توما ربه الذي نجاه من الوقوف أمام هذين الرفيقين، للتحقيق معه بتهمة التجسس أيضاً.

هل تذكرون كل هذا يا رفاق!.

لا؟. انتظروا، لعل ما يأتي يذكركم بتاريخكم في التعاون مع الصهيونية.

## أوامر بيروت:

عاد إميل حبيبي - نائب الكنيست الشيوعي اليوم - من لبنان، وكان ذلك في تموز 1948، وتسلل إلى إسرائيل سرا. توفيق طوي، نائب الكنيست الشيوعي اليوم، يتصل بزعماء القيادة الصهيونية، ويطلب مساعدتهم في اعتبار إميل مواطناً إسرائيلياً. إميل وتوفيق يجتمعان بقائد مسؤول في الهاجاناه!. طبعاً قائد الهاجاناه المسؤول يسأل إميل حبيبي عن صحة الجيوش العربية، وعن صحة جيش لبنان!. ويصبح إميل مواطناً إسرائيلياً. وينتقل الهمس من أذن إلى أذن، ومن بيت إلى بيت: لقد صدرت الأوامر. أية أوامر؟. وكانت الأوامر صريحة.. فقد اجتمعت الأحزاب الشيوعية العربية، في بيروت، وقررت أن الحرب القائمة بين العرب واليهود هي حرب قذرة. وطالب القرار الجيوش العربية أن تتسحب من فلسطين. يعني في مفهوم العرب: أن تسلمها للهاجاناه!. وكان في القرار فقرة أخرى تطالب الشيوعيين العرب في فلسطين بالتعاون مع الهاجاناه، وتشكيل كتيبة تحارب بجانب القوات اليهودية، إن أمكن.. لماذا؟. لكي تساعد على طرد الجيوش المحتلة، أي الجيوش العربية، من فلسطين.

## التنفيذ:

وبدأ الشيوعيون العرب ينفذون الأوامر التي صدرت. ونفذوها كلها، ما عدا أمر تشكيل الكتيبة، لأسباب لا تزال مجهولة. وعلى إثر هذا، ألقى جيش الإنقاذ القبض على بعض الشيوعيين في "ترشيحا"، وبينهم شخص اسمه "أنطون بشارة"، وحُكم عليهم بالإعدام بتهمة التعاون مع الهاجاناه. ثم لم ينفذ الحكم أيضاً، لأسباب مجهولة!.

وفي 21 نيسان 1948 سقطت حيفا في يد الهاجاناه. وأصدرت الوكالة اليهودية تعليمات صريحة، بأن يعامل الشيوعيون معاملة خاصة، وأن يُمنحوا كل التسهيلات الممكنة!.

ورأى بقية عرب حيفا في هذا تأييداً لشكوكهم، في تعاون الشيوعيين مع الهاجاناه!. ولم يكونوا مخطئين.

وفي تموز 1948 سقطت الناصرة أيضاً في يد الهاجاناه!. وظهر الشيوعيون في الشوارع بعد أيام فرحين مستبشرين!. وأصدرت عصبتهم منشوراً جاء فيه: "إن ما مر على البلاد من مآسي وصعاب، وما تكبده شعبنا العربي من تقتيل وتدمير وتشريد وتجويع، هو من صنع الاستعمار الأنكلوأمريكي، وصنع عملائه وخدامه رجال الجامعة العربية المأجورين والمتزعمين الخائنين، الذين أغرقوا البلاد في هذا البحر من الدماء والدموع".

يا للعجب!. نسي الشيوعيون أنهم قبل شهر كانوا يمدحون المفتي، وكانوا يؤكدون أن معارضة العرب للتقسيم انتفاضة قومية. وجاء أيضاً في نفس المنشور: "إننا نمد يدنا للعمل في سبيل مجتمع عربي جديد، يلفظ خارجاً تلك العناصر الدنيئة، التي قادت جماهير شعبنا إلى ما يتردى به من آلام ومشاق!". وهكذا نسي الشيوعيون مرة أخرى أنهم كانوا من تلك العناصر التي قادت الجماهير. نسوا أن إميل توما كان عضواً في اللجنة القومية في حيفا، وأن سليم القاسم كان من المشرفين على الاستخبارات العسكرية في يافا. لقد نسوا كل شيء!.. كل شيء!. فقد كان على الشيوعيين أن يبثوا الانهزامية والتفرقة، في صفوف الجيوش العربية، حتى تنسحب، تنفيذاً لأوامر بيروت. وطبعوا منشورهم في إسرائيل، أو استوردوها من الخارج بمساعدة الهاجاناه. وبمساعدة الهاجاناه أيضاً، تسلل شيوعي عربي من إسرائيل إلى غزة! وتسلل شيوعي آخر إلى بيت جبرين، ليوزع المنشور التي تدعو الجيوش العربية إلى الانسحاب من فلسطين.

والآن، ضعوا أيديكم على قلوبكم!. بعد مدة قصيرة من عودة إميل حبيبي من لبنان إلى إسرائيل، توجه شيوعي كبير خطير إلى شخصيات صهيونية، وطلب منها إقناع بن غوريون، بأن يعطي الشيوعيين العرب أسلحة، للقيام بثورة في القسم العربي من فلسطين.



نعم: ثورة. لماذا يا إميل حبيبي، لماذا يا توفيق طوبي؟. أضم القسم الباقي من فلسطين إلى إسرائيل؟.

### مسدس وسيارة لصليبا:

ولنرجع إلى الناصرة: كان الحاكم العسكري فيها "إليشع سولدز" عضواً في حزب مبام. ومنذ اليوم الأول من سقوط الناصرة، أخذ يساعد الشيوعيين، حتى إنه منع "الماپاي" من فتح مكتب عمل في المدينة، وأعطى حق تنظيم العمال "المؤتمر العمال العرب" الشيوعي. وأصبح كل عامل بحاجة إلى رضاء الشيوعيين عنه، لينال تصريح عمل. وحتى اليوم يتهامس أهل الناصرة عن رشاوى دفعها بعض العمال للشيوعيين، ليحصلوا لهم على تصريح.

أما القائد الشيوعي صليبا خميس، فتاريخه "مفخرة المفاخر"! . ومن أنصع صفحاته أنه حصل بمساعدة الماڤام على مسدس وسيارة، ليصبح أفندياً وقائداً بأربعة وعشرين قيراطاً!. واليوم يعنى صليبا أيام العز، أيام كان يحمل مسدساً ليحمي نفسه!. وممن يحمي نفسه صليبا، ولماذا يدافع عنها، لو لم يكن يدرك أن أعماله قد تجعله هدفاً لرصاص قومي متطرف؟! ومن يدري، لعله يخطر ببال صليبا وحبيبي وطوبي أن يطلبوا اليوم أيضاً مسدسات، بدعوى أنهم يخافون من القوميين المتطرفين، الناقلين على موقفهم من القومية العربية!.

### المفاوضات المباشرة:

والشيوعيون اليوم يقفون ويهتفون: لا لمفاوضات مباشرة بين إسرائيل والدول العربية. ثم ينعتون بالخيانة كل من ينادي بها. ولقد نسي الشيوعيون أنهم - حسب شعارهم هذا - كانوا سنة 1948 خونة من الدرجة الأولى. واقرأوا ما نشرته جريدتهم "الاتحاد" في عددها

الصادر بتاريخ الثاني والعشرين من تشرين الثاني 1948. قالت الاتحاد عن موضوع المفاوضات بالحرف الواحد: "إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة بين حكومة إسرائيل والحكومات العربية. ولكن على أي أساس؟ على أساس إنهاء الحرب الدائرة التي فرضها الاستعمار على سكان فلسطين، وعلى أساس سحب الجيوش وتسريحها. إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة، تستهدف إنقاذ عرب فلسطين من الاحتلال الأجنبي: إن احتلال جيوش الحكومات العربية الممالة للاستعمار هو احتلال أجنبي أيضاً" انتهى.

هذا ما قالته الاتحاد الشيوعية سنة 1948، دون أن تذكر حق اللاجئين العرب في العودة إلى وطنهم مطلقاً، حتى ولا بكلمة واحدة. لقد نسيتهم، لأن محرريها من هواة النسيان، إلا إذا ضغطت يد خفية في موسكو على زر إنذاري، يضيء في مكتبهم. عندها فقط يتذكرون!.

### من هو الصهيوني؟

قلت سابقاً: إن السكرتير العام للحزب الشيوعي الإسرائيلي، شموئيل ميكونس، كان مدة من الزمن صهيونياً. وحتى لو صرخ بأعلى صوته: أنا لم أكن صهيونياً.. فلن يرد عليه أحد. لماذا؟.

إن كل يهودي جاء إلى إسرائيل، إنما جاء ليحقق حلم "هرتسل" - مؤسس الصهيونية - في تأسيس دولة يهودية في فلسطين. ولقد جاء ميكونس إلى فلسطين مدفوعاً بهذا الحلم، وظل فيها إلى أن تحقق حلمه، ولا يزال فيها إلى الآن. وقد يختلف الصهيونيون في تفكيرهم، فيطالب قسم منهم باحتلال الضفة الغربية، ويكتفي سواهم بالحدود الراهنة لإسرائيل. وميكونس من القسم الأخير. وميكونس كان أول ما كان عضواً في حزب "بوعالي تسيون" الصهيوني. وميكونس تربي تربية صهيونية. وميكونس أحضر السلاح

للهاجاناه. وميكونس وكل الشيوعيين يتحدلقون اليوم بأنهم مع الشعب اليهودي، لا مع الصهيونية؛ متناسين أن أكثر من 95% من يهود إسرائيل يصوتون لأحزاب صهيونية، أي أن 95% من يهود إسرائيل صهيونيون!.

فمن الذين يعنيهم ميكونس والشيوعيون بقولهم: "الشعب اليهودي"؟! تلك الخمسة بالمئة، أم الخمسة وتسعين بالمئة؟. أفنعا بالله يا حبيبي أن ميكونس لم يكن صهيونياً واستعد، فنحن لك عائدون.

### الشعب الإسرائيلي:

في سنة 1952 وقف إميل حبيبي على منصة مؤتمر السلام في فيينا وقال: " لا يوجد في إسرائيل قوميتان، وإنما يوجد شعب إسرائيلي فقط". وفسر إميل هذه الثثرة بما معناه أن اللغتين العبرية والعربية من أصل واحد، وأن الشعبين العربي واليهودي من أصل واحد. وبما أن الشعب اليهودي (أي بني إسرائيل) هم الأكثرية، فيجب أن يسمى سكان إسرائيل - عرباً ويهوداً - باسم: الشعب الإسرائيلي. ويومها وقف صهيوني معروف، وفند أقوال إميل حبيبي؛ وأعلن أن في إسرائيل شعبين: عربي ويهودي. وانتصر الممثلون العرب يومها لأقوال الصهيوني. ولم يوافقوا على أقوال إميل. اللهم اهد إميل ورفاقه إلى الصواب، حينما يبحثون فلسفة القوميات!.

### أشياء منسية:

والشيوعيون اليوم ينسون أن جوقة حزبهم كانت "تتشرف" بمقابلة الحاكم العسكري في الناصرة، كل سنة، في عيد الاستقلال، لتتشد له نشيد "البماخ" - أي نشيد الجيش الصهيوني - وظلوا كذلك حتى 1952.

والشيوعيون ينسون اليوم أنهم أهملوا في سنة 1955 ذكر حق اللاجئين، في العودة، في برنامجهم للكنيست.

والشيوعيون ينسون أنهم - حتى يومنا هذا - يتعاونون مع الصهيونيين، وأنهم يجلسون في مجلس حركة السلام، تحت رئاسة رئيس صهيوني!.

والشيوعيين ينسون - وما أكثر ما ينسى الشيوعيون! - أنهم زحفوا على وجوههم زحفاً، يرجون الصهيونيين أن يساعدهم، في إرجاع رفاقهم الذين هربوا سنة 1948 إلى لبنان، خوفاً من عواقب أعمالهم.

والشيوعيون ينسون أن الصهيونيين هم الذين أحضروا لهم مطبعة جريدتهم، على شرط أن تسجل المطبعة باسم شخص صهيوني!.

الشيوعيون ينسون كل شيء: ينسون تعاونهم مع الهاجاناه، ينسون تسللهم لمقابلة الصهيونيين، ينسون خيانتهم لشعبهم، ينسون المناشير التي وزعوها بين الجيوش العربية، لتبث الانهزامية في صفوفها. وينسون أنهم وزعوها بمساعدة الهاجاناه!. وينسون أنهم طلبوا من إسرائيل سلاحاً، للقيام بثورة في القسم العربي من فلسطين!.

لينس الشيوعيون. وليمعنوا في النسيان. أما نحن فلن ننسى. نحن القوميون العرب لن ننسى الذين طعنوا قوميتنا أمس، ويطعنونها اليوم!.

المصدر: مجلة الفجر. (تل أبيب). شركة الكتاب العربي. م. ص. عدد يوم 12/10/1959

ص 8 - 11. ص 44

## وثيقة رقم 4

### مقاطع من كلمة افتتاح المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي التي ألقاها مئير قلنر

إن مؤتمرنا الحادي عشر هو أول مؤتمر يعقد في دولة إسرائيل. لقد أُجبرت الإمبريالية البريطانية على ترك الحكم السياسي والعسكري المباشرين. وكان هذا انتصاراً تاريخياً لعشاق الاستقلال والحرية، في أرض إسرائيل. وكانت التضحيات كبيرة؛ فقد أقام المستعمر البريطاني حكمه هنا، بواسطة الجيش والشرطة والتعذيب والإرهاب، وأعمال الشغب ضد اليهود والعرب، وإعدام المناضلين ضد الإمبريالية. طارد الحكم الأجنبي، قبل كل شيء، الحزب الشيوعي: ألد أعدائه، فطرد من البلاد مئات وآلاف المناضلين الشيوعيين في سبيل الحرية.

إننا نحیی - في مؤتمرنا الأول في دولة إسرائيل - ذكری كل الضحايا الغالية التي سقطت من أجل الشعب، بأيدي القتل الإمبرياليين. إننا نحیی ذكری كل أعضاء وشبيبة الحزب، الذين سقطوا ضحية للإرهاب الكولونيالي. إننا نحیی ذكری الرفیقة یاعیل جرزون، التي عُذبت حتى الموت، ببراشن كلاب الشرطة السرية البريطانية. إننا نحیی ذكری سكرتیر فرع تل أبيب، الرفیق سیومه میرونیانسكي، الذي قتله بدم بارد أنذال یهود،

خونة لشعبهم وخدم للاحتلال الأجنبي. لكن تضحياتهم لم تذهب عبثاً، فقد زرعو بذرة الانتصار على الإمبريالية... إننا فخورون بأن حزبنا كان الأول - بل والوحيد، لفترة طويلة - الذي رسم على علمه شعار الحرب ضد الإمبريالية، والحرب في سبيل الاستقلال. إننا فخورون بالكثير الذي قدمناه من أجل التحرر: فقد تجند كل أعضاء الحزب والشبيبة في جيش الدفاع الإسرائيلي، وفي الجهد الحربي في الجبهة الداخلية، وسقط كثيرون منهم - الأكثر طيبة وإخلاصاً - شهداء الحرب ضد الغزاة، وأسيادهم الإمبرياليين. لقد ضحى رفاقنا اليهود، في صفوف جيش الدفاع الإسرائيلي، بحياتهم في الحرب. وسقط رفاق عرب، وهم يقاتلون قتالاً سرياً في عمق العدو. وقد جند حزبنا - خلال أيام الحصار على القدس، وخلال أيام غوش عتسيون، ويد مردخاي - مساعدة حاسمة متعددة الجوانب، من أوروبا الشرقية: فجددنا الهجرة اليهودية الجماهيرية المقاتلة، ومساعدات أخرى، لجيش الدفاع الإسرائيلي.

في حرب الاستقلال فقدنا قائداً كبيراً: رفيقاً محبوباً ومبجلاً، شيوعياً لامعاً معصوماً عن الخطيئة، ثورياً وقائداً عمال، فقدنا سكرتير اللجنة المركزية للحزب، الرفيق إيلياهو غوجانسكي. غاب للمرة الأولى عن مؤتمرننا هذا الرفيق إيليوشه (إيلياهو غوجانسكي). مر عام تقريباً منذ أن سقط أثناء أداء مهمته وهو يجند المساعدة من أوروبا الشرقية من أجل حرب الاستقلال لدولة إسرائيل. ولكننا ما زلنا محزونين حتى الأعماق، عندما نتذكر هذه الخسارة الفادحة للحزب... لقد قدم إيليوشه الكثير الكثير، بتأدية المهام الحزبية التي الملقاة عليه: بتجنيد مساعده كبيرة وسريعة لحرب دولة إسرائيل ضد الغزاة. إن اسم إيلياهو غوجانسكي سوف يكتب بأحرف من ذهب، في تاريخ حرب استقلال دولة إسرائيل... وبفضل مساعدة المعسكر الاشتراكي العالمي - وخاصة مساعدة الاتحاد السوفيتي ودول الديمقراطية الشعبية - قامت دولة إسرائيل، وانتصر جيش الدفاع الإسرائيلي... وكما أن شعب إسرائيل لن ينسى أصدقاءه؛ فإنه لن ينسى أعداءه: الإمبريالية البريطانية

والأمريكية، اللتين نظمتا غزو جيوش الدول العربية، ضد استقلال الشعب اليهودي والشعب العربي في أرض إسرائيل...

في الجزء الآخر من أرض إسرائيل يحارب رفاقنا الذين يقفون في طليعة الجماهير، وسط مخاطر كبيرة، لطرد الغزاة، ومن أجل دولة عربية مستقلة. لن تخيفهم الاعتقالات والإعدامات...

عاش المؤتمر الحادي عشر.

عاش الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

عاش حزب لينين ستالين الذي يقف في طليعة الجبهة الاشتراكية العالمية الموحدة للأحزاب الشيوعية، من أجل السلام الثابت والديموقراطية الحقيقية وأخوة الشعوب والاشتراكية.

المصدر: كتاب المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي (بالعبرية)  
نقلًا عن محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية  
ص 247 - 252

## وثيقة رقم 5

### قرار اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني بالاتحاد مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي

على إثر مباحثات جرت بين أعضاء اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني،  
الموجودين منهم داخل دولة إسرائيل والموجودين منهم خارجها، وعلى إثر مباحثات جرت  
مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي، حول مسألة إعادة تأليف حزب شيوعي أممي واحد في  
إسرائيل، تقرر اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني ما يلي:

1- لقد استطاع الاستعمار البريطاني، بواسطة جامعة الدول العربية والرجعية العربية  
الفلسطينية، أن يثير حرباً موجهةً ضد استقلال سكان فلسطين: الاستقلال الذي أقرته  
منظمة الأمم المتحدة 29 نوفمبر سنة 1947، مستهدفاً من وراء ذلك استمرار حكمه  
وسيطرته على فلسطين. إن العداة القومي الذي نشر بذوره الاستعمار البريطاني متعاوناً  
مع الرجعية العربية واليهودية، خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، هو من الأسباب الرئيسية  
التي قادت وطننا إلى التردي في وهدة عميقة من الاحتراب القومي والاضطراب والخراب.  
ومن يوم أن ظهرت عصبة التحرر الوطني على المسرح السياسي، أي من قبل 5



سنوات، وهي تناضل نضالاً لا هوادة فيه ضد سياسة الاستعمار التقليدية: سياسة فرق تسد، ضد السياسة العنصرية التي انتهجتها الرجعية العربية والرجعية اليهودية. وهي تناضل أيضاً في سبيل خلق جبهة مشتركة، عربية يهودية، للنضال ضد الاستعمار وفي سبيل التحرر والانعتاق. إن نضال عصابة التحرر الوطني في سبيل القضاء على مشاريع المستعمر البريطاني، التي كان يفرضها بين وقت وآخر، من مثل مشروع تقسيم فلسطين وضم القسم العربي منها إلى مستعمرته الأردنية، وضم القسم اليهودي منها إلى الدومنيون، قد كان يركز دائماً إلى الدعوة الجريئة للتفاهم بين الجماهير العربية والجماهير اليهودية، تفاهماً موجهاً ضد الاستعمار. ولكن القيادة العربية الفلسطينية الرجعية كانت تنتهج دائماً جميع الأساليب العنصرية التي تقود حتماً، إذا ما نجحت، إلى تقسيم فلسطين بطريقة تحفظ للمستعمر مراكزه، وبطريقة تحافظ على حالة التوتر والخصام القائمة ما بين العرب واليهود؛ بل تزيدا حدة وغلواً.

2- في الأوضاع العنصرية التي خلفتها سيطرة الاستعمار والقوى الرجعية المحلية، لم توفق الحركة الشيوعية في فلسطين، التي كانت دائماً في طليعة النضال من أجل خلق جبهة مشتركة عربية يهودية، للنضال ضد الاستعمار في سبيل التحرر والانعتاق؛ لم توفق في خلق هذه الجبهة بسبب أنها لم تكن نفسها، خلال السنوات الخمس الماضية، موحدة في منظمة أممية واحدة. وهذه الحقيقة سلبت الجماهير العربية واليهودية مثلها الذي يُحتذى. إن التباعد التنظيمي والسياسي في بعض الأحيان، الذي كان حاصلًا ما بين الشيوعيين العرب منظمين في عصابة التحرر الوطني، والشيوعيين اليهود منظمين في الحزب الشيوعي الإسرائيلي؛ قد أفاد الرجعية العربية والرجعية اليهودية، في تضليلها الجماهير وفي نشر سياستها العنصرية. إن عصابة التحرر الوطني تدرك اليوم بشكل واضح، مبلغ الخطر من تنظيم أية حركة شيوعية على أساس قومي منفصل.

3- إن الكيان القومي المنفصل الذي اتخذته عصابة التحرر الوطني في تنظيمها، قد أفقدها إمكانية إدراك الأوضاع الجديدة في فلسطين. ففي خلال الثلاثين عاماً الأخيرة، أخذت تظهر في فلسطين قومية جديدة يهودية مستقلة ومتقدمة ومتطورة، بالألوف من المهاجرين، الذين صُهرُوا، بمختلف أصولهم ولغاتهم، في قومية واحدة؛ أنشأت لها لغتها وثقافتها وصناعتها وزراعتها الخاصة. إن هذه القومية الجديدة أخذت تتطور وتتمو بشكل واضح، قبيل الحرب الأخيرة وأثناءها، على وجه الخصوص. إن ظهور هذه القومية الجديدة في المجتمع الفلسطيني، قد حتم تغيير شكل النضال في سبيل خلق الجبهة المشتركة: عربية ويهودية. أصبح من الواجب أن يناضل حزب الطليعة، حزب الطبقة العاملة، في سبيل حق القوميتين، العربية واليهودية، بالاستقلال والسيادة القومية، على أساس المبدأ الماركسي اللينيني لحق تقرير المصير، باعتبار هذا النضال جزءاً غير منفصل عن النضال ضد الاستعمار. إن عدم نضال عصابة التحرر الوطني على هذا الأساس، قد حد من نتائج النضال المشترك الذي كان يشنه العمال العرب واليهود، بقيادة الشيوعيين، في سبيل مطالبهم العادلة. ومن الواضح الآن أن عصابة التحرر الوطني، لو ناضلت على هذا الأساس في نضالها الصحيح من أجل التعاون بين العمال العرب واليهود، لكانت أكثر نجاحاً في مساعيها من أجل تحقيق الوحدة الطبقة المنشودة.

4- إن التنظيم القومي المنفصل، الذي ساد صفوف الحركة الشيوعية الفلسطينية، طوال السنوات الخمس الماضية، قد أفسح المجال أمام تسرب انحرافات يمينية معينة إلى سياسة عصابة التحرر الوطني. إن تنظيم عصابة التحرر الوطني، على أساس قومي منفصل، قد أوجد في سياستها وهماً مفاده أن الشعب العربي لوحده، ودون اعتبار القوى الثورية داخل الشعب اليهودي، يستطيع أن يحرر البلاد وأن يقضى على المستعمر. لقد ظهر هذا الوهم عملياً في الخطة الأساسية التي انتهجتها عصابة التحرر الوطني، تجاه مسألة الوحدة الوطنية العربية، التي تجمع بين دفتيها القيادة البرجوازية وشبه الإقطاعية والقوى الشعبية الجديدة. لم يكن في المقدور نجاح هذه الوحدة. فكيف لعملاء الاستعمار أن يشتركوا في

جبهة لتحطيم الاستعمار! إن انتصار قوى الحرية، في الحرب العالمية الثانية، قد غير من نسبة القوى في العالم عموماً وفي المستعمرات أيضاً. لقد انحازت البرجوازية المحلية في المستعمرات انحيازاً كلياً إلى جانب الاستعمار. لم يكن من نتيجة لهذه الخطة، التي انتهجتها عصابة التحرر الوطني، إلا إهمال أهمية فضح القيادة البرجوازية وشبه الإقطاعية وأهمية عزلها عن حركة التحرر الشعبية. لم يكن من الممكن تأليف جبهة نضالية مشتركة، عربية يهودية، إلا إذا وُجه النضال؛ نضالاً ثورياً جريئاً ضد الاستعمار، وإلا إذا وُجه هذا النضال، في الوقت نفسه، ضد البرجوازية العربية واليهودية، في سبيل عزلها عن قيادة الجماهير.

5- ولكن من واجب عصابة التحرر الوطني أن تذكر للجنتها المركزية أنها استطاعت أن تتخلص من الانحرافات الماضية، بكل جرأة وشجاعة، وفي الدقيقة الحاسمة. لقد رحبت عصابة التحرر الوطني بقرار منظمة الأمم المتحدة الذي أُخذ في 29 نوفمبر سنة 1947، والقاضي بإلغاء الانتداب وجلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين، وإعلان استقلالها التام في دولتين ذاتي سيادة: دولة عربية ودولة يهودية، وجمعهما في وحدة اقتصادية متينة. لقد اعتبرت عصابة التحرر الوطني هذا القرار أساساً عملياً قوياً لاستكمال النضال، في سبيل حرية فلسطين، واستكمال القضاء على شعور التوتر ما بين العرب واليهود، ونشر السلام في ربوع الوطن الواحد. رأت فيه خطوة معقولة وطريقاً يمكن منه الوصول إلى وحدة فلسطين، القائمة على أساس الاعتراف بحق تقرير المصير والسيادة التامة، لكل من القوميتين العربية واليهودية. إن عصابة التحرر الوطني، فيما مضى، كانت ترى في استقلال فلسطين في وحدة سياسية واقتصادية، أحسن حل للقضية الفلسطينية. ولكن مثل هذه الوحدة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس التفاهم الديمقراطي ما بين العرب واليهود. ولكن الرجعية العربية والرجعية اليهودية، بتأييد من الاستعمار الأنجلو أمريكي، قد حالت، بكل إصرار وتشبث، دون نشوء هذا التفاهم المرجو. إن المغامرة العسكرية التي قامت بها جامعة الدول العربية في فلسطين، هي استمرار

لسياستها العنصرية القديمة التي لا يمكن أن تخدم إلا مصالح المستعمر. وهاهي نتائج المغامرة العسكرية أكبر دليل على صدق هذا التقدير. لقد تبين الآن بصورة لا تقبل الجدل أن تنفيذ قرار 29 نوفمبر، هو الطريق الوحيد الذي بقي أمام فلسطين، للتخلص من سلطة الاستعمار وعبوديته، وإرجاع السلام إلى فلسطين. فذلك كله قبلت عصابة التحرر الوطني هذا القرار، وشنت نضالها البطولي في سبيل السلام والحرية لفلسطين كلها. وفي أثناء هذه المعركة التي وقف فيها أعضاء عصابة التحرر الوطني ضد الرجعية السوداء المسلحة، يدافعون عن دماء الأبرياء وعن مصالح الكادحين، فلم تثن لهم قناة ولم يهنوا ولم يتراجعوا أمام الضغط والملاحقة والإرهاب الأسود والسجن والاعتقال، اندثرت خلاقات الشيوعيين العرب واليهود. إن عصابة التحرر الوطني تذكر للجنتها المركزية، أنها استطاعت في الدقيقة الحاسمة أن تنظم الشعب، بكل جرأة وشجاعة وصواب خطة، للتصدي للاستعمار ولأعدائه الرجعيين، لفضحهم وعزلهم عن قيادة الجماهير، وأن تبدد ما كان يحلم به الرجعيون من إمكان القضاء على حزب العمال والفلاحين. إن عصابة التحرر الوطني تذكر للجنتها المركزية أنها استطاعت أن تنتقل بالحزب، في المناطق العربية، من العلنية إلى السرية في أقل وقت ممكن، وبأقل تضحية ممكنة، وأن تحافظ على تنظيم الحزب، وعلى عمله ونشاطه الشعبي؛ بل أن تزيد في متانة التنظيم وفي توسيع العمل والنشاط. إن قوات احتلال الحكومات العربية قد عطلت جميع الهيئات والمنظمات، ولكن عصابة التحرر الوطني لا تزال تعمل في أقصى الظروف وأحلك الأوقات.

6- واليوم، اعتماداً على هذه الحقائق كلها، فإن سياسة عصابة التحرر الوطني هي النضال في سبيل تنفيذ قرار منظمة الأمم المتحدة: أي النضال في سبيل إنشاء الدولة العربية، في الحدود التي قررتها منظمة الأمم المتحدة: دولة متحررة من جميع قوى الاحتلال الأجنبية، وذلك لتمكين سكان هذه الدولة من التمتع بالحرية والاستقلال والسيادة التامة، في سبيل ديمقراطية الحكم في الدولة العربية المنشودة، في سبيل السلام والإخاء

وإنشاء الوحدة الاقتصادية بين الدولة العربية ودولة إسرائيل، في سبيل المحافظة على استقلال دولة إسرائيل وديموقراطية الحكم فيها. إن عصبية التحرر الوطني، متعاونة ومتفاهمة مع القوى الديموقراطية اليهودية، تقاوم السياسة التي تنتهجها حكومة إسرائيل الحالية تجاه المواطنين العرب : سياسة الضغط والتمييز العنصري. إن هذه السياسة تستهدف جلاء جميع المواطنين العرب عن دولة إسرائيل، مما يخدم قضية الرجعية العربية، ويساعدها على تضليل الجماهير العربية، وزجها في أتون الحرب وإطالة أمدها. إن عصبية التحرر الوطني تناضل لأجل تثبيت حق اللاجئين العرب بالعودة إلى وطنهم، إذ أن في مثل هذا العمل قوة للعناصر الساعية في سبيل تفاهم الشعبين وتعاونهما. وإذ تقوم عصبية التحرر الوطني، في دولة إسرائيل، بالدفاع عن حق المواطنين العرب وتناضل ضد التمييز العنصري، فهي في الواقع تناضل في سبيل الديموقراطية في الدولة عامة؛ ليس لصالح الجماهير العربية فقط، بل لصالح الجماهير اليهودية أيضاً. وإذ تقوم عصبية التحرر الوطني بالنضال ضد الأهداف التوسعية التي تتشدها بعض الأوساط الحاكمة في الدولة، فإن العصبية بذلك تقاوم تلك الدوائر الرجعية الإسرائيلية المستعدة لبيع استقلال دولة إسرائيل من الاستعمار الأنجلو أمريكي. إن المساعي التي تبذلها حكومة إسرائيل الحالية للتفاوض مع أجير الاستعمار البريطاني عبد الله، ومقاومتها للجهود التي تبذلها القوى الديموقراطية العربية في سبيل تأليف دولة عربية مستقلة في فلسطين، هذه كلها لا تقضي إلى نشر السلام، الذي ترغب فيه الجماهير العربية واليهودية أشد رغبة، بل إلى إعادة سيطرة الاستعمار البغيض، ليس على القسم العربي فقط، بل على دولة إسرائيل أيضاً. إن عصبية التحرر الوطني تلاحظ أن سياستها هذه تتفق، تمام الاتفاق، مع سياسة الحزب الشيوعي الإسرائيلي. هذا الحزب الذي أثبت بنضاله الواعي والجريء أنه المدافع المخلص عن مصالح الجماهير الكادحة: يهودية وعربية على السواء.

7- أما وقد أصبحت سياسة عصبية التحرر الوطني متفكرة تمام الاتفاق مع سياسة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، فالواجب الآن يدعو إلى إعادة تنظيم الحركة الشيوعية

الفلسطينية على أساس أممي، إقليمي، لا قومي منفصل. لم يعد هناك ما يحول دون نشوء الحزب الموحد الأممي الذي تتطلع إليه الجماهير العربية واليهودية، منذ وقت طويل: حزب يقود نضالها في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية والسلم والاستقلال التام. لذلك كله، فاللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني، تقترح على الحزب الشيوعي الإسرائيلي، العمل المشترك على إنشاء الحزب الموحد الأممي، وترى أن مثل هذا الحزب في دولة إسرائيل، يمكن أن يُبنى على أساس أجهزة عصبة التحرر الوطني الحالية. ولأجل إعادة بناء حزب شيوعي أممي موحد في دولة إسرائيل، تدعو عصبة التحرر الوطني منظماتها وأعضاءها داخل دولة إسرائيل للاندماج في الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ولأجل قيام حزب شيوعي موحد، في الدولة العربية المقترحة، ستعمل عصبة التحرر الوطني على إعادة تنظيم صفوفها على أساس أممي، إقليمي، لا قومي منفصل، لتزيد في قوة نضالها لإنشاء الدولة العربية المستقلة. وأما منظمات عصبة التحرر الوطني، في المناطق التي تحتلها القوات الإسرائيلية حالياً، كالناصرية مثلاً، فستحافظ على تنظيمها المستقل، وعلى وحدتها المركزية مع عصبة التحرر الوطني في القسم العربي من فلسطين. إلا أن تعاون الحزبين ومنظماتهما يجب أن يبقى ثابتاً متيناً، ومن الضروري أن يزداد هذا التعاون ويتسع، لمصلحة فلسطين وشعبها.

8- وعصبة التحرر الوطني تعتبر هذا القرار التاريخي، الذي اتخذته، بإعادة تأليف الحزب الشيوعي الموحد الأممي، ضربة توجهها إلى صميم مشاريع الاستعمار الأنجلوأمريكي في الشرق الأوسط. إن هذا القرار يثبت عملياً أن في مقدور العرب واليهود أن يعيشوا جنباً إلى جنب في تفاهم ووثام، وأن يناضلوا في جبهة واحدة مشتركة ضد عدوهم المشترك: الاستعمار؛ وفي سبيل هدفهم المشترك: التحرر السياسي والاجتماعي. إن هذا القرار هو برهان جديد على قوة المعسكر المعادي للاستعمار ومتانة وحدته وصواب خطته: معسكر الحرية والديموقراطية والسلم العالمي: المعسكر الذي يقوده حصن الحرية الحصين: الاتحاد السوفيتي، البلد الذي استطاع أن يحل مشكلة القوميات

حلاً عادلاً ديموقراطياً وثابتاً: المعسكر الذي يجمع في داخله قوى الشعوب المحبة للحرية، والمناضلة في سبيل الحرية، من مختلف القوميات: قوى الشعوب التي تسير إلى أمام، اليوم، بكل جرأة وشجاعة، بقيادة الأحزاب الشيوعية في كل بلد من البلاد. إن هذا القرار سيكشف عن آفاق رحبة جديدة أمام شعبينا، سيخلصهما من مفاهيم الاستعمار ومفاهيم أُجرائه الرجعيين ، سيعيد الأمل والثقة إلى نفوس الشعب العربي الفلسطيني، إلى نفوس أُلوف المرشدين الهائمين على وجوههم، سينبه الشعوب العربية إلى حقيقة القضية الفلسطينية، إلى حقيقة المؤامرة البشعة التي يشترك فيها الاستعمار مع الرجعية العربية الحاكمة، ضد الشعوب العربية نفسها، وضد حرية أوطانها ومستقبلها.

أواخر أيلول/سبتمبر 1948. اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني في فلسطين.

المصدر: جريدة الاتحاد. 1948/10/18

نقلاً عن: محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية

ص 233 - 239

## وثيقة رقم 6

### مقاطع من مقال لطفي مشعور في إميل حبيبي بعنوان: نعم، القضية ليست مجرد خرفنة...!

أمثال كثيرة قيلت في المخلوق إميل حبيبي : في نهجه وممارساته وأيضاً في شلة تلاميذه مفرطي التمسح..! إلا أن شخصيته المميزة السوء، البارزة الخيانة، المتفجرة غطرسة واستغلالاً وقلة ضمير وأخلاق - وهذه بعض من مزاياه - تظل "أعجب وأكبر" من كل الأمثال المضروبة في أمثاله.

في عام 48 سافر إميل حبيبي، برفقة ميكونس، إلى تشيكوسلوفاكيا، في مهمة وطنية مؤثرة، لإحضار الأسلحة لدولة إسرائيل الفتية. وكبار الدولة يذكرون له ذلك. حدث ذلك بعد أن أعاده قادة الهاجاناه من لبنان إلى إسرائيل. وهل يتم ذلك بدون دفع ثمن متواصل؟!.

هذا الثمن لم يبدأ ولم ينته يوم قام الرفاق عام 1948 - وتحت نشوة الانتصار - بمحاولة إقناع قادة الهاجاناه باستمرار "حرب التحرير" لتشمل الضفة الغربية الشمالية وفرض حكم شيوعي عليها!.



وحدثت بعد ذلك مئات الأمور المذهلة، ابتداء من تضييع الحقائق السياسية في رحلات يركونية<sup>(1)</sup> في تل أبيب. (أتذكر يا إميل؟! )، إلى مطالبة مستميتة بتجنيد الشباب والشابات العرب في جيش الدفاع الإسرائيلي.

هل ما زلت تحتفظ يا إميل ببروتوكولات الكنيست؟!.

وفي السنوات الأخيرة، قام إميل حبيبي - وما زال يقوم حتى هذا الأسبوع - بالتحريض الساقط والوشاية القذرة ضد شرفاء فلسطينيين: ابتداءً من المناضلين منصور كردوش وصالح برانسي<sup>(2)</sup>، وعبوراً بالدكتور حسن أمون (الذي اعتذر له حبيبي عن وشايته الساقطة)، والدكتور خليل نخلة، وانتهاءً (مؤقتاً) بأبناء البلد وقادة التقدمية والحركة الإسلامية، و.. و.. ضد من لا؟.

ويكفي هذا العدد من "الصنارة" ليعرف القارئ من نجا من سموم وجنونات حبيبي؟!.

قبل أسبوع فقط، تهاوى في الإذاعة والصحف بأن مذبذبة الاتحاد<sup>(3)</sup> هي المناضلة الأساسية ضد الوطنيين العرب والفلسطينيين!! وفي هذه الأثناء أعطى إميل حبيبي صكوك غفران وطنية، وإعلانات امتداح قومية - من على صفحات مذبذبة الاتحاد نفسها - لجماعة روابط القرى<sup>(4)</sup> وللذين اتهموا طالبات جنين المسمومات<sup>(5)</sup> بنعوت سوقية رذيلة؛

<sup>1</sup> - نهر في تل أبيب.

<sup>2</sup> - من قادة جماعة الأرض القومية المحظورة. ثم من قادة التيار القومي في فلسطين المحتلة عام 1948

<sup>3</sup> - الإشارة إلى جريدة الاتحاد لسان حال الحزب الشيوعي الإسرائيلي - ركاك.

<sup>4</sup> - هيئة أنشأتها الحكومة الإسرائيلية في الثمانينيات بالضفة والقطاع، كسلطة مدنية تحكم السكان تحت ظل الاحتلال. وقد اعتبرت في تلك الفترة بديلاً عن منظمة التحرير، وأجمع الفلسطينيون بكافة انتماءاتهم على وصفها بالخيانة.

<sup>5</sup> - قبل الانتفاضة الأولى في منتصف الثمانينيات، قام عملاء الاحتلال في جنين بتسميم خزانات مياه بعض مدارس الفتيات. وقد تم إلقاء القبض عليهم، ولكن سلطات الاحتلال أفرجت عنهم.

وأيضاً لمجرمي يوم الأرض، الذين أصبحوا اليوم أبطال إميل حبيبي وحزبه وجبهته. يا للعار غير المفاجئ!! كما حلل بائعي الأراضي<sup>(1)</sup> في الجليل وقربهم جداً جداً!!!...

واليوم، اليوم بالذات، وفي يوم الأرض وغداته بالذات، يقف إميل حبيبي... ويكيل الشتائم والسباب والتهم الوشائية الدموية حقاً، إلى الجميع. ويكفي قراءة "الصنارة" اليوم، لنقف على الذين تعرض لهم. يشتم ويحرض و"يرميهم بدائه وينسل"، فيتهمهم بالخيانة، ويتفتيت وحدة الصف، وبالقومية، وبالتطاول على الانتفاضة وعلى شعب الانتفاضة: هذه الانتفاضة المقدسة التي وصف إميل حبيبي بياناتها - وفي اجتماع حزبي مفتوح - بأنها أرقام أحذية!!!...

فمن هو الخائن عدو الانتفاضة؛ بل كل الانتفاضات وعلى مدار الأربعين سنة وأكثر الماضية!!!...

عمالة ومفضوحية وطنية وقومية وخدمة الأسياد. ولنا عودة مفصلة على ذلك يا إميل!. وبالمناسبة، فإن إميل حبيبي يعرف أنه مفضوح هنا وفي الأراضي المحتلة...

المصدر: جريدة الصنارة. عدد يوم: 1988/4/8

---

<sup>1</sup> - من المعروف أن هناك عدداً من بائعي أراضي الجليل لليهود قبل النكبة الذين ما زالوا يعيشون هناك، ويتمتع بعضهم بحاضر مرموق، بسبب تغاضي السياسيين الفلسطينيين عن فضائحهم.

## وثيقة رقم 7

### القسم الأول من مقالة إميل حبيبي خذ على يده حتى يكف عن الظلم

اليوم 29 تشرين الثاني (نوفمبر)، تمر ثماني سنين على القرار التاريخي الذي اتخذته الأمم المتحدة لحل القضية الفلسطينية: بإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وبجلاء الجيوش البريطانية عنها، وباستقلال فلسطين في دولتين ديموقراطيتين مستقلتين تربط ما بينهما وحدة اقتصادية: دولة يهودية ودولة عربية.

وعلى الرغم من مرور هذه السنوات الثماني فلا تزال القضية الفلسطينية - من حيث أنها نزاع إسرائيلي عربي - تنتظر الحل. إن الوقت الذي قيل إنه حلال المشاكل، لم ينجح في حل هذه القضية. إن المستعمرين الأمريكيين والبريطانيين، الذين نجحوا في منع تنفيذ الحل الذي وضعته هيئة الأمم المتحدة في سنة 1947، قد نجحوا طوال السنوات الثماني الماضية، في منع التسوية السلمية لهذه القضية. لقد حالوا دون تحقيق السلام العادل ما بين إسرائيل وجاراتها العربيات.

وكل إنسان نزيه في بلادنا وفي البلاد العربية، لا بد وأن يكون قد وصل الآن، من تجربة هذه السنوات الثماني، إلى النتيجة التالية: إنه لو جرى تنفيذ الحل الذي وضعته الأمم المتحدة للقضية الفلسطينية؛ لو لم تقع الحرب التي فرضها المستعمرون على سكان فلسطين؛ لو لم تقم جيوش الدول العربية - بدفع من الاستعمار - بالهجوم على فلسطين، بما في ذلك الهجوم على إسرائيل؛ لو قامت الدولة اليهودية والدولة العربية، في أوضاع سلام ووحدة اقتصادية فيما بينهما؛ لما تشرد الشعب العربي الفلسطيني من بلاده، ولما وجدت إسرائيل نفسها الآن في عزلة عن أقطار الشرق الأوسط.

إن التجربة المؤلمة التي عبر عليها الشعب العربي الفلسطيني في سنة 1948-49 قد كشفت له النقاب عن حقيقة زعمائه التقليديين، الذين حرصوا في ذلك الوقت على قرار الأمم المتحدة، وعلى حق الشعب اليهودي في فلسطين في تقرير مصيره، وعلى الاتحاد السوفيتي الذي أيد قرار الأمم المتحدة وبذل جهوده السياسية لتنفيذه، وعلى الشيوعيين الذين دعوا إلى تنفيذ هذا القرار وحذروا الشعب من الانجرار وراء مؤامرات الاستعمار وأعدائه. فالشعب العربي الفلسطيني يعرف الآن، ومعه تعرف ذلك كل الشعوب العربية، أن النكبة التي حلت به؛ أن تشرد أكثرية الشعب العربي الفلسطيني من بلاده؛ لم تكن بسبب قرار الأمم المتحدة الذي أيده الاتحاد السوفيتي؛ بل كانت بسبب مؤامرات الاستعمار وأعدائه من الحكام العرب الخونة، لإحباط تنفيذ هذا القرار؛ بسبب نجاح هذه المؤامرات، وبسبب عدم تنفيذ القرار كاملاً.

إن الشعب العربي الفلسطيني يذكر الآن، وبامتنان خالص، الجهود الصادقة التي بذلها مندوبو الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، لإقناع الزعماء العرب بأن مصلحة شعبهم ومصلحة حرية بلادهم تستدعي أن يوافقوا على هذا القرار. والشعب العربي الفلسطيني يذكر الآن، وبامتنان أيضاً، جرأة شيوعية في تحذيره من مغبة السياسة العمياء المهلكة التي اتبعتها زعماءه التقليديون. إنه لا ينسى أن الشيوعيين كانوا الوحيدين، في ذلك

الوقت، الذين تحدوا الإرهاب وهستيريا الحرب وقاوموا مؤامرات الاستعمار، ونادوا بأخوة العرب واليهود في النضال من أجل استقلال وطنهم المشترك، ومن أجل حق تقرير المصير للشعبين الشقيقتين.

في ذلك الوقت "تشاطر" الزعماء التقليديون، في خيانتهم القذرة لشعبهم، في التظاهر بالتطرف الوطني (إن البيغينيين في إسرائيل اليوم هم رجع لأصوات من القبر ألفناها في سنة 1948)، وفي اتهامنا، نحن الشيوعيين، بخيانة شعبنا، وبأننا "أعوان بن غوريون" (ولذلك عندما يتشاطر المياميون والأحدوت عبيدون في اتهامنا الآن بأننا "صوت عبد الناصر" لا يتون بشيء جديد).

ولكن التجربة المؤلمة، التي عبرت على الشعب العربي الفلسطيني، أظهرت من هو الخائن لشعبه ومن هو الأمين المخلص لقضية شعبه ومستقبله. لقد ظهر فيما بعد أن هؤلاء الزعماء التقليديين، من مفتي القدس السابق إلى معارضيه التقليديين، قد اشتركوا مع الاستعمار في مؤامرة ترحيل الشعب العربي الفلسطيني من بلاده. وأما "الجنرالات" الذين جاؤوا "لإلقاء اليهود في البحر" فقد نجحوا في إلقاء العرب - فعلاً وعملاً - في بحر يافا وحبفا. وبعد أن نجح دفاع الشعب اليهودي عن دولته، نجح هؤلاء "الجنرالات" في القضاء على الدولة العربية المستقلة، التي كان يجب أن تقوم.

إن الشيوعيين الفلسطينيين، بمعارضتهم الغزوة الاستعمارية التي نظمها الاستعمار على فلسطين، بواسطة جيوش الدول العربية؛ بمعارضتهم للحرب التي أشعلوها في فلسطين؛ وبدعوتهم جيوش الدول العربية إلى الرجوع إلى بلادها؛ وإلى تحويل حرابها نحو صدور مستعبدى بلادها الموجودين في بلادها؛ إن الشيوعيين الفلسطينيين بموقفهم هذا قاموا بواجب من أقدس واجباتهم الوطنية: حماية شعبهم من الكارثة. قال النبي العربي: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". فسأله واحد من المجلس: "فكيف ننصره ظالماً يا رسول

الله؟". فأجابه: "بأن تأخذ على يده حتى يكف عن الظلم". وهذا بالضبط ما فعله الشيوعيون في فلسطين وفي جميع الأقطار العربية، في سنة 1948 - 1949. ومن سوء حظ شعبنا؛ ومن قدره العاثر، أن نفوذ الشيوعيين في ذلك الوقت، كان ضيقاً وصوتهم ما كان يصل إلى أوسع فئات الشعب، وإلى أعماق أعماقه.

وإذا كان شعب يتعلم من تجربة شعب آخر، فمن أجدر بذلك من شعب شقيق، وجار للشعب الذي عبر على التجربة؟. من أولى بالتعلم من مأساة الشعب العربي الفلسطيني من الشعب الإسرائيلي نفسه؟. إن السنة الثامنة على قرار الأمم المتحدة، بخصوص فلسطين، تعبر على إسرائيل والشعب فيها واقع ضحية تحريض بشع، يشبه إلى حد كبير التحريض الذي وقع ضحيته الشعب العربي الفلسطيني في سنة 1948. والزعماء التقليديون لإسرائيل اليوم يحرضون على الاتحاد السوفيتي، بادعائهم أنه مع العرب ضد اليهود. وعلى هذا النمط يحرضون علينا، نحن الشيوعيين، تماماً كما حرّض زملاؤهم الزعماء التقليديون العرب في سنة 1948، على الاتحاد السوفيتي بادعائهم أنه مع اليهود ضد العرب.

لقد تأكد الشعب العربي الفلسطيني فيما بعد - ولكن ذلك كلفه غالباً جداً - أن الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يؤيد شعباً ضد شعب آخر. إنما سياسته المبدئية التي لا تلون فيها، هي تأييد كل شعب في نضاله من أجل حريته، والوقوف إلى جانب كل شعب يتأمر الاستعمار على حريته. والاتحاد السوفيتي لا يقوم بأي عمل فيه ضرر لأي شعب من الشعوب. إن تأييد الاتحاد السوفيتي في سنة 1947 لقرار الأمم المتحدة بخصوص فلسطين، لم يكن تأييداً لليهود ضد العرب، بل تأييداً لليهود والعرب ضد الاستعمار، تأييداً لحرية فلسطين ولحق تقرير المصير لشعبها. لو جرى تنفيذ القرار الذي أيده الاتحاد السوفيتي، لكان ذلك نعمة على العرب واليهود على السواء. إن نجاح الاستعمار في إحباط تنفيذ هذا القرار، كما وضع في سنة 1947، هو الذي جر الكوارث على الشعب

العربي الفلسطيني، وأدى الآن إلى الوضع الصعب الذي تجد نفسها فيه إسرائيل. وأما الزعماء العرب الذين حرضوا على الاتحاد السوفيتي، في ذلك الوقت، فقد ظهر فيما بعد أنهم من أخس خونة شعبيهم.

المصدر: جريدة الاتحاد. عدد يوم: 1955/11/29

## وثيقة رقم 8

### جدول يبين توزيع مناصب الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح)

رسمناه استناداً إلى معلومات مصادر الكتاب

| المكتب السياسي |      |         | اللجنة المركزية |      |         | المؤتمر   |
|----------------|------|---------|-----------------|------|---------|-----------|
| عرب            | يهود | المجموع | عرب             | يهود | المجموع | (1965) 15 |
| 3              | 4    | 7       | 9               | 10   | 19      |           |
| 4              | 5    | 9       | 9               | 12   | 21      | (1969) 16 |
| 4              | 5    | 9       | 12              | 13   | 25      | (1972) 17 |
| 4              | 5    | 9       | 15              | 16   | 31      | (1976) 18 |
| 4              | 5    | 9       | 18              | 17   | 35      | (1981) 19 |
| 4              | 5    | 9       | 18              | 17   | 35      | (1985) 20 |
| 6              | 3    | 9       | 29              | 18   | 47      | (1990) 21 |



## وثيقة رقم 9

### مقاطع من مقال جريدة الاتحاد حول الخدمة العسكرية القومية للمواطنين العرب في إسرائيل

مكتب الاتحاد:

نشر مكتب الصحافة الحكومي، بتاريخ 54/7/10، بياناً جاء فيه: أن وزير الدفاع قرر أن يدعو، إلى التسجيل للخدمة العسكرية، في الجيش الإسرائيلي، الشبان العرب الذين ولدوا ما بين 34/9/10، وبين 37/2/12، بموجب قانون الخدمة العسكرية.

ومع أن قانون الخدمة العسكرية ينطبق على جميع المواطنين، في البلاد، بغض النظر عن القومية والطائفة، فإن الشبان العرب لم يُدعوا حتى الآن، للخدمة في الجيش الإسرائيلي. فالحكومة بانتهاجها سياسة التمييز العنصري تجاه المواطنين العرب، وبحرمانها مواطني الدولة العرب من حقوق كثيرة، فضلت حتى الآن أن تبقى الشبان العرب خارج نطاق الجيش.

وقرار الحكومة بالطلب من المواطنين العرب القيام بهذا الواجب القومي، يثير قضية موقف السلطات من المواطنين العرب، موقف التمييز العنصري والاضطهاد القومي، الذي يجعل المواطن العربي في البلاد مواطناً من المرتبة الثانية...

وعلى إثر بيان وزير الدفاع، حول تسجيل الشبان العرب في الجيش الإسرائيلي، بدأت عناصر مختلفة - وبضمنها عناصر تعمل بوعي من الدوائر الحكومية، والفئات الرجعية الأخرى - تستغل التأفف الطبيعي من الحياة العسكرية، والروابط العائلية القائمة بين السكان العرب، حتى تثير الذعر والخوف بين الجماهير العربية، وتنتشر الشعور الذي يؤدي إلى القول: "إن كان الوضع هكذا، فمن الأولى مغادرة البلاد". وهذا الشعور، وهذه النتيجة، هما دون شك ما تتوق إليه الفئات الحاكمة، والرجعية المعنية بطرد سكان إسرائيل العرب، كلما تمكنت من ذلك. ولكن مغادرة السكان للبلاد، ليست إلا خدمة طيبة لرغبات الرجعيين اليهود والعرب، على حد سواء...

إننا نعرف بأن الحكومة التي تمشت على سياسة التمييز والاضطهاد القومي، حيال السكان العرب في الحياة المدنية، ستحاول أن تطبق سياسة التمييز هذه أيضاً في صفوف الجيش، الذي تدعو الشبان العرب للخدمة فيه.

إن جماهير الشبان اليهود والعرب، والجماهير الديمقراطية الإسرائيلية بأسرها، ستعارض في سياسة التمييز القومي أيضاً في الجيش، الذي من الممكن - ومن اللازم - أن يكون مجعماً للصدقة بين الشبيبة، وليس محلاً للفرقة. وهي ستعارض أيضاً كل محاولة تقوم بها السلطات لتجنيد الشبان العرب في وحدات منفصلة. أو استغلالهم، كمصدر عمل رخيص، للقيام بأعمال مرهقة. وهي ستعارض في كل محاولة لتركيز الشبان العرب في وحدات العمل فقط، أو في أي عمل مرهق آخر. والحزب الشيوعي، الذي ثابر دائماً دون وجل، في الوقوف في طليعة النضال من أجل الدفاع عن السكان العرب، يطالب بكل شدة، بمنح الشبان العرب مساواة مطلقة في الحقوق، في صفوف الجيش.

والحزب الشيوعي الذي عارض وبعارض في تجنيد الفتيات الإلزامي للجيش، يطالب بشكل خاص إعفاء الفتيات العربيات من هذه الخدمة...

إن قرار الحكومة بدعوة الشبان العرب للتسجيل للخدمة في الجيش الإسرائيلي، ينبغي أن يكون دافعاً جديداً، لتثديد نضال السكان العرب، والجمهير الديمقراطية الإسرائيلية، لوضع حد للاضطهاد القومي، ومن أجل المساواة المطلقة، في الحقوق وفي كل مجالات الحياة.

المصدر: صحيفة الاتحاد. عدد يوم 1954/7/23

## وثيقة رقم 10

### مقاطع من مقالة إميل حبيبي باسمه المستعار "جهينة" أسبوعيات في انتظار العائدين إلى حضن شعبهم

لا يخرج الجنين إلى النور حتى يتكامل. فإذا خرج، خرج ضعيفاً: إذا جاع بكى. ويخرج بدون تجربة: لا يعرف فعل النار إلا إذا أحرق إصبعه، فلا يمسك عود الثقاب إلا من جانبه غير المشتعل. وإذا وقع، يتلافى الوقوع ويبحث عن سبيل لا وقعتة فيه. يحبو حتى ينتصب ماشياً على قدميه. ويغدو يبربر حتى يتعلم النطق. فإذا نطق وفهمه، الآخرون ازداد اعتماداً على نفسه، ورغبة في الجماعة. حينئذ، وحينئذ فقط، يصبح واضحاً هل هو "ابن معيشة" أم عكس ذلك. فإذا كان "ابن معيشة" عاش.

لقد مرت الانتفاضة على هذه المراحل كلها، وعاشت؛ فهي إذن "بنت معيشة"، وليكف "الخائفون عليها" عن التساؤل: "إلى متى ستعيش"؟! لقد عاشت، وقضى الأمر... ومما يطمئننا، نحن طلاب السلام العادل والشامل لليهود والعرب في إسرائيل، إلى أن جسم الانتفاضة قد كسب هذه المناعة فعلاً، وانقضى الأمر، هو ما جاء من آيات الاحترام المتبادل، لدور العمال، ولدور أصحاب العمل، في إطار الانتفاضة، وشعب الانتفاضة... فالإنجازات الساطعة تتجلى، ليس في إفشال مخططات التآمر الأمريكي الرجعي، وأحلام استمرار السيطرة على الأراضي المحتلة فقط، بل أيضاً في انتشار مناخ التأييد الدولي، للأهداف العادلة، وفي توفر المقدمات الملائمة، أكثر مما في أي وقت مضى، وفي ظل

الاتفاق السوفيتي الفلسطيني المشترك، لإنجاح عقد المؤتمر الدولي كامل الصلاحيات، على أرضية الحقوق الوطنية المشروعة.

وكذلك في تقويم لقاء عرفات - الأسد، على أنه تتويج للسير الصحيح، في الاتجاه الصحيح، في مجال استعادة التحالف الكفاحي السوري - الفلسطيني.

لن يجد قراء "الاتحاد" في هذه التطورات والتقييمات، إلا ما وجدوه دائماً في "الاتحاد" من مواقف وطنية وحدوية صميمة وعقلانية ومسؤولة، كانت النهج الذي سارت عليه جماهير شعبنا هنا، وحققت في مساره منجزات ديموقراطية ووطنية عريقة، جعلت مسيرة هذا الشعب في وطنه مثلاً يُحتذى.

ورأيت الحاجة إلى هذا الشرح المعاد لسببين، هما سبب واحد: الحملة المسعورة علينا وعلى الحزب الشقيق: الحزب الشيوعي الفلسطيني، التي تلقفتها بعض الأوساط الهامشية - وبعضها صفر في أقصى "اليسار": الشمال - فتلقفتها وريقة "المتكديمت" تلقف الذئب الجائع، دون النظر إلى أبعد من أنفها، ودون أدنى تفكير بالعواقب المستقبلية، ودون أن ترتدع من جراء "زلزلاتها" الهوجاء، التي وقعت فيها في الماضي القريب.

والشق الثاني من هذا السبب الواحد، الذي دعاني إلى ذلك الشرح أعلاه، هو الهوجنة، غير النزيهة، التي التجأ إليها نائب المتكديمت: محمد ميعاري، في مؤتمره المحزن الأخير، وذلك حين طنطن، تلفزيونياً إسرائيلياً، لما سماه "تحذيراً" للمؤسسة الحاكمة في إسرائيل، إذا استمرت في اضطهاد مواطنيها العرب، فإن حضرته سيعلن "الانتفاضة بين العرب في إسرائيل أيضاً". ويذكرنا هذا "التحذير" بتحذير سابق لحضرته أنه سيعلن "العصيان المدني"! وكانت "الجماعة" نفسها، في سنوات مضت، قد جللت الصفحة الأولى من نشرتها "الفلسفية الرفيعة الشأن" بنداء: "الموقف هو الإضراب". وذهبوا، وقعدوا في بيوتهم، يغسلون أيديهم من دم هذا البريء!.

ليس في هذه "التهديدات" خدمة تبرعية للعنصريين في إسرائيل - الذين يحاولون قلب الحقيقة رأساً على عقب، وتبرير عنصريتهم السابقة ضدنا - فقط، بل إن هذه "التهديدات" هي تزوير لحقيقة الانتفاضة القائمة في المناطق المحتلة، من جهة، وبصق أرعن على نضالنا الشعبي، المفعم بالتضحيات وبالصمود أربعين عاماً.

اثان يخجلان، أو يجب أن يخجلا، في مواجهة درب الانتفاضة الشعبي الديمقراطي الأصيل، وفي مواجهة دربنا ذي المضمون نفسه، طول الأعوام الأربعين الماضية: ذلك الذي كان يقول: "بَطْلُ يَنْفَعُ إِلَّا الْمَدْفَعُ"، وذلك الذي كان يقول: "الذي يتزوج أمي يصبح عمي". فأيهما محمد ميعاري، وأيهما هذه "النخبة المختارة" التي لم تعلن عن "فلسطينيتها" إلا بعد أن نالت عليها إجازة؟.

ويجتمع "الصفير الخارجي" مع "الصفير الداخلي"، لا علينا وعلى شعبنا فقط، بل على تاريخنا المضيء، وعلى نهجنا المكمل بالمنجزات كله. لقد عاد "الصفيران"، دون ذرة من حياء، إلى الطعن بموقفنا من العام 1948، الداعي إلى "دولتين لشعبيين". وفيما كانت الرجعية العربية تنكر وجودنا في وطننا هنا - هي والمؤسسة الحاكمة في إسرائيل سواء بسواء - وجدنا "المؤرخ الصادق" محمد ميعاري الآن ينفي تاريخ شعبنا الفلسطيني كله، إلى حين ظهور حضرته وجماعته، في "اللعبة السياسية" بالإجازة المشهورة. نحن - يا حضرة - الفئة التي لم تترد منذ اللحظة الأولى، عن تأكيد انتمائنا المعز لشعبنا الفلسطيني العريق، وأنا "جزء حي وواع ونشيط من الشعب العربي الفلسطيني"، وعلى أكتافنا حاولت "جماعة صبري جريس"<sup>(1)</sup> أن تظهر، فاندثرت في وحل "الإسهام" الوحيد الذي قدمته لحياتنا السياسية، في هذه البلاد، وهو التحريض "القومي" الأرعن على الشيوعية، ومغازلة "مبام" على هذا الأساس. ما كانت "جماعة صبري جريس" تعرف اسم فلسطين أو تذكره. كانت

---

<sup>1</sup> - حركة الأرض. وصبري جريس هو زعيمها المنفي .

دايخة بـ"العروبة" من صنف أحمد سعيد، ويسحر "الوحدة العربية الشاملة من المي للمي"<sup>(1)</sup>، دون أدنى تفكير، أو رغبة في التفكير، باسم فلسطين وبالحل الفلسطيني الوطني للقضية الفلسطينية. راجعوا التاريخ، واحترموا تضحيات آبائكم وأمهاتكم، ولا تبصقوا على البئر التي روت ظمأكم!...

إنني أعني هذا العجب و"الصيام في رجب" في استمرارهم بالطعن المعيب بالشيوعية، وبالالاتحاد السوفيتي، بعد أن "خربت المقائى"<sup>(2)</sup>: مقائهم، وطلع صبحنا، وأصبح "الحجر الذي رفضه البناؤون رأس الزاوية.

لقد ظهر في مؤتمر "المتكديمت" عدد من الأشخاص الواقعيين، ولكن كان من الأفضل، لنا جميعاً ولقضية المصير الذي نجابهه نحن العرب واليهود، لو كان صوتهم هو المسموع، من قبل الرأي العام. لقد كنا قلنا لهم إن الحياة كلها لا تزال أمامهم، ولا حاجة بهم إلى حرق جسور العودة، إلى مسيرة شعبهم المجربة. أما أولئك الذين يصرون على الوقوف في وجه الحتمية التاريخية: في وجه قطار التاريخ، خصوصاً وهو يقترب من محطة تقرير المصير، والسلام العادل؛ مزاولين ومتاجررين حتى النهاية التعيسة، فيبدو أنهم اختاروا موقعهم هذا نهائياً. وأما ذلك العدد من الأشخاص الواقعيين، فشعبهم إن عادوا إليه، لن يصددهم. ويصح هذا الكلام على أمثالهم في الخارج أيضاً.

المصدر: جريدة الاتحاد. عدد يوم 1988/5/6

<sup>1</sup> - من المحيط إلى الخليج.

<sup>2</sup> - إشارة إلى رواية محمد معاري (زغاريد المقائي) وهي أول رواية تؤرخ للانتفاضة. والمقائي كلمة فلسطينية دارجة بمعنى (بساتين القثائيات) ويزرع فيها البطيخ والشمام على وجه الخصوص.

## وثيقة رقم 11

### مقاطع من دراسة الدكتور عادل الأسطة في مجلة جامعة النجاح جدلية الموقع والموقف في الأدب الفلسطيني(1)

... وغالبا ما حكم على الأدباء الفلسطينيين ونصوصهم انطلاقا من القضية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي يتبناها هذا الناقد أو ذاك. ومن يقرأ كتاب د. فيصل دراج "بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية" (بيروت 1996) يلحظ أن مؤلفه من أبرز من طبقوا هذا المنهج. وعليه يقرأ المرء عن الكتاب ومواقفهم السياسية أكثر مما يقرأ تحليلا أدبيا لنصوصهم، تحليلا يعتمد صاحبه فيه على مواصفات الجنس الأدبي الذي يندرج النص المدروس تحته، أعني تحليلا يبين رواية الرواية أو شاعرية القصيدة. وقد تنبه إميل حبيبي في رده على مقالة دراج التي نشرها، أولا، في مجلة إبداع (كانون أول 1995) تحت عنوان "إميل حبيبي: الوجه المفقود في الأفتنة المتعددة" وأعاد نشرها في كتابه المذكور، تنبه حبيبي إلى ذلك فكتب ردا يقول فيه: "فوجدته مثلما تحسبت منه وزيادة، لا يناقش أعماله الأدبية بقدر ما يتصدى لما يتخيله أنه موافق السياسة والأيدولوجية ولو اقتصر فيصل دراج في بحثه المستفيض هذا... على نقد أعماله الأدبية ومواقفي السياسية والأيدولوجية .... لاكتفيت بتريديد الآية الكريمة: "لكم دينكم ولي دين" (إبداع، آذار، 1995، ص9) ويتابع حبيبي: "إن فيصل دراج اثبت في "دراسته" هذه أنه ملم



بحركاتي وبسكناتي إماما يخول له - إن شاء - الحصول على لقب "الدكتوراه" في أعماله السياسية لا في أعماله الأدبية .. " (ص10).

وليس فيصل درّاج، وهو المتمكن من أدواته النقدية، أول ناقد أدبي يطبق هذا المنهج، ويحاكم أدباءنا انطلاقاً منه، فقد سبقه إلى ذلك الكثيرون نقادا وكتابا غير نقاد، وما كتبه عن حبيبي مثال جيد يستطيع المرء أن يستشهد به للتدليل على مقولة الماركسيين حول جدلية الموقع والموقف. وكان إميل، وما هو بناقد أدبي ولكنه قرأ الماركسية جيدا، يدرك مغزى هذه العبارة ويفهم معناها جيدا، وقد أوردها في نصه "المتشائل"، حين كتب عن تحول بطله سعيد إلى هرة تموء، مشيرا في المكان نفسه إلى المواقف العديدة التي اتخذها معارف سعيد بعد أن تغيرت الأمور:

"أما أنت فتقمصت هرة. وأما هو فتقمص شاعرا. وكلاكما يهرب حتى يتنفس، ويختنق حتى لا يموت. ومنهم من احترف الأدب عجزا، ومنهم من هرب من موقفه بتغيير موقعه. وآخرون أخفوا عورة العجز بورقة الحكمة، وآخرون بالفلسفة..." (ص 102 من طبعة صلاح الدين، القدس 1977).

وكان إميل يقصد، حين قال "ومنهم من هرب من موقفه بتغيير موقعه" محمود درويش الذي ترك حيفا وغادر إلى القاهرة في بيروت، وتغيرت، إثر ذلك، مواقفه السياسية. وقد اختلف موقف الشيوعيين منه، وغيروا آراءهم فيه، واعتبروه برجوازيا صغيرا، ولم يعودوا، لفترة طويلة، ينشرون نصوصه على صفحات صحفهم ومجلاتهم، أي في جريدة "الاتحاد" ومجلتي "الجديد" و "الغد".

تقول لنا نظرة على خريطة الأدب الفلسطيني منذ عام 1948 إن العلاقة بين الأدباء ونظرتهم إلى بعضهم البعض وقراءتهم لنصوصهم والحكم عليها، غالبا ما كانت محكومة بالموقع الذي يختاره المرء لنفسه، لأن مصلحته تقتضي وجوده في ذلك الموقع. وليس

غريباً أن يقرأ المرء تلميذاً لأديب ما، في مرحلة معينة، ويقراً، في فترى لاحقة، انتقاصاً لأدبه ولمواقفه. ويذهب المرء إلى ما هو أبعد من ذلك، وهذا ما سيتضح من خلال هذه الكتابة، فيرى أن بعض الأدباء قد اقتطعوا أجزاء من جسد الشعري حين تغيرت مواقعهم وفرضت عليهم المواقع الجديدة مواقف جديدة.

ولتوضيح ذلك لابد من إشارات يبدو ذكرها، من غير طرف، أمراً غير مرغوب فيه. وإن كانت الأمانة العلمية تقتضي ذكرها والإشارة إليها. وليس ذكرها حبا في التشهير أو ناجماً عن رغبة في إذكاء الفتنة.

وكان يمكن لهذه الإشارات أن تكون أكثر دقة لو استطاع المرء أن يقرأ الأدبيات التي كتبها أدباؤنا مكتملة، وهي أدبيات مبعثرة تتوزعها أماكن عديدة، لا يتمكن الباحث المقيم هنا، في الأرض المحتلة، العثور عليها بسهولة. وقد أسقط بعض الأدباء من طبعة أعمالهم التي وصفوها بأنها "الأعمال الكاملة" نصوصاً نشرها في فترات معينة لأنهم لا يرغبون في إظهارها حتى لا يؤاخذوا عليها، وحتى لا تستغل ضدّهم لإبراز تقلباتهم وتناقضاتهم، أو حتى لا تكون دليلاً على اختلاف مواقفهم باختلاف مواقعهم...

درس غسان كنفاني في كتابية "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة بين 48 و 1966" و "الأدب الفلسطيني المقاوم بين عامي 48 و 1968" الأدباء الذين رأى في نصوصهم نصوصاً تبرز فيها روح المقاومة، واستبعد أولئك الذين لم تبرز هذه الروح في نصوصهم. ولا يستطيع أي شخص أن يلوم كنفاني في هذا، فقد اختار لنفسه، ابتداءً، عنواناً محدداً أراد أن يكتب فيه والتزم به. ولا يخرج، بناءً على هذا، لا يخرج قارئ كتابه بتصور شامل عن الحركة الأدبية في تلك المناطق - أي مناطق عام 1948 - وعليه لا يقرأ نصوصاً لأدباء آثروا كتابة قصائد أو قصص ابتعدت عن روح المقاومة، وركزت في المقام الأول على هموم ذاتية لا صلة لها بالمحيط العام الذي نما فيه صاحبها.

وتعكس كتابة كنفاني المقولة المختارة عنوانا لهذه الكتابة وتوضيحها، وإن لم يناقشها بوضوح. وليس هناك من شك في أن موقع كنفاني الذي وجد نفسه فيه هو الذي فرض عليه موقفه، فكتب عن ظاهرة أدباء المقاومة ولم يلتفت إلى الكتاب الآخرين، وهو الذي دفعه لأن يكتب في العنوان الذي اختاره، لا عن الحركة الأدبية بشكل عام. وسيرى المرء نقيض ذلك حين يطلع على دراسة محمود عباسي عن الحركة القصصية في فلسطين، إذ درس عباسي، وهو الأكاديمي من ناحية والمقر بدولة إسرائيل من ناحية ثانية وغير الراض للعمل في مؤسساتها من ناحية ثالثة، درس كتاب القصة كلهم، الذين كتبوا نصوص مقاومة والذين كتبوا نصوصا ركزوا فيها على أبعاد اجتماعية أو ذاتية، أبعاد لا تمس الواقع السياسي من قريب أو بعيد أو لم يصدر أصحابها فيها عن رؤية سياسية تدعو إلى مقاومة الواقع والثورة عليه.

صدرت في مناطق عام 1948 صحف ومجلات وقفت وراء إصدارها جهات مختلفة ذات توجهات سياسية وفكرية متباينة. أصدر الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح) ، وهو الذي أقر بحقوق الشعب الفلسطيني واعتبر الصهيونية، إلى حين، حركة عنصرية، أصدر العديد من الصحف والمجلات ، وقد ورد ذكر أسمائها. وأصدرت الأحزاب الصهيونية الحاكمة وغير الحاكمة، ولم تكن تعترف بالشعب الفلسطيني، صحفها ومجلاتا وهي "الشرق" و "الأنباء" و "اليوم" وغيرها. وقد اختلف الكتاب فيما بينهم اختلافا كبيرا انعكس على خطابهم الأدبي والسياسي من ناحية، وعلى علاقاتهم الشخصية من ناحية ثانية. وقد رأى الأدباء الشيوعيون في أنفسهم أدباء الشعب، وعزز كنفاني هذا، ونظروا إلى من يكتب في غير صحفهم على أنه أديب سلطة .

وما من شك أن المرء، وهو يقرأ نصوص هؤلاء وأولئك ، سيجد اختلافا بينا في تناول الموضوع نفسه. ولو ضربنا مثلا على ذلك تلك القصص التي تناولت موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي، للاحظنا صدق ما ذهبنا إليه. لقد اختلف الكتاب في تحميل

المسؤولية لما آلت إليه الأوضاع، فالذين نشرُوا في "الشرق" أو صدرت كتبهم عن دور نشر تابعة للأحزاب الصهيونية ألقوا بالمسؤولية على الإنجليز، واختلف كتاب الحزب الشيوعي عن هؤلاء، وإن لم يبرؤوا الإنجليز، فأشاروا إلى الحركة الصهيونية ودورها. ويمكن قول الشيء نفسه فيما يخص تحديد موقفهم من رجال السلطة.

وسوف يتوصل المرء، حين يتتبع نتاج كاتب واحد نشر في غير مكان، إلى الشيء نفسه. ويعتبر سميح القاسم ومحمد على طه ومصطفى مرار أمثلة جيدة. تختلف مجموعة محمد علي طه "لكي تشرق الشمس" (1964) اختلافاً بينا عن مجموعته "جسر على النهر الحزين" (1973)، وما نشره مصطفى مرار بعد أن ترك وظيفة المعلم في جهاز السلطة يختلف عما نشره من قبل، ولقد أخذ ينشر في صحف الحزب الشيوعي "راكح" وهذا ما لم يفعله من قبل. وسنأتي على ذكر سميح القاسم، بعد قليل، بتفصيل أكثر...

وإذا ما فحصنا المقولة، واقفين عند أشعار درويش نفسه، فسندج أنها تجد فيه ما يؤكد على صحتها. لقد تغيرت مواقف درويش، إلى حد ما، بعد أن غير موقعه. وهذا ما لاحظته إميل حبيبي، وإن كان لم يوضحه. كان محمود قبل الخروج يرى في العالم العربي الضوء الذي يتسلل إلى السجين من كوة الزنزانة، وفي العالم العربي رأى حرته في زنزانته. كان في الداخل يخاطب موظف وزارة الداخلية الصهيوني :

سجل /! أنا عربي/ ورقم بطاقتي خمسون ألفا/ وأطفالي ثمانية  
وتاسعهم سيأتي بعد صيف/ فهل تغضب؟

ورأى العالم العربي، وهو في مدنه، أضيق من توابيت الرجوع، كما رأى في العرب عرباً باعوا روحهم وضاعوا. وما أورده في قصيدته التي رثى فيها راشد حسين "كان ما سوف يكون":

والتقينا بعد عام في مطار القاهرة/ قال لي بعد ثلاثين دقيقة:  
ليتني كنت طليقا في سجون الناصرة.

تعبير صادق عن حالته هو، وقد كتب درويش هذا، ذات نهار، في إحدى رسائله التي  
نشرها على صفحات "اليوم السابع" وفيها كتب صارخا: بدي أعود".

ولقد أجري الشاعر نفسه بعض التغييرات على قصائده، وقاده إلى هذا الموقع الذي  
أصبح فيه، وقد بينت هذا في دراستين نشرت الأولى منهما، وهي بعنوان "ظواهر سلبية  
في مسيرة محمود درويش الشعرية"، وأنجزت الثانية، وهي بعنوان "إشكالية الشاعر  
والسياسي في الأدب الفلسطيني: محمود درويش نموذجا" ولما أنشرها بعد.

ثمة ثلاثة كتاب يجدر بالمرء الوقوف عندهم في أثناء الكتابة عن صدور الموقف عن  
الموقع وهم سميح القاسم وإميل حبيبي وتوفيق زياد .

لا يدري المرء كيف سيكون جواب سميح لو سأله سائل السؤال التالي : بم تختلف،  
الآن، عن أولئك الكتاب الذين كنت تتعتهم، ذات نهار، بأنهم أدباء سلطة، وتحديدًا عن  
محمود عباسي ومصطفى مرار اللذين نشر ما كتب في الصحف التي كانت تصدرها  
أحزاب صهيونية؟

ويفضل المرء أن يترك سميا نفسه يجيب، فما من شك أنه قادر على ذلك ولديه ما  
يقوله في هذا المجال. ولكن المرء، وهو يطالع المجلدات السبعة التي ضمت أعمال  
الشاعر غير الكاملة - وأذهب هنا مذهبًا آخر غير المذهب الذي ذهب إليه سميح أو  
الناشر حين كتب على الغلاف الأخير بأنها "أعمال سميح القاسم الكاملة - سوف يدرك  
أن ذلك الفارق الذي كان يلمح إليه بين أدباء وأدباء في الداخل - أي بين أدباء مقاومة  
وأدباء سلطة- قد تضاعل إلى حد كبير. لقد أسهم أدباء المقاومة، إلا أقلهم، بإزالته ،

وتكمن المفارقة في أنهم لم يجعلوا من أدباء السلطة أدباء مقاومة، قدر ما اقتربوا هم من مواقف أدباء السلطة. وهكذا لم يتراجع أدباء السلطة عن مواقفهم التي أعلنوها في نصوصهم، قدر تراجع أدباء المقاومة.

سوف يلحظ قارئ أعمال سميح القاسم الكاملة أنها غير كاملة، فقد حذف سميح قصائد وعبارات حتى لا يوقع نفسه، أمام قارئ مدقق، في حيص بيص، وحتى لا يقف هذه المرة عاجزا عن الإجابة المقنعة للسؤال المربك الذي سيوجهه إليه قارئ نصوصه. ولأنني لا أرغب في التكرار فسأحيل القارئ إلى ما كتبه في كتابي "تأملات في المشهد الثقافي الفلسطيني" (نابلس 1995) تحت عنوان "والدكتاتور فينا أيضا: إلى سميح القاسم" (ص 25 وما بعدها) ، وقد ذكرت هناك ثلاثة مواطن حذف الشاعر فيها مقاطع من أشعاره تارة، ولم يدرج بعض القصائد طورا، وقد أوضحت سبب لجوئه إلى هذا. ولكنني سوف أدرج هنا مقاطع من القصيدة التي لم يدرجها الشاعر في طبعة أعماله الكاملة (؟) لأنها لم تعد تتساير وموقفه الجديد الذي يفرضه عليه موقعه رئيسا لتحرير جريدة "كل العرب" الأسبوعية ذات الصلة بجريدة (يديعوت أحرزوت) العبرية، وقد تصدرت ذات نهار، عبارة "سلام الشجعان" الصفحة الأولى، لجريدة "كل العرب". يقول سميح في القصيدة التي حذفها وعنوانها "السلام":

ليغن غيري للسلام/ ليغن غيري للصدقة، للأخوة، للوئام/ ليغن غيري .. للغراب/  
جذلان ينعق بين أبياتي الخراب/ لليوم .. في أنقاض أبراج الحمام! / ليغن غيري للسلام/  
وسنابلي في الحقل تجهش بالحنين/ للنورج المعبود يمنحها الخلود من الغناء/ لصدى  
أغاني الحاصدين/ لحداء راع في السفوح/ يحكي إلى عنزاته .. عن حبه الخفر الطموح/  
وعيونها السوداء .. والقد المليح

.....

ليغن غيري للسلام/ وهناك خلف حواجز الأسلاك في قلب الظلام/ جثمت مدائن من  
خيام/ سكانها/ مستوطنات الحزن والحمى، وسل الذكريات/ وهناك تنطفئ الحياة/ في  
ناسنا/ في أبرياء لم يسيئوا للحياة! / وهنا!/ همت بيارة من خلقهم خيرا كثير/ أجدادهم  
غرسوا لهم/ ولغيرهم ، يا حسرتي، الخير الكثير/ ولهم من الميراث أحزان السنين!/ /  
فليشبع المتضورون!/ ويشبع الأيتام من فضلات مأدبة اللثام!/ ليغن غيري للسلام/ وعلى  
ربي وطني، وفي وديانه، قتل السلام؟

(الأسطر الثمانية الأخيرة من هذه القصيدة محذوفة بالشكل التالي: × × × ×).

ويشير أيضا إلى أن "الأسطر الثمانية الأخيرة من القصيدة أيضا محذوفة بإشارة  
الرفيق الصهيوني. وهكذا قام سميح، بعد ثلاثين عاما، بما كان الرفيق الصهيوني يقوم  
به، من قبل. وليست القصيدة هذه هي الأسوأ من بين قصائد الشاعر، حتى يحذفها. وإنما  
فعل سميح هذا لتغيير موقعه، تماما كما حذف، يوم ترك الحزب ومال إلى جناح التجديد،  
العديد من القصائد التي نظمها في مديح الحزب ولينين...

وليست هذه هي الجناية التي ارتكبتها سميح. ثمة جنایات أخرى لا نقل عنها سوء.  
كتب سميح مقالة في جريدة "كل العرب" (1993/7/16) تحت عنوان "في التعريف بما  
هو معروف"، وتعتبر سبة لا في إميل حبيبي الذي وجهت إليه المقالة وكتبت فيه، وإنما  
لسميح نفسه.

كانت جريدة "الاتحاد" الصادرة عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح) الموقع الذي  
تمرس فيه القاسم وحبيبي، وقد أعلننا، منذ سنوات طويلة، انتماءهما للحزب ودافعا عن  
أطروحاته، وردا على مهاجمي سياسته ورؤاه ردا عنيفا... وعندما تركا الحزب لم يعودا  
ينشران، إلا قليلا، في جريدة الاتحاد، وقد ذهب كل واحد منهما في طريق، ونهج كل  
منهما منهجا مغايرا للمنهج الذي سلكه الآخر، وسرعان ما اختلفا اختلافا أدى إلى

تصادمهما، ونجم عنه كتابة سميح المقالة الوارد ذكرها، وهي مقالة ذكر سميح فيها إميل بمعلومات يشير أبسطها إلى أن الأخير كان، منذ أمد طويل، يعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية. ولأقتبس :

"ألم يقرأ إميل مذكرات معلمه "الشيوعي" الصهيوني العريق صموئيل ميكونس بشأن رحلتها "التاريخية" إلى براغ؟ وماذا بشأن صفقة السلاح التشيكي الأولى من نوعها في تاريخ إسرائيل، والتي تم تزويد الشاويش في الجيش الإسرائيلي بها؟.

وثمة سؤال يوجه إلى سميح هنا: إذا كنت تعرف هذا عن إميل فلماذا كنت وإياه في الخندق نفسه لمدة عشرين عاما على الأقل، ولماذا كنت تدافع عنه وعن سياسته؟. ولا أريد، هنا، أن أدافع عن إميل، فما كتبه لا يختلف كثيرا عما كتبه القاسم. وإميل مثله مثل سميح يعتقد دائما أنه صاحب الموقف الصحيح، وأن مواقف غيره عبثية ومضللة. يكتب إميل رادا على دراسة فيصل دراج التي نشرها في مجلة "إبداع" (كانون ثان 1995) ردا ينشره في عدد آذار في المجلة نفسها في العام نفسه، ويختتمه بما يلي :

"ولكن لا أرى من حقه نفي أمرين أثبتتهما التاريخ : أن موقفنا، موقفي، هو الصحيح، في حين أن التاريخ أثبت عبث مواقف معارضينا. وأنى لم أحد عن هذا الموقف منذ بدء حياتي الاجتماعية الواعية".

ولا يدري المرء إن كان ثمة موقف واحد لإميل حبيبي قضى عمره يدافع عنه. قد يكون له موقف معين من حل مشكلة الشعب الفلسطيني تبناه ودافع عنه، ولكنه لم يكن أبدا ذا موقف واحد من حكومات إسرائيل ذات التوجه الصهيوني، كما لم يكن له موقف واحد من الماركسية اللينينية، وخروجه من القفص إلى عالم بلا أقفاص دليل على تغيير موقفه، وبأتي استلامه جائزة الدولة الإسرائيلية من شامير دليلا آخر على عدم ثباته، فهل كان إميل سيوافق على استلام هذه الجائزة في السبعينيات، وماذا كان سيقول فيمن سيستلمها؟



بل وماذا كان رأيه في أولئك الكتاب الذين نشروا على صفحات "المرصاد" و "الأنباء" و "اليوم" و "الشرق" ؟ وكان يمكن للمقالات التي كتبها في الستينيات، ورد عليها راشد حسين، أن تسعفنا في الإجابة، لولا صعوبة الحصول عليها الآن، وعلى مقالات الأخير أيضا...

ويبدو إميل الذي كان يلح على أننا - أي العرب - بلا ذاكرة، أكثر الناس، في أيامه الأخيرة، فقدانا لها، أو تجاهلا لها. وإميل معروف بتغاييه لا بغبائه، وبتفريطه لا بإفراطه (في الولاء للدولة)، وبشيوعيته (أحمر) لا بكونه حمارا. وسوف أقتبس من نصه "كع بن كع" (1980) رأيه في توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض، رأيه الذي صدر عنه يوم كان شيوعيا ملتزما، وكان الحزب يرفض اتفاقية سيناء التي أنجزها السادات وأيدها بعض أدباء مصر، وعلى رأسهم الأسماء الآتفة الذكر. يرد في نص كع ما يلي:

"بدور: وابدراه ! يا ولداه ! / قم بدر/ اطلع بدر/ انطق صخرا/ حرك ضميرا/ أسمع  
يا نجيب محفوظ/ يا مرتد إلى أرذل العمر/ إلى ما بين القصرين؟  
المهرج: إلى أين يرتد الذين إما أن يعيشوا وإما أن لا يعيشوا؟  
بدور: غرد بدر/ اطلع بدر/ انطق صخرا/ حرك ضميرا/ أسمع يا توفيق الحكيم؟  
أيها العصفور المقعد في مزبلة شرقية.  
المهرج: إلى أين ؟ إلى أين؟  
بدور: ازأر بدر/ اطلع بدر/ انطق صخرا/ حرك ضميرا/ أسمع يا لويس عوض؟ يا  
فيلسوف الخوف/ ماذا تقول ؟  
صوت: أقول إن نجيب محفوظ خائف. وهذا ليس رأيه/ ولكنه كتوفيق الحكيم، يحمي  
نفسه من عدوان الدولة كي يمنحنا فنا جميلا".

وكلام الصوت هو كلام لويس عوض الذي كتبه في صحيفة السياسة الكويتية بتاريخ 1979/3/4. ويسخر المهرج (إميل) منه سخريّة لاذعة. والطريف في الأمر أن إميل نفسه كان يحمي نفسه من عدوان الدولة في بداية تأسيسها، وذلك باللجوء إلى صفة التغايب. ولا أعرف ان كان ثمة ناقد قبلي قد توصل إلى أن سعيدا هو إميل حبيبي نفسه، وقد نشرت هذا في جريدة نابلس في آب 1995، وقد أقر إميل، في اللقاء الأخير الذي أجري معه ونشر في أيار 1996 في "دفاتر ثقافية" الصادرة عن وزارة الثقافة الفلسطينية، وأعيد نشره في مشارف (عدد 9، حزيران 1996) بأنه كان يكتب ، حين كتب المتشائل، عن نفسه. ومن حق الناقد أن يسأل إميل: كيف انتقدت لويس عوض ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأنت تسلك السلوك ذاته منذ أمد طويل؟ ألم تفضل البقاء في حيفا حتى لو دفعت ثمنا باهظا؟...

ظل توفيق زياد، منذ بداية حياته السياسية، مثله مثل معين بسيسو، وفيما لمبادئه التي اعتنقها وآمن بها... كتب زياد أدبا واضحا وخاطب فيه الجماهير التي توجه إليها، وفي أدبه دافع عن مبادئه وأفكاره وانحاز، دوما، للمستغلين الفقراء، ولهذا غلبت على أشعاره الشعارية والأيدولوجيا. ولم يتردد، يوم تخلى إميل عن الحزب وتركه، عن مهاجمته، على الرغم مما كان بينهما من صداقة... كتب زياد في ديوانه الأخير "أنا من هذه المدينة" قصيدة عنوانها "الندابة" هاجم فيها إميل هجوما عنيفا، ومما ورد فيها :

"إنني أكتب عما فعله المرتد والردة/ عما فعل النرجس/ في روح ابن آدم  
كل ما سجلت .. جزء من حقيقة/ وإذا أوجنا الأمر سنأتي/ بالتفاصيل الدقيقة".

وقراءة النص كله قراءة داخلية وربطها باسم كتاب إميل حبيبي "تحو عالم بلا أفاص" تقول لنا إن المرتد هو إميل وأمثاله. وهكذا دارت الدائرة على إميل نفسه، وهاجمه، لتغيير موقعه، رفاق الأمس. ولكن السؤال الذي يظل مفتوحا هو: ما هي التفاصيل الدقيقة التي

يعرفها زياد عن إميل؟ هل هي تلك التي أوردتها سميح في مقالته المذكورة في هذا المقال؟ وهل كان إميل كما كتب عن نفسه في المتشائل؟ ونترك الأجوبة لمن يعرفونها، ولمن يمتلكون الوثائق!!!.

المصدر: الموقع الإلكتروني لجامعة النجاح على الشبكة العنكبوتية بتاريخ 2005/9/21  
رابط: [www.najah.edu/arabic/articles/144.htm](http://www.najah.edu/arabic/articles/144.htm)

## وثيقة رقم 12

### نص وثيقة الاستقلال الصهيونية

"نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها اكتملت صورته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولة ذات سيادة، وفيها أنتج ثرواته الثقافية والقومية والإنسانية وأورث العالم أجمع كتاب الكتب الخالد. وعندما أُجِّلِي الشعب اليهودي عن بلاده بالقوة، حافظ على عهده لها وهو في بلاد مهاجرة بأسره ولم ينقطع عن الصلاة والتعلق بأمل العودة إلى بلاده واستئناف حريته السياسية فيها.

ويدافع هذه الصلة التاريخية التقليدية أقدم اليهود في كل عصر على العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه، وفي العصور الأخيرة أخذوا يعودون إلى بلادهم بآلاف مؤلفة من طلائع ولاجئين ومدافعين، فأحيوا القفار وبعثوا لغتهم العبرية وشيدوا القرى والمدن وأقاموا مجتمعاً آخذاً في النمو شيد اقتصادياته وثقافته ينشد السلام ويدافع عن ذماره ويزف بركة التقدم إلى جميع سكان البلاد متطلعاً إلى الاستقلال الدولي.

وفي عام 5657 حسب التقويم العبري للخليقة - الموافق عام 1897 ميلادية - عقد المؤتمر الصهيوني تلبية لنداء صاحب فكرة الدولة اليهودية المرحوم ثيودور هرتسل، وأعلن حق اليهود في النهضة الوطنية في بلادهم. وتم الاعتراف بهذا الحق في تصريح

بفور في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني عام 1917. وتمت المصادقة على هذا الحق في صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم والذي أكسب بصفة خاصة مفعولية دولية للصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بأرض إسرائيل ولحق الشعب اليهودي في إعادة تشييد وطنه القومي.

إن الكارثة التي حلت باليهود في الآونة الأخيرة والتي كان من ضحاياها الملايين من يهود أوروبا. إن هذه الكارثة قد عادت وأثبتت بالفعل ضرورة حل مشكلة الشعب اليهودي المحروم من الوطن والاستقلال باستئناف الدولة اليهودية في أرض إسرائيل لتفتح باب الوطن على مصراعيه من أجل كل يهودي وتؤمن للشعب اليهودي حياة أمة متساوية الحقوق مع سائر الأمم في العالم.

إن البقية الباقية التي أنقذت من المجزرة النازية الفظيعة في أوروبا مع يهود سائر البلدان لم يكفوا عن اللجوء إلى أرض إسرائيل رغم جميع الصعوبات والعراقيل والأخطار. ولم ينقطعوا عن المطالبة بحقهم في حياة من الكرامة والحرية والعمل الشريف في وطنهم.

وفي الحرب العالمية الثانية ساهم المجتمع اليهودي في أرض إسرائيل بنصيبه كاملاً في نضال الأمم نصيرة الحرية والسلام ضد قوى الظلم النازية، وقد اكتسب اليهود بدماء جنودهم وبجهودهم الحربية حق اعتبارهم من الشعوب التي وضعت الأسس لميثاق الأمم المتحدة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام 1947 اتخذت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قراراً ينص على إقامة دولة يهودية في فلسطين وطالبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة أهالي فلسطين باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار بأنفسهم.

إن اعتراف الأمم المتحدة بحق الشعب اليهودي في إقامة دولته غير قابل للإلغاء. إنه لمن الحق الطبيعي للأمة اليهودية في أن تكون أمة مستقلة في دولتها ذات السيادة مثلها في ذلك مثل سائر أمم العالم.

وعليه فقد اجتمعنا نحن أعضاء مجلس الشعب. ممثلي المجتمع اليهودي في البلاد والحركة الصهيونية في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. وبحكم حقنا الطبيعي والتاريخي بمقتضى قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة، نعلن عن إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل في "دولة إسرائيل".

وإننا لنقرر أنه ابتداء من اللحظة التي ينتهي فيها الانتداب الليلية، ليلة 6 أيار عام 5708 عبرية، الموافق 15 أيار عام 1948 ميلادية، وإلى أن تقام سلطات الدولة المنتخبة والنظامية طبقاً للدستور الذي يضعه المجلس التأسيسي المنتخب في موعد لا يتأخر عن مطلع شهر تشرين الأول عام 1948، يقوم مجلس الشعب مقام مجلس الدولة المؤقت وتكون هيئته التنفيذية - أي الإدارة الشعبية - هي الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية التي تسمى إسرائيل.

تكون دولة إسرائيل مفتوحة الأبواب للهجرة اليهودية ولجمع الشتات، تدأب على ترقية البلاد لصالح سكانها جميعاً وتكون مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام مستهدية بنبوءات أنبياء إسرائيل. نقيم المساواة التامة في الحقوق اجتماعياً وسياسياً بين جميع رعاياها من غير تمييز في الدين والعنصر والجنس وتؤمن حرية الأديان والضمير والكلام والتعليم والثقافة وتحافظ على الأماكن المقدسة لدى كل الديانات وتكون أمينة لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

إن دولة إسرائيل لمستعدة للتعاون مع مؤسسات وممثلي الأمم المتحدة على تنفيذ قرار الجمعية العمومية الصادر بتاريخ 29 تشرين الثاني عام 1947. وللعمل على إنشاء اتحاد اقتصادي يشمل أرض إسرائيل برمتها.

إننا نناشد الأمم المتحدة أن تمدّ يد المساعدة للشعب اليهودي في تشييد دولته وقبول دولة إسرائيل ضمن أسرة الأمم. إننا ندعو أبناء الشعب العربي سكان دولة إسرائيل - رغم الحملات الدموية علينا خلال شهور - إلى المحافظة على السلام والقيام بنصبيهم في إقامة الدولة على أساس المساواة التامة في المواطنة والتمثيل المناسب في جميع مؤسساتها المؤقتة والدائمة.

إننا نمدّ يد السلام وحسن الجوار لجميع البلدان المجاورة وشعوبها وندعوهم إلى التعاون مع الشعب اليهودي المستقل في بلاده، وإن دولة إسرائيل مستعدة لأن تساهم بنصيبها في مجهود مشترك لرفي الشرق الأوسط بأسره.

إننا ندعو الشعب اليهودي في جميع مهاجره إلى التكاتف والالتفاف حول يهود هذه البلاد في الهجرة والبناء والوقوف إلى جانبهم في كفاحهم العظيم لتحقيق أمنية الأجيال وهي - تحرير إسرائيل.

إننا بعد الاعتماد عليه سبحانه وتعالى، نثبت تواقيعنا على هذا الإعلان في اجتماع مجلس الدولة المؤقت في أرض الوطن، في مدينة تل أبيب اليوم، يوم الجمعة الخامس من شهر أيار عام 5708 عبرية الموافق الرابع عشر من شهر أيار عام 1948م.

تواقيع أعضاء مجلس الشعب. 37 توقيعاً:

السيد ديفيد بن غوريون

السيد دانييل أوسطر، السيد مردخاي بنطوف، السيد يتسحاق بن تسفي، السيد إياهو برلين، السيد فريتمس برنشتين، الحاخام فولف غولد، السيد مئير غاربوفسكي، السيد يتسحاق غرينبوم، دكتور أفراهم غرنوفسكي، السيد إياهو دوفرين، السيد مئير قلنر - كوفنر، السيد زرح فرهابتيغ، السيد هرتسل وردي، السيدة راحل كوهين، الحاخام كالمان كاهانا، السيد سعاديا كوفاشي، الحاخام يتسحاق مئير لفين، السيد مئير ديفيد لفينشتين، السيد تسفي لوريا، السيدة غولدا مئيرسون، السيد ناحوم نير، السيد تسفي سيغال، الحاخام يهودا ليف هكوهين فيشمان، السيد ديفيد تسفي بنكاس، السيد أهارون تصيزلينغ، السيد موشيه كولودني، السيد إليعزر كبلان، السيد أفراهم كيسانسون، السيد فليكس روزنبليط، السيد ديفيد ريمز، السيد برل رابتور، السيد مردخاي شاتنر، السيد بن - تصيون شطرنبرغ، السيد بخور شيطريت، السيد موشيه شابيرا، السيد موشيه شرتوق.

المصدر: التواصل: موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية. بتاريخ 2008/3/6

رابط:

[www.altawasul.net/MFAAR/important+documents/independence+bill](http://www.altawasul.net/MFAAR/important+documents/independence+bill)



## المصادر والمراجع

### أولاً: الكتب:

- 1- ابن الأثير الجزري: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. المجلد 4. مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان. بيروت. 1972
- 2- أحمد خليفة (مترجم ومحرر). حرب فلسطين (1947-1948): الرواية الرسمية الإسرائيلية. تقديم وليد الخالدي. مراجعة سمير جبور. ط1. نيقوسيا. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 1984
- 3- إدوارد سعيد. الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة كمال أبو ديب. ط4. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية. 1995
- 4- إدوارد سعيد. الثقافة والإمبريالية. ترجمة كمال أبو ديب. ط1. بيروت. دار الآداب. 1997
- 5- إديث كريزويل. عصر البنيوية. ترجمة جابر عصفور. ط1. الكويت. دار سعاد الصباح. سلسلة آفاق العصر. 1993
- 6- ألفتين كرنان. موت الأدب. ترجمة بدر الدين حب الله الديب. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 2000
- 7- إميل حبيبي. الأعمال الأدبية الكاملة. ط1. الناصرة. إصدار سلام إميل حبيبي. 1997

- 8- إميل حبيبي. خُرَافِيَّة سرايا بنت الغول. ط1. حيفا. دار عربسك. 1991
- 9- إميل حبيبي. كفر قاسم: المجزرة - السياسة. حيفا. منشورات عربسك. 1976
- 10- إميل حبيبي. نحو عالم بلا أقياف. ط1. حيفا. مكتب ومكتبة كل شيء. 1993
- 11- إميل حبيبي: سداسية الأيام الستة - الوقائع الغربية في اختفاء أبي النحس المتشائل وقصص أخرى. ط7. حيفا. دار الاتحاد للطباعة والنشر. 1985
- 12- بولس فرح. من العثمانية إلى الدولة العبرية. الصوت. الناصرة. 1985
- 13- بيبير پورديو. أسباب عملية: إعادة النظر بالفلسفة. ترجمة أنور مغيث. ط1. سرت. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. 1452 ميلادية.
- 14- جان پول سارتر. ما الأدب. ترجمة وتقديم وتعليق محمد غنيمي هلال. القاهرة. نهضة مصر. دون تاريخ.
- 15- جان بيلمان نويل. التحليل النفسي والأدب. ترجمة حسن المودن. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 1997
- 16- جبريل محمد وآخرون. فلسطينيو 48: نضال مستمر (1948-1988). ط1. الزهراء للدراسات والأبحاث. القدس. 1990
- 17- جورج كرزوم. الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة: (1948-1991). ط1. منشورات الشعلة. القدس. 1993
- 18- جيرالد برنس. المصطلح السردي. ترجمة عابد الخزندار. مراجعة وتقديم محمد بريري. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 2003
- 19- جيل دولوز. التجريبية والذاتية: بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم. ترجمة أسامة الحاج. ط1. بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. 1999
- 20- جيمس سكوت. المقاومة بالحيلة: كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم. ترجمة إبراهيم العريس ومخايل خوري. ط1. بيروت. دار الساقى. 1995

- 21- حبيب قهوجي. العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي منذ 1948. بيروت. مركز الأبحاث. منظمة التحرير الفلسطينية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 1972
- 22- حيدر عزيز وآخرون. دليل إسرائيل العام. ط2. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 1996
- 23- راييموند وليامز. الثقافة والمجتمع. ترجمة وجيه سمعان. مراجعة محمد فتحي. القاهرة. مكتبة الأسرة. مهرجان القراءة للجميع. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2001
- 24- راييموند ويليامز. طرائق الحداثة: ضد المتوائمين الجدد. ترجمة فاروق عبد القادر. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عالم المعرفة. 1999
- 25- رمضان بسطاويسي محمد غانم. علم الجمال عند لوكاش. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1991
- 26- روبرت شولز. السيمياء والتأويل. ترجمة سعيد الغانمي. ط1. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 1994
- 27- رومان ياكبسون. قضايا الشعرية. ترجمة محمد الولي ومبارك حنون. ط1. الدار البيضاء. دار توبقال للنشر. 1988
- 28- سعيد بنكراد. شخصيات النص السردي: البناء الثقافي. مكناس. جامعة المولى إسماعيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 1994
- 29- سيجموند فرويد. تفسير الأحلام. ترجمة مصطفى صفوان. مراجعة مصطفى زيور. ط5. القاهرة. دار المعارف. دون تاريخ.
- 30- سيجموند فرويد. محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي. ترجمة أحمد عزت راجح. مراجعة. محمد فتحي. القاهرة. مكتبة الأنجلو المصرية. دون تاريخ.
- 31- صبري جريس. اليمين الصهيوني نشأة وعقيدة وسياسة. بيروت. مركز الأبحاث. منظمة التحرير الفلسطينية. 1978

- 32- صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية. ط1. الكويت والقاهرة. دار سعاد الصباح. 1992
- 33- صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية. ط2. القاهرة. مركز الحضارة العربية. 2002
- 34- صلاح فضل، قراءة الصورة. القاهرة. مكتبة الأسرة. مهرجان القراءة للجميع. 2003
- 35- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي. ط2. القاهرة. مكتبة الأسرة. مهرجان القراءة للجميع. سلسلة الأعمال الفكرية. 2003
- 36- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. ط1. بيروت والدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. 2000
- 37- عبد الوهاب الكيالي (تحرير). موسوعة السياسة. ط1. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. المجلدات 1، 2، 3. 1983
- 38- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. ط1. القاهرة. المجلد 6. دار الشروق. 1999
- 39- عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه. ط14. الكويت. دار القلم. 1981
- 40- عزت محمد جاد، نظرية المصطلح النقدي. القاهرة. الهيئة العامة المصرية للكتاب. 2002
- 41- عزمي بشارة، العرب في إسرائيل: رؤية من الداخل. ط2. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية. 2000
- 42- غسان كنفاني، الآثار الكاملة. المجلد الرابع: الدراسات الأدبية. بيروت. مؤسسة غسان كنفاني الثقافية. دون تاريخ.
- 43- فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية: غسان كنفاني، إميل حبيبي، جبرا إبراهيم جبرا. ط1. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودائرة الإعلام والثقافة (م. ت. ف) 1981

- 44- فنسنت. ب. ليتش. النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات. ترجمة محمد يحيى. مراجعة وتقديم ماهر شفيق فريد. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 2000
- 45- فيصل دراج. بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. ط1. بيروت. دار الآداب. 1996
- 46- فيصل دراج. ذاكرة المغلوبين: الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني. ط1. بيروت والدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. 2002
- 47- كارل. ج. يونج. علم النفس التحليلي. ترجمة نهاد خياطة. القاهرة. مكتبة الأسرة. مهرجان القراءة للجميع. 2003
- 48- كتاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي. المؤتمر الثامن عشر. حيفا. إصدار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح). 1976
- 49- كتاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي. المؤتمر العشرون. حيفا. إصدار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح). 1985
- 50- كتاب الحزب الشيوعي الإسرائيلي: المؤتمر السادس عشر. حيفا. إصدار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح). 1970
- 51- كلود ليفي شتراوس. الفكر البري. ترجمة نظير جاهل. بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. 1984
- 52- ماهر الشريف. الشيوعيون وقضايا النضال الوطني الراهن. ط1. دمشق ونيقوسيا وبراغ. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. 1988
- 53- مجموعة من المؤلفين. الندوة الفكرية السياسية: خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين. ط1. غزة. المركز القومي للدراسات ومنتدى الفكر الديموقراطي. 2000
- 54- مجموعة من المؤلفين. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي. ترجمة محمد برادة. مراجعة محمد سبيلا. ط1. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية. 1984

- 55- مجموعة من المؤلفين. التفسير والتفكيك والأيدولوجية. ترجمة نهاد صليحة. القاهرة. سلسلة الألف كتاب الثاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2000
- 56- مجموعة من المؤلفين. الخطاب والرغبة. من أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي المنعقد بالقاهرة في نوفمبر 2000. سلسلة النقد الأدبي على مشارف القرن (3). إشراف عز الدين إسماعيل. ط1. القاهرة. دار غريب للطباعة والنشر. 2003
- 57- مجموعة من المؤلفين. نظرية الثقافة. ترجمة علي سيد الصاوي. مراجعة وتقديم الفاروق زكي يونس. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة. 1997
- 58- مجموعة من المؤلفين. النقد الثقافي والنقد النسوي. من أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي المنعقد بالقاهرة في نوفمبر 2000. سلسلة النقد الأدبي على مشارف القرن (2). إشراف عز الدين إسماعيل. ط1. القاهرة. دار غريب للطباعة والنشر. 2003
- 59- محمد البوجي. إميل حبيبي بين السياسة والإبداع (1) . سلسلة دراسات في الأدب الفلسطيني. غزة. إصدار خاص. 2000
- 60- محمد عزت محمد جاد. نظرية المصطلح النقدي. القاهرة. الهيئة العامة المصرية للكتاب. 2002
- 61- محمد نور الدين أفاية. الهوية والاختلاف: في المرأة، الكتابة، والهوامش. الدار البيضاء. إفريقيا الشرق. دون تاريخ.
- 62- محمود درويش. أحد عشر كوكباً (شعر). ط3. بيروت. دار الجديد. 1993
- 63- محمود محارب. الحزب الشيوعي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية (1948-1981): دراسة نقدية. ط1. القدس. إصدار خاص. 1989
- 64- المنجد في الأعلام. ط28. بيروت. دار المشرق. 1976
65. الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلد السادس. ط1. بيروت. 1999
66. الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلدات 1،3،4. ط1. دمشق. 1984

- 67- ميشيل مافيزولي. تأمل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية. ترجمة فريد الزاهي. ط1. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 2005
- 68- ميلان كونديرا. الوصايا المغدورة. ترجمة معن عاقل. دمشق. الأوائل. 2000
- 69- نبيلة إبراهيم. نقد الرواية. سلسلة كتاب الشهر. الرياض. النادي الأدبي. 1980
- 70- نبيه القاسم. مرادة النص: دراسات في الأدب الفلسطيني. ط1. مطبعة الشرق. شفاعمرو. 2001
- 71- هشام شرابي. النقد الحضاري للمجتمع العربي. ط2. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية. 1999
- 72- هومي. ك. بابا. موقع الثقافة. ترجمة ثائر ديب. ط1. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة. 2004
- 73- وين بوث. بلاغة الفن القصصي. ترجمة أحمد خليل عرادات وعلي أحمد الغامدي. الرياض. جامعة الملك سعود. 1994
- 74- يمني العيد. في معرفة النص. ط3. بيروت. منشورات دار الآفاق الجديدة. 1985

## ثانياً: الدوريات العربية:

- 1- صحيفة الاتحاد (حيفا). الأعداد:  
 1954/7/23  
 1957/10/28  
 1958/12/30  
 1959/7/3  
 1959/11/13  
 1959/12/25  
 1973/3/16  
 1973/3/20

1973/12/14

1973/12/21

1976/1/6

1988/4/1

1988/5/6

1988/6/30

2. مجلة ببادر (تونس). السنة3. العدد9. 1992

3. مجلة الدراسات الفلسطينية (بيروت):

العدد2. ربيع1990

العدد10. ربيع1992

4. مجلة رؤية (غزة). العدد28. السنة3. مارس2004

5. مجلة شؤون فلسطينية (بيروت). العدد1. مارس1971

6. صحيفة الصنارة (حيفا) عدد يوم8/4/1988

7. مجلة الطريق (بيروت). العدد3. السنة55. 1996

8. مجلة الفجر (تل أبيب). عدد يوم12/10/1959

9. مجلة فصول (القاهرة):

العدد3. مجلد5: أبريل/ مايو/ يونيو1985

العدد63. شتاء وربيع2005

العدد64. صيف2004

العدد67. صيف وخريف2005

10. مجلة الكرمل (رام الله):

العدد58. شتاء1999

العدد59. السنة1999



العدد 71/70. شتاء وربيع 2002

### 11. مشارف (حيفا):

- العدد 1. آب/أغسطس 1995
- العدد 3. تشرين الأول/أكتوبر 1995
- العدد 5. كانون أول/يناير 1995
- العدد 8. نيسان/أبريل 1996
- العدد 9. حزيران/يونيو 1996
- العدد 11. تشرين أول/أكتوبر 1996
- العدد 16. أيار/مايو 1997.

12. صحيفة وجهات نظر (القاهرة). عدد 59. السنة 5. ديسمبر 2003

### ثالثاً: دوريات باللغة العبرية:

1. مجلة: عيتون 77 (عبرية). مارس 1991
2. مجلة: عينيم بتكوماه فيشومل (عبرية). عدد شهر يوليو 1997
3. صحيفة: كول حيفا (عبرية) عدد 1991/3/29
4. صحيفة: كول هعير (عبرية). عدد يوم 1990/7/13

### رابعاً مواقع الشبكة العنكبوتية:

1. أبناء البلد. 2006/3/2
- رابط: [www.abnaa-elbalad.org](http://www.abnaa-elbalad.org)
2. اتحاد الكتاب العرب. 2005/ 8/12

رابط: [www.awu-dam.com](http://www.awu-dam.com)

3. جامعة النجاح. 2005/9/21

رابط: [www.najah.edu/arabic/articles/144.htm](http://www.najah.edu/arabic/articles/144.htm)

4. فاروق مواسي. 2005/10/2

رابط: [www.geocities.com/faruqmawasi/hiwarat.htm](http://www.geocities.com/faruqmawasi/hiwarat.htm)

### خامساً: مصادر أخرى:

1- إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي. باريس. 2 نوفمبر 2001. من أوراق وزارة الثقافة الفلسطينية.

2- أرشيف المحكمة المتوسطة (باللغة العبرية ومحفوظ لدى الباحث). أمام القاضي ج. جينات. المدعي إميل حبيبي. الناصرة. 388/88. ضد لطفي مشعور، فيدا مشعور، شركة الصنارة المحدودة.

3- عيزر وايزمان (الرئيس الإسرائيلي الأسبق). على أجنحة الصقر. مخطوط باللغة الإنجليزية. ترجمة أحد زملاء السجن. غير مطبوع.

## الفهرس

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| 9      | المقدمة  |
| 9      | أولاً: في سؤال البحث: كيف ولماذا               |
| 9      | 1- لماذا                                       |
| 12     | 2- في البنية الثقافية                          |
| 13     | 2- أ: في البنية                                |
| 14     | 2- ب: في الثقافة                               |
| 19     | 2- ج: البنية الثقافية والتاريخ                 |
| 21     | 3- في المنهج وآلية البحث                       |
| 22     | 3- أ: في المنطلق                               |
| 24     | 3- 2: في مشروع النقد الثقافي                   |
| 36     | ثانياً: الخطوات الإجرائية                      |
| 40     | ثالثاً: في الخطة وتقسيم الفصول                 |
| 43     | الفصل الأول: إطار الفكر الثقافي عند إميل حبيبي |
| 43     | أولاً: الحزب الشيوعي الإسرائيلي                |
| 43     | أولاً-1: قبل النكبة                            |
| 43     | 1-1: الحزب الشيوعي الفلسطيني: خلفية تاريخية    |
| 50     | 1- 2: عصابة التحرر الوطني                      |
| 52     | 3-1: المقارنة                                  |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| 54     | أولاً-2: بعد النكبة                                      |
| 54     | 1.2: وحدة الفرعين وسط المعارك                            |
| 60     | 2.2: الانقسام  |
| 67     | 3.2: الخلاصة   |
| 70     | ثانياً: إميل حبيبي والحزب                                |
| 90     | ثالثاً: إميل حبيبي والمؤسسة السياسية الفلسطينية          |
| 102    | رابعاً: إميل والهيئات الشعبية العربية في الدولة اليهودية |
| 102    | تمهيد  |
| 107    | 1- حركة الأرض  |
| 115    | 2- أبناء البلد   |
| 127    | الفصل الثاني: تحليل الإنتاج الفكري                       |
| 127    | تمهيد  |
| 128    | المراحل الفكرية من خلال الكتابات السياسية                |
| 130    | 1- مرحلة البدايات: من المتمرّد إلى المواطن المثالي       |
| 130    | 1- 1: الطموح   |
| 133    | 1- 2: الانكسار والعدمية القومية                          |
| 144    | 2- المرحلة الثانية: المناضل المدني                       |
| 144    | 1- 2: تقرير المصير وانزياح المصطلح                       |
| 155    | 2- 2: الضغط الناعم وعلاقات القوة                         |
| 163    | 2- 3: المعارك الفكرية والحزبية                           |
| 169    | 3- المرحلة الثالثة: بعد هزيمة يونيو 1967                 |
| 176    | 4- المرحلة الرابعة: بعد عام 1973                         |

| الصفحة | الموضوع  |
|--------|--|
| 185    | 5. المرحلة الخامسة: الانتفاضة ثم الخروج من الحزب           |
| 185    | 5. 1: الانتفاضة  |
| 194    | 5. 2: الخروج من الحزب                                      |
| 199    | 6. المرحلة السادسة: بعد الخروج                             |
| 199    | 6. 1: إعلان القطيعة  |
| 202    | 6. 2: مشارف وأوسلو   |
| 209    | وأخيراً  |
| 213    | الفصل الثالث: الإنتاج الإبداعي من منظور ثقافي              |
| 213    | أولاً: مناقشة النصوص                                       |
| 213    | أولاً. 1: المتشائل: الوجه والقناع                          |
| 213    | تمهيد  |
| 216    | 1. 1: المؤلف المدني والمؤلف الضمني                         |
| 219    | 1. 2: ملخص الرواية   |
| 228    | 1. 2/أ: التحليل الأول                                      |
| 230    | 1. 2/ب: التحليل الثاني                                     |
| 251    | 1. 3: البنية العميقة للسرد                                 |
| 252    | 1. 3/أ: التوق الشديد لاستعادة نقاء الضمير                  |
| 262    | 1. 3/ب: الغضب غير المحدود على واقع مرفوض                   |
| 266    | 1. 3/ج: الانشطار بين منظورين متغايرين للقضية الواحدة       |
| 269    | الفرضية الأولى: رفض المؤلف الضمني خيار العمالة             |
| 271    | الفرضية الثانية: تأييد المؤلف الضمني المتردد للكفاح المسلح |
| 272    | الفرضية الثالثة: تفضيل المؤلف الضمني للنضال المطلبي        |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| 277    | أولاً-2: أخطيئة: مديح العقل الخالص                          |
| 277    | تمهيد   |
| 280    | 1- السرد كإرادة للقوة                                       |
| 282    | 2- اللغة: التمثيل والحقيقة                                  |
| 289    | 3- تناقضات النص   |
| 294    | 4- الأيديولوجيا واستظهار التعاليم                           |
| 297    | أولاً-3: حُرَاقِيَّة سَرايا بنت الغول: سيرة الندامة والحسرة |
| 297    | تمهيد   |
| 297    | 1- سجن الماضي   |
| 300    | 2- تهشيم البنية، وعبثية المعنى                              |
| 303    | 3- الحب المحرم وتزوير الوقائع                               |
| 314    | 4- درب الآلام   |
| 318    | ثانياً: التلقي النقدي                                       |
| 319    | 1- إلياس خوري والوقوع في حبال الصنعة                        |
| 321    | 2- أحمد دحبور وحكومة البلاغة                                |
| 327    | 3- فاروق وادي وتوجيه إميل للذاكرة الفلسطينية                |
| 329    | 4- فيصل حوراني وشهادة الشخص لنفسه                           |
| 336    | 5- صلاح فضل وهتك المسكوت عنه                                |
| 343    | نتائج البحث   |
| 363    | الملاحق   |
| 343    | المصادر والمراجع  |

تم الكتاب بحمد الله